الأدب العربي وتاريخه

مقرّر تدريس هذا الكتاب بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية

الأدب العربي وتاريخه

في

الأندلس والمغرب والشرق من انقضاء خلافة
بغداد إلى أيامنا الحاضرة

الجزء الثالث

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

مدرس الأدب بتخصص المادة من الجامعة الأزهرية

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

الطبعة الثانيـــــة

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحا لغويا بلاغيا]

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد رسول الهدى ودين الحق ، ولسان الصدق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام .

وبعد ، فإنى أستوزع الله المعونة لخدمة منهاج الدراسة فى مادة الأدب العربى وتاريخه ، لطلاب السنة الرابعة ، من كلية اللغة العربية ، بإعداد مذكرة تضم عناصره ، وتفصل مسائله ، وتكون للطالب مرجعاً يجد فيه عوناً على التحصيل ، ووسيلة للنجاح إن شاء الله .

نسأله سبحانه وتعالى أن يهب لنا من لدنه قوة على النهوض بهذا العبء ، فإنه المرجو والمستعان فى كل عظيم من الأمور ؟ .

٢٢ من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ هـ
١ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ م

محمود مصطفى

مقدمة الطبعة الثانية

على عادتنا التى اتبعناها فى الجزأين الماضيين ، وشينا الكتاب بشروح وافية لنصوصه من نثر ونظم ، وزدنا من الموضوعات والتراجم ، مارأينا فى التوسع به فائدة لقارئ الكتاب ، إذ لم يكن همنا فيه أن نبقيه مثل المذكرات المدرسية ، التى يدمج فيها القول ، فيفوت على طالب الثقافة العامة الانتفاع بها ، وإنما نعول فى كل حال على توفيق الله وهدايته ؟ .

٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٥٦ هـ
٢٨ من يناير سنة ١٩٣٨ م

محمود مصطفى

تاريخ الأندلس

قبل الفتح العربى

كلمة «أندلس» معرَّبة بالشين أوالسين عن«واندال» ، وهواسم السكان الذين دخل عليهم العرب البلاد ، وأجلوهم عن الأمصار ، فاعتصموا بالجبال ، يتتهزون الفرصة من ضعف العرب لاسترداد بلادهم .

ومن المحقق عند علماء الشعوب ، أن أهل هذه البلاد كانوا فى فجرالتاريخ جنسين ، هما : الجنس السامى الذى نزع من غرب آسِيَة ، فأقام على ضفتى دجلة والفرات ، وفينيقِيَة وَفِلَسْطِين ، ومصر ، و بلاد المغرب ؛ والجنس الآخر : هو الأبيض الذى صار إليها من طريق جبال البرانس (البرنات) .

فلم يكن الواندال أول من عمرهذه البلاد ، فإنها أهلت بغيرهم منذ بعيد، وقد عرفها الأغريق قبل الميلاد بنحو ٥٠٠ سنة ، وحكموها وكتبوا عنها ، وسموها إيبريا (أبارية) ، ثم آل إلى الرومان مُلك أسبانيا (هسبانيا) كما سموها ، وظلت تابعة لهم حتى عهد قسطنطين سنة ٤٠٩ من الميلاد ، فانتزعها منهم الواندال (القوط) وظلت تابعة لهم حتى تسلمها منهم العرب .

والقوط : الذين كانوا آخر حكام الأندلس قبل العرب هم قبائل بربرية ، غلبت الدولة الرومانية على أملاكها حين صارت إلى الضعف الذى جره عليها الترف ، والاستسلام للمدنية .

ولما كان القوط فى أول نهضتهم بدوا أشداء ذوى أخلاق متينة لم تضعضعها الحضارة ، نفثوا فى رُوع أهل الأندلس روح الشجاعة والاستمساك ، وأعادوا إليهم بعض

فضائلهم التى كانت ميزة الأمة الرومانية فى قديم عهدها ، ولـكنهم هم أنفسهم مالبثوا أن تورطوا فى المدنية ، ومسهم طائفها ، فانتهوا بعد حكم ثلاثة قرون إلى ما كانوا قد وجدوا عليه البلاد من فساد فى الحكم ، وتفرقة شائنة بين طبقات المحكومين ، حتى صارت الطبقة الدنيا (طبقة العمال والزراع) إلى أقبح مما كانت عليه على أيام الرومان .

وكذلك وصل ظلمهم إلى الطبقة المتوسطة فجردوها من أملاكها ، فى سبيل الحصول على الضرائب التى حرصوا على جمعها ،رهقين الأمة فى سبيلها .

وكان هذا المصير تمهيداً حسناً لصيرورة البلاد إلى حكم العرب ، بأيسر محاولة كما سنبينه .

فتح العرب للأندلس

تعلم أن العرب كانوا أسرع الأمم الناهضة فى فتوحاتهم ، فإنهم وضعوا أيديهم على ملك الفرس والروم فى زمن يسير . وذلك يرجع إلى أسباب معروفة أهمها : حبهم لنشر كلمة الله ، والقضاء على المظالم التى ترزح تحتها تلك الأمم ، التى قضى عليها جور الحكام وعسفهم .

وكان فتح مصر فى عام ٢٠ من الهجرة ، فتحها عمرو بن العاص ، ولم يلبث أن تطلع إلى ما وراءها غربا ، فغزا بَرْقَة وطَرَابُلُس [١] ، وغلب عليهما سنة ٢٢ هـ .

ثم تعاقب الولاة على مصر ، وكل تتجه همته أو يأمره الخليفة بالغزو والفتح فى بلاد إفْرِيقِيَة . حتى كان من عُقْبة بن نافع الفِهْرِىّ عامل معاوية على المغرب ، أن اختط مدينة القَيْروان سنة ٥٠ هـ .

---

(١) بلد بالشام ومثلها بالمغرب . ويقال إن التى بالشام تهمز (أطرابلس) ولا كذلك التى بالمغرب ، وقيل إن معنى الـكلمة ثلاث مدن ، لأن أصلها ثلاث جزر تضامت فصارت قطعة واحدة (من كتابنا إعجام الأعلام) .

فكانت حصناً للمسلمين يحمى ظهورهم ، وبذلك ثبتت قدمهم فى تلك البلاد .
وما زال عُقْبة يفتح حتى بلغ البحر المحيط (بحر الظلمات) فقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك !

ولم يكن إخضاع البربر أمراً لا رجعة فيه ، فإنهم كانوا لبداوتهم أقوياء الشكيمة أباة الضيم ، فكانوا لا يلبثون أن يخرجوا على العامل إذا رأوا منه ضيما لحِقَهم ، فيقتلونه ويهزمون جيوشه . ولكن الخلفاء من بنى أمية ما زالوا يعالجون أمر هذه البلاد ، ويشدون أزر ولاتهم عليها بالجنود الكثيفة يمدونهم بها ، حتى استتب لهم الحكم ، وكان الإسلام قد خالط نفوس البربر ، فألان من طباعهم ودرجوا عليه بعد أن آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، قيل إنهم فعلوا ذلك اثنتى عشرة مرة .

وكان والى إفريقية الذى جرى على يده فتح الأندلس ، هو موسى بن نُصَير ، الذى ولاه الوليد بن عبد الملك إفريقِيَة وما خلفها سنة ٨٨ هـ . وقد مهد له أمر فتحها (مع توثب العرب دائمًا للفتح) ما ذكر من أن آخر ملوك القُوط بالأندلس وهو لَذَريق (ردريك) كان قد عسف بأهل البلاد ، وسولت له نفسه الاعتداء على كرامات الأشراف من رجال حاشيته . وكانت العادة أن تنشأ بنات أشرافهم فى القصر الملكى ، فأعجبته ابنة رجل منهم يسمى يُلْيان ، كان حاكم مدينة سَبْتة فاعتدى عليها ، فأضمر أبوها الضغينة عليه . واتفق أن الملك ولاه قتال العرب بالمغرب فبدل أن يقاتلهم ألقى إليهم السَّلَم ، وأطنب لموسى بن نُصَير فى وصف البلاد وما تحوى من خيرات ، وجعل يدله على عوراتها ومداخلها حتى اطمأن موسى إلى نصيحته فأذن لموليه : طارق بن زياد ، وطَرِيف بن مالك النَّخَعى[1] ، أن يعبرا البحر من سَبْتة إلى الجزيرة الخضراء ، فعبراه فى سفن قدمها لهم يُلْيان ، وكان معهما من العرب ثلاثمائة ، ومن البربر زُهاء عشرة آلاف ، فجعلوهما عسكرين ونزل طارق بجنده جبلاً سمى باسمه ، ونزل طَرِيف فى مكان سمى

(١) نسبة إلى النخع من قبائل اليمن .

بعدُ مدينة طريف . ويقال إن طريفاً كان قد سبق طارقاً ، أرسله موسى ليَخْبُرَ صدق مايقوله يُلْيان ، ولم يرسل معه إلا خمسمائة جندى نقلتهم أربع سفن من سفن يليان .

وبلغ الخبر لذريق (ردريك) فنهد إليهم بجيوشه التى كانت زهاء سبعين ألفاً فزحف العرب إليه ، وكانت قيادتهم قد توحدت تحت إمرة طارق ، والتقوا بفَحْص شَرِيش[١] ، فهزم الله لذريق ، ونَفَل[٢] العرب أمواله ورقاب جنده ، وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح والغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إليه يتوعده إن توغل بغير إذنه ، ولكن طارقا خاف إن توقف ولم يستمر فى مطاردة الأعاجم ، أن يستجمّ أمرهم وتجتمع قلوبهم ، فمضى قُدُما[٣] فى الفتح حتى دخل طُلَيْطِلة عاصمة البلاد .

وكان موسى قد أقبل بجيش آخر عدته ثمانية عشر ألفاً ، راجياً أن يسجل له التاريخ فتح البلاد ، ولكن طارقاً كان قد سبقه بالاستحواذ على هذا الفخر العظيم .

لما علم طارق بقدم موسى خرج للقائه ، ولكن موسى بادره بالسوط ، وأنبه على عصيان أمره ، ثم افترقا ، فسار موسى يفتح شمالا ، وطارق شرقا حتى عما البلاد فتحاً ، وأشرف موسى على جبال البرانس شمالا وماء المحيط غربًا .

وفى أول القتال حين علم طارق بقدوم لذريق إليه ، وأنه أقبل فى سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين وعليه مِظَلة[٤] مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، قام طارق فى أصحابه يحثهم على الجهاد ، ويحملهم على الثبات ، ويعدهم ، ويمنيهم ، وارتجل خطبته المشهورة وهى :

---

(١) الفحص : كل موضع يسكن ، ومواضع بالمغرب ، عد منها صاحب القاموس ستة .

(٢) من باب نصر ، أعطى النفل (بالتحريك) وهو الغنيمة .

(٣) القدم بضمتين المضى أمام أمام ، فهو مصدر يعرب مفعولا مطلقا ، لأنه مرادف لمصدر الفعل المذكور قبله فى قولك مضى قدما أو مشى قدما أو نحوهما .

(٤) تروى بالكسر على اعتبار أنها اسم آلة . وقال بعضهم الفتح لغة فى الكسر ، ومعناها فى الأصل الخباء الكبير ، ثم كثر الاستعمال حتى صار العريش المتخذ من جريد النخل المستور بالثمام ، يسمى مظلة على التشبيه .

خطبة طارق بن زياد(١)

بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، ورغّب فى الشهادة قال :

أيها الناس ! أين المفرّ(٢) ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامَكم(٣) ، وليس لكم والله إلا الصِّدْقُ(٤) والصبرُ ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرةِ ،أضيعُ من الأيتام فى مأدُبَةِ(٥) اللئام(٦) .

وقد استقبَلَكم عدوُّكم بجيشه ، وأسلحتُه وأَقواتُه موفورةٌ(٧) ، وأنتم لا وَزَرَ(٨) لكم إلاّ سيوفُكم ، ولا أَقْوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوِّكم ، وإِن امتدَّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكُمْ ، ولم تُنْجِزُوا لكم أمرًا،ذهب ريحُكم(٩) ، وتعوَّضَتِ القلوبُ

---

(١) نقلنا نص هذه الخطبة عن رواية نفح الطيب مع تغيير قليل اضطرنا إليه نظام الأسلوب ، وبعضه منقول من رواية ابن خلكان فى ترجمة موسى بن نصير ، وسننبه عليه فى موضعه .

(٢) يجوز أن تكون بكسر الفاء اسم مكان ، كذا قرىء قوله تعالى « أين المفر » وقيل إن اسم الموضع بالفتح وعليه الجمهور .

(٣) ذكروا أن السفن التى نقلت العرب من سبتة إلى الجزيرة كانت أربعا ، وأنها ظلت ذاهبة آئبة تنقل الجنود حتى تم حصولهم جميعا ببر الأندلس ، وأنها كانت ليليان ، وليست للعرب فاتخذ طارق من انصرافها وانحصارهم فى الجزيرة بين العدوين : البحر والقوط ، سببا لحملهم على الاستبسال .

(٤) الصدق هنا : الشدة .

(٥) رواية ابن خلكان مآدب ، وهى جمع مأدبة ، والمأدبة بفتح الدال وضمها ، وكذلك الأدبة كحجرة : طعام صنع لدعوة ، أو عرس ، والفعل أدب كضرب كآدب .

(٦) اللئام : جمع لئيم ، وهو ضد الكريم .

(٧) شيء وافر وموفور ومستوفر (اسم مفعول) بمعنى كثير ووفر ككرم ووعد صار كثيراً ووفره كثره .

(٨) الوزر : بالتحريك الجبل المنيع ، وكل معقل،والملجأ ، ويطلق على السلاح لأنه يعصم أصحابه،والوزير من الوزر بالكسر، وهو الحمل الثقيل لأنه يحمل ثقل الأمر ويعين الملك برأيه ، أو من الوزر (بالتحريك) لأن الملك يلجأ إليه فى التدبير .

(٩) من معانى الريح الغلبة والقوة والدولة ، وكل هذه المعانى صالحة هنا ، والريح تذكر وتؤنث لذلك وردت رواية ابن خلكان « ذهبت ريحكم » .

من رُعْبِها منكم الجراءةَ(١) عليكم ، فادفعوا عن أنفسكُم ، خِذْلانَ هذه العاقبةِ من أمركُمْ بمُناجزة(٢) هذا الطاغيةِ(٣) ، فقد أَلْقَتْ به إليكم مدينَتَه الحصينةُ(٤) وإنّ انتهاز الفرصةِ فيه لَمُمْكِنٌ إن سَمَحتُمْ لأنفُسِكُمْ بالموت ، وإنِّي لم أُحَذِّرْكم أمرًا أنا عنه بنَجْوَةٍ(٥) ، ولا حَمَلْتُكم على خُطَّةٍ ـ أرخَصُ متاعٍ فيها النفوسُ ـ أَرْبَأُ عنها بنفسى(٦) ؛ واعلموا أنكم إن صَبَرْتُمْ على الأشَقِّ قليلاً ، استمتعْتُمْ بالأَرْفَهِ(٧) الأَلَذِّ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ،فما حَظُّكُمْ فيه أوفَرُ من حَظِّى(٨) ، وقد بلغكم ما أنشأَتْ هذه الجزيرةُ من الحُورِ الحسانِ ، من بَنَاتِ الرُّومَانِ ، الرافلات فى الدُّرِّ والمَرْجَانِ ، والحُلَلِ المنسوجة بالعِقْيان(٩) ،المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبَكُمُ الوليدُ بن عبد الملك ، أميرُ المؤمنين من الأبطال عُزْبَانًا(١٠) ورَضِيَكُمُ لملوك هذه الجزيرة

---

(١) يقال جرؤ ككرم بمعنى شجع فهو جرىء . والمصدر جرأة كجرعة، وجرة كثبة، وجراءة ككراهة، وجرائية كـكراهية .

(٢) المناجزة : المقاتلة كالتناجز ، ونجز كفرح ونصر انقضى وفنى ونجز (كنصر) الحاجة قضاها كأنجزها ، وأنت على نجز من حاجتك : أى على شرف من قضائها ، وقولهم المحاجزة قبل المناجزة : أى المسالمة قبل التعجيل بالقتال ، يضرب فى حزم من عجل الفرار،قبل قتال من لاقبل له به ، ولمن يطلب الصلح بعد القتال . والمعنى قد فات أوان ذلك . كما يقال:الصيف ضيعت اللبن .

(٣) الطاغية:ملك النصارى كأن العرب فرضوا الظلم لازمة هؤلاء الملوك ، فألزموهم هذا الوصف ، ثم غلبت عليه الاسمية ، وفى رواية ابن خلـكان «هذه الطاغية » وهى خطأ .

(٤) رواية ابن خلـكان «المحصنة» .

(٥) النجوة : المـكان المرتفع .

(٦) فى الأصل بدل أربأ عنها بنفسى أبدأ بنفسى ، والـكلام عليه لايتصل ، ربأ : كمنع ارتفع .

(٧) رفه عيش الرجل: كـكرم، لان ، فالرجل رفيه ورافه ورفهان ومترفه مستريح متنعم ، ورفه الرجل كمنع رفها بالفتح والـكسر ورفوها، لان عيشه .

(٨) فى رواية النفح «فما حظـكم فيه بأوفى من حظى » والمعنى لايستقيم لأنه يريد أن يقول لهم إن حظـكم من الفتح أعظم من حظى ، فأنا وال قابل للنقلة ، أما أنتم فقد صارت لـكم البـــلاد ولأعقابكم ، لذلك اخترنا رواية ابن خلـكان .

(٩) العقيان : الذهب.

(١٠) العزب: بالتحريك كالمعزابة ، والعزيب من لاأهل له (غير المتزوج) وعزبانا جمع عزيب، كشجيع وشجعان ، أوعزب كجذع وجذعان ، أوعازب كصاحب وصحبان،أوأعزب ـ على القول بوروده ـ فيكون كأعمى وعميان .

أَصهاراً وأَخْتَاناً(١) ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحِكُمْ(٢) بمجالدة(٣) الأبطالِ والفُرْسانِ ، ليكونَ حَظُّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمُها خالصاً لكم(٤) من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكْرًا فى الدارين .

واعلموا أنى أولُ مجيبٍ إلى ما دَعَوْتُكُمْ إليه ، وأنّى عند مُلْتَقَى الجمعين حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لَذَرِيقَ فقاتِلُهُ إن شاء الله تعالى . فإن هَلَكْتُ بعده فقد كُفِيتُمْ أمره، وَلم يُعْوِزْكُمْ(٥) بطلٌ عاقلٌ تُسْنِدُون أمورَكم إليه، وإِنْ هَلَكْتُ قبل وصولى إليه فاخْلُفُونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكْشِفُوا الهمَّ(٦) من فتح الجزيرة بقتله ،فإنهم بعده يُخْذَلُون .

فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لذريق وأصحابه ، وما وعدهم من

---

(١) الصهر : بالكسر القرابة ، وزوج بنت الرجل أو أخته . والختن : بالتحريك الصهر ، أو كل ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

(٢) فى نفح الطيب وابن خلكان «استماحكم» ولم أجد فى كتب اللغة افتعل من هذه المادة ، فلابد أن تكون محرفة عن إسماحكم ، يقال سمح كمنع وأسمح بمعنى جاد وكرم ، أما سمح ككرم ، فبمعنى صار من أهل السماحة ، والوصف منه سمح ككتف ويخفف .

(٣) المجالدة من جالدوهم بالسيوف : أى ضاربوهم بها ، وتجالدوا واجتلدوا تضاربوا بها .

(٤) هذه رواية ابن خلكان ورواية نفح الطيب بأثبات التاء (خالصة) وتخريجها على جعل يكون تامة بمعنى يحصل وتكون خالصة حالا من الهاء فى مغنمها .

(٥) ورواية ابن خلكان «ولن يعوزكم» وهى كما تعرف فى علم النحو أبلغ وأدخل فى النفى من رواية النفح.

(٦) فى رواية النفح «واكتفوا الهم» وفى رواية ابن خلكان «واكتفوا المهم» وأرى أن الروايتين غير صالحتين لأن صيغة اكتفى لم ترد إلا لازمة تقول اكتفيت بكذا بمعنى قنعت به واستغنيت ، ولكن المعنى المراد هنا هو معنى رد ومنع ، وكانت تؤديه كلمة كفى كما فى قولنا : كفاك الله السوء ، وكان يصح أن نجعل الكلمة فى الخطبة محرفة عن هذا الفعل ، فيكون الأصل اكفوا الهم ، أى ردوه وامنعوه ، ويكون المفعول الأول للفعل محذوفا والأصل اكفوا أنفسكم الهم ؛ ولكنى أستحسن أن يكون التحريف عن اكشفوا كما أثبتناه فى نص الخطبة ، ويكون المعنى أزيحوا الهم عن أنفسكم بقتل هذا الطاغية .

ملاحظة : لهذه الخطبة نص فى كتاب الإمامة والسياسة ، ولكنه بعيد عن النصين اللذين رجعنا إليهما ، فلم نر إدخاله فى الموازنة والمفاضلة .

الخير الجزيل ، انبسطت نفوسهم ، وتحققت آمالهم ، وهبت رياح النصر عليهم .

ولما تم الفتح للعرب ، ودخلت البلاد فى أملاك الدولة الإسلامية ، صار الولاة يتعاقبون عليها من قبل خلفاء بنى أمية ، والعباسيين بعدهم ، وربما كان والى إفريقية هو والى الأندلس ، يرسل إليها من قبله من ينوب عنه فى حكمها .

امتزاج العناصر بالأندلس

علمت مما قدمنا أن بلاد الأندلس كانت مطمح أنظار النازحين والفاتحين ، فدخلها فى فجر التاريخ ساميون وبيض ، ثم حكمها الأغريق ، فنزح إليها كثير من جاليتهم ، واختلطوا بأهل البلاد بالمعاشرة والمصاهرة ، فكان من آثار ذلك اللقاح(١) نشوء عنصر جديد ظهرت فيه مزايا هذه الشعوب المجتمعة ، وتثقف بثقافة الأغريق ، وهم معروفون بالتأمل والنزوع إلى الحكمة ، حتى كانوا منذ قديم فلاسفة العالم .

وبعدهم جاء الرومان ، فأثّروا مثل أثرهم ، وأدخلوا على أهل البلاد من نظمهم وعاداتهم ما صبغهم صبغة جديدة ، والرومان أهل شجاعة وفروسية فى أول عهدهم ، وإن كان الترف قد فت فى قواهم ، وأسلمهم أخيرا للوهن والتراخى .

ثم كان من القوط لقاح جديد من الشجاعة والهمة ، لأنهم دخلوا البلاد ، وفيهم كثير من مزايا البداوة ، حتى يقال إنهم عدلوا مزاج القوم ، وأجروا فى عروقهم روحا جديدة ، ثم كان أمرهم إلى ضعف يشبه ضعف الروم .

فلما جاء العرب صادفوا البلاد ، وقد انطبعت فيها مزايا هذه الأمم ، فما لبثوا أن أحدثوا أثرهم ، وأنت أعلم الناس بطباع العربى فى باديته ، وما أفاده بالإسلام من خلق فاضل ، ودين قويم يدعو إلى الفضيلة ، ويأمر بالإنصاف فى المخالطة ، ويحض على العلم ، ويبعث الهمم للسعى فى الرزق ، والضرب فى الأرض ، واستثارة ما فيها من خير .

(١) اللقاح : بالفتح مصدر لقحت الناقة كسمع : أى قبلت ماء الفحل ، واللقاح بالكسر : اسم لما يلقح به .

ولما استقر القوم بالأندلس ، وتتامّ فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب وجوههم للحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة ورثوها أعقابهم ، فنزل بهامن العدنانية خِنْدِف وقريش ، ومن قريش من بنى هاشم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله منشىء دولة الأدارسة بالمغرب ، ومنهم بنو حَمُّود ملوك الأندلس بعد انتشار ملك بنى أمية .

وأما بنو أمية ، فمنهم خلفاء الأندلس ، وكان من بنى مخزوم أبو بكر المخزومى الأعمى الشاعر المشهور ، ومنهم أيضا الوزير أبو بكر بن زيدون .

ونزل بها من كنانة كثير بُطليَطِلة ، ولا تكاد تجد قبيلة من العدنانية إلا وبالأندلس جماعة منها .

أما اليمانية فكانوا أكثر انتشارا من المضرية ، ومن قبائلهم : كَهْلان ، ومنها محمد بن هانىء الشاعر المشهور ، ومنهم من الأَزْدِ من ينتسب إلى غسَّان ، وهم بنو مازن ، ومنهم من ينتمى إلى الأنصار وهم الجم الغفير بالأندلس ، قيل ومن العجب أن نعدم هذا النسب فى المدينة ، ونجده بهذه الكثرة بالأندلس فى أكثر بلدانها .

ومن الخزرج بالأندلس : أبو بكر عُبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد ابن عبادة صاحب رسول الله ، وهو المشهور بالموشحات . وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر، سلاطين غَرْناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم، وفى آخر أيامهم انقرض ملك العرب بالأندلس .

عاشر العرب أهل البلاد بالخلق الرضى والجوار الحسن والمخالطة العادلة ، والإسلام لا يحجُز صاحبه عن هذه المخالطة فى جميع نواحيها ، لذلك أقبل العرب على أهل البلاد يستخدمونهم فى أمور الدولة ، ويتسرَّوْن بنسائهم ، أو يتزوجونهن ، فنشأت ناشئة اجتمعت لها صفات هذه الأجيال المتعاقبة ، وكان للشعب الجديد حكمة اليونان ، وفروسية الرومان ، وهمة العرب وصبرهم ، ولم يكن الأثر فى كل ذلك للاختلاط وحده ،

فإن للبيئة وطبيعة البلاد أثرا ظاهراً يتعادل مع الأثر الذى يجرى فى الدم من طريق التزاوج والتناسل .

وهاك فاسمع فى إجمال صفات أهل الأندلس بعد امتزاجهم بالعرب ، ما يرويه صاحب نفح الطيب ، عن ابن غالب فى كتاب « فرحة الأنفس » :

«أهل الأندلس «عرب» فى الأنساب والعزة ، وعلو الهمة ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية «هنديون» فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إياها ، وضبطهم لها وروايتهم «بغداديون» فى نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم «يونانيون» فى استنباطهم المياه ، ومعاناتهم لضروب الفراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، وهم أصبرُ الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال ، ومقاساة النصب فى تحسين الصناعات ، وأحذقُ الناس بالفروسية ، وأبصرُهم بالطعن والضرب» .

واستمر هذا شأن الأندلس مدة استيطانهم لهذه البلاد ، وهى زهاء ثمانية قرون ، فلما نفذ قضاء الله تعالى عليهم بخروج أكثرهم — وهم المسلمون — وحرمانهم من هذا الوطن الذى كان أعز عليهم من نفوسهم ، تفرقوا فى بلاد المغرب الأقصى ببر العُدْوة . فأما أهل البادية فقد نزلوا البوادى وخالطوا أهلها ، وأفادوهم ما كانوا درجوا عليه فى موطنهم الأول ، فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأَرْحِىّ(١) الطاحنة بالماء ، فصلحت بذلك حال مضيفيهم ، وكثرت غلاتهم ، وعمت الخيرات فيهم .

وأما أهل الحواضر ، فمالوا إليها فى وطنهم الجديد ، فأهل الأدب كان منهم الوزراء ، والكتاب والعمال وجُباة الأموال ، حتى كان لا يستخدم بلدى ما وُجِد أندلسىّ ،

---

(١) جمع رحى .

وأما أهل الصناعات: فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم ، وصيروهم تبعا لهم ومتصرفين بين أيديهم .

ولو ذهبنا نضرب الأمثلة الكثيرة على المزايا التى كان عليها الأندلسيون أيام حكم العرب لطال بنا القول وتشعب ، فنكتفى فى ذلك بالإشارة الدالة .

طبيعة بلاد الأندلس

قال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع[١] وغدَق[٢] السقيا ، ولَذاذة الأقوات ، وفَراهة[٣] الحيوان ، ودرور الفواكه ،وكثرة المياه وتبحُّر[٤] العمران ، بما حَرَمه الكثير مما سواها من الأقطار » .

وقال أحمد بن محمد الرازى : « بلد الأندلس هو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خِصْب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار ، والعيون العذاب ، قليل الهَوَامّ[٥] ذوات السموم ، معتدل الهواء ، ربيعُه وخريفُه وشتاؤُه ومصيفه على قَدَر من الاعتدال ، وسِطَةٍ[٦] من الحال ، تتصل فواكهه أكثرَ الأزمنة ، وتدوم متلاحقةً غير مفقودة » .

ولقد عدوا من نُزَه هذه البلاد فى رُباها المشرفة ، ووِدْيانها المنبسطة،وأنهارها المتدفقة ، وبساتينها النضيرة[٧]، مالا يُظن أن الله جمعه فى قطر من الأقطار . فهذا وادى آش

---

(١) الريع : فضل كل شىء ، والمراد به هنا نماء النبات ووفرة المحصول .

(٢) الغدق : الماء الكثير .

(٣) الفاره من الدواب : الحسن السير ، أو الحسن الوجه ، وهو بين الفراهة والفروهة والفراهية وبراذين فرهة مثل صاحب وصحبة ، أو فره مثل بازل وبزل .

(٤) يقال تبحر فى المال إذا اغتنى ، وفى العلم : تعمق .

(٥) جمع هامة كعامة بمعنى الدابة من خشاش الأرض ، من هم بمعنى دب .

(٦) السطة : كعدة التوسط .

(٧) فى الأصل النضرة ، وليس الوصف من نضر (ككرم) إلا ناضرا ونضيرا ، لذلك أصلحنا رواية الكلمة .

أو وادى الأَشات ،قد أحدقت به البساتين والأنهار ، وفيه يقول أبو الحسن بن نزار :

لِلّهِ ظِلّكَ وَالهَجِيرُ مُسَلَّطٌ ... قَدْ بَرَّدَتْ لفحَاتِهِ الْأَنْدَاءُ(١)

والشمسُ تَرْغَبُ أن تفوزَ بِلَحْظَةٍ ... منه فتَطْرِفُ طَرْفَهَا الْأَفْيَاءُ(٢)

والنهرُ يَبْسِمُ وَالْحَبَابُ كَأَنَّهُ ... سلخٌ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رَقْشَاءُ(٣)

فَلِذَاكَ تَحْذَرُهُ الْعُيونُ فَمَيْلُهَا ... أبدا على جَنَبَاته إيماءُ

وذاك وادى عذراء ، بمدينة بَرْجة التى سميت « بهجة » لبهجة مناظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شَرَف القَيْرَوانىّ :

رياضٌ تَعَشَّقَهَا سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ مَعَاطِفُهَا بالزَّهَرْ

مَدَامِعُها فَوْقَ خَدَّىْ رُبًا ... لهـا نظرةٌ فتَنَتْ مَنْ نَظَرْ

وكلٌّ مكانٍ بها جَنَّةٌ ... وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ

وفيها أيضا قوله :

حُطَّ الرِّحالَ ببَرْجَهْ ... وارْتَدْ لنفسك بَهْجَهْ

فى قلعة كسَلامٍ ... ودَوْحَةٍ مثل لُجَّهْ(٤)

فحِصْنُها لك أمْنٌ ... وروضُها لك فُرْجَه

كلُّ البلادِ سواها ... كعُمْرَةٍ وهى حِجّه

وقد ذكروا عن إشْبِيلِيَة أنها من أحسن مدن الدنيا ، و بأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، يعينهم على ذلك واديها الفرج ،

---

(١) الهجير : شدة الحر ، ولفحة النار : الهبة من حرها .

(٢) الأفياء : جمع فىء ، وهو ما كان شمسا فنسخه الظل ،والمعنى فى «تطرف طرفها الأفياء» أن الظل يرد عين الشمس عن التفتح فى موضعه ،فكأنها طرفت فأغمضت .

(٣) الحباب: معظم الماء ، والمراد هنا ظهره . السلخ:بالفتح اسم ما نزع عن الشاة من جلدها والفعل من باب نصر وقطع ، نضا الثوب (كنصر) خلعه . الرقشاء : الحية المنقطة بسواد .

(٤) السلام : الأمن والمعنى أن القلعة ــ وهى فى الأصل موضع الخوف ــ صارت دار أمن ، وفى الأصل « كسلاح » ولا معنى له .

ونادبها البهج ، ولها جبل الشَّرَف ، وهو تراب أحمر مترامى النواحى ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، وذكروا عن نهرها أن المد يصعد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم ينحسر ، وفيه يقول ابن سَفَر :

شَقَّ النَّسِيمُ عليه جَيْبَ قميصِهِ   فانسابَ من شَطَّيْهِ يَطْلُبُ ثَارَهُ
فتضاحكتْ وُرْقُ الحَمام بدَوْحِها   هُزْءًا فضَمَّ من الحَيَاءِ إِزَارَهُ

ولقد أثبت المؤرخون لطبيعة هذه البلاد مزايا لا تكاد تصدق لولا أنهم يُوَثِّقُونَ نَقَلَتها ويؤكدون روايتها ، فمن ذلك أن القمح والشعير فى مدينة شَنْتَرَة(١) يزرعان ويحصدان فى أربعين يوما ، وأن التفاح بها قد يبلغ دَوْرُ التفاحة ثلاثة أشبار أو أكثر . قال المَقَّرِىّ « قال أبو بكر الباكورى وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شَنْتَرَة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقِلُّ الحامل على رأسه غيرها » .

وذكروا عن غير واحد من المحدثين والمؤرخين ، أن مدينة سَرَقُسْطة لا يدخلها الثعبان من قِبَل نفسه ، وإذا أدخله أحد لم يتحرك ، وأن العقرب إذا أدخلت إليها ماتت لساعتها . وقالوا إنه لا يَسُوس(٢) بها شىء من الطعام ولا يَعْفَن(٣) ، وأنه يوجد بها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلق من ستة أعوام ، والفول والحمص من عشرين سنة ، ولا يسوس بها خشب ، ولا يَعُثّ(٤) فيها ثوب ، صوفاً كان أم حريراً أم كتاناً .

---

(١) من أعمال لشبونة ، وهى على البحر المحيط .
(٢) يقال ساس الطعام يساس ، وسَوِس (كفرح) يسوس ، وسوس كقدم ، وأساس كل ذلك بمعنى تولدفيه السوس.
(٣) عفن كفرح وبالتضعيف : فسد .
(٤) عثت العثة الصوف لحسته من باب رد .

⁂

وقد بلغ من حبهم لبلادهم ، وغرامهم بمحاسنها ، أن أديباً من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد ، كتب إليه أحد الوزراء يرغبه فى النقلة إلى مَرّاكُش ، فأبى وكتب إليه :

« كيف أفارق الأندلس!! وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا، بما حباها الله من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس : أُفُقٌ صقيل ، و بساط مدبّج ، وماء سائح ، وطائر مترنم . فكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟! فياسموءل الوفاء ، ويا حاتم السماح ، و يا جَذِيمَة الصفاء[(١)] ، كِلْ لمن أَمَّلَكَ النعمة ، بتركه فى موطنه ، غير مكدِّر لخاطره بالتحرك من معدنه . . الخ » .

ولما رقت حال أبى القاسم عامر بن هشام بقُرْطُبة ، و زين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين بمرّاكُش قال ، وذكر المتنزهات بقرطبة . وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس كنز الأدب :

يا هبّةً باكَرَتْ من نحو دَارِينِ   وافت إلىَّ على بُعْدٍ تُحَيِّينى
سَرَتْ على صفحات النهرِ ناشرةً   جَناَحها بين خَيرِىّ ونِسْرِين
ردَّتْ إلى جسدى رُوحَ الحياةِ وما   خِلْتُ النسيمَ إذا ما مِتُّ يُحْيينى
لولا تبسُّمُها عن نَشْرِ أرضكُمُ   ماأصبحتْ من أَلِيم الوجد تَبْرِينى

(١) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى ، أول من قاد العرب وملك على قضاعة ، وكانت منازله الحيرة والأنبار ، وولايته من قبل أرد شير بن بابك ، وكان أبرص فعدل عن هذا الاسم فقيل الأبرش ، وهو الذى يقال له نديم الفرقدين ، وكان إذا شرب قدحا صب لهما قدحين ، وهو الذى تزوج الزباء ، وكان لها وتر عنده فأرسل إليها يخطبها ، فقبلت واستدعته إليها ، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى ، إلا قصير بن سعد ، فلما كان عندها قطعت رواهشه واستنزفته حتى مات .

ومنها :

وأين يَعْدِلُ عن أَرْجاءِ قُرْطُبَةٍ … من شاء يَظْفَرُ بالدنيا و بالدِّين
قُطْرٌ فسيحٌ ونَهْرٌ ما به كَدَرٌ … حَفَّتْ بشطَّيْهِ ألفافُ البساتين[١]
يا ليت لِي عُمْرَ نوحٍ فى إقامتها … وأَنَّ مالِيَ فيه كَنْزُ قارونِ
كلاهما كنت أُفْنيهِ على نَشَوَا … تِ الرَّاحِ نَهْباً ووَصْلِ الحُورِ والعِينِ
و إنَّما أَسَفِي أَنِّى أَهِيمُ بها … وأَنَّ حَظِّيَ منها حَظٌّ مَغْبُونِ
يا آمِرى أن أَحُثَّ العِيسَ عَنْ وَطَنِى … لما رأى الرزقَ فيه ليس يُرْضِينِى
نَصَحْتَ لكنَّ لى قلباً يُنَازِعُنِى … فلو تَرَحَّلْتُ عنه حَالَهُ دُونِى
لأَلْزَمَنْ وَطَنِى طوراً تُطاوِعنى … قُودُ الأَمانِى وطَوْراً فيه تَعْصِينِى

وما أكثر ما لهج أهل هذه البلاد بالثناء عليها نثرا ونظما ، حتى يكاد قولهم يكون مقصورا على وصف نعيمهم بها ، والتلهف على ما فاتهم منه حين أقصوا عنها ، ومن تمدحهم بمحاسنها قول ابن سَفَرٍ المَرِينى[٢] :

فى أَرْضِ أَنْدَلُسٍ تُلْتَذُّ نَعْماءُ … ولا يفارقُ فيها القلبَ سَرَّاءُ
وليس فى غيرها بالعيشِ مُنْتَفَعٌ … ولا يقوم بحق الأُنْسِ صَهْباءُ
وأين يُعْدَلُ عن أرض يَحُضُّ بها … على المدامة أمواهٌ وأفياءُ
وكيف لا تَبْهَجُ الأبصارَ رؤيتُها … وكل روضٍ بها فى الوَشْى صنعاءُ[٣]
أنهارُها فِضةٌ والمِسْكُ تُرْبَتُها … والخَزُّ روضَتُها والدُّرُّ حَصْباءُ
وللهواءِ بها لُطْفٌ يَرِقُّ به … من لا يَرِقُّ وتَبْدُو منه أَهْوَاءُ
ليس النسيمَ الذى يهفو بها سَحَراً … ولا انتثار لآلى الطَّلِّ أنداءُ[٤]

---

(١) الألفاف : الأشجار الملتفة ، جمع لف (مثلثا) وهو جمع لفاء ، فيكون ألفاف جمع الجمع .
(٢) نسبة إلى بنى مرين . قال فى شرح القاموس : بنو مرين كأمير من ملوك الغرب ، أبو يعقوب عبد الحق وأولاده وطائفة من آل مرين .
(٣) بهج كـكرم وفرح : سر ، وكمنع : أفرح كأبهج .
(٤) هفت الريح بالريشة فى الهواء حركتها .

وإنما أَرَجُ النَّدِّ اســـتثير بها   في ماءِ وَرْدٍ فطابتْ منه أرجاءُ(١)
وَأَيْنَ يَبْلُغُ منها ما أُصـــنِّفه   وكيف يَحْوِي الذي حازته إحصاءُ
قدمُيِّزَتْ من جهات الأرض حين بَدَتْ   فريدةً وتولى مَيْزَها الماءُ
دارتْ عليها نِطَاقًا أَبْحُرٌ خَفَقَتْ   وَجْداً بها إذ تَبَدَّتْ وهْي حسناءُ
لذاكَ يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ من طَرَبٍ   والطيرُ يَشْدُو وللأغصانِ إِصْغاءُ
فيها خَلَعْتُ عِذَارِي ما بها عِوَضٌ   فَهْيَ الرِّياضُ وَكُلُّ الأَرْضِ صَحْرَاءُ(٢)

وقول ابن خَفَاجَة :

إنَّ للجنة بالأَنْدَلُسِ   مجتلَى مَرْأَى وريَّا نَفَسِ(٣)
فسَنَا صُبْحَتِهَا من شَنَبٍ   ودُجَى ظُلْمَتِهَا مِنْ لَعَسِ(٤)
فإذا ما هَبَّتِ الريحُ صَباً   صِحْتُ وَاشَوْقِي إلى الأَنْدَلُسِ!

ويقول ابن الزَّقَّاق البَلَنْسِيّ في بلنسية :

بَلَنْسِيَةٌ إذا فكرت فيها   وفي آياتها أَسْنَى البلادِ
وأعظمُ شاهدي منها عليها   وأَنَّ جمالها للعين بادي
كساها ربُّها ديباجَ حُسْنٍ   لها عَلَمانِ من بَحْرٍ ووَادِ(٥)

ويقول مَرْوان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية :

كأنَّ بَلَنْسِيَةً كاعبٌ   ومَلْبَسُها سُنْدُسٌ أَخْضَرُ

---

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . روى هذا البيت في نفح الطيب « استثار » ولا يكون هذا الفعل إلا متعديا فلا يناسب في هذا الأسلوب إلا بناؤه للمجهول . الأرجاء : جمع رجا وهو الناحية .
(٢) العذار : ماسال من اللجام على خد الفرس ، ولا يخلع اللجام من الفرس في الركوب إلا إذا أريد أن ينطلق ملء فروجه . ويقال خلع فلان عذاره في هذا الأمر : أي أطلق لنفسه حرية لايردها راد .
(٣) الريا : الريح الطيبة .
(٤) الشنب : نقط بيض في الأسنان .
(٥) علم الثوب : نقشه . يريد أن البحر والوادي كأنهما نقش وزينة لبلنسية ، التي شبهها بالثوب.

إذا جئتَها سَتَرَتْ نفْسَها ... بأكمامها فهْىَ لا تَظْهَرُ

وفى قُرْطُبَة أو غرْناطة يقول بعضهم :

أغرْناطَةُ الغراءُ هل لى أَوْبَةٌ ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ (١)

سَقَى الجانبَ الغربىَّ منكِ غَمَامَةٌ ... وَقَعْقَعَ فى ساحات رَوْضَتِك الرَّعْدُ (٢)

لياليك أَسحارٌ وأَرْضُكِ جَنَّةٌ ... وتُرْبُكِ فى استنشاقها عَنْبَرٌ وَرْدُ (٣)

وقال ابن مالك الرُّعَيْنىّ يصف الحمراء :

رَعَى اللهُ بالحمراء عيشاً قَطَعْتُه ... ذهبتُ به للأنس والليلُ قد ذَهَبْ (٤)

تَرَى الأرضَ منها فضةً فإذا اكتست ... بشمس الضحى عادتْ سَبِيكَتُها ذَهَبْ (٥)

ولابن خَفاجة فى وصف منظر راقه :

للهِ نَهْــــرٌ سالَ فى بَطْحَاءِ ... أشهى وُرُوداً من لَمَى الْحَسْناءِ (٦)

مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السِّوَارِ كَأَنَّهُ ... وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَــرٌّ سَمَاءِ

قَدْ رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً ... من فِضَّةٍ فى بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ

وَغَدَتْ تَحُفُّ به الغُصُونُ كَأَنَّهَا ... هُــدْبٌ تَحُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقاءِ (٧)

ولطالما عاطَيْتُ فيـــه مُدَامَةً ... صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَيْدِىَ النُّدَمَاءِ

---

(١) غرناطة : بفتح أوله . قال فى معجم البلدان : والصحيح أغرناطة بالهمز فى أوله، أسقطها العامة كما أسقطوها فى ألبيرة ، فقالوا : لبيرة . قال : ومعنى غرناطة رمانة ، بلسان أهل الأندلس ، وهذه البلدة هى ثالثة عواصم الأندلس بعد قرطبة وإشبيلية ، وقد ازدهرت فيها مملكة بنى الأحمر ، وهى على نهر شنيل فى الجنوب والشرق من قرطبة .

(٢) القعقعة : صوت الرعد .

(٣) العنبر هنا : الزعفران . والورد : الذى يشوب بياضه حمرة .

(٤) قوله ذهبت به للأنس : أى صرفته نحو الأنس .

(٥) اللغة الفصحى فى الوقف على المنون المنصوب أن يكون بالألف ، ولكن ربيعة تقف عليه كما يوقف على المرفوع والمجرور .

(٦) اللمى : سمرة الشفة والمراد بها هنا موضعها .

(٧) الهدب : بالضم وبضمتين شعر أشفار العينين، واحدتها هدبة، ومن هنا يبين لك وجه تأنيث الفعل فى قوله تحف .

والريحُ تَعْبَثُ بالغُصُونِ وَقَدْجَرَى ذَهَبُ الأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ المَاءِ

⁂

وقد رضى الأندلسيون عن بلادهم كل الرضا ، حتى عادت معايبها — فى نظرهم — محاسن ، ونقصها كمالا ، فاعتذروا عن ذلك أحسن اعتذار ، والتمسوا له العلل ، كما فى قول ابن الحسن بن حُريق :

بَلَنْسِيَةٌ قرارةُ كل حُسْنٍ حديثٌ صَحَّ فى شرقٍ وغَرْبِ
فإن قالوا مَحَلُّ غَلاءِ سِعْرٍ وَمَسْقَط ديمتى طَعْنٍ وَضَرْبِ
فقل هِيَ جنةٌ حُفَّتْ رُباهَا بمكروهين من جوع وحرْبِ

وفى غرْناطة ، يقول أبو بكر محمد بن شيرين السَّبتى ، معتذرًا عن جمود الماء بها :

رعى الله من غَرْنَاطَةٍ مُتَبَوَّأً يَسُرُّ حزيناً أو يُجيرُ طَرِيدَا
تبرَّم منها صاحبى عند ما رأى مسارحها بالثَّلْجِ عُدْنَ جَلِيدَا
هِيَ الثغرُ صان الله من أَهلَتْ بِهِ وما خير ثَغْرٍ لا يكون بَرُودَا

فهذه الطبيعة السمحة ، والجو المعتدل ، مضافة إلى ماقدمنا من العناصر التى تمازجت على أديم هذه البلاد، كان لها أثر ظاهر فيما عرف به أهل الأندلس، من توقد الذهن ، ونفاذ الخيال ، وجموم النشاط ، والأقبال على الحياة ، وتوثب الرغبة ، وطفوح البشر . ومن أجل هذه الطبيعة أحب القوم بلادهم ، وجُنُّوا بجمالها ، فشغلوا بمحاسنها ، وأطالوا فى وصف محامدها، وتعصبوا لمزاياها ، وكثر ذلك منهم ، حتى كان أكثر ما ترى من نثرهم وشعرهم فى وصف هذا الجمال ، واستجلاء تلك المحاسن .

أطوار حكم العرب بالاندلس

ومساس ذلك باللغة والأدب

عصر الولاة ٩٢ هـ — ١٣٨ هـ ،

وصلنا بك فى الحديث عن « فتح العرب للأندلس » إلى أن البلاد صارت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ، يرسل إليها الخلفاء من بنى أمية ولاة لها يتولون أمرها خاصة ، أو تكون جزءاً من ولايتهم، وقد استمر الحال على ذلك منذ الفتح سنة ٩٢ هـ إلى سنة ١٣٨ هـ . وهذه المدة هى المسماة عصر الولاة الأولين ، وفيها لم تكن للبلاد صبغة خاصة، بل كانت تابعة لسياسة الدولة ، ولم يكن همّ الولاة تشجيع علم أو أدب ، وذلك شأنهم غالباً فى كل عصر ، لأن العناية بهذين ، أمر لا ترتقى إليه عادةً إلا همم الملوك، الذين يرون من سياستهم نصرة العلم والأدب، إرضاء للمحكومين ، أومحافظة على الدين ، الذى تتصل العناية به بالعناية باللغة وآدابها . على أن أغلب أيام هؤلاء الولاة انقضت فى تدعيم الفتح الجديد ، وتوطيد أركانه ، أو إخماد فتن ، جرّت إليها العصبية الناشئة بين القبائل ، التى نزلت هذه البلاد . كما كان شأنها فى الشام وغيره من كل بلاد تجتمع فيها قبائل مضرية ويمانية ، وتلك جناية بنى أمية أرادوا بها أن يفرقوا ليحكموا .

وقد كان عدد الولاة فى هذه المدة عشرين .

عصر الدولة الاموية

١٣٨ هـ — ٤٢٨ هـ

يبتدئ هذا العصر بحكم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان بنو العباس لما صار إليهم الأمر ، يتعقبون بنى أمية ويقتلون من تصل إليه أيديهم منهم ، فكان

عبد الرحمن هذا أحد طرائدهم ، فاختفى فى بعض نواحي العراق ، ولـكن لم يأمن اهتداء الطلب إليه ، فعزم على الصيرورة إلى بلاد المغرب ، فهمّ حاكم البلاد عبد الرحمن ابن حَبِيب الفِهْرِىّ أن يقتله ، فهرب من وجهه واختفى ببَرْقة مدة ، ثم احتمى بمِكْناسة من قبائل البربر حينا فتبرموا بجواره ، ففكر فى الأندلس ، وكان يعلم ما بها من عصبية حامية الوطيس بين المضرية واليمانية ، فراسل زعماء الأمويين ، وأفضى إليهم بما ينويه فى كتاب أرسله على يد مولاه بدر ، فتم له الأمر ودُعى إلى الأندلس موعوداً بالعَضْد والمعونة ، وقد ناصرته اليمانية ، فهزم الوالى يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِىّ ، ودخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة فى يوم عيد الأضحى سنة ١٣٨ ﻫ ، وبحكمته قبض على البلاد وصار إليه أمرها .

وكان عمله هذا موضوع إعجاب المنصور العباسى الذى لقبه « بصقر قريش » لِمَا رأى من فعله بالأندلس ، وما ركب إليها من الأخطار وفيه يقول :

« لا تعجبوا لأمرنا مع طول مراسه ، وقوةأسبابه، فالشأن فى الفتى الأحوذىّ الفذّ فى جميع شؤونه ، وعدمِه لأهله ونَشَبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده . فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جنودها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل أبيّهم ، و إن ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه» .

وقد سكن قُرْطبة و بنى بها القصر والمسجد الجامع ، ولقب نفسه «بالداخل» لأنه أول من دخل الأندلس من بنى مروان ، ودعا للمنصور حيناً ، ثم قطع الخطبة له ، ولُقِّب هو ومن جاء بعده بالأمراء أبناء الخلفاء ، حتى كان منهم عبد الرحمن الناصرفإنه لما رأى استتباب الأمر له ، وتضعضع أمر العباسيين بالمشرق ، واستبداد الأعاجم بالخلفاء وتدخل نساء القصر فى شؤون الدولة ، رأى الفرصة سانحة فتلقب « بأمير المؤمنين » واستمر أمر بنى أمية إلى سنة ٤٢٨ ﻫ ، وتولى منهم فى هذه المدة ١٦ خليفة .

وكان المستعين بالله من الأمويين قد استعان بالقاسم وعلى، ابنىْ حَمّود، بعد انقراض دولتهم بفاس، فعقد المستعين للقاسم على الجزيرة الخضراء، ولعلى على طَنْجَة، وقد طمع على فى الخلافة وادعى أن هشاما من أمية كتب له بالعهد، فدخل قرطبة وتلقب بالناصر.

وبقى حكم الأندلس متنازعا بين بنى حمود وبنى أمية، هؤلاء يملكون بعض البلاد، وأولئك بعضها، حتى سنة ٤٢٨ هـ، وهى سنة انقراض دولة بنى أمية، واستمر ملك الأدارسة إلى سنة ٤٥٠ هـ.

وكان هذا العصر أزهى عصور الحكم العربى فى هذه البلاد، راجت فيه سوق العلوم والآداب وتقدمت الفنون بعناية هؤلاء الخلائف، الذين لم يكونوا يألون جهداً فى منافسة العباسيين، وكانت قرطبة وبغداد كعبتى العلماء ومَنْبَعَىْ العلوم والفنون.

ملوك الدولة الأموية ومدد حكمهم

		من سنة	إلى سنة			من سنة	إلى سنة
١	— عبد الرحمن الداخل	١٣٨	١٧١	٩	— الحكم الثانى	٣٥٠	٣٦٦
٢	— هشام الأول	١٧١	١٨٠	١٠	— هشام «	٣٦٦	٣٩٩
٣	— الحكم «	١٨٠	٢٠٦	١١	— محمد المهدى	٣٩٩	٤٠٠
٤	— عبد الرحمن الثانى	٢٠٦	٢٣٨	١٢	— سليمان المستعين	٤٠٠	٤٠٧
٥	— محمد الأول	٢٣٨	٢٧٣	١٣	— عبد الرحمن الرابع	٤٠٧	٤١٢
٦	— المنذر بن محمد	٢٧٣	٢٧٥	١٤	— « « الخامس	٤١٢	٤١٤
٧	— عبد الله بن محمد	٢٧٥	٣٠٠	١٥	— محمد الثانى المستكفى	٤١٤	٤١٦
٨	— عبد الرحمن الثالث	٣٠٠	٣٥٠	١٦	— هشام الثالث المعتمد	٤١٦	٤٢٨

عصر ملوك الطوائف

٤٢٨ – ٤٨٤ هـ

انقضى ملك الدولة الأموية ، وانتثر سلك الخلافة ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء من البربر والعرب ، والموالى بالجهات ، فاقتسموا خُطّتها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمر البلاد ملوك استفحل أمرهم، وعظم شأنهم ولاذوا بالجِزَى للطاغية خوف أن يظاهر عليهم ، أو يبتزّهم ملكهم ، وكان من أشهرهم .

بنو عَبّادٍ بإشْبِيلِيَة ، وبنو جَهْوَرٍ بقُرْطُبَة ، وبنو الأَفْطَسِ بِبَطَلْيَوْس ، ومنهم المظفّر صاحب التاريخ المظفّرى ، وبنو زِيرِى بن منّاد بغَرْناطة ، وبنو ذى النُّون بطُلَيْطِلَة ، والعامريون بشاطبة ، وبنو هُود بسَرَقُسْطَة ، وبنو صُمادح فى المَرِيّة ، وبنو حمود فى مالَقة .

وملوك الطوائف هؤلاء تعتبر أيامهم عصر تقدم للعلم والعربية ، كما كان الشأن كذلك فى دولة بنى أمية ، فإن المنافسة جرت بين هؤلاء ، فكان منهم بذل فى سبيل ذلك ، وعرف من بينهم ملوك حرصوا على العلم والآداب ، فَعَنُوا بالشعر ، وقالوه : وألفت لهم الكتب وألفوها ، كما سنبين ذلك فى حديثنا عن العلم والأدب فى الأندلس .

وبلغ من تسامى هؤلاء الملوك الصغار إلى درجات الخلفاء ، وتشبههم بهم أن تلقبوا بالمتوكل، والمعتمد، والمأمون، إلى غير ذلك من ألقاب الخلفاء ، مع ما كانوا عليه فى غالب أمرهم من ضعف سياسى وتخاذل ، سمح لهم بأن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لملوك الإفرَنْجة الذين قوى شأنهم فى هذه المدة ، ولقد راع أبا على الحسن بن رشيق تعاظم هؤلاء وتساميهم إلى مراتب الخلفاء مع هذا الوَهَن والتهافت ، فقال فيهم :

مما يُزَهِّدُنى فى أَرْضِ أَنْدَلُسٍ   أسماءُ معتمد فيها ومُعْتَضِدِ
أَلقابُ مملكةٍ فى غير مَوْضِعِهاَ   كالهِرِّ يحكى انتفاخاً صولةَ الأَسَدِ

دولتا البربر (الملثمين والموحدين)

٤٨٤ — ٦٢٩ هـ

فى عهد هاتين الدولتين صارت الأندلس ولاية تابعة للمغرب ، حكمها الملثمون ٥٨ سنة ، من سنة ٤٨٤ — سنة ٥٤٢ هـ ، وهم من قبائل صِنْهاجة ، كانوا قبل الفتح الإسلامى متوطنين فى القفار ، وكانوا على دين المجوسية ، قد اتخذوا اللثام شعاراً لهم ، وكانت الرياسة فيهم فى لمتونة ، وأول من حكم الأندلس منهم يوسف بن تاَشِفين ؛ استصرخ به أهل البلاد ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، لما طمع ملك الجلالقة فيها ، فلبى يوسف الدعوة ، وقصد إشبيلية ، فخرج المعتمد ملكها للقائه وكذلك فعل غيره من الملوك ، وساروا معه بجيوشهم لمحاربة الطاغية ، فأزاح كابوسه عن بعض بلاد المسلمين وانتصر عليه فى واقعة الزلّاقة يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ هـ ، ثم عاد إلى المغرب فاستشرى الطاغية ثانية فعاد إليه يوسف فرد اعتداءه ، ودانت له ملوك الطوائف حين رأوا أنهم من الضعف إما أن يخضعوا له أو للطاغية . وأسر ابن تاشفين المعتمد بن عباد ، وسجنه بأغمات من بر العدوة حتى مات ، وقيل إن الذى أوقع به عند ابن تاشفين هو المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيَّة ، الذى كان دائم الحقد على المعتمد بن عباد .

وفيما كان الملثمون موزعين قوتهم بالأندلس والمغرب ، كان الموحدون قد أخضعوا جميع البلاد بالمغرب ، وزحفوا إلى مراكش فاستولوا عليها ، ثم عبروا إلى الأندلس فانتزعوها من أيدى الملثمين .

وقد لقب الموحدون أنفسهم بهذا اللقب، تسجيلا لتوحيدهم لله، وتعريضا بمن جنح عن التأويل ، ووقف عند الظاهر ، فأوقع نفسه فى القول بالتجسيم .

مؤسس هذه الدولة هو محمد بن تُومَرت ، كان إماما متضلعاً فى العلوم ، حج ودخل العراق واجتمع بأئمته من العلماء والنظار كالغزالى والهرّاس ، وأخذ بمذهب الأشاعرة

أهل السنة ورجع إلى المغرب ، وقد حكم الموحدون الأندلس حكما تابعا لحكمهم لبلاد المغرب ، فكانوا ربما اكتفوا بأرسال وال على البلاد .

ومدة حكم هاتين الدولتين تعد فترة وقوف للغة والعلوم ، لما اشتهر به ملوكها من تعصب قضوا به على حرية الفكر ، وأحرقوا الكتب التي لم تتسع لما فيها دائرة عقولهم الضيقة . وهذا لا ينافى ما ظهر به بعض ملوكهم من حب العلم ، ومشاركة فيه ، ومعونة لأهله ، وسنفصل القول فى هذا عند الكلام على العلوم والآداب فى الأندلس .

ولما ضعف الموحدون ، ثار عليهم العرب بقيادة محمد بن يوسف بن هود الذى استولى على مُرْسِية سنة ٦٢٥ هـ ، ثم تغلب على شرقى الأندلس جميعه ، وفى ذلك الوقت تعددت الثورات واستبد كل ثائر بناحية ، ثم ثار على ابن هود زعيمُ بنى الأحمر ، الشيخ محمد ابن يوسف بن نصر ، كما سيأتى .

دولة بنى الاحمر

٦٢٩ – ٨٩٧ هـ

ينتهى نسب سلاطين هذه الدولة إلى سعد بن عُبادة سيد الخزرج ، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين ، هو محمد بن يوسف بن نصر ، المكنى بأبى موسى ، والملقب بابن الأحمر ، وكان من وجهاء أرجونة من أعمال قرطبة .

ولما رأى ضعف الموحدين ، قام فتحصن بحصون بلده ، وحالف فردناند ملك قشتالة ، ودعا للعباسيين أولا فساعده ذلك على ابن هود ، وتمكن من ضم الأَرَاك وجَيّانة وغَرْناطة ومالَقة والمَرِيَّة إليه ، وجعل مقر ملكه غرناطة ، ولقب نفسه الغالب بالله ، وشيد قصر الحمراء .

وقد حكم هو وأبناؤه زهاء قرنين ونصف ، انتعش فيهما الأدب وتقدمت الفنون ، وكان من أبنائه وحفدته أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه ، وأبو الحجاج يوسف ، وابنه محمد

الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب ، ولم يكن فى رجال هذه الدولة عيب إلا أنهم أتوا الزمان على الهرم فساءهم ،

وكأن القدر قد أراد غروب شمس الإسلام عن هذه البلاد ، فأشعل فى نفوس الملوك نار الحقد ، حتى قتلوا أنفسهم بأيديهم ، واستعان بعضهم على بعض بملوك المسيحية ، وهؤلاء يرون فى نصرة المستنصر بهم سبيلا للقضاء عليه ، فلم يحجموا عن مؤازرة بعض على بعض حتى ضعف الطالب والمطلوب .

ورضى ملوك بنى الأحمر بالجزية ، يقدمونها صاغرين إلى فردناند ملك قشتالة ، فما زال ينتزع البلاد حصناً حصناً ، وكلما دخل جنوده بلدا أجلوا المسلمين عنه ، حتى لم يبق فى أيديهم إلا غرناطة ، فحاصرها فردناند ، وكاد يقتل أهلها جوعا ، وكان استيلاؤه عليها آخر عهد المسلمين بالبلاد .

وكان آخر ملوك بنى الأحمر (وهو أيضاً آخر ملوك المسلمين بالأندلس) أبا عبد الله وعلى يديه سقطت غرناطة ، وعقد بين العرب والإسبانيين صلح لم يلتزم الإسبانيون شروطه ، فجلا كثير من العرب إلى بر العدوة ، وأكره من بقى منهم بالأندلس على التنصر فلا حول ولا قوة إلا بالله .

العلوم والآداب بالأندلس

عرف أهل الأندلس بالذكاء المتوقد ، والبديهة الحاضرة ، كما اشتهروا بالرغبة فى طلب العلم والحرص على تحصيله، لذلك كان لهم فى هذا الباب مجال لم يبذّهم فيه أحد ، فكثرت منهم الرحلة إلى المشرق ولزوم علمائه ، لا يشغلهم عن العلم شاغل . وقد كانوا موضع إعجاب مشيختهم ، وذكروا من حرصهم على الدرس ، أن يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى كان فى حلقة مالك بن أنس رضى الله عنه ، فقال قائل : حضر الفيل! فخرج أصحاب مالك جميعاً إلا يحيى ، فقال له مالك : لم لم تخرج وليس الفيل فى بلادك ؟ فقال إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك وأتعلم منك ، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل ، فأعجب

به مالك . وكانت وفاة يحيى سنة ٢٣٤ هـ وهو ناقل مذهب الإمام مالك إلى بلاد الأندلس .

ومن أمثلة ذ كائهم ما رووا عن منذر بن سعيد الأندلسى قال : أتيت أبا جعفر النحاس فى مجلسه بمصر ، فألفيته يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون :

خَلِيلَيَّ هلْ بالشام عَينٌ حزينةٌ　　تبكِّى على نَجْدٍ لعلى أُعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامةً　　مطوقةً باتت وبات قرينها

فقلت له : ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال لى : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقلت : (بانت وبان قرينها) فأعجبه ذلك ، غير أنه حقد علىّ ، وما زال يستثقلنى بعد ذلك حتى منعنى كتاب العين حينما ذهبت للاستنساخ من نسخته .

والعجب أن لهم هذا السبق فى العلم ، مع اشتغالهم بالحروب من يوم وطئوا أرض هذه الجزيرة إلى يوم انجلوا عنها ، حتى قال بعض المؤرخين : لم تبق بقعة من أرض الأندلس إلا رويت بدماء المسلمين ، ولم يكد يخلو يوم من الأيام من حرب وشجار بينهم و بين النصارى ، أو بين بعض المسلمين و بعض .

ولا نكاد ندرك بأوهامنا ذلك المبلغ الذى كانوا يصلون إليه فى هذا الباب، لو أمنوا فى سربهم ، وهدأ روعهم فى ربوعهم ، ولعلنا كنا نسجل لهم فخراً لم تحرزه اليونان ولا الفرس ولا الهنود فى قديم الزمان .

على أن ماجمعوه من الكتب وماأخرجوه من المؤلفات، قد أتت عليه تلك الأيدى الأثيمة، أيدى أعداء الإسلام بالحرق وأنواع الإبادة، حتى لم يسلم منه إلا ما نقل قبل خروج المسلمين من الأندلس ، أوخفى مكانه على هؤلاء الغاشمين من ملوك النصارى ، فلاحول ولا قوّة إلا بالله .

ولقد كانت علوم العرب بالأندلس هى الشعاع الذى أضاء لأهل أوربا ما كان مظلماً من عقلهم ، فإنهم لم يعرفوا حكمة اليونان إلا بعد أن قرءوها مترجمة فى كتب العرب ، بل عن العرب أيضاً أخذوا نظام المدارس الجامعة ، وقد كان فى كلّ

مدينة من مدن الأندلس مدرســـة جامعة ، وكان للطب بتلك البلاد أربع مدارس آهلة بالطلاب من جميع الملل ، فى قُرْطُبَة و إِشْبِيلِية وطُلَيطِلَة ومُرْسِيَة . وكان فى قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأنواع العلوم ، وذلك فى مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٦٦ ﻫ .

ويحسن أن ننقل ترجمة ما ورد فى صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية فى بيان فضل عرب الأندلس على أوربا الحديثة وهو « إنا لمدينون للعرب كثيراً ، ولو قال غيرنا خلاف ذلك ، فإنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً ، و بنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى الأعصار المظلمة ، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم الطبعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا علماً ومدنية » .

⁂

انقضى عصر الولاة فى حالة بداوة وتوطيد للملك وانصراف من الولاة عن عَضْد العلم والأدب ، فلم يظهر للأندلسيين فى هذه المدة منقبة فى علم أو فضل فى استنباط ، فلما كان عصر الأمويين أبناء عبد الرحمن الداخل ، كان منهم — بعد قليل — شدّ لأزر العلم و إحياء للأدب ، لأنهم ملوك مستقلون تتعلق هممهم بطلب الكمال لمملكتهم ، ثم هم ينافسون العباسيين فى المشرق ، و يطمعون أن تسامى قرطبة بغداد أو تسلبها منزلتها وشهرتها .

فقد أراد الحكم المستنصر ابن الناصر الذى تولى الخلافة سنة ٣٥٠ ﻫ وتوفى سنة ٣٦٦ ﻫ أن يتشبه بالمأمون العباسى فى إنشاء المكاتب والعناية بالعلوم ، فأنشأ فى قرطبة مكتبة جمع فيها مالم يجمعه أحد قبله من الملوك ، قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ ﻫ : أخبرنى من كان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان أن فهارسها التى فيها تسمية الكتب كانت أربعة وأربعين فهرساً فى كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين اﻫ .

وقد ذكروا أن هذه المكتبة، كانت تحوى أربعمائه ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى ذلك ، ولم يكن الحكم جماعا للكتب فحسب ، بل كان عالما شديد الرغبة فى العلم، تلقى عن علماء كثيرين، وكان ذا غرام بكتبه، حتى آثرها على لذات الملك ، فاستوسع علمُه ودق نظرُه وجَمَّت استفادتُه ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيّا نسيج وحده ، قالوا : وقلما يوجد كتاب فى خزائنه ، إلا وله فيه قراءة ونظر فى أى فن كان .

والحكم هذا ، هو الذى بعث فى طلب الأغانى من مؤلفه أبى الفرج الأَصْبِهَانى ، و بعث إليه بألف دينار ، فجاءته منه نسخة قبل أن يظهر بالمشرق .

أما عنايته بالعلماء فقد تجلت فى استقباله لأبى علىّ القالىّ، الوافد على بلاد الأندلس بدعوة أبيه الناصر، وكان الحكم إذ ذاك يتصرف عن أمر أبيه، فكتب إلى بعض عماله أن يتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ، ففعل وسار به نحو قرطبة فى موكب نبيل .

ومثل هذا وأكثر منه، مافعله عبدالرحمن بن الحكم الذى تولى الخلافة سنة ٢٠٦ هـ، حين علم بمقدم زِرْياب المغنى تلميذ إسحاق الموصلى ، فإنه كتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة ، فلما وصلها أنزله فى دار من أحسن الدور ، وكتب له بمائتى دينار كلّ شهر ، ولكلّ واحد من بنيه الأربعة عشرين ديناراً كذلك ، وأن يجرى على زِرْياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكلّ عيد ألف دينار ، ولكلّ مِهْرَجان ونَيْرُوزٍ خمسمائة دينار ، وأقطعه طعامًا ودورًا وضياعًا حتى بلغ به غاية الرضا .

واقتدى بالحكم أعقابه وعظماء مملكته، فأنشئوا المكاتب فى نواحى بلاد الأندلس، حتى قالوا إن غرناطة نفسها كان بها سبعون مكتبة عامة ، وصار اقتناء الكتب عند أهل الأندلس سجية ، وربما عنى الرجل بجمعها ، لأنها من شارات الوجاهة والرياسة فحسب ، وقد يكون أحدهم جاهلا ، ويحتفل أن يكون فى بيته خزانة كتب ، ولاهم له

إلا أن يقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد سواه ، والكتاب الذى بخط فلان قد حصله وظفر به ! !

ولم يقصر ملوك الطوائف عن خلفاء بنى مروان فى العناية بالعلم وأهله ، فقد فعلوا ذلك منافسين فى الفضل ، قاصدين إلى إرضاء العامة ، مقدرين ما للعلم من أثر فى حفظ ممالكهم .

ولقد كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء ، فى كل فن يؤلفون أو يدعون العلماء إلى التأليف برسمهم ، كما فعل ذلك سابقاً فى دولة بنى مروان أبو على القالىّ ، فأنه طرّز كتابه «الأمالى» باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر . وقد تبلغ الدالّة بالعالم والاعتزاز منه بشرف العلم ، أن يأبى إجابة الأمير إلى جعل كتابه برسمه ، فقد ذكروا أن أبا غالب اللغوى القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦ ھ ، لما ألف كتابه فى اللغة ، بعث إليه أبو الجيش مجاهد العامرى ملك دَانية بألفى دينار ، ومركوبا وكساء ، على أن يجعل الكتاب باسمه فيزيد فيه « هذا الكتاب مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال « ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى ، ثم أقبل فى صدره اسم غيرى وأصرف الفخر له ! » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته .

ولقد بلغ من حرص هؤلاء الأمراء على ظهور الكتب مؤلفة برسمهم ، أن عادى الأخ أخاه فى سبيل ذلك ، وقتل المؤلف الذى آثر أخاه بالذكر فى مقدمة كتاب ، فقد ذكروا فى سبب قتل الفتح بن خاقان صاحب كتابى « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » — وقد وجد مقتولا بفندق بمدينة مَرَّاكُش — أن الذى أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن علىّ بن يوسف بن تاشِفين ، أخو أبى إسحاق إبراهيم ، الذى ألف له الفتح ابن خاقان كتاب قلائد العقيان وذكره فى خطبة الكتاب ، فحسده أخوه على هذه الميزة وأشار بقتله .

وهذه عبارة المقدمة التى ورد فيها اسم أبى إسحاق « ولم يزل شخص الأدب وهو

متوار ، وزَنْده غير وار . وجَدّه عاثر ، ومنهجه دائر . إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه ، وإحياء رسمه ، وإنارة أفقه . وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي إسحاق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ملكاً عليّا ، غدا للبّة المجد حُلِيًّا ، وَهَمَى على الأمة وَسْمِيّا ووَلِيًا » .

ومن مؤلفي هؤلاء الملوك المظفّر بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس ، كان كثير الأدب ، جم المعرفة ، محبًّا لأهل العلم ، جماعا للكتب ، ذا خزانة عظيمة . قال في حقه ابن بَسّام : كان المظفر المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، أديب ملوك عصره ، غير مدافع ولامنازع ، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق، المترجم بالتذكرة، والمشتهر أيضاً باسم الكتاب المظفّرى في خمسين مجلداً ، يشتمل على فنون وعلوم ومغازٍ وسِيَر ومَثَل وخَبَر ، وجميع ما يختصّ به علم الأدب .

وفي أيام المرابطين والموحدين ركدت ريح العلم ، وفتر نشاط الأدب ، لصيرورة الأندلس ولاية تابعة للمغرب، الذي لم يكن للعلم والأدب به شأن يذكر، وكان لتعصب ملوك هاتين الدولتين لآرائهم في الدّين ، وتشددهم في محاسبة مخالفيهم، أثرٌ في انقباض العلماء، وخوفهم على أنفسهم ، من لهب هذه الفتنة وشررها المستطير ، فلقد كان من عليّ ابن يوسف بن تاشفين من المرابطين ، أن صادر كتب الكلام ، ومنع الجدل في العقائد، وأمر بإحراق كتب الغزاليّ .

وتلك هي الحال العامة إلى انتهاء أيام المسلمين بتلك البلاد ، إلا ما يكون في الحين بعد الحين، من ملك يظهر الرغبة في العلم، ويقرب العلماء ، كأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، الذي اشتهر بحبه للعلم وجمع الكتب ، وكان يناقش العلماء ، حتى قال الفيلسوف ابن رشد ، أشهر حكماء الأندلس على الإطلاق ، والمعتبر في المغرب، كابن سينا في المشرق: إنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو .

وجاء بعد أبى يعقوب، ابنه المنصور على، فغضب على ابن رشد لرمى الناس إياه بالزندقة، ثم عفا عنه وسمح له بالعودة إلى البلاد، وكان قد نفاه منها، وقد توفى ابن رشد سنة ٥٩٥ ه.

وقيل إن من أسباب حقد آل عبد المؤمن على ابن رشد، أنه أنكر عليهم لقب الخليفة، الذى انتحله عبد المؤمن بن على، وكان حريصاً عليه، حتى إنه رفض مساعدة صلاح الدين الأيوبى، وردّ رسوله سنة ٥٨٨ ه، لما طلب منه المساعدة فى محاربة الصليبيين، لأنه لم ينعته بالخلافة ولا بإمارة المسلمين.

⁂

كانت هذه العناية بالعلوم والآداب كفيلة بأن يكون فى الأندلس علماء أجلاء، وفلاسفة عظام، وأدباء نابهون، ولو ذهبنا نعدد هؤلاء لخرجنا عن القصد، ولكنا نكتفى بأمثلة قليلة، لا نستوعب بها أصناف الفنون والعلوم.

فمن فلاسفة هذه البلاد ومخترعيها «أبو القاسم عباس بن فِرْناس» حكيم الأندلس، وأوّل من استنبط بها صناعة الزجاج من الحجارة، وهو الذى صنع الآلة المعروفة بالمتقال ليعرف بها الوقت على غير رسم ومثال، وهو الذى احتال فى تطيير جثمانه وكسا نفسه الرّيش، ومدّ له جناحين، وطار فى الجوّ مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه فتأذى فى مؤخره ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زِمِكِّهِ، ولم يكن عمل له ذنباً من الرّيش. وهو الذى صنع فى بيته هيئة السماء، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود.

ومن فلاسفتها المتكلمين «أبو محمد علىّ بن حزم» من رجال القرن الخامس الهجرى، ألف كتاب الفِصَل بين أهل الأهواء والنحل، وقد بلغت مؤلفاته أربعمائة مجلد فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والتاريخ والأدب. قال صاعد صاحب

كتاب طبقات الأمم : وهذا شيء ما علمناه عن أحد ممن كان فى دولة الإسلام قبله ، إلا لأبى جعفر بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً . وسنفرد لهذا العالم الفرد ترجمة مستفيضة حين نترجم لرجال الأندلس .

ومنهم ابن الطُّفيل ، الذى يقولون إنه أوّل من قال بتدرج الحيوان إلى الإنسان ، وهو صاحب الرسالة الشهيرة باسم « حى بن يقظان » ، أو « أسرار الحكمة المشرقية » وهي مطبوعة ، وقد توفى سنة ٥٨١ ﻫ .

ومن أطبائها ، أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ ﻫ ، أول من ألّف فى فنّ الولادة ، ورسم فى كتابه آلات الجراحة .

ومن فلاسفتها الأطباء ، ابن باجة السَّرَقُسْطىّ المعروف بابن الصائغ ، وكان مولعاً بالألحان ، توفى بمدينة فاس سنة ٥٣٣ ﻫ . ومنهم ابن زُهْر أبو بكر بن عبد الملك الإشبيلىّ المتوفى سنة ٥٩٥ ﻫ ، وله كتاب الجامع والأشربة والمعجونات الطبية ، وكتاب التبشير فى المداواة والتدبير ، وكتاب الأغذية .

ومن علماء النبات ، ابن البَيْطار المالَقِيّ الذى سافر إلى بلاد اليونان ، وإلى أقصى بلاد الروم ، وذهب إلى الشام ودرس نباتها ، وجاء إلى مصر وخدم الملك الكامل الأيوبى ، وكان يعتمد عليه فى معرفة الأدوية المفردة والحشائش ، وله كتاب «مفردات الأدوية» الذى انتفعت به أوربا فى نهضتها الأخيرة ، وهو مطبوع فى أربعة أجزاء .

ومن علماء اللغة ، أبو بكر الزُّبَيْدِيّ[(١)] صاحب مختصر العين المتوفى سنة ٣٧٩ ﻫ ،

---

(١) هو محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى . قال ابن الفرضى كان واحد عصره فى علم النحو وحفظ اللغة ، أخذ العربية عن أبى على القالىّ وأبى عبد الله الرياحى ، وأدب ولد المستنصر بالله ، وولى عهده هشام ، وولى قضاء قرطبة ، وصنف مختصر العين ، وأبنية سيبويه ، والواضح فى العربية ، وما يلحن فيه عوام الأندلس ، وطبقات النحويين . توفى سنة ٣٧٩ وقيل ٣٩٩ والزبيدىّ بضم الزاى وفتح الباء نسبة إلى زبيد وهى قبيلة كبيرة باليمن (كما فى وفيات الأعيان) .

وابن سِيدَه[١] صاحب «المخصص» و «المحكم» وقد توفى سنة ٤٥٨ ﻫ .

ومن علماء النحو والصرف ، ابن خروف[٢] ، وابن عُصْفور[٣] والشَّلَوْبِينى[٤]

(١) هو الحافظ أبو الحسن على بن إسماعيل ، كان إماما فى اللغة والعربية حافظا لهما ، وقد جمع فى ذلك جموعا منها « كتاب المحكم فى اللغة » وهو كتاب جامع، رتبه ترتيب كتاب العين، ويمتاز بالضبط والدقة وصحة الشواهد ، وهو برمته فى المتحف البريطانى ، ومتنه بدار الكتب أجزاء لا تتم نسخة ، ومنها « المخصص » وهو معجم معنوى فى سبعة عشر جزءا مطبوع بمصر . ومنها « شرح مشكل المتنبي » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . وكان ابن سيده ضريرا وأبوه كذلك . وكان أبوه قبله قيما باللغة ، وعليه اشتغل ابنه فى أول أمره توفى سنة ٤٥٨ ﻫ . وسيده — كما ضبطه ابن خلكان — بكسر السين وسكون الياء وفتح الدال بعدها هاء ساكنة (من كتابنا إعجام الأعلام) .

(٢) هو أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن خروف النحوى الأندلسى الإشبيلى ، كان فاضلا فى علم العربية، وله فيها مصنفات، شهدت بفضله وسعة علمه . شرح كتاب سيبويه شرحا جيدا ، وشرح كتاب الجمل للزجاجىّ . قالوا كان فى خلقه زعارة (شراسة) ولم يتزوج قط ، وكان يسكن الخانات ، واختل فى آخر عمره ، ومشى فى الأسواق عريان بادى العورة . توفى باشبيلية سنة ٦٠٩ أو ٦١٠ على ماذكره ابن خلكان .

(٣) هو على بن مؤمن بن محمد المكنى أبا الحسن بن عصفور النحوى الحضرمىّ الإشبيلى، حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس ، أخذ عن الدباج والشلو بينىّ، ولازمه مدة ، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة ، وتصدر للاشتغال بالتدريس مدة بعدة بلاد ، وجال فى الأندلس وأقبل عليه الطلبة ، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل ذلك ، ولم يكن عنده مايؤخذ عنه، غير النحو ولا تأهل لغير ذلك ، وكان رقيق الدين جلس فى مجلس شراب فلم يزل يرجم بالنارنج حتى مات سنة ٦٦٣ وقيل ٦٦٩ ﻫ . وصنف كتبا كثيرة .

(٤) هو عمر بن محمد أبو على الإشبيلىّ الأزدى ، إمام عصره فى العربية بلا مدافع ، وآخر أئمة العربية بالمشرق والمغرب ، وكان العارفون بقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة ، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة بله ، حتى قالوا إنه كان يوما على جانب النهر وبيده كراريس فوقع منها كراسة فى الماء وبعدت عنه فلم تصل إليها يده فأخذ كراسة أخرى وجذبها بها فتلفت بالماء !! وله فى هذه الحال حكايات كثيرة. توفى باشبيلية سنة ٦٤٥ ﻫ . قال ابن خلكان: والشلوبينى بفتح الشين واللام وسكون الواو وكسر الباء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى الشلوبين ، وهو بلغة الأندلس الأبيض الأشقر،هكذا ذكروا والله أعلم اﻫ وقال ياقوت فى معجم البلدان : شلوبين أو شلوبينة أوشلوبينية بالياء المخففة حصن بالأندلس ، من أعمال كورة ألبيرة على شاطئ البحر ، كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط ، ومنه أبو على الشلوبينىّ . وقال صاحب القاموس المحيط: شلوبين أو شلوبينية، بلد بالمغرب منه أبوعلى الشلوبينىّ النحوى . وقال السيوطى فى بغية الوعاة : أبو على الإشبيلى الأزدى المعروف بالشلوبين ... وربما زيد بعدها ياء النسبة . (من كتابنا إعجام الأعلام) .

وابن السِّيد[١] ، وابن مالك[٢] ، وأبو حَيَّان[٣] .

مراتب العلوم عند الأندلسيين

كان أول ماعنى به أهل الأندلس علوم الشرع واللغة . أما الشرع فكانت رحلتهم فى طلبه سابقة على طلب غيره ، فأدرك رحالتهم كثيراً من فقهاء التابعين بالعراق ومصر والشام ، وما زالوا يجدون فى تحصيل علوم الدين ، حتى ضارعوا معاصريهم من أئمة المشرق ، وكانت لهم تآليف ضاهت ما كان لأفذاذ هؤلاء ، فمن ذلك فى التفسير تفسير الإمام أبى عبد الرحمن بَقِىّ بن مُخَلَّد ، وهو تفسير كبير ، قيل إنه لم يؤلف مثله فى الإسلام ، حتى فضل تفسير محمد بن جرير الطبرى ، وقد توفى ابن بَقِىّ سنة ٢٧٦ ﻫ .

ومن علماء الشريعة بالأندلس ، العارف بالله أبو العباس المُرْسِىّ ، كان مفسراً جليلا ، أخذ عنه العلم فى مصر تلميذه ابن عطاء الله السكندرى ، وقد مات أبو العباس بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ﻫ ، وقبره فيها مشهور .

---

(١) هو عبد الله ابن السيد البطليوسى ، كان عالما بالأدب واللغة متبحرا فيهما ، سكن مدينة بلنسية ، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرءون عليه ، وكان حسن التعليم جيد التفهيم ، وله كتاب « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وهو مطبوع ، توفى سنة ٥٢١ ﻫ . والسيد : الذئب ، سمى به الرجل (من كتابنا إعجام الأعلام) .

(٢) سيمر بك كلام عنه فى الحديث عن العلم بمصر أيام المماليك .

(٣) محمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى النفزى (نسبة إلى نفزة — بالفتح — وهى قبيلة من البربر) وهو نحوى عصره ، ولغويه ، ومفسره ، ومحدثه ، ومقرئه ، ومؤرخه ، وأديبه ، سمع بالأندلس وإفريقية ومصر والحجاز وغيرها ، وتولى التدريس بمصر بالمنصورية . وكان يقرئ بجامع الأقمر ، وكان فصيح العبارة ، وقد أخذ العربية بمصر عن البهاء بن النحاس ، وأخذ عنه أكابر عصره ، وتقدموا فى حياته كالشيخ تقى الدين السبكى ، والجمال الأسنوى ، وابن قاسم ، وابن عقيل وغيرهم ، وكان له إقبال شديد على أذكياء الطلبة ، وكان ثبتا صدوقا حجة سالم العقيدة من البدع الفلسفية ، كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن ، وهو الذى جرأ الناس على مصنفات ابن مالك ، وشرح لهم غامضها وألف كثيرا ، ومات بمصر سنة ٧٤٥ ﻫ .

ومنهم أيضاً ، الفقية الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وله كتاب التمهيد ، وكتاب الاستيعاب .

وفى علم الحديث ، اكتفوا بخدمة كتب السنة الستة[١] ، التى وضعها أئمة المشارقة فلم يكن لهم عمل إلا خدمتها بالشرح خصوصاً صحيح مسلم. ومن علمائه القاضى عياض، صاحب كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، وكتاب مشارق الأنوار فى غريب الصحاح الثلاثة (الموطأ والبخارى ومسلم) . وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ .

والفقه ، كانوا فيه على مذهب الإمام الأوزاعى مجتهد الشام، وذلك لما تعلم من أن جمهرة الراحلين إلى الأندلس من أهله، ولكن لما رحل كثير منهم فيما بعد إلى الحجاز، لأداء الحج ، ولقوا الإمام مالكا ، عجبوا من علمه وفضله ، فنقلوا مذهبه إلى بلادهم ، ثم ما زال يشيع حتى صارت عليه الفُتْيا والقضاء .

وقد كان اشتغالهم بالفقه كثيرا ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى كانوا يسمون الأمير العظيم الذى يريدون تنويهه (بالفقيه) و يقولون للنحوى والكاتب فقيه لأنها عندهم أرفع السمات، كما كان الشأن فى المشرق، إذ كانوا يصفون الكاتب والوزير (بالقاضى) ولو لم يكن ولى القضاء فى حياته ، كالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى .

وعلم الأصول عندهم ، متوسط الحال لم يعنوا به عناية المشارقة، ومن أشهر كتبهم فيه، كتاب الموافقات للشاطبىّ المتوفى سنة ٥٩٠ هـ ، وهو مطبوع بمصر .

أما علم الكلام ، فلم يكن له عندهم رواج (ومثله فى ذلك علوم الفلسفة) لأن القوم على فطرتهم ، وهم من سلائل العرب ، لم يداخلوا أمما راجت فيها هذه العلوم ، كما كان ذلك بالمشرق حيث اختلط العرب بالفرس والهند وأصحاب الملل المختلفة . كذلك أبعدهم

---

(١) هى : صحيحا البخارى ومسلم ، وموطأ الإمام مالك ، وسنن أبى داود ، وسنن الترمذى ، وسنن النسائى (بفتح النون ، نسبة إلى نسا وهى بلدة بخراسان) .

عن علم الكلام والجدل ، عدم وصول مذاهب الخوارج إليهم ، وهم أمويون لا تروج فيهم مذاهب الشيعة ، لذلك نجوا مما تورط فيه المشارقة من اختلاف وتشعب آراء ، وإن كان قد تسرب إليهم مذهب المعتزلة ، ولهم فيه تآليف .

وأما علوم اللغة ، فقد كانوا فيها جميعاً عيالا على المشارقة ، إذ معول هذه العلوم على الرواية، وهم أبعد الناس عن مواطنها، ولكنهم فيما بعد — حين تمت الرواية — صار لهم فى هذه العلوم تآليف ، تضارع ما للمشارقة بل ربما فاقتها ، ففى الأدب، يعد كتاب «العقد الفريد» مثال حسن النظام والتبويب إلى أيامه ، وهو من عمل الأندلسيين ، ألفه أحمد ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ .

والنحو ، كذلك بدءوا به ناقلين عن أئمته، ثم لما انصرف العلماء بالمشرق والمغرب إلى درس ما حفظ لديهم ، من شواهد كلام العرب ، استظهر الأندلسيون آراء كثيرة ، وخالفوا أئمتهم من البصريين والكوفيين ، وشاعت أقوالهم بالمشرق ، وقد عددنا فى الفصل السابق كثيراً من علمائهم .

أما البلاغة ، فلاتصالها فى علمى المعانى والبيان بالدقة الفلسفية لم يكن لهم فيهما كبير فضل ، إذ هم منصرفون بفطرتهم عن التعمق .

وأما البديع،فلبعده عن هذه الدقة ، ولعلاقته بالألفاظ غالباً،كان لهم فيه أثر عظيم، هم وأهل المغرب ، وقد فاقوا فيه المشارقة ، باستنباط أنواع منه ، لم يكن يعرفها هؤلاء .

وفى علم اللغة، أبلوا أحسن بلاء، وظهر على أيديهم كثير من الكتب، التى تعد الآن من أهم مراجع اللغة ، كمختصر العين للزُّبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ ﻫ ، والمخصص والمحكم لابن سِيدَهْ المتوفى سنة ٤٥٨ ﻫ .

ومن علمائها أيضاً ، الأعلم الشَّنْتَمَرِىّ المتوفى سنة ٤٧٦ ﻫ ، وله شرح الشعراء الستة وشرح ديوان زهير ، وشرح كتاب سيبويه .

ومنهم ، ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِىّ المتوفى سنة ٥٢١ ﻫ ، كان ثقة فى اللغة، ألف كتاب

«المثلث» فى مجلدين و «شرح سقط الزند» (وهما معدومان) و « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » ، وهو شرح واف لكتاب «أدب الكاتب لابن قتيبة الدِّينَورِىّ» المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، والاقتضاب كأدب الكاتب مطبوع .

وكانت لهم بالتاريخ عناية فائقة وتحصيل جادّ ، وقد ظهر ذلك فى أدبهم من نثر وشعر فقد كثرت إشاراتهم إليه ، وضربهم المثل بحوادثه ، لا يستثنون نوعا منه ، ولا يقصرون فى باب من أبوابه ، فمن ذكر للأعلام ، إلى سرد للحوادث ، ما كان منها عربيًّا أو غير عربى ، ترى ذلك ظاهراً فى رسالتى ابن زيدون وغيرهما .

ومن أشهر مؤلفيهم فيه، ابن حَيّان[1] صاحب « المبين » فى ستين مجلداً ، والمظفر ابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس ، وله كتاب «المظَفَّرىّ» فى خمسين مجلداً . ولهم كتب فى طبقات العلماء والأدباء ، فمن ذلك كتاب «طبقات الأمم» للقاضى أبى القاسم صاعد ابن أحمد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ، ذكر فيه تاريخ العلوم عند جميع الأمم ، وعد علماء كل أمة (والكتاب مطبوع) ولابن بَسّام الشَّنْتَمَرِىّ المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهو تاريخ الأندلس وآدابها فى القرن الخامس للهجرة[2]، ومنه جزءان مخطوطان فى دار الكتب المصرية ، والثالث فى برلين ، والرابع مفقود[3] ، ولابن بَشْكُوال أبى القاسم خَلَف الخزرجى الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، كتاب «الصلة» جعله ذيلا لتاريخ علماء الأندلس لابن الفَرَضِىّ المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، الواقع فى عدة مجلدات ، لم ينشر منها إلا السابع والثامن فى مدريد ١٨٩٢ م ، وقد طبع كتاب «الصلة» فى مدريد فى مجلدين، وبه ١٤٤٠ ترجمة، وقد ذيله

---

(١) هو أبو مروان حيان بن خلف ...... بن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ . ويظن أن كتابه هذا بمسجد تونس .

(٢) وقد قسم المؤلف كتابه أربعة أقسام : الأول فى أدباء أهل قرطبة وما يضاف إليها من بلاد أواسط الجزيرة ، والثانى فى أدباء الجانب الغربى من الأندلس من إشبيلية إلى ساحل البحر المحيط ، والثالث فى أدباء الجانب الشرقى ، والرابع فيمن طرأ على الأندلس من الأدباء .

(٣) ذكر المستشرق (جمس هيورث دن) أن الكتاب بتمامه فى مكتبة باريس .

ابن الأبّار المتوفى سنة ٦٥٨ ه فى كتاب سماه «تكملة الصلة» وقد طبع فى مدريد فى مجلدين فيهما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها ، وشعرائها .

وللفتح بن خاقان المقتول سنة ٥٣٥ ه ، كتابا « قلائد العقيان » ، و « مطمح الأنفس» فى أخبار الوزراء ، والكتاب ، والعلماء ، والشعراء.

ولقد بلغ من عنايتهم بالتاريخ، أن أرخوا المدينة الواحدة فى كتاب ، كما فعل لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غَرناطة » .

ومن المؤرخين ، علىّ بن موسى بن سعيد المغربى الشاعر الرحالة الغَرناطى، رحل إلى مصر والشام و بلاد العراق والحجاز ، ودوّن مشاهداته فى مؤلفات بقى منها « المُغْرب فى حلى المغرب » فى خمسة عشر مجلدا ، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه ، فى ١١٠ سنة . وكتاب « المشرق فى حلى المشرق » فى ستين جزءا ، وهذا مفقود ، وتوفى ابن سعيد فى دمشق سنة ٦٧٣ ه .

ومنهم ، لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وهو فى مجلدين مرتب على حروف المعجم ، ابتدأه المؤلف بمقدمة عن ولاية غرناطة وعادات أهلها وشرح كثير من أحوالهم على أيامه ، وعبارته مسجوعة ، وتراجمه طويلة ، وآخرها ترجمة المؤلف لنفسه ، وهو خاص بمشهورى غرناطة ، عاصمة ملك بنى الأحمر .

ولقد بلغ أيضاً من عنايتهم بالتاريخ ، أن نظموه شعرا ، كما فعل أحمد بن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ ه صاحب العقد الفريد ، فإنه نظم حروب عبد الرحمن الناصر ، وسبقه إلى نظم التاريخ يحيى بن حكم الجيّانى ، المتوفى سنة ٢٥٠ ه ، فقد ذكروا أن له تاريخا منظوما .

أما العلوم الكونية ، فأنهم بعد أن توطد الملك لبنى أمية، تحركت همم الناس لطلب العلوم ، ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع، إلى قريب من وسط المائة الرابعة ، ثم كان

أن جمع المستنصر من كتبها كثيرا فى مكتبته التى مر بك ذكرها ، فلما تولى بعده ابنه هشام وكان غلاما لم يحتلم بعد ، وتغلب على تدبير ملكه حاجبه ابن أبى عامر[١] ، عمد إلى خزائن كتب المستنصر ، وأبرز ما فيها من التآليف بمحضر من علماء الدين ، ثم أمر بإخراج مافيها من كتب العلوم القديمة ، فى المنطق والنجوم وغيرها من العلوم الكونية والفلسفية ، ما عدا الطب والحساب ، ثم أمر بإحراقها وإفسادها ، فعل ذلك تحبباً إلى العامة ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكل من قرأها اتهم بالخروج عن الملة ، ورمى بالإلحاد فى الشريعة ، فسكن بذلك أكثر من تحرك للحكمة ، وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ، ومضى الحال على انصراف الناس عن علوم الحكمة إلا قليلا فى أيام ملوك الطوائف ، فإن اشتغالهم فيها بأنفسهم ، وتحصر البلاد قليلا ، جعل الرغبة ترتفع فى طلب العلوم القديمة شيئاً فشيئاً ، وقد ذكرنا كثيراً من حكماء الأندلس فى الفصل السابق فارجع إليه .

شأن العربية بالأندلس

علمت أنه قد نزح إلى الأندلس بعد فتحها كثير من العرب ، حتى لم تبق قبيلة إلاولها بالأندلس فروع ، اتسعت لهم البلاد ، ورغّبهم فيها إمراع جنابها ، وغَدَق سُقياها.

---

(١) هو المعروف بالمنصور المعافرىّ ، وقد حاول أن يزيد فى نفوذه فاستقدم طوائف من البربر ، وجعل منهم جندا ، وبنى لنفسه مدينة الزاهرة ، وأمر أن يحيا بتحية الملوك ، ودعى له عقب الدعاء للخليفة ، وكتب اسمه على النقود ، توفى سنة ٣٩٢ هـ . وتتابع الأمر فى ولديه : عبد الملك المظفر ، ثم عبد الرحمن الملقب بالناصر ، وهو الذى ثار به العامة ، وخلعوا الخليفة الذى كان يؤيده ، وهو هشام المؤيد، وولوا ولده فقتل وزيره عبد الرحمن بعدعودته منغزوته، وبذ انتهى تسلط آل المعافرى .

كثرت جالية العرب بهذه البلاد ، وانبثوا فى نواحيها ، فتبعتها لغتهم حيث حلوا ، وكان لـكثرتهم أثر فى تغلب لسانهم على لسان أهل البلاد ، ثم كانوا هم الفاتحين الظافرين والحكام القاهرين ، فدخل الناس فى دينهم ولغتهم أفواجًا ، إذ كان الإسلام منقذ الشعوب من سطوة الْغَشْم والاعتساف ، السائدين فى هذه الأزمان ، فأقبل الناس على الإسلام يحتمون بعدالته ، وينعمون بإنصافه ، فعمرت قلوبهم به ، وسالت على ألسنتهم لغته ، لأنها ظله الذى لايفارقه .

هذا هو شأن من دخلوا فى زمرة المسلمين ، فأما من بقى على دينه فإنهم احتاجوا إلى العربية لحاجتهم إلى الاتصال بالحاكم ، واستدرار خيره فى مقتضيات الملك ، من الخدمة بالـكتابة ، وولاية الأعمال ، وهذا شأن القوىّ الظافر فى كلّ حين ، يتملقه الخاضعون لسلطانه رغبة فى نفعه ، واتقاء لضرره ، ويقلدونه فى مظاهره ، التى يعتقدون أنها سبب نجاحه ؛ واللغة مظهر لصاحبها لا ينفكّ عنه .

نضيف إلى ما تقدّم ، أن الحكام الأولين كانوا من بنى أمية ذوى العصبيّة والنُّعَرة البـدوية ، وأنهم كانوا فى المغرب مثلهم فى المشرق يُعْنَوْن بمفاخر آبائهم ، ويترنمون بأحاديثهم ، ويُحْيُون ذكرهم ، ويجلسون للأدب مجالس يكونون هم مديرى حوارها ، ورواة أخبارها ، وأنهم كانوا فصحاء لُسْناً ، وخطباء مصاقع ، وشعراء مجيدين ، فكان شأنهم هذا باعثاً للهمم على تحصيل اللغة والعناية بها ؛ فظلت حيناً من الدهر فتية لم يصبها وَهَن .

وهذا عبد الرحمن الداخل ، حكوا من أدبه وبلاغته فى الشعر والـكتابة والخطابة ، ما يجعله أديباً كبيرًا ، إلى جانب كونه ملكاً عظيمًا .

ولسنا نطيل بذكر أمثلة من هؤلاء الملوك والخلفاء ، الذين كانت العربية تحيا على ألسنتهم فى الشعر والنثر البليغين ، وتنال من معونتهم بمـا يخلعونه عليها من سلطانهم ويمدونها من جاههم ، ويكفى أن نشير إلى أن ملوك الأندلس وخلفاءها ، كان لهم فى هذا الباب شأن ، لم يعهد فى بنى أبيهم من الأمويين بالمشرق ، ولا فى العباسيين الذين

لا ينكر عَضْـــدهم للعلم والأدب ورفعهم لشأنهما ، فقد كثر الأُدباء والشعراء من ملوك الأندلس كثرة ظاهرة ، وفشت آثارهم الأدبية فُشُوًّا واضحاً ، حتى إن المؤلفين يذكرون أسماءهم ، ويوردون من آثارهم ما لا يقلّ عما يذكرونه لغـــيرهم من الأدباء ، الذين كان الأدب حرفتهم ومرتزقهم .

وهذا صاحب كتاب قلائد العقيان ، يجعل كتابه أقساماً ، فيكون القسم الأول منه فى محاسن الرؤساء وأنبائهم ، وذكر نمـاذج من مستعذب أقوالهم ، فيعقد تراجم مستوفاة عن المعتمد والمتوكل والمعتصم وغيرهم ، ويروى فيها من مختار شعرهم ، ما يدلّ على أن جملته لا بدّ أن تكون ديواناً وافياً متعدّد الأغراض .

على أن شيئاً شغل ملوك هذه البلاد بلغتهم ، ووجه منهم عناية زائدة إليها ، ذلك هو منافستهم للمشارقة، وتساميهم إلى أن يعدوا معهم ، بل طمعهم فى أن يفوقوهم، وهذه المنافسة قد تناولت كلّ شىء حتى أسماء البلاد فإنهم سموا حِمْص ، ودِمَشق ، وقِنَّسْرِين ، وفِلَسْطِين ، كما سموا فى الشعراء ابن هانئ وابن زيدون ، بمتنبى الغرب وبحتريه . وكما شبهوا المخزومى الشاعر الأعمى بأبى العلاء، حتى قال بعضهم فى الترحيب به حين قدم غَرْناطة :

يا ثانيا للمعـــــرى فى حسن نثر ونظم
وفرط ظرف ونُبْل وغوص فكر وفهم

وقد دعتهم هذه المنافسة، إلى أن يستدرجوا علماء الشرق وأدباءه ، وأصحاب الفنون فيه، إلى بلادهم ويرغبوهم بإغداق المال والجاه عليهم ، حتى يظهر للغرب فضل على الشرق ، وما ببعيد عنك حديث أبى علىّ القالىّ وزِرْياب المغنى وغيرهما ، وقد استنفد صاحب نفح الطيب أغلب الجزء الثانى ، فى ذكر هؤلاء الراحلين إلى الأندلس ، وبيان ما نالوا من إكرام .

⁂

و بعد ، فلسنا نرى فى الدلالة على حَدَب خلفاء الأندلس وملوكها على العربية ، وحرصهم على شيوعها ، أبلغ من أن هشام بن الداخل ، حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، وفى هذا معنى سام ، ودلالة واضحة على حبّ هؤلاء الملوك للغتهم ، وعملهم على سيطرتها، لتحكم الألسنة كما حكموا هم الأشخاص ، فهو لم يكتف بجعلها لسان الدولة الرسمى فى أعمال الدواوين والمحافل العامة ، حتى أتى بالبِدْع الذى لم يسبقه إليه أحد ، وهو أن يجعل العربية لغة الأسواق ، وحديث التعامل ، وحوار الباعة ، فلله درّ هؤلاء من ملوك ، أدركوا فضل لغتهم وعرفوا لها قيمتها !

فهل تعجب بعد ذلك ، إذا سمعت أن أهل الأندلس ، من عرب وعجم ومسلمين ونصارى و يهود ، صارت العربية لسانهم ، والتأدّب بها مرتقى هممهم ، لا يقتصر عليها المتعلمون ، ولا يختصّ بها الطامعون فى مراتب الدولة وولاية الأعمال ، حتى ذكروا عن أهل مدينة شلْب فى غربى الأندلس أنهم كانوا جميعاً يعانون الأدب و يقرضون الشعر، فالزارع وراء محراثه ، والصانع بين أدواته ، والتاجر فى متجره ، ينشدونك الشعر ، و يطرفونك بالخبر النادر ، و يخاطبونك بالعبارة المعجبة !!!.

وهل تعجب بعد ذلك، إذا سمعت أن كاهن قُرْطبة ، يشكو مرّ الشكوى ، من كونه لا يجد من أبناء جنسه وديانته ، من يعرف اللاتينية ليدرس بها الإنجيل وسير الأنبياء والحواريين !! وأنه يأسف جدّ الأسف ، أن صار كلّ الشبان المسيحيين ذوى المواهب لايعرفون إلا العربية ! فهم يقرءون كتبها بشغف زائد ، و ينفقون فى سبيل جمعها المال الطائل ، حتى كان من نتائج هذا، أن القسوس ترجموا كتب الدّين عندهم إلى العربية، ليقرأها أبناء دينهم حتى لا يفوتهم الدّين كما فاتتهم اللغة ! .

ومن هذا يظهر لك السرّ فى تأثير العربية فى اللغة الأسبانية إلى اليوم ، فى ألفاظها واتجاه أدبها ، لأن القوم حين عادوا إلى لغتهم ، بعد خروج العرب من بلادهم ، عادوا

إليها ، وقد انطبعت العربية على ألسنتهم ، واستولت أساليبها على ملكاتهم ،وامتزجت أخيلتها بنفوسهم .

ونرى فى اللغة الأسبانية اليوم ، ألفاظاً كثيرة أصلها عربى ، حرّف إلى لغتهم فمن ذلك كلمات: المخزن ، والبر أو الضاحية ، والبوق ، والساقية ، والكنز ، والكيمياء ، والجبل ، والصدر ، والمصطبة . وغير ذلك .....

لغة التخاطب

علمت مما ذكرنا فى فصول سابقة ، أن العناصر التى كانت تتألف منها الأمة المحكومة بالعرب فى بلاد الأندلس ، هى ثلاثة عناصر :

١ — العرب ، الذين دخلوها فاتحين ، والذين نزحوا إليها من الشام وغيره ، من قبائل المضرية واليمانية .

٢ — البربر ، الذين ظلّ العرب يعانون أمرهم ، ويختلطون بهم منذ اختطّ عُقْبة ابن نافع مدينة القَيْرَوان سنة ٥٠ هـ ، وقد أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا ، وكان ذلك منهم اثنتى عشرة مرة ، كما يذكر المؤرّخون ، ثم ثبتوا على الإسلام ، وتلوا قرآنه متعبدين ومتفقهين فى دين الله .

٣ — سكان البلاد ، الذين قبلوا الإقامة بين ظَهْرانَىْ العرب ، راضين بحكمهم ، مغتبطين بعدالتهم ، من نصارى ويهود . وقد أقبل عليهم العرب الفاتحون ، ينتفعون بمواهبهم، فى إدارة البلاد ، خصوصاً اليهود منهم الذين أظهروا للفاتحين إخلاصاً أدى إلى الثقة بهم والاستنامة إليهم ، فكان من نتائج ذلك أن تولى الوزارة فى غَرْناطة اليهودى المعروف بابن نَغْذَالة ، استوزره ابن بَادِيس صاحب غَرْناطه، ولكن المسلمين قتلوه فى مذبحة هائلة ، قتلوا فيها أربعة آلاف يهودى سنة ٤٥٩ هـ ،

لما كان من تعدّى الوزير على الدّين الإسلامىّ ، وتعرضه له بالتسفيه لبعض أحكامه .

ولقد كان العنصر الغالب فى هذه العناصر ، هم العرب الذين كثرت جاليتهم بالأندلس ، حتى لم تبق قبيلة إلا ولها بالأندلس بطون كثيرة ، بل لقد فقدت بعض الأنساب بالمشرق ، واتصلت فى الأندلس ، كما هو الشأن فى نسب الأنصار ، فإنه مع انقطاعه بالمدينة ذاتها ، كان بالأندلس متصلا ، و بها منه جمّ غفير .

لذلك لايعدّ مستغرباً أن نحكم بأن اللغة العربية ـ فصيحةً ومحرفةً ـ كانت هى اللسان العام ، للتخاطب بين أهل هذه البلاد ، منذ فتحها أو بعده بقليل .

فأما القبائل العربية ، فكانوا يتخاطبون بالفصحى ، لايشوبها إلا شوائب هينة من اللحن ، إن كان قد أصابهم ـ أو بعضاً منهم ـ نصيب منه ضئيل . لأن الملكات إلى زمن الفتح ، لم تكن فسدت بالمشرق فساداً يبعد لغة التخاطب من أصلها ، و يجعلها لغة أخرى متميزة منها .

وأما البربر، فقد كان عهدهم بفتح العرب لبلادهم بعيداً ، وقد أسلموا وسمعوا القرآن، وتعبدوا بتلاوته ، فلا بدّ أنهم استطاعوا التخاطب بالعربية محرفة مدخولة، كما كانوا على ذُكْر للغتهم البربرية، يتحادثون بها فيما بينهم إن أرادوا، ولا نستدّل على كون العربية قد صارت لهم لغة يتكلمون بها ، و يفهمونها بأ كثرمن كون طارق بن زياد ، وهو منهم، قد نسبت إليه هذه الخطبة البليغة، التى لاتقلّ عن كلام فصحاء المشارقة فى زمنه ، على أنه إن صحّ أن ندعى أنه فذ فى ذكائه وحذقه لما يلقنه ، وأن العربية تمت له ملكتها على وجه غير مألوف ، فلا يقاس عليه غيره ، ولا يوزن به سواه من قومه ، فإننا لا ننسى أنه خاطب بها اثنى عشر ألفاً من البربر ، فحرك من هممهم ، و بسط نفوسهم فأجابوه « قد قطعنا الأمل مما يخالف ما عزمت عليه ، و إنا معك و بين يديك » .

أما أهل البلاد من النصارى واليهود الذين لم يفرّوا من وجه العرب ، فقد كانوا فئة مستضعفة بالقياس إلى العرب والبربر ، فلا بدّ أنهم لم يلبثوا حتى دانت ألسنتهم

لحكم العربية، كما دانت قلوبهم لحكم أصحابها ، فصارت العربية لغتهم التى بها يتخاطبون، وغير مستطاع أن تصر فئة ضعيفة مستكينة ، على التمسك بلغتها، مضادّة لتيّار جارف من اللسان العربى ، الذى يطغى عليها من كلّ جانب .

والقول الذى نراه ، يجمع فى وجازته كلّ هذه البرهانات التى قدمناها ، على كون العربية قد صارت لسان التخاطب بين عناصر الأمة الأندلســية ، وأنه قد تقدّم بها الحال، حتى شملت جميع الداخلين فى حكم العرب بهذه البلاد، هذا القول ، هو الحكم الذى أصدره هشام بن عبد الرحمن الداخل ، يوجب فيه على جميع اليهود والنصارى المعاشرين للعرب، أن يتخاطبوا بالعربية ، وأن يهملوا لسانهم الأصلى ، فلولا أنه كان يثق باستطاعتهم تنفيذ أمره ، لكان أمره لَغْوا ، ومحاولته غير مجدية ، على أنه ربما كان هذا الإيجاب إيجاباً للفصحى ، و إلزاماً المعرب ، فيكون ذلك أمراً عجباً ، وتكون الأندلس قد فاقت المشرق حقًّا ، إذ كان التزام الفصحى فى أيام هشام محالا بين المشارقة ، فإن ولاية هشام كانت بين سنة ١٧٢ م وســنة ١٨٠ ﻫ ، وهو زمن قد عرفت كيف ركبت الرطانة فيه ألسنة كثير من الخاصة فى بغداد وغيرها ، وقد ذكروا أن الحكم الأول الذى تولى بين سنة ١٨٠ م وسنة ٢٠٦ ﻫ ، استكثر من مماليك الصقالبة فى قصره ، وسماهم الخرس لعجمتهم، فلولا أن تلك العجمة أمر غير مألوف عندهم إذ ذاك ، ما خص هؤلاء بهذه التسمية .

وهذه حكاية مروية عن أبى على القالىّ ، أدلى فيها بملاحظة عنَّتْ له، وهو فى طريقه إلى الأندلس ، وكان قد سافر إليها سنة ٣٣٠ ﻫ فى زمن عبد الرحمن الناصر ، قال : « لما وصلت إلى القَيْرَوان ، وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم مُحاصّة[1] ، ومقايسة، قلت : إنْ نَقَص أهل الأندلس عن

---

(١) يقال تحاصوا ، وحاصوا : أى اقتسموا حصصا .

مقادير من رأيت فى أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عن مثلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان[1] فى هذه الأوطان ! قال ابن بَسّام : فبلغنى أنه كان يصل كلامه بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسى فى ذكائهم ، ودقة فهمهم . وكان يفرّ من مناقشتهم و يقول لهم : إن علمى علم رواية ، لاعلم دراية

فأبو علىّ لم يحتج إلى ترجمان فى بلاد الأندلس ، بل أعياه أمر أهلها ، و إحراجهم له فى مناقشاتهم الدالة على ضلاعتهم فى العربية ، وشدّة ذكائهم .

⁂

وكان الزمن كلما تقدم — بعد الفتح — ونزع العرب فى الأندلس إلى الترف ، وألفوا سكنى المدن ، لانت جلودهم وألسنتهم ، و بعدعهدهم بفصحاهم ، فانمازت لغة حديثهم عن لغة كتابتهم ، وصار إليها كل ما يصير إلى اللغات حين يفقد أهلها ملكاتهم : من تحريف ، وتصحيف ، و إهمال للإعراب ، واشتقاق على غير القياس العربى ، واستعمال لكلمات من الدخيل ، واختلاف فى نبر الحروف ولهجة النطق .

وكذلك الشأن فى خلطاء العرب ، من البربر وأهل البلاد : اضطربت فى ألسنتهم لغاتهم واللغة العربية ، فنشأت ألفاظ ليست من هذه ولا من تلك ، وحدثت منهم أساليب فى العربية يحاكون بها أساليب لغتهم التى درجوا عليها ، وهكذا حتى تألفت لغة جديدة تحمل سمات اللغات الأولى لهؤلاء المتخاطبين ، وتلك هى التى تسمى « اللغة العامية » .

فهذه العامية تحتاج إلى زمن فى تكوينها ، وتمام بنائها ، وتأصل ملكتها ، لذلك تراها فى بلاد الأندلس قد صارت كذلك بعد حين ، فغلبت على الألسنة حتى مايستطيع العالم النحوى ، الذى وعى علم العربية ، وحفظ شواهدها ، وفصل مسائلها أن يقيم لسانه

(١) ترجمان كعنفوان وزعفران وريهقان (الريهقان بفتح الراء وضم الهاء هو الزعفران) .

لحناً ! ذكروا ذلك عن الشَّلَوْبِينِيّ[1] . قال صاحب نفح الطيب فى معرض الكلام على علم النحو « والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، مع أن كلامهم الشائع فى الخواص والعوام ، كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى إن شخصاً من العرب لو سمع كلام الشَّلَوْبِينِيّ أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصره ، الذى غرّبت تصانيفه وشرّقت ، وهو يقرأ درسه ، لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب ، وأخذ يجرى فيه على قواعد النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات والمراسلات » .

ولكن هذه العامية التى صارت لسان الخاص والعام فى محادثاتهم ، كانت عامية مقبولة ، يغلب فى كلماتها العنصر العربى ، ويقل الدخيل ، ولا يشتد التحريف ، ترى كل ذلك ماثلا فى موشحاتهم ، وأزجالهم ، التى هى أدب عامتهم ، فأنت لا تكاد تعثر فيها بدخيل ، ولا بمحرف بَعُد من أصله كل البعد ، وإن كان إهمال الإعراب شائعاً فيها ، لأنه أول ظاهرة تبدو فى عامية اللغة العربية فى أى بلد نشأت .

على أن هذه الموشحات والأزجال ، لا ينبغى أن تعد مقياساً مضبوطا للعامية ، ولا مثالا صادقاً لما كانت عليه ، فإنها عامية الخاصة ، إذ كان أغلب قائليها من الشعراء المُعْرِبين ، الذين تبسطوا فى قولهم ، وتوسعوا فى أدبهم ، فقالوا الموشحات والأزجال ، فتكون لغة هذين الفنين هى عامية الأدباء ، وإن كانت لابد مفهومة للعامة ، لأنهم هم المقصودون بها فى الخطاب ، فهى تدل من قريب على اتجاه العامية فى أهل الأندلس ، فهى عامية غير مستغلقة ، ولا مستبشعة .

ونماذج هذه العامية ستراها — إن شاء الله — فى موضوع الموشحات والأزجال الذى سيمرّ بك قريباً .

---

(١) سبقت ترجمته ص ٣٦ .

الخطابة

إذا عرضنا أمام مخيلتنا تاريخ الأندلس ، وجدنا أنه منذ الفتح الإسلامى إلى حين انفضاض ملك العرب بهذه البلاد ، ظلت السيوف مشهورة ، والرماح مشرعة ، والأحقاد مضطرمة ، ولِلحرب حامية الوطيس ، يُؤَرِّث نارها ما جبل عليه أهل البلاد : من حَمِيَّة عربية لا تنام عن ثأر ، ولا تغمض على ضيم ، ثم ما دَبَّ بين المضرية واليمانية ، من تنافس ، وعصبية ممقوتة[1] كادت تقضى لأول عهد العرب بهذه البلاد على الثمرات الشهية ، التى جنَوْها بالفتح ، لولا أن تداركها ملوك بنى أمية ، بما أبدوا من صرامة فى ضبط الأمور .

وقد هدأت الحال بين العرب أيام خلافة الأمويين ، ثم عادت إلى أشد مما كانت عليه ، حين تمزقت البلاد بين ملوك الطوائف ، فظلت نار الفتنة مضطرمة لا تخمد حتى انتهت أيام العرب بهذه البلاد . أما ملوك الإفرنجة الذى سُلبوا ملكهم ، وتقوضت عروشهم ، فلم ينسوا حقدهم على العرب ، وظلوا ثمانية القرون — التى عاشها الإسلام هناك — لا يغِبّونهم إغارة ، واستباحة لثغورهم ، واقتطاعاً لما استطاعوا من بلادهم ، فلقى العرب فى هذه البلاد من كيد بعضهم لبعض ، ومن كيد العدو لهم ، عناء مُمِضًّا ، وشقاء متواصلاً ، لم يصبهم مثله فى أية ناحية من نواحى المملكة الإسلامية ، فلم يكن بدعا ما قاله أحد المؤرخين ، فى وصف هذه الحالة ، من أنه لم يبق شبر من الأرض لم يصبه دم قتيل ، ولم يمرّ يوم لم يكن فيه قتال .

---

(١) كان تنافس اليمانية والمضرية بالأندلس شديدا ، وكل طائفة تريد الاستئثار بالملك ، وقد اتفقوا أخيرا على تداول الرياسة بأن يليها المضريون سنة واليمانيون أخرى ، فتولى مقدم المضريين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فلما أمضى سنته جاءته اليمانية تطالب بحقها فبيتهم بأحدى قرى قرطبة ، وقتل منهم عددا عظيما واستبد بالبلاد ، وكانت الدولة الأموية قد سقطت بالشرق فلما جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ساعدته اليمانية سنة ١٣٨ هـ فحارب يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، وانتصر عليه ، وتم له ملك الأندلس.

ولقد استلزمت هذه الحال ألا يفتر الدعاة عن التحريض على الأعداء ، والتذكير بالأحقاد القديمة ، والإحَن الدفينة ، واستمالة الأنصار ، والوعد بالمكافأة عند إحراز النصر ، والحث على الاستشهاد فى سبيل الله ، إذا كانت الحرب بين مسلم ونصرانى أو يهودى ، حتى اتخذت حروب المسلمين لملوك النصارى ، صبغة الحروب الصليبية التى وقعت بالشرق .

وقد انضم إلى هذه الأسباب ، ما كان للقوم إبان الفتح من ملكات قوية ، وفصاحة بدوية ، ثم ما كان لهم بعد ذلك من حصافة وتحصيل للملكة ، بدارسة العلم ، وحفظ كلام العرب — وقد كانوا فيه غاية الغايات — حتى اتصلت فيهم موهبة البلاغة ، ودامت لهم ميزة الفصاحة .

لذلك كانت الخطابة عندهم شائعة ، دوّت بها ميادين قتالهم ، واهتزت منابر محافلهم ، ومجالس ملوكهم ، وسَفَرت بها سفراؤهم ، فى إعلان حرب ، أو عرض مهادنة ، أو صلح . وقد عرفوا لها قيمتها ، فقدموها على الشعر فى الحفل الجامع ، والمقام المشهود ، فقد تقدم الناصر إلى ابنه الحكم ، فى إعداد الخطباء والشعراء ، ليوم ملاقاة رسول ملك القسطنطينية ، وأن يقدم الخطباء على الشعراء فى الكلام ، لذلك كان للخطابة شأن عند هؤلاء القوم ، وبلغ من اهتمامهم بها أن تَلَقَّب علماؤهم بالخطيب ، كما تلقبوا بالفقيه .

وكان للخطابة مظهر آخر غير الحرب والصلح ، وهو الوعظ الذى حرص عليه ملوكهم ، لإصلاح شؤون رعيتهم ، وكان عندهم بمنزلة سامية ، كما كان عند أسلافهم من ملوك بنى أمية بالمشرق ، يحتفلون به ويكلونه إلى أعاظم قضاتهم ، وكبار علمائهم . ولم يكن وعظهم فاتراً ضيق المجال ، موزعا على المناسبات التى تمر فى أيام العام ، من حج وفطر وأضحى ، بل كان منبر المسجد مجتلى الحوادث العظام ، من استبشار بنصر ، أو حث على جهاد ، أو ردع عن منكر حدث ، وبدعة ظهرت ، بل لقد أدت الخطابة ماتؤديه اليوم الصحافة الجريئة المطلقة من كل قيد ، فإن المنذر بن سعيد ، قاضى قضاة عبد الرحمن الناصر ، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، لما رأى انهماك الخليفة فى

العناية بالزهراء ، وزخرفة قصورها ، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد ، خطب الناس فى هذا المعنى ، وعمد إلى تذكير الخليفة ووعظه وتقريعه ، على مافرّط فى جنب الله .

ذكر صاحب مطمح الأنفس،أنه ابتدأ خطبته بقوله تعالى «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ! ؟ . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ؛ و إذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ؛ وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[١]» ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل ، جاش به صدره ، وقذف به على لسانه بحره ، وأفضى فى ذلك إلى ذم المَشِيد والاستغراق فى زخرفته ، والسَّرَف فى الإنفاق عليه ، فجرى فى ذلك طَلْقا[٢] وتلا قوله تعالى «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ؟ . أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ[٣] هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ؟! وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَايَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير منه ، والدعاء إلى الله عزّ وجلّ فى الزهد من هذه الدنيا ، والحض على اعتزالها حتى بكى الناس ، وخشعوا ، وضَجّوا ، وتضرعوا ، فعلم الخليفة أنه المقصود ، فاستخذى ، وبكى ، وندم على ما كان منه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلا أنه وَجِد على المنذر، وشكا ذلك إلى أبنه الحكم، فقال له الحكم : وما يمنعك من عزله ؟ فزجره ، وانتهره ، وقال : بل يصلى بالناس حياتَه وحياتَنا .

والمنذر بن سعيد هذا موقف آخر . قالوا : إن الناصر لما احتفل لدخول رسول

---

(١) الريع : المكان المرتفع أو الطريق أو المنعرج منه فى الجبل . الآية هنا : برج الحمام ، أو أى بناء مرتفع . المصانع : مآخذ الماء ، أو القصور المشيدة ، أو الحصون . النعم (بالتحريك ويسكن) : الإبل والشاء ، أو خاص ، بالإبل والجمع أنعام ، وجمع الجمع أناعيم . شيد البناء : رفعه ، ولذلك شاده فى بعض كلام العرب .

(٢) جرى طلقا (بسكون اللام) : غير مقيد . أما جرى الفرس طلقا أو طلقين (بالتحريك) فمعناه شوطا أو شوطين

(٣) الجرف : بضمتين ويسكن ماجرفه السيل من الوادى ، وهار من هار البناء : أى هدمه فهار فهو هائر ، وهار مقلوب هائر .

ملك الروم وصاحب القسطنطينية بقصر قرطبة ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، يذكرون جلال مقعده ، ووصف ماتهيأ له من توطيد الخلافة ، فاختار الحكم أبا على القالى للخطابة فقام ، وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع ، فلما رأى منذر بن سعيد ذلك ، قام من تلقاء نفسه على دَرَج السلم ، فوصل ابتداء أبى على بكلام عجيب قال منه :

أما بعد، فإن لكل حادثة مقاما ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإنى قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا إلى بأسماعكم ، وأمّنوا علىّ بأفئدتكم .

معاشر الملإ ! إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى فى أسمائه ، وتقدس بصفاته ، أمر كليمه موسى ، صلى الله على نبينا وعليه ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، أن يذكر قومه بنعم الله عز وجل عندهم ، وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم ، وتلا فيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى أمنت سربكم ، ورفعت خوفكم ، وكنتم قليلا فكثركم ،ومستضعفين فقواكم،ومستذلين فنصركم .... ولاه رعايتكم ، وأسند إليه أمانتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَل النفاق ، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ، ونكد العيش ، والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى كنف العافية بعد استبطان البلاء ، ناشدتكم يا معشر الملإ ! ألم تكن الدماء مسفوكة فَحَقَنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعَمّرَها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم ، بخلافته وتلا فيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوكم ، بطوية خالصة ، و بصيرة ثابتة وافرة ، وقد فتح الله عليكم أبواب البركات ، وقد توافرت عليكم أسباب الفتوحات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصَيْن والأدْنَيْن إليكم ، يأتون من كل فج عميق ، و بلد سحيق ..

واسترسل فى كلامه ، حتى انتهى كما ابتدأ بقوة لم تفتر ، وملكة لم تخنه ، فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، و بلاغة لسانه

وقد عاش منذر بن سعيد هذا فى القرن الرابع ، ومات سنة ٣٥٥ ﻫ بعد أن

ولى قضاء القضاة ستة عشر عاما ، وقد حفظ التاريخ قبل هـذه الخطبة خطباً رصينة ، وكلاما جزلا ابتكرته البديهة فى مجالس الخلفاء ، تحدثوا به إلى جلسائهم ، أو كان ردا على متكلمهم ، فجاء دليلا على صدق النسب العربى فى هؤلاء القوم ، وصار جديرا بأن يُوعَى كما وُعِىَ كلام الفحول ، من أهل الشرق فى عصرهم .

فمن ذلك ماحكوا ، من أن عبد الرحمن الداخل كان ببعض مجالسه ، فمثل بين يديه رجل من جند قِنَّسْرِين يستجديه قائلا له :

يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، و بك عذت من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قَلَّ المـال ، وكثر العيال ، وشَعِثَ الحال ، فصيِّر إلى نَدَاك المـآل ، وأنت ولى الحمد والمجد ، المرجو للرفد .

فأجابه عبد الرحمن ، على الفور :

قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقالك . فلا تعودن ــ ولا سواك ــ لمثله من إراقة ماء وجهك ، بتصريح المسألة والإلحاح فى الطَّلبة ، و إذا ألم بك خطب ، أو حَزَبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما تستر عليك خَلّتك ، وتـكفّ شَمَاتَ العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالـكنا ، عز وجهه بأخلاص الدعاء ، وصدق النية .

وحدث بعض مواليه الخاصين به ، قال : دخلت عليه على إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد ، وهو مطرق شديد الغم ، فرفع رأسه إلى وقال :

« ما عجبى إلا من هؤلاء القوم ! سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه مطلو بنا ، و يسر الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمام السيوف ، ولما أوىناهم ، وشاركناهم فيما أفردنا الله به ، حتى أمنوا ودَرَّتْ عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشَمَخوا بآنافهم ، وسَمَوْا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله ، فخذلهم بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا بالبرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، و إن أشد ما على" فى ذلك أخى ، والد هذا المخذول ، كيف تطيب

لى نفس بمجاورته بعد أن قتل ولده ، وقطع رحمه ، أم كيف يجتمع بصرى مع بصره ؟! اخرج إليه الساعة ، فاعتذر إليه ، وخذ خمسة آلاف دينار فادفعها إليه ، واعزم عليه فى الخروج عنى ، من هذه الجزيرة إلي حيث شاء من بر العُدْوة .

وحكوا عنه أنه لما فتح سَرَقُسْطة ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه ، أقبل بعض خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه له من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال له الأمير : والله لولا أن هذا اليوم يوم أَسْبَغَ علىّ فيه النعمة من هو فوق ، فأوجب علىّ ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى ، لأصليتك ما تعرضت له من سوء النَّكال . من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ، ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة . فقال الجندى : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزَّلة لا أعدمنيها الله . فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ... ورفع مرتبته ، وزاد فى عطائه .

ولقد تمثل فى الخطابة ماجرى على اللغة فى هذه البلاد من قوة ، وضعف ، وانطباع ، وتكلف ، وجزالة ، وتفكك ، فكانت على عهد الولاة الأولين بدوية جزلة ، ساذجة بريئة من التكلف ، تحكى أخلاق مرتجليها من صراحة ، وثقة بالنفس .

ثم لانت فى القرن الرابع ، بلين المدنية ، وزخرفت بالسجع المقبول ، الذى يعتمد على ملكة ، ويرجع إلى امتلاء بالمحفوظ ، وزادت على سابقتها بصدورها عن فكر مهذب ، غذته العلوم ، وحنكته السياسة ، وأخصبته حوادث التاريخ ، فدقت إشاراتها ، وغزرت معانيها .

وفى آخر أيامها — حين فترت الهمم ، وتضاءلت العناية بالعلم ، وفسدت الأذواق ، وضاعت الملكات — بانت فيها نتائج ذلك كله ، فأصبحت ظاهرة التكلف ، ممقوتة السجع ، محشوة البديع ، محصورة الأغراض غالباً فى خطب الوعظ المرتب على أيام العام ، وخطب الإملاك المحفوظة الصيغة ، وهان أمرها ، فوكلت إلى صغار العلماء الذين لم يستطيعوا الارتجال ، ولم يقوَوا على الابتداء ، فكانوا يُعدون الخطب وتُعد لهم ، ومن أجل ذلك ظهرت بينهم

كتب الخطب ، كما ظهرت بالمشرق ، فكان همهم فى حفظها ، و إلقائها فى مناسباتها .

وقداشتهر بالخطابة جماعة ، منهم ابن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ ﻫ ، وسهل بن مالك من أهل القرن السادس ، وأحمد بن الحسن الزيات المتوفى سنة ٧٢٨ ، وله خطبة محذوفة الألف تجدها فى الإحاطة (جزء أول صفحة ١٥٣) وابن أبى رندقة الطُّرطُوشى المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ ﻫ .

وممن جمع الخطب فى دواوين ، الحافظ أبو الربيع الكَلاَعى(١) ، من أهل القرن السابع .

الكتابة عند الأندلسيين

إنما تتكون الكتابة عند أهل إقليم من الأقاليم ، بأسباب ومؤثرات أحاطت بهم ، فجعلتهم بالمثابة التى كانوا عليها من سهولة فى اللفظ أو خشونة ، وتوعر فى الأسلوب أو إسجاح ، و بساطة فى الخيال أو تركيب .

و بتبدل هذه المؤثرات ، عند أهل الإقليم الواحد ، تنتقل كتاباتهم من حال إلى حال ، ويظهر فيها كل مايعترى الأمة من ضعف وقوة ، وما غلب عليها من علم أو جهل ، وما شاع فيها من عادة أو رأى .

١ — لأهل الأندلس إقليم جميل البقعة ، خِصب الجناب ، تَرِفّ ظلاله ، وتتدفق أنهاره ، وتتعالى هضابه ، يتوجها الثلج و يكسوها النبات . وقد أُغْرِم القوم بجمال طبيعتهم ، ومحاسن قطرهم ، فعكفوا على وديانهم النضيرة ، ونُزَههم المَوْشِيّة ، يستجلُون محاسنها ، و يتملئون من جمالها ، فكان لهم من ذلك خيال واسع ، لم يستطيعوا كَبْتَه فى نفوسهم ، وقصره على مجاله الذى عرف له ، وهو الشعر ، بل طغى على أقلامهم ، وشاع فى كتاباتهم ، حتى لقد صاغوا به بعض الحقائق العلمية ، يقربونها من العقول فى صورة من الخيال ، ممتعة تروق النفوس ، كما فى رسالة حىّ

(١) الكلاع كسحاب موضع بالأندلس .

ابن يقظان لابن الطُّفَيْل ، فإنه فيها يقرر ـ بقالب روائى ـ ما كان يعتقده من تدرج الإنسان ـ فى مراتب الكمال ـ من حال إلى حال . وقد تجلى هذا الخيال كذلك فى رسائلهم التى أنشأوها فى الحوار بين المدن ، كرسالة أبى بحر صَفْوان بن إدريس ، التى كتبها للأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ، أو التناظر بين أنواع الحيوان ، وأصناف الأدوات ، كالمناظرة بين السيف والقلم ، لابن بُرْد الأصغر ، التى يقال إنها أول مناظرة بينهما على يد الأندلسيين ، ثم اقتبس الشرق منهم تلك الطريقة .

ولا يقدح فى ذلك ماتعرفه من التناظر ، بين صاحب الكلب وصاحب الديك ، الذى وقع فى كتاب الحيوان للجاحظ ، فإن ذلك مثال مفرد ، لايقاس إلى ما كثر وشاع ، وجرى على كل لسان بين أهل الأندلس ، لذلك ذكروا به دون غيرهم .

٢ — وكان لهذه الطبيعة المرحة ، وتلك الرياض البَهِجة ، والزهر الضاحك ، والبلبل المغرد ، والعيش الرَّغْد ، أثر آخر فى نفوسهم ، فظهر على ألسنتهم ، وامتلأت به رسائلهم ، وهو الفكاهة والهزل ، لايتورع عنه عظيم ، ولا يعف فقيه . وأقرب مثال له ، رسالة ابن زيدون الهزلية ، على لسان وَلَّادة بنت المستكفى ، إلى الوزير أبى عامر الملقب بالفار ، يتكلم فيها على لسان ولادة ، محدثة عن عجوز أبى عامر ، التى جاءت تستدرجها إليه ، وأولها :

أمّا بعد ، أيها المصابُ بعقله ، المتورِّطُ بجهله ، البيِّنُ سَقَطُه ، الفاحش غَلَطُه(١) ، العاثرُ فى ذَيْل اغتراره ، الأعمى عن شَمْس نهاره ، الساقطُ سُقوطَ الذُّبابِ على الشراب ، المُتَهافِتُ تَهافُتَ الفَرَاشِ على الشِّهاب . فإنّ العُجْبَ أَكْذَبُ ، ومعرفة المرء نَفْسَه أَصْوبُ ، وإنك راسلْتَنى مُسْتَهْدِيًا من صلتى

---

(١) المتورط : الواقع فى الورطة ، وهى الوحل أو الهلاك أو كل أمر يعسر الخلاص منه . السقط : ردئ المتاع ، وكل مالا خير فيه ، والفضيحة ، والمراد هنا الفضيحة . الغلط : خاص بالخطأ فى المنطق ، كما أن الغلت : هو الذى يكون فى الحساب .

ماصَفِرَتْ منه أَيْدى أمثالك ، مُتَصَدِّيًا من خُلَّتى لما قُرِعَتْ دونه أُنُوفُ أَشْكالك[١] ، مُرْسِلاً خليلتك مُرْتَادَة ، مستعمِلاً عشيقتك قَوَّادَة ، كاذبا نَفْسَك أَنَّك سَتَنْزِلُ عنها إلىَّ ، وتَخْلُف بَعْدها علىّ ....

وَلَسْتَ بأَوَّلِ ذى هِمَّةٍ دَعَتْهُ لما لَيْسَ بالنائِلِ

ولا شَكَّ أنها قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضِنَّ بك ، ومَلَّتْك إذ لم تَقِرَّ عليك[٢] ، فإنها أَعْذَرَتْ فى السِّفارة لك ، وما قَصَّرَتْ فى النيابة عنك ، زاعمةً أَنَّ المروءَةَ لفظٌ أنت معناه، والإنسانيةَ اسمٌ أنت جِسْمُهُ وهَيُولاهُ[٣] !! قاطعةً أَنَّك انفردْتَ بالجمال، واستأْثَرْتَ بالكمال ، واستعْلَيْتَ فى مراتب الجَلال ، واستولَيْتَ على محاسن الخِلاَل ، حتى خَيَّلَتْ أنَّ يوسف — عليه السلام — حاسَنَكَ فغَضَضْتَ منه ، وأَنَّ امرأَةَ العزيزِ رَأَتْكَ فَسَلَتْ عنهُ ، وأَنَّ قارون أصابَ بَعْضَ ما كَنَزْتَ ، والنَّطِف[٤] عَثَرَ على فَضْل ما رَكَزْتَ » .

٣ — وكان لأهل الأندلس — كما علمت — حرص على حفظ كلام العرب ، ورواية أخبارهم ، ودراسة أيامهم ، وعَدّ مفاخرهم ، كما كانت لهم عناية بالعلوم الإسلامية وغيرها ، يحصلونها برغبة أكيدة ، ويجمعون كتبها بشغف زائد ، فنشأ عن ذلك فى رسائلهم ثلاثة مظاهر :

(أولها) ما ضمنوه كلامهم من مثل ، أوحكمة ، أو شعر مشهور ، أو ما اقتبسوه من آى القرآن الكريم ، وحديث رسول الله، يُحَلُّون به صدور كلامهم وفصوله،

---

(١) يقال فى المثل ، هو الفحل لا يقرع أنفه : للخاطب الكريم ، أى أنه لا يرد ، لأن الفحل الكريم إذا دنا من الناقة يريد وقاعها لا يرد عن ذلك . وقد تمثل بهذا المثل أبو سفيان ، حين بلغه زواج رسول الله من ابنته أم حبيب ، فرحا بذلك الصهر .

(٢) كلمة تقر ، وردت فى كل مصادر هذه الرسالة « تعز » ولا معنى لها ، والمعنى : أنها سئمت معاشرته فلم تستقر معه .

(٣) الهيولى : المادة الأصلية للصورة .

(٤) النطف : رجل من الجاهليين ، أصاب مالا لكسرى مرسلا من عامله ، فاعتدى عليه وسلبه .

وقد بالغوا فى هذا المقام، حتى رأينا لابن زيدون رسائل، يكاد لا يكون له فيها غير التأليف بين شارد هذه الأمثال والحكم ، ولـكنه كان فى ذلك بارعاً كل البراعة، لاستطاعته أن يؤلف من شتات ما جمع ، صـورة تدل على ما فى نفسه ، من معان ، وأغراض .

(وثانى هذه المظاهر) ما كثر فى رسائلهم من الإشارة إلى حادثة تاريخية ، أو مفخرة مأثورة ، أو يوم مشهود ، حتى غمض كلامهم بسبب ذلك على من كان قليل البضاعة فى هذا الباب ، واحتاج الدارس له إلى التعقيب والتفصيل لما أجمل ، وقد استلزم هذا فى بعض الرسائل أن يكون شرحها كتابا جليلا يحتوى على كثير من أيام العرب ومفاخرهم ، والتعريف بأعلام رجالهم ، وترى ذلك فى كتاب « سَرْح العيون » لابن نَباتة المصرى فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية.

(وثالث هذه المظاهر) ما شاع فى كتابتهم من التورية بأسماء العلوم ومصطلحاتها، وقد توسعوا فى ذلك حتى لم يكتفوا بالإشارة الظاهرة ، والمصطلح الشائع، بل تغلغلوا إلى ما يستعصى على غير المبرزين فيه .

٤ — وكان لأهل الأندلس زهد فى علوم الفلسفة ، ورغبة عن منطقها ، تأبى ذلك طبيعتهم الحرة المطلقة من كل قيد ، كما يأباه عليهم دينهم ، الذى اشتد تمسكهم به ، وحِرْصُهُم على أوامره ونواهيه ، ولقد كانت لهم فى ذلك شدة لم تعرف لغيرهم ، حتى لقد كانت تهمة الزندقة سريعة إلى كل من انحرف عن الجادة ، أو ظهر برأى يخالف جماعتهم ، فما كان أسرع أن يقتلوه ، أو ينفوه من بلادهم ، ويحرقوا كتبه فى ميادين المدن ، فعل ذلك عامتهم من تلقاء أنفسهم ، غير متريثين ولا متمهلين ، وتقرب به إليهم وُلاتُهم فى كثير من الأحيان ، بالمُثْلة بعالم ظهرت عليه ريبة ، فيكون دمه قُرْبانا عند هـذا الشعب الـكثير التعصب لآرائه فى الدين .

ولقد كان لهذا الحال أثر ظاهر فى كتابتهم ، فقد برئت من تعقيد أساليب

المنطق ، والتواء عبارات الفلسفة ، وغموض إشاراتها ، وكثرة ما احتاجت إليه فى فى المشرق ، من ألفاظ دخيلة ، وعبارات نابية ، جرّتها عليهم الترجمة عن اليونان وغيرهم .

لذلك كانت صفحة الكتابة عند الأندلسيين نقية تمثل فيها الفطرة ساذجة ، أو مهذبة التهذيب الذى تسمح به ثقافة عربية خالصة .

٥ — كذلك شاع فى كتابتهم الإطناب ، وكثر الترادف ، من أثر الفطرة السليمة ، واتساع الأساليب أمامهم وغناهم بالألفاظ ، كما كان لاعتمادهم على الخيال وسعة معرفتهم بالتاريخ ، أثر فى هذا الطول .

٦ — وترى أثر هذه العروبة والفطرة ، ظاهراً جليا فى عدم احتفالهم ــ كالمشارقة ــ بأنواع البدء والختام فى الرسائل ، و بتعويلهم فى الخطاب على الكاف والتاء ، كما ظهر فى الصياغة اللفظية ، واستعمال أنواع البديع ، فهم لم يفعلوا فعل المشارقة الذين تأثروا الفرس فى الحرص على التحسين ، حتى كثر فى كلامهم ، فصار الجمال به بشاعة ، والإحسان شناعة ، وألحوا على الغريب من أنواعه ، فعولوا على الاستخدام والتورية ، حتى اعتاص كلامهم . لم يفعل الأندلسيون ذلك ، بل تناولوا من أنواع البديع مايلتئم مع الطبع ، ولا ينافى الفطرة ، فأكثروا من السجع الذى يحسن به الإيقاع ، وترتاح له الأسماع ، وكثر فى كلامهم بعد عصر الولاة وصدر الدولة الأموية ، وما زالوا يكثرون منه ، حتى صار لازمة لا تفارق الأقلام فى أى مقام ، وتعدى الكتابة الإنشائية إلى عبارة التأليف ، فكثرت الكتب المسجعة، مع أنك لاتكاد تعد فى الشرق غير كتب العُتْبىّ، وعماد الدين الأَصفَهانى وابن عَرَب شاه . ولكن سجع المشارقة فى أواخر الدولة العباسية و بعدها ، كانت تظهر فيه الصنعة ، و يبين التكلف فى قرائنه الطويلة ، وفقره القلقة . فأما سجع الأندلسيين فهو خفيف مقبول ، قصير الفقرات ، قد انقاد لهم فأدّوا به أدق المعانى ، وصوروا ماخفى من الأغراض ، وكتبوا به التاريخ وتراجم الرجال،

فما اضطرتهم السجعة إلى نقص فى الحكم أو زيادة . وهذان كتابا قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان يمثلان ما نريد تسجيله لسجع الأندلس : من دقة فى الأداء ، وخفة فى الروح ، وجمال فى الإيقاع .

٧ — ولقد جرت على الأندلسيين نكبات شديدة ، فى نضالهم مع ملوك النصارى ، المجاورين لهم فى البلاد ، فأن كِفّة هؤلاء رجحت فى آخر أيامهم فاقتطعوا منهم بلادهم، وهتكوا حرماتهم،فجأروا بالدعاء إلى الله أن يرد عنهم كيد هؤلاء الأعداء ، وكثرت منهم الشكوى والتوسل برسول الله والصالحين من أوليائه والمتقدمين من عظماء ملوكهم ، الذين عرفوا فى حياتهم بالنجدة ، حتى لقد كتبوا الرسائل المطولة إلى هذه المقامات ، وأرسلوها مع الحجاج إلى قبر الرسول ، لتقرأ عنده ، وتعلق به ، كما فعلوا بها مثل ذلك عند قبور عظمائهم السابقين ، فكان ذلك غرضاً جديداً عندهم لم يعرفه المشارقة ، كما شاع فى شعرهم مثل ذلك من رثاء المدن ، التى اغتصبها منهم أعداؤهم .

٨ — و بقيت ظاهرة شاعت فى كل هذه الظواهر ، وترددت فيها ، فإن اللغة فى بلاد الأندلس لبثت فتية ، على حين شاخت فى المشرق ، واستمسكت فيها بكثير من فضائلها،مع ما أصابها هناك من انحلال وتفكك، وظلت عربية بريئة نقية ، على حين هاجمتها العجمة فى مقرها الأصلى ومنشئها الأول ، ترى تلك الظاهرة حين توازن بين كُتّاب من القرن السابع أو الثامن ـ مثلا ـ من أهل الأندلس ، ونظرائهم من أهل المشرق ، فإنك ترى للأولين قولا سائغاً ، وأدبا رائعاً ، وقوة تعبير ، وقدرة على التصوير ، على حين ترى كتابة الآخرين ـ حتى فحولهم المعدودين ـ متهافتة ، ساقطة لا تكاد تنهض بمعنى ، ولا تقوى على أداء .

وما السر فى ذلك إلا أن العرب بالأندلس نزحوا إليها، ولغتهم تامة السليقة ، بريئة الملكة ، ثم كانوا بهذه البلاد جمهرة غالبة ، وعنصرا شائعاً ، ولملوكهم الغلبة ، وعز السلطان ، وهم فى الجزيرة فى أمن من الطارئين الذين كان يطغى سيلهم بالمشرق على عربه ، فوقاهم الله شر هذا الاختلاط الذى جنى على غيرهم . ولا ننسى أن نوع ثقافتهم

وعزوفهم بطبعهم عن الفلسفة وعلومها ، كان له فى نقاء سليقتهم ، وصفاء طبعهم ، وسلامة لسانهم ، أثر غير منكور .

نمـاذج من كتابة الأندلس

— ١ —

من كلام أبى عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه القُرْطُبىّ ، صاحب « العقد الفريد » المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فى مقدمة كتاب الأجوبة من كتابه العقد :

هى أصعبُ الـكلام كله مَرْكَبا ، وأعزُّه(١) مَطْلبا ، وأغمضُهُ مَذْهباً ، وأضيقه مَسْلكاً ، لِأَنَّ صاحبهُ يُعْجَلُ مناجاةَ الْفِكْرة ، واستعمالَ القَرِيحَةِ(٢) يَرُومُ فى بديهتِهِ نَقْضَ ما أَبْرَمَ القائلُ فى رويّتهِ ، فهو كَمَنْ أُخِذَتْ عليهِ الفِجَاجُ ، وَسُدَّتْ عليهِ المخارجُ ، قد اعْتَرَضَ(٣) الأَسِنَّةَ ، واستهدفَ(٤) المَرَامِى ، لا يدْرِى ما يُقْرَعُ به فيَتَأَهَّبَ له ، وما يَفْجَؤُه من خَصْمه فيَقْرَعَه بمثله ، ولا سِيَّمَا إذا كان القائلُ قد أَخذ بمَجامع الـكَلامِ ، فقاده بزِمَامِهِ بعد أَنْ رَوَّى فيه واحْتَفَلَ(٥) ، وجمع خواطرَه واجْتهد ، وترك الرأى يَغِبّ(٦) حتى يَخْتَمِرَ ، فقد كَرِهُوا الرأىَ الفَطِير(٧) كما كَرِهُوا الجوابَ الدَّبَرِىّ(٨) فلا يزال فى نَسْجِ الكلامِ واستِئْنَاسِهِ(٩) ، حتى إذا اطمأَنَّ شارده ، وسكن

(١) هى من عز بمعنى قوى بعد ذلة ، أو بمعنى صار نادراً .
(٢) القريحة : الطبع ، وهى فى الأصل أول مايستنبط من ماء البئر ، وأول كل شىء .
(٣) وقف فى طريقها .
(٤) صير نفسه هدفا .
(٥) اجتهد وبالغ .
(٦) أى يمكث ، من قولهم غب عندنا أى بات ، ومنه « رويد الشعر يغب » أى لاتعجل بالشعر ، ودعه حتى تأتى عليه أيام ، فتنظر كيف عاقبته ، أيحمد أم يذم .
(٧) الذى لم يصدر عن روية .
(٨) الدبرىّ : رأى يسنح أخيراً عند فوت الحاجة ، ولعله نسبة إلى الدبرة (بالتحريك) وهو اسم من الإدبار ، بمعنى الهزيمة فى القتال .
(٩) استأنس : فعل لازم بمعنى ذهب توحشه . والذى يليق بسياق الـكلام هنا ، التأنيس والإيناس وهو إذهاب الوحشة ، فلعل الـكلمة محرفة عما ذكرنا .

نافره ، صَكَّ به خَصْمَه جملةً واحدةً ، ثم قيل له ، أَجِبْ ولا تُخْطِئْ ، وأَسْرِعْ ولا تُبْطِئْ ! فتراه بجوابٍ من غير أَناةٍ ولا استعداد ، يُطَبِّقُ المفاصلَ ، ويُنْفِذُ المَقاتل[1] ، كما يُرْمى الجَنْدل بالجندل ، ويُقْرَعُ الحديدُ بالحديد ، فيحُلُّ به عُراه ، وينْقُضُ مَرائِرَه[2] ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابة لبَّدَتْ عَجاجةً ، فلا شيءَ أَعْضَلُ من الجواب الحاضر ، ولا أَعَزُّ من الخَصْمِ الأَلَدّ الذى يَقْرَعُ صاحبه ، وَيَصْرَعُ منازِعَه ، كَمِثْل النار فى الحَطَب الجَزْلِ

— ٢ —

ولابن زيدون أبى الوليد ، أحمد بن عبد الله المخزومى ، الأندلسى القُرْطُبىّ ، المتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ ، يستعطف بن جَهْوَرٍ أحد ملوك الطوائف ، وكان قد انقطع إليه ، فخف عليه ، واعتمد عليه فى السفارات ، ثم تغير عليه ، فحبسه ، فاستعطفه برسائل كثيرة ، أشهرها هذه :

يَامَوْلاَىَ وَسَيِّدِى الذى وِدَادِى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضِىَ حَدِّ العَزْمِ ، وَارِىَ زَنْدِ الأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النعمة ، إن سَلَبْتَنى ، أَعزَّكَ اللهُ ، لِباسَ نعمائِك ، وعطَّلْتَنى من حَلْىِ إيناسك[3] وأَظمأْتَنى إلى بَرُود[4] إسعافك ، ونَفَضْتَ[5] بى كَفَّ حياطتك ، وغَضَضْتَ عنى طَرْف حمايتك ،

(١) أى يجعل السهام تنفذ منها ، مبالغة فى الإصابة فهى لم تصب فحسب ، بل مرت فيها وجاوزتها .

(٢) المرائر : جمع مريرة ، وهى الحبل الشديد الفتل .

(٣) مايتزين به من مصوغ المعدنيات أوالحجارة ، والجمع حلى كدلى فى جمع دلو ، أو هو جمع والواحد حلية كظبية ، ويصح أن تضبط بصيغة الجمع الماضى ، أوحلى كعرى ، والمفرد فيهما حلية بالكسر وهى نفس الحلى بالفتح .

(٤) البرود : الماء البارد ، والمعنى على تشبيه إسعافه بالماء البارد فى حسن الموقع ، وإروائه الغليل .

(٥) النفض : إزالة ماعلق بالشىء ، والباء فى بى للمصاحبة أى نفضت كفك نفضا مصاحبا لى أو للسببية أى أنه ماحمله على نفض كفه إلا رغبة التخلص منه ، ولوأنه قال « نفضت منى » ما احتجنا إلى كل هذا التأول ، ويساعد علي الظن بأن الأصل « منى » مايتم من الازدواج بينها وبين « عنى » فى الجملة التالية .

بعد أن نظر الأَعْمى إلى تأميلى لك(١) ، وسمع الأَصَمُّ ثنائى عليك ، وأحسَّ الجماد باستنادى إليك ، فلا غرو قد يَغُصُّ المـاءَ شاربَه ، ويقتلُ الدواءُ المستشفىَ به ، ويُؤْتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِه ، وتكونُ مَنيّةُ المتمنِّى فى أُمْنِيَّته ، والحَيْنُ قد يسبق جُهْد(٢) الحريص …

كلُّ المصائبِ قد تَمُرُّ على الفتى · وتَهُونُ غَيْرَ شماتَةِ الحُسَّادِ(٣)

وإنِّى لأتَجَلَّد ، وأُرِى للشامتين أنِّى لرَيْبِ الدهرِ لاأتضعضع(٤) ، فأقُولُ: هل أنا إلاَّ يدٌ أدماها سِوَارُها ، وجبينٌ عَضَّ به إكليله ، ومَشْرَفِىٌّ أَلْصَقَه بالأرض صاقلُه ، وسَمْهَرِىٌّ عَرَضه على النار مُثَقِّفُه !! وعَبْدٌ ذهب سيده به مَذْهَبَ الذى يقول :

فقسَا ليَزْدَجِرُوا ومن يك حازمًا فَلْيَقْسُ أحياناً على مَنْ يَرْحَمُ(٥)

هذا العتبُ محمودٌ عواقبُه(٦) ، وهذه النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثم تنجلى(٧) ، وهذه النَّـكْبَةُ سحابة

---

(١) مبالغة فى ظهور اعتماده عليه ، حتى رآه من لا يرى ، وفيه إشارة وتضمين من قول المتنبي :
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

(٢) الحين: الهلاك . الجهد : بالضم والفتح، الطاقة أو المشقة ، والمراد هنا المعنى الأول، وبعض اللغويين يجعل معنى المشقة خاصا بالفتح ، وهو أو الضم للطاقة . وقوله «قد يغص المـاء شاربه» من قول أكثم بن صيفى « من فسدت بطانته كان كمن غص بالمـاء » لأن من غص بالطعام لجأ إلى المـاء فإذا كان المـاء هو الذى أغصه فلا حيلة له. وقوله «يؤتى الحذر من مأمنه» هو من قول أكثم ابن صيفى — وقد عده صاحب مجمع الأمثال مثلا — « من مأمنه يؤتى الحذر » .
وقوله «والحين قد يسبق جهد الحريص» نصف بيت لعدى بن زيد ، وهو قوله :
قد يدرك المبطئُ مـن حظه والحين قد يسبق جهد الحريص

(٣) هو من كلام عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ، يعاتب ذا اليمينين .

(٤) التضعضع : الخضوع والذل والفقر ، وهذه الفقرة من قول أبى ذؤيب الهذلى :
وتجلدى للشامتين أريهـم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

(٥) المعنى فى قوله «هل أنا إلا يد أدماها سوارها» وما بعدها، أنه يجب عليه أن يحتمل، لأن ماجاءه من الضيم والعنت ، كان من طريق فخره وشرفه ، أو هو يرجو من ورائه خيراً ونفعاً ، والبيت (فقسا …) من كلام أبى تمـام ، يمدح مالك بن طوق .

(٦) من قول المتنبي :
لعل عتبك محمود عواقبـه وربمـا صحت الأجسام بالعلل

(٧) النبوة : إخطاء الضريبة . الغمرة : الشدة . تنجلى : تنكشف . وفى المثل : غمرات ثم ينجلين .

صيف عن قليل تَقَشَّع(١)، ولن يَرِيبَنى من سيدى أن أبطأ سَيْبُه، أو تأخَّرَ غَيْرَ ضَنِينٍ غَنَاؤُه(٢)، فأبطأُ الدِّلاءِ فيضاً أملؤُها، وأثقلُ السحائبِ مَشْياً أحْفَلُها، وأنفعُ الحيا ماصادف جدباً، وألذُّ الشراب ماأصابَ غليلا، ومَعَ اليوم غدٌ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ(٣) لَهُ الحمدُ على اهْتِبَالِهِ، ولا عَتْبَ عَلَيْهِ فى اغْتِفَالِهِ(٤).

فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذِى ساءَ وَاحِدًا ... فَأَفْعالُه اللَّاتِى سَرَرْنَ أُلُوفُ(٥)

وأعودُ فأقولُ، ما هذا الذنب الذى لم يَسَعْهُ عفوُك؟ والجهلُ الذى لم يَأْتِ من وَرائه حِلْمُك؟ والتطاوُلُ الذى لم يَسْتَغْرِقْه تَطَوُّلُك(٦)؟ والتحامُل الذى لم يَفِ به احتمالُك؟ ولا أخلو من أنْ أكونَ بريئاً فأينَ العَدْلُ؟ أو مسيئاً فأين الفضلُ؟

إلاّ يَكُنْ ذنبٌ فَعَدْلُك واسعٌ ... أو كان لى ذَنْبٌ ففضلُك أَوْسَعُ

فَهَبْنى مُسيئاً كالَّذِى قلتَ ظالماً ... قصاصاً فأين الأَخْذُ يا عَزُّ بالفضل

حنَانَيْك! قد بَلَغَ السيلُ الزُّبَى، ونالنى ماحَسْبِى به وكَفَى، وما أَرانى إلا لو أُمِرْتُ بالسجودِ لآدمَ فأَبَيْتُ واسْتَكْبَرْتُ، وقال لى نوحٌ اركبْ معنا فقلتُ سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى من الماء، وأُمِرْتُ ببناء صَرْحٍ لعلّى أَطَّلِعُ إلى إله موسى، وعَكَفْتُ على

---

(١) تقشع: أصلها تتقشع، خفف بحذف التاء الأولى، وتقشعت السحابة: أقلعت، والجملة مثل نقله الميدانى.

(٢) ضنين: بخيل. غناء: نفع.

(٣) مع اليوم غد، أصله من المثل العربى: إن مع اليوم غداء، وهو بمعنى المثل: إن غدا لناظره قريب. ولكل أجل كتاب: اقتباس من القرآن. والأجل: مدة الشىء. والمعنى لكل أجل أجله الله تعالى كتاب أثبته فيه، أو هو من المقلوب، والمعنى لكل كتاب أجل ينزل فيه.

(٤) الضمير فى له الحمد لابن جهور المستعطف. الاهتبال: انتهاز الفرصة، والتعجيل بالأمر. الاغتفال: ترك الشىء على تذكر له. والمعنى أنه يمدح الأمير على ماعجل له من خير، ولا يعتب عليه فيما أخر

(٥) البيت من قول المتنبى.

(٦) التطاول: التعدى. والتطوّل: التفضل. والتطاول من الطول بالضم ضدّ العرض، والتطول: الطول بالفتح أى الفضل.

العجل ، واعتديتُ فى السبت ، وتعاطيتُ فعقَرْتُ ، وشَرِبْتُ من النهر الذى ابْتُلِى به جيوشُ طالوتَ ، وقُدْتُ الفيل لأَبْرَهَةَ[١] ، وعاهدتُ قريشا على ما فى الصحيفة[٢] ، وتَأَوَّلْتُ فى بيعة العَقَبة[٣] ، واستَنْفرْتُ إلى العِير ببدر[٤] ، وانخَذَلْتُ بثلث الناس يوم أُحُد[٥] ، وتخلفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَة[٦] ، وجئت بالإفْكِ على عائشة الصديقيّة ، وأَنِفْتُ من إمارة أسامة[٧] ، وزعمت أنَّ خلافة أبى بكر كانت فَلْتَة[٨] ، ورَوَّيْتُ رُمحى من كتيبة خالد[٩] ، ومَزَّقْتُ الأَديمَ الذى باركتْ يدُ الله عليه[١٠] ،

---

(١) هو ابن الصباح ملك اليمن، من قبل أصحمة النجاشى، وقد قصد إلى الكعبة بجيش يتقدمه الفيلة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل .

(٢) لما رأت قريش قوّة النبىّ، بهجرة المسلمين إلى الحبشة، وإسلام حمزة وعمر، وفشوّ الإسلام فى القبائل، أرادوا قتله، وقدموا لأبى طالب عمه عمارة بن الوليد، أعزفتى فيهم، ليأخذه بدل ابن أخيه، فأبى ، وجمع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، ودخلوا شعبا احتموا به، فكتبت قريش صحيفة، تعاقدت فيها على مقاطعتهم ، حتى يسلموا رسول الله، فمكثوا ثلاث سنين ، لا يصل إليهم شىء إلا سرا ، وسلط الله الأرضة على الصحيفة ، فأكلت ما فيها من ظلم ، ولم تبق فيها إلا اسم الله .

(٣) بيعات العقبة ثلاث ، ولم يرد أن أحدا من المبايعين فى إحداها تأول ، ونقض البيعة، فيؤول كلام ابن زيدون على فرض حصول ذلك .

(٤) الذى نفر إلى قريش ليخبرها بأمر العير ، هو ضمضم بن عمرو الغفارىّ، بعثه بذلك أبو سفيان .

(٥) المنخذل يوم أحد، هو عبد الله بن أبىّ بن سلول .

(٦) أى خالفت النبىّ فى فعله. وذلك أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من غزوة الخندق ، ووضع المسلمون السلاح، جاءه جبريل ظهرا ، وقال له «وضعت السلاح وما وضعته الملائكة بعد، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة» فأمر رسول الله مؤذنا ينادى فى المسلمين: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة !

(٧) هو أسامة بن زيد، مولى رسول الله وحبه ، وقد أمره رسول الله على بعث إلى الشام ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون .

(٨) هذه كلمة عمر بن الخطاب ، وقد قالها فى معرض الحمد لله على حصولها ، بعد تدبير أصحاب السقيفة، وقد عيب ابن زيدون بإيراده هذه العبارة، لأنه ساقها مساق الذم ، وهى ليست كذلك أصلا . وسنورد عليك فى ترجمة ابن زيدون ، جملة ما نقدت به رسالتاه .

(٩) إشارة إلى قول أبى شجرة السلمىّ :

ورويّت رمحى من كتيبة خالد   وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبو شجرة هذا من فتاك العرب، فعل ذلك مع جيش خالد فى حرب أهل الردة، ثم أسلم .

(١٠) يريد بالأديم الممزق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قتله أبو لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة ، وهذا =

وَنَحَّيْتُ بأشمطَ، عنوانُ السجودِ به[١] ، وبَذَلْتُ لِقَطامِ[٢] :

ثَلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ   وضَرْبُ عليٍّ بالحسامِ المُسَمَّمِ

وكتبت إلى عمرو بن سعد ، أن جَعْجِـعْ بالحسين[٣] ، وتمثَّلْتُ عند مابلغنى من وقعة الْحَرّة[٤] :

لَيْتَ أَشْياخِى بِبَدْرٍ شهدوا   جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

ورَجَمْتُ الـكعبة ، وصلَبْتُ العائذَ[٥] على الثَّنِيَّةِ ، لكان فيما جرى على ما يحتمل أن يكون نَـكالاً ، ويُدْعَى ولو على المجاز عِقَابًا .....

و بقيتها على هذا النمط، فارجع إليها فى الجزء الثانى من «المواهب الفتحية» وغيره .

— ٣ —

ومن أمثلة اعتمادهم على الخيال فى رسائلهم، قول أبى إسحٰق إبراهيم بن خفاجة ، المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، من رسالة يصف فيها متنزها :

= الاستعمال ، من قول بعض من رثى عمر :

جزى الله خيرا من إمام وباركت   يد الله فى ذاك الأديم الممزق

(١) يريد قتل عثمان ، والأشمط : الذى فى شعره بياض وسواد ، والاستعمال من قول حسان رضى الله عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

(٢) يشير إلى مقتل على رضى الله عنه ، وقد قتله الشقى عبدالرحمن بن ملجم، وقطام هذه خطيبته، التى اشترطت عليه فى زواجها ، أن يمهرها بثلاثة آلاف عبد وقينة وبقتل على ، فأجابها بالبيت المذكور، وبعده :

فلا مهر أغلى من على وإن علا   ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم

(٣) يشير إلى مقتل الحسين، وكان عبدالله بن زياد ، كتب إلى عمرو بن سعد بن أبى وقاص «أن جعجع بالحسين » وذلك لما أبطأ عمرو عن قتاله، ومعنى جعجع به : ضيق عليه.

(٤) يشير إلى مافعله يزيد فى وقعة المدينة عند حرة واقم، بقيادة مسلم بن عقبة الذى سمى مسرفا، لشدة سرفه فى سفك الدماء ، وقد تمثل يزيد بالبيت المذكور ، وهو من قول عبد الله بن الزّبعرى ، فى وقعة بدر .

(٥) رجم الـكعبة كان من فعل الحجاج، لما حاصر بها عبد الله بن الزبير، وقتله وصلبه، ورمى الـكعبة بالمنجنيق ، وسمى عبد الله «عائذاً» لأنه عاذ بالبيت الحرام ، واستجار به .

.. . ولمّـا أكَبّ الغَمامُ إكبابًا ، لم أجِدْ منه إغبابًا ، واتّصَلَ المَطَرُ اتصالاً ، لم أُلْف منه انفصالا ، أَذِنَ اللهُ تعالى للصَّحْو أن يُطْلِعَ صَفْحَتَه ، ويَنْشُر صحيفتَه ، فقَشَعَت الرِّيحُ السحابَ ، كما طُوِى السِّجِلُّ للكتاب (١) ، وَطَفِقَتِ السماءُ تخْلَعُ جِلْبابها ، والشمسُ تُمِيطُ نِقابَها ، وطَلْعَةُ الدنيا تَبْتَهِجُ كأنها عَرُوسٌ تَجَلَّتْ وقد تَحَلَّتْ ، ذَهَبْتُ فى لُمَّةٍ (٢) من الإخوان ، نَسْتَبِق (٣) إلى الراحة رَكْضًا ، ونَطْوِى للتفرُّج أرضًا ، فلا أندفع إلا إلى غدير نَمِير ، قد استدارَتْ منه فى كلّ قرارةِ ماءٍ (٤) سحابةٌ عَمَّاء (٥) ، وانساب فى تَلْعَتِهِ حُبابُ (٦) . فترددنا بتلك الأباطح تتهادَى تهادِىَ أغصانها ، وتتضاحَكُ تَضَاحُكَ أُقحوانها ، وللنسيم أثناء ذلك المنظرِ الوسيم ، تَرَسُّلُ (٧) مَشْى ، على بساطِ وَشْى ، فإذا مَرّ بِغَدِيرٍ نَسَجَه دِرْعًا ، وأحكمه صُنْعاً ، وإنْ عَثَرَ بجدولٍ شَطَبَ (٨) منه نَصْلاً ، وأخلصه صَقْلاً ، فلا تَرَى إلاَّ بِطَاحًا مملوءةً سلاحًا ، كأنما انهزمَتْ هناك كتائبُ ، فألقَتْ بما لَبِسَتْهُ من دِرْعٍ مصقول ، وسَيْفٍ مَسْلُولٍ .

— ٤ —

ومن كلام الفتح بن خاقان ، المقتول سنة ٥٣٥ هـ ، فى كتابه « مطمح الأنفس » يُعَرِّف بالوزير الفقيه أبى أيوب بن أمية :

---

(١) السجل : الطومار وهو ما يكتب فيه ، ومعنى طيه للكتاب ، أنه يطوى على مافيه من كتابة ، فاللام للتعليل ، أى يطوى بسبب أنه صار مكتوبا ، أو الكتاب بمعنى المكتوب . أى أن السجل يطوى ما كتب فيه ويضمره ، فلا يذيعه أحد إلا بالقراءة . والمعنى أن السحاب اختفى كما يختفى المكتوب .

(٢) اللمة (بالضم) : الصاحب والأصحاب فى السفر ، والمؤنس للواحد والجمع .

(٣) نتسابق .

(٤) القرارة : مااطمأن من الأرض .

(٥) يقال جارية ونخلة عماء ، أى طويلة .

(٦) الحباب (بالضم والكسر) : الحية ، والمراد أن الماء تلوى فى جريانه ، فكان كالحية .

(٧) الترسل : التؤدة والرفق .

(٨) الشطب:السيف، والشطب القطع. والمعنى فى شطب السيف، تصوير الحديدة على مثاله . والمعنى فى=

واحدُ الأندلس الذى طوّقها فخاراً ، وطبّقها بأوانه افتخاراً ، ما شئتَ من وَقارٍ لا تُحيلُ الحركةُ سُكُونَه، ومقدارٍ يَتمنَّى مخيَّرٌ أن يكونَه ، إذا لاح رأيت المجد مجتمعاً، وإن قال أضحى كلُّ شيء مستمعاً ، تكتحل منه مُقَلُ المجد ، وتَنْتَحِل المعالى أفعالَه انتحالَ ذى كَلَفٍ بها وَوَجْد ، لوتفرقت فى الخَلْق سجاياه لَحُمِدَتِ الشِّيَمُ ، واُسْتُسْقيتْ بمُحَيّاه لما اسْتَمْسَكَ الدِّيَمُ[١] ، دُعِى للقضاء فما رَضِى ، وعُفِى عنه فكأنه استُقْضِى ، لديه تَثَبَّتَتْ الحقائقُ ، وتَبَيَّنَت العلائقُ ، وبين يديه يُسْلَكُ عينُ الجَدَد[٢] ، ويَدَعُ الَّدُود اللَّدَد ، وله أدبٌ إذا خاض به ، فلا البحرُ إذا عَصَفَ ، ولا أبو عثمان ابنُه إذا صنَّف[٣] مع حلاوة مؤانسة من حُلاه ، تستهوى تحبيرَه وإنشاه .

— ٥ —

ومما نطقوا به ، على ألسنة المدن، قول أبى بحر بن صفوان بن إدريس ، من رسالة إلى الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسُف بن عبد المؤمن :

ولما تخاصَمَتْ فيك من الأندلس الأمصارُ ، وطال الوقوفُ بها على حبك والانتظارُ ، كلُّها يُفْصِح قولا ، ويقول أنا أَحَقُّ وأَولى ، ويُصِيخ إلى إجابة دعوته ويُصْغِى ، ويتلو إذا بُشِّرَ بك : ذلك ما كنا نبغى .

تَنَمَّرَتْ حِمْصُ غَيْظا ، وكادت تَفِيظ فَيْظا ، وقالت مالهم يَزيدون ويَنْقُصون ،

= كون النسيم يجعل الجدول سيفا ، أنه يمر بصفحته . فيحدث فيه طرائق لامعة ، كأنها صفحات السيوف .

(١) الديم: جمع ديمة ، وهى المطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق ، واستمسك بمعنى احتبس وفاعله هنا الديم على التنازع ، فيكون فى استسقيت ضمير يعود على الديم ، أو تكون الديم فاعل استسقيت، وفاعل احتبس ضمير يعود على المطر ، المفهوم من المقام .

(٢) الجدد : ما استرق من الرمل ، والأرض الغليظة المستوية . اللدد : الخصومة ، اللدود : الخصم الشحيح ، الذى لا يريع إلى الحق .

(٣) أبو عثمان هو عمرو بن بحر الجاحظ ، والتورية هنا حسنة .

ويَطْمَعُون ويَخْرِصون ! إن يَتَّبِعُون إلاّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخْرِصُون[١] أَلَهُمُ السَّهْمُ الأَسَدُّ[٢]، والساعدُ الأشَدُّ، والنهر الذى تعاقب عليه الجزْرُ والمَدُّ ! أنا مصرُ الأندلسِ والنيلُ نَهْرِى، وسمائى التأنُّسُ، والنُّجُومُ زَهْرِى، إن تجارَيْتُمْ فى ذلك الشَّرَف، فحسبى أن أُفِيضَ فى ذلك الشَّرَف[٣] .

فنظرتْها قُرْطُبة شَزْراً[٤] ، وقالت لقد كثَّرْتِ نَزْراً ، وبَزَرْتِ فى الصخر الأَصَمِّ بَزْراً . كلامُ العدا ضَرْبٌ من الهَذَيَانِ، وأنَّى للإيضاحِ والبيان . متى استحال المستقبَحُ مستحسنا !؟ ومَنْ أَوْدَعَ أجفانَ المهجور وَسَناً . أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَناً! ياعجباً المراكز[٥] تَقَدَّمُ على الأَسِنّة ؟! وللأثْفارِ[٦] تفَضُّلُ على الأَعِنَّةِ؟! إذا ادعيتم سَبْقاً ، فما عند الله خير وأبقى .....

والرسالة طويلة فارجع إليها فى الجزء الأوّل من نفح الطيب .

— ٦ —

ولعبد الرحمن محمد بن طاهر، من كتّاب ملوك الطوائف ، توفى ببَلَنْسِيَة سنة ٥٠٧ هـ وقد نيّف على التسعين ، وقد كتب إلى المأمون ذى النون ، يشكره على مراسلة :

الآن ـ أيدك الله ـ عاد الشبابُ خيرَ مَعادِهِ ، وأُبْيِضَّ الرَّجاء بعد سواده ، وترَكَ الزمانُ فَضْلَ عِنانِهِ[٧] ، فلله الشكرُ المُرَدَّد بإحسانه . وافانى ـ أعزَّك الله ـ كتابُ

---

(١) الخرص بالفتح: الكذب وبابه نصر .
(٢) الأسد : الأصوب وبابه كضرب .
(٣) الشرف الثانية : اسم جبل بأشبيلية، وترابه أحمر ، وطوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا وعرضه من الشرق إلى الغرب اثنا عشر ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية .
(٤) الشزر : نظر الغضبان بمؤخر عينيه .
(٥) جمع مركز وهو زج الرمح يركز عليه فى الأرض .
(٦) الثفر بالتحريك وقد يسكن : السير .
(٧) أى جرى طلقا لايعرقله شىء .

كريمٌ كما طرّزَ البدرُ النّهْرَ[1] ، أو كما بلَّلَ الغَيْثُ الزهر ، طوّقتَنِي به طَوْقَ الحمامة ، وألْبَسْتَنى ظِلَّ الغمامة ، وأَثبَتَّ لى فوق النجوم منزلةً ، وأريتنى الخطوبَ نائيةً عنى ومعتزلَةً ، فوضعتُه على رأسى إكباراً وإجلالا ، ولثَمْتُ سُطُورَه احتفاءً واحتفالا ، وناوَلَنيه الوزيرُ الكاتب أبو الحسن عبدُكَ ونصيحُكَ ـ أعزّه الله ـ و بَشَّرَ بِدُنُوِّ الدار ، وأشار إلى ما لديك كما يُشَارُ إلى النهار ، ويعلم الله أَنِّى ما أَعَدُّنِى إلاَّ شيعَةً ، ولا أَرَى وُدَّكَ إلاّ دِيناً وشَرِيعة ، فإنَّكَ المَوْثُوق بِوَفَائِهِ وَشَرَفِه ، والمسكونُ إلى بَرْد أَمْنِه وطَرَفه ، الذى لا تَجِدُ الأيامُ الفضلَ مُتَمَّماً إلا لديه ، ولا تَعْقِدُ الأحرارُ الأصْفَاقَ إلا عليه[2] ، ولن أزال العالم بحقك ومقدارك ، الناظمَ فى سِلْكِكَ واختيارك ، إن شاء الله تعالى .

— ٧ —

وكتب إلى المنصور بن أبى عامر ، يعلمه بخبر السيل الذى سال بمُرْسيَة ، فعفّى آثارها ، وهدم أسوارها ، واحتمل ديارها ، وكان قد ورد كتابه مستفهما لخبره ومنتهى عبره :

وردنى ـ أيدكَ الله ـ كتابُكَ الكريمُ ، مستفهما[3] لما طار به إليك الخَبَرُ ، من السَّيْلِ الحافلِ ، الذى عَظُمَ بهِ الضَّرَرُ . وقد كنتُ آخذا فى الإعلام ، بحوادثه العظام . فإنه أَذْهَلَ الأذهانَ ، وشَغَل البيانَ . إذ أقبلَ يَمْلأُ السهلَ والجبلَ ، والجَنُوبُ قد

---

(١) المراد بتطريز البدر للنهر ، أنه أوقع عليه شعاعه ، فكان على صفحة النهر كالطرز ، وهو العلم للثوب .

(٢) الأصفاق : جمع صفق وهو البيع ، سمى كذلك لأن أحد المتبايعين يصفق على يد صاحبه أى يضرب ، والمعنى هنا لا يحصل الرضا ويتم الاتفاق ، إلا على هذا الممدوح .

(٣) استفهم : يتعدى لمفعولين بنفسه ، تقول : استفهمت فلانا الأمر ، أى طلبت منه فهمه ، والتعدية هنا باللام للتقوية .

أُضْطَجَعَتْ ، والعيون قد هَوَّمَتْ للنوم أو هَجَعَتْ[١] . فمن ماضٍ[٢] قد استلبه، وناجٍ قد حَرَبَه[٣] . وفازعٍ قد أَثْكَلَه ، وحائرٍ لايدرى ماحُمَّ له . والبرقُ يَجِبُ[٤] فؤادُه ، والوَدْقُ يَنْسَرِبُ مَزَادُه[٥] ، وقد اسْتُسْلِم للقدر ، واسْتُعْصِمَ بالله عزّ وجَل وليس سواه من وَزَر . حتى أرانا آيةَ إعجازه و براهينه ، وَغِيضَ الماءُ لحِينِه، وطَلَع الصباحُ على معالمَ قد غَيَّرها ، وآكام قد حَدَرَها[٦] ، لاينقضى منها عَجَبٌ لناظرٍ ، ولا يُسمع مثلُه فى الزمن الغابر . فالحمد لله على واقى دَفْعِه ، ومُتلاقِى غَوْثِهِ وَنَفْعِه[٧] ، لا رَبَّ غيرُه .

— ٨ —

ومما كتبه لسان الدين بن الخطيب، وزير بنى الأحمر بغَرْناطة، المقتولُ سنة ٧٧٦ هـ، متهماً بالخيانة فى السياسة ، والزندقة، يبشر بموت الطاغية ملك قَشْتالة بجبل الفتح، ورحيل قومه به إلى بلادهم :

و بينما شَفَقَتُنَا على جبل الفتح تُقِيم وتُقْعِد ، وكَلَبُ الأعداء عليه يبرق و يرعد[٨] .

---

(١) التهوم أو التهويم : أن تميل رأس القاعد إذا غلبه النوم . الهجوع أو التهجاع : النوم ليلا، أوالتهجاع النومة الخفيفة ، والفعل كمنع .

(٢) أى ذاهب فى طريقه لايلوى على شىء .

(٣) حربه حربا « كطلبه طلبا» : سلبه ، فهو محروب، وحريب . وحريبته : ماله الذى سلبه .

(٤) وجب قلبه وجيبا : اضطرب .

(٥) الودق : المطر وبابه وعد . سربت المزادة (كفرح) سالت . المزاد: جمع مزادة وهى الراوية ، أو لاتكون إلا من جلدين ، يفأم بينهما لتتسع .

(٦) أى حطها من أعلى إلى أسفل .

(٧) فى الأصل وافى ومتلافى بالفاء فيهما، ومتلافى لاتلتئم مع بقية الكلام فهى لابد متلاقى، أى مجتمع، وكذا حسن تغيير وافى إلى واقى بالقاف ليحسن الجناس . والمعنى أن رفعه سبحانه عنا الضرر قد وقانا ، وأن غوثه ونفعه تعالى قد تلاقيا بساحتنا ، ويصح تخريج الكلام على جعل الكلمتين بالفاء ، فيكون المعنى الحمد لله على أن دفع عنا الضرر دفعاً وافياً تاما ، وأن تلافى غوثه ونفعه ماأصابنا ، أو ماتعرضنا له من إضرار بهجوم هذا السيل ، ولكن الذوق الأدبى يرجح مارأينا أولا .

(٨) يقال برق وأبرق ورعد وأرعد بمعنى تهدد .

واليأسُ والرجاء خَصْمان ، هذا يَقرُب وهذا يَبْعُد ، إذْ طَلَع علينا البشــيرُ بانفراج الأزْمة ، وحَلِّ تلك العَزْمة(١) ، وموتِ شاه تلك الرُّقعة ؛ و إبقاء الله على تلك البُقعة ، وأنّه سبحانه أَخَذ الطاغية أكملَ ما كان اغتراراً ، وأَعْظَمَ أنصاراً ، وزَلْزَل أرْضَ عِزِّه وقد أصابت قَراراً(٢) ، وأن شِهابَ سَعْدِه أصبحَ آفِلا ، وعَلَم كِبْره(٣) انقلب سافلا ، وأن من بيده مَلَكُوتُ السموٰات والأرضِ طرَقه بحتْفه ، وأهلكه برَغْم أنْفه ، وأنّ مَحَلَّته عاجلها التّباب والتّبَار ، وعاثَتْ فى منازله النار ، وتمخّض عن سوء عاقبته الليل والنهارُ ، فبَهرَنا هذا الصُّنْع الإلهىّ الذى مَهّد الأقطار بعْدَ رَجَفَانِها(٤) ، وأنام العيون بعد سُهاد أجفانِها ، وسألْنا الله أَنْ يُعيننا على شكر هذه النعمة ، التى إن سُلِّطَتْ عليها قُوَى البشر فَضَحَتْها وَرَجَحَتْها ، أو قِيسَتْ بالنِّعم فَضَلَتْها ، ورأينا سِرّ اللّطائف الخفية ، كيف سَرَيَانُه فى الوجود ، وشاهَدْنا بالعِيَان(٥) أنوارَ اللطفِ الإلهىّ والجود ، وقلنا إنما هو الفتح الأوّل(٦) شُفِـع بثَان ، وقواعدُ الدين الحنيف أُيِّدَتْ من صنع الله ببيان .

— ٩ —

ومن أمثلة التورية بالعلوم قول بعضهم : بالله أىَّ نحو تنحو ، وأى مسطور تثبت وتمحو ، وقد حذف الأصل والزائد ، وذهبتْ الصلة والعائد ، وباب التعجب طال، وحالُ الناس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع ، وفُقِدتْ سلامةُ الجمع ، والمعتلّ أعدى الصحيح ، والمثلث أردى الفصيح ، وامتنعت العجمة من الصرف ، وأمنتْ زوائدها من الحذف ، ومالت قواعد الملة ، وصرنا جمع القلة !!!

---

(١) العزمة هنا: بمعنى الشدة، من عزم على الأمر، بمعنى جد فيه، ومنه قوله تعالى (ولم نجد له عزما) أى صريمة أمر .
(٢) القرار : الاستقرار والثبات .
(٣) العلم هنا : الجبل ، والمعنى أن رفعته صارت حطة .
(٤) مهد : سوى . الرجفان : الاضطراب .
(٥) العيان : مصدر عاين ، ومثله المعاينة.
(٦) يشير إلى فتح طارق ، لأن أول مافتح كان هذا الجبل .

الشعر عند الأندلسيين

أسبابه ودواعيه

من يكون أولى بالشعر من الأندلسيين ، وقد تجمعت لهم أسبابه ، وتوافرت آلاته ؟ وهل يثير الشعر فى النفس إلا روض ناضر ، ونَوْر زاهر ، وتِلاعٌ تنساب ، مثل الحُباب، ووِدْيَانٌ ملتفة بالأشجار ، حتى ما تنسخ الشمسُ فيها الظلال ، كالذى حدثوا عن جبل الشَّرَفِ ذى التراب الأحمر الممتد من الشمال إلى الجنوب بمقدار أربعين ميلا ، ومن الشرق إلى الغرب بمقدار اثنى عشر ، وبه من القرى مائتان وعشرون ، وبه من شجر الزيتون الكثيرِ المتكاثفِ ما لم تستطع الشمسُ هَتْكَ حُجُبه ، فترى يوما ، وقد ألقت دنانيرها على أرضه ؟

وهل يثير الشعر مثل الرزق الموفور والعيشة الراغدة ؟ من مثل ما كان فيه أهل الأندلس ، الذين جادت عليهم أرضهم بالغلاَّت ، وفَارِهِ الثمار ، حتى ظهر الغنى عليهم أتم ظهور ، فاتخذوا المراكب الفارهة ، وبنَوا الدور العالية ، وعُرفوا بالنظافة، حتى قيل إنهم أشد الناس اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرِشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم . وقد دخل الأندلس ابن حَوْقَلٍ النَّصِيبىّ ، فى مدة خلافة بنى مروان فى المائة الرابعة ، فقال فيها :

« تغلب عليها المياهُ الجاريةُ ، والشجرُ ، والثمرُ ، والرخص ، والسَّعةُ فى الأموال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رَغَد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مَهِينُهُم، وأربابُ صناعاتهم لقلة مؤونتهم ، وصلاح معاشهم » .

وذكر ابن بشَكُوَال ، أن جباية الأندلس بلغت ، فى مدّة عبد الرحمن الناصر ، خمسة آلاف ألف دينار ، وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً .

فما بالك بذلك إذا اجتمع إلى ما عرف به القوم من خفة الروح ، وتمام الظرف ، والغرام بالتندر ، والإقبال على الغِناء !؟ حتى عَدُّوا من آلاته عندهم ما يزيد على عشرة ،

منها : الخَيَال ، والكَريج ، والعود ، والروطة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والكثيرة ، والقثار ، والزُّلامى ، والشَّفْرة ، والنَّوْرة ، والبُوق (١) .

وقد انضم إلى كل هذا كثرة الكروم فى بلادهم ، واتخاذهم الخمر منها ، لايتحرجون من شربها، ولا ينكره عليهم منكر ، ولا ينهاهم ناه ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة ، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته ؛ حتى إن الحكم المستنصر لما كرّه له العلماء شرب الخمر ، همّ بقطع شجرة العنب من الأندلس فقيل له ، إنها تعصر فى سواها ، فأمسك عن ذلك ! !

والغريب أن أهل الأندلس يتشددون فى دينهم ، ويقيمون وجه العدالة فى جميع أمورهم ، وينتصف قضاتهم من ملوكهم ، لغرماء ربما كانوا من أهون الناس شأنا ، ثم يتساهلون مع الأدباء فلا يقيمون عليهم الحد ؟ !

قال أصحاب القاضى محمد بن عيسى : ركبنا لبعض الأمر فى موكب حافل من وجوه الناس، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل ، فلما رأى القاضى هابه، وأراد الانصراف فخانته رجلاه واستند إلى الحائط وأطرق ، فلما قرب منه القاضى رفع رأسه ، وأنشأ يقول :

أَلاَ أَيُّها القاضى الذى عمَّ عَدْلُه ... فأضحى به فى العالمين فَرِيدَا
قرأتُ كتابَ الله تسعين مرةً ... فلم أَرَ فيه للشرابِ حُدُودَا
فإنْ شئتَ أن تجلِدْ فدونك مَنْكِباً ... صَبُورًا على رَيْبِ الزمانِ جَلِيدَا
وإن شئتَ أَنْ تَعْفُو تكنْ لك مِنَّةٌ ... تروح بها فى العالمين حميداً
وإن أنتَ تختارُ الحديدَ فإنّ لى ... لسانًا على مَرِّ الزمانِ حَدِيدًا

---

(١) الخيال : الذى يسمى خيال الظل والخيال الراقص . الكريج : تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معلق عليها أقتبة، يركب عليها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل، وهى من آلات الرقص. الروطة : ضرب من الرباب . المؤنس : قربة يركب فيها مزمار . الكثيرة : ضرب من الآلات تنقر أوتارها بالأصابع . القثار : آلة ذات ستة أوتار . الزلامى : نوع من المزمار ، وهو تصحيف الزنامى، نسبة إلى زنام مستنبط الناى . والشفرة والنورة : مزماران ، واحد غليظ الصوت والآخر رقيقه .

فلما سمع القاضى شعره، وميز أدبه، أعرض وترك الإنكار عليه، ومضى لشأنه . اه بنصه وفصه من مطمح الأنفس .

ومن ذلك ما ذكروا من أنه كان بسوسة إفريقية رجل يسمى سليمان بن محمد المَهْدِيّ الصَّقَلِيّ من أهل العلم والأدب والشعر، وكان يهوى غلاماً جميلاً، وكان كلفا به، والغلام يتجنى عليه، ويُعرض عنه، فبينما هو ذات ليلة يشرب وحده، وقد غلب عليه السكر، إذ خطر بباله أن يحرق على الغلام داره، فأخذ قبساً فجعله عند باب الغلام وأشعل ناراً، فاتفق أن رآه بعض الجيران، وبادروا النار بالإطفاء، فلما أصبحوا أعلموا القاضى، فأحضره وقال له، لأى شيء أحرقت باب الغلام، فأنشأ يقول :

لما تمادى على بعادى — وأضرم النار فى فؤادى
ولم أجد من هواه بُدًّا — ولا معيناً على السهاد
حملت نفسى على وقوفى — ببابه حملة الجواد
فطار من بعض نار قلبى — أقل فى الوصف من وقاد
فأحرق الباب دون علمى — ولم يكن ذاك من مرادى

فاستظرفه القاضى، وتحمل عنه ما أفسده، وأخذ عليه ألا يعود، وخلى سبيله !!!

⁂

وإن اجتماع هذه الأسباب إلى أصالة الملكة العربية فى القوم، وإحيائها بالحفظ والمذاكرة، هو الذى جعل الشعر كثيراً فيهم، حتى كانوا أكثر خلق الله شعراً، وقد مرّ بك أن أهل مدينة شِلْب فى غربيّ الأندلس، كانوا جميعاً يعانون الشعر، لافرق بين عالم وأديب، وزارع، وصانع .

ومما يدل على كثرة الشعر فى هذه البلاد، أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن، لما قفل من غزوة الأراكة سنة ٥٩١ هـ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل قصيدته، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين، أو الثلاثة المختارة، فأنشده أحدهم :

ما أنتَ فى أُمَرَاءِ الناسِ كُلِّهِمُ — إلاَّ كَصَاحِبِ هذا الدين فى الرُّسُلِ

أَحييْتَ بالسيف دِينَ الهاشِمِيِّ كما　　　أحياه جَدُّك عبـــد المؤمن بنُ عَلِي

فأمر له بألفي دينار ولم يصل غيره من الشعراء عملا بقولهم « منع الجميع أرضى للجميع » وانتهت إليه رقاع الشعراء وغيرها ، وتراكمت حتى حالت بينه و بين ما أمامه .

فإذا كان هذا فى عصر قلت فيه العناية بالأدب ، وهو عصر المرابطين والموحدين، فما بالك بالقوم حين كانت اللُّها تفتح اللَّها ، وحين كان جلساء الخلفاء والأمراء ، هم الأدباء والشعراء!؟

ومن مظاهر هذه الكثرة، أنهم لم يتركوا منظراً راقهم ، أومجلساً أعجبهم ، أوفكرة عرضت لهم ، أو أمراً جرى بين أيديهم ، أو وداعا بلغ من نفوسهم ، أو لقاء انشرحت له صدورهم، إلا تطارحوا فيه الشعر وفاضت به قرائحهم، ولاأرسلوا هدية ، أو بعثوا رسولا، أو استدعوا نديما ، إلا ورقاعهم بالشعر واردة صادرة . ونحن نضرب لك أمثلة من هذا :

١ — ذكر الفتح بن خاقان أن ذا الوزارتين القائد عيسى بن لَبُون، كان بمجلس مشرف على بطحاء قد لبست زُخرفها، ودبّج الغمام مُطْرَفها ، وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها ، وتبث طِيب تنفسها ، والجُلَّنار قد لبس أردية الدماء ، والراح قد ملك أفئدة الندماء فقال :

قُمْ يا نديمُ أَدِرْ عليَّ القَـرْقفا　　　أَوَماتَرَى زَهْرَ الرياض مُفوَّفا[1]

فتخال محبوباً مُدلاً وَرْدَها　　　وتظنّ نَرْجِسَها محِبًّا مُدْنفَا[2]

والجُلَّنارُ دِمَاءُ قَتْــلَى مَعْرَكٍ　　　والياسَمِينُ حَبَابُ ماءٍ قد طَفَا

٢ — كان ذو الوزارتين أبو بكر بن رحيم، قد مال مع أصحابه إلى إحدى جنات مُرْسِيَة، فحلوا منها فى قبة فوق جدول مطرد ، وتحت أدواحٍ طيرُها غرّد ، وإذا بالجنّان وقف عليهم، وقال كان بموضعكم هذا بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة، وخدود غير مستورة . فاستدعى الوزير فحما، وكتب على إحدى زوايا القبة :

قَادَنا وُدُّنا إليـكَ فجئنا　　　بنفُوسٍ فدَتْك من كُلِّ بُوسِ

فَـنَزلْنَا مَنَازِلا لبُدُورٍ　　　وحَللْنَا مَطالعــاً لشُمُوسِ

---

(١) القرقف: كجعفر الخمر ، يرعد عنها صاحبها . المفوف : كمعظم، برد رقيق، أوفيه خطوط بيض.
(٢) يقال أدنف المريض ثقل ، وأدنفه المرض، فالمريض مدنف ومدنف ، بصيغتى الفاعل والمفعول .

٣ — وغنّى هذا الوزير فى بعض الليالى بهذا الشعر :

بَدَا فكأنما قَمَرٌ   عَلَى أزراره طَلَعَا
وقد خلعتْ عليه الرا   حُ مِنْ أثْوَابِهَا خِلَعَا

وكان من الحاضرين من استحسن الشعر ، فرغب إليه فى تذييله ، فقال :

فأهْدَى من محاسنه   إلى أبصارنا بِدَعَا
فلما فَتّ أكْبُدَنا   وحاز قُلُوبَنَا رَجَعا
ففاضَتْ أعينٌ أسفاً   وفاضَتْ أنفُسٌ جَزَعا[1]

٤ — استدعى المتوكل ، الأديب الحكيم أبا الفضل بن شَرَف ، فى يوم ماطر ، ونسيم روض عاطر ، فصحبته فى ممشاه إليه سحابه ، بلتْ عليه ثيابه ، فلما دخل على المتوكل أدناه ، وأكرم مثواه ، وهزّه إلى القول فى ذلك فاهتزّ ، وقال :

صاحبَنَا الغيثُ إلى الغيثِ   لكنّهُ غَيْثٌ بِلاَ عَيْثِ
سحابةٌ تَهْمِى حيَاها سَرَى   لا تَخْلطُ الإعجالَ بالرَّيْثِ
يَا لَيْثَ غابٍ حُسْنُهُ باهرٌ   والحسنُ لا يُعْرَفُ لِلَّيْثِ
أَحَلَّنِى قُرْبُكَ فى مَوْضِعٍ   يَجِلُّ عَنْ أَيْنٍ وعَنْ حَيْثِ

٥ — رأى الشَّنْتَرِينِيُّ نجما جرى فى السماء ، وترك وراءه مستطيل ضياء ، فقال :

وكوكبٍ أبْصَرَ العفريتَ مُسْتَرِقاً   للسمع فانقضَّ يُذْكِى إثْرَه لَهَبَهْ
كفارسٍ حَلَّ إحْضارٌ عمامتَه   فجرّها كلَّها من خَلْفِهِ عَذَبَهْ ! !

٦ — ركب المعتمد بن عباد ، للتنزه بظاهر إشْبِيلِيَة ، فى جماعة من ندمائه ، وحَشْوٍ من شعرائه ، فلما أبعد أخذ فى المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً ، فرأى شجرة تين قد أينَعَتْ وزَهَتْ ، وبرزت فيها ثمرة ، فسدد إليها عصا كانت فى يده فأصابها ، وثبتت فى أعلاها فأطربه ذلك ، والتفت ليخبِر من لحقه من أصحابه ، فرأى ابن حاجٍّ الصَّبَّاغ أول لاحق به ، فقال أجز :

---

(١) يقال فاض الماء فيضا وفيوضا وفيضوضة وفيضانا : بمعنى كثر حتى سال ، وفاضت نفس الرجل .. وفاض الرجل فيوضا وفيضا: مات .

كأنها فوق العصا . . . .

فأجابه مسرعاً:

. . . . . هامـــة زنجى عصا

٧ — وابن حاجٍ هذا ، كان صباغا عامياً، ولـكنه قال الشعر فاشتهر أمره حتى جالس الملوك ، وقد مر عليه الوزير أبو بكر بن عَمَّار ، فرأى مافعلت الصباغة بيده ، فأخرج زنده وأشار إليه ، وقال :

كم بين زند وزند . . . .

فقال ابن حاج :

. . . . ما بين وَصْلٍ وَصَدِّ .

٨ — ذكر ابن بسام فى الذخيرة ، قال : اجتمع ابن عُبَادة وعبد الله بن القابلة البُسْتى بالمَرِيَّةِ فنظر إلى غلام وسيم يسبح فى البحر ، وقد تعلق ببعض المراكب فقال ابن عُبادة أجز :

انظر إلى البدر الذى لاح لك . . . .

فقال ابن القابلة :

. . . . فى وَسَطِ اللُّجَّة تحت الحَلَكْ

قد جعـــلَ الماءَ سماءً له وصيَّر الفُلْكَ مكانَ الفَلَكْ

٩ — جلس المعتمد بن عَبّاد يوماً للشرب، و بين يديه ساقية جميلة ، قد تقابل بدر وجهها بشهاب الكأس ، واتفق أن لمع البرق فارتاعت ، فقال بديها :

رَوَّعهـــا البرق وفى كَفِّها بَرْقٌ من القهـــوة لَمَّـاعُ

عَجِبْتُ منها وهي شمس الضحى كيف من الأَنْوَارِ تَرْتَاعُ ؟!

فلما أعجبه البيتان ، استدعى فى الحال عبد الجليل بن وَهْبون المُرْسِىّ ، وأنشده البيت الأول ، وقال أجز ، فقال :

ولن تَرَى أعجبَ من آنِسٍ من مِثْلِ ما يُمْسِكُ يَرْتَاعُ

١٠ — قال الفتح بن خاقان، فى كتاب القلائد: خرجت من إِشْبِيلِيّة لوداع كبير المرابطين،

فوجدت معه الوزير أبا محمد بن مالك، فلما انصرفنا عدنا متسامرين، فمررنا بمرج حسن النبات، بديع النُّوّار، فبادر مملوك من مماليكه، وضيء الوجه إلى زهرة بديعة فاقتطفها وأتاه بها، لتعجّبه من حسنها، فاقترح على أن أصفه، فقلت:

وبَدْرٍ بداوالطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ ... وفى كَفِّهِ مِنْ رَائِقِ النَّورِ كَوْكَبُ

فقال مجيزا:

يَرُوحُ لتعذِيبِ النفُوسِ ويَغْتَدِى ... ويَطْلُعُ فى أفْـق الجمال ويغْرُبُ
وَيَحْسُدُ منه الغصنُ أىَّ مُهَفْهَفٍ ... يَجِىءُ على مِثْلِ الـكَثِيبِ ويَذْهَبُ

عناية الأندلسيين بالشعر

الشعر لازمة العربى حيث يكون، فلما نزح العرب إلى الأندلس، نقلوا إليها شعرهم بدويا، على مثل حالهم التى كانوا عليها، وظل أيام الولاة الأولين، لم يظهر فيه طابع الأندلس، فلم يكونوا يقولونه إلا فى الفخر والحماسة والحض على الجهاد، ثم قالوه فى العصبيات وإثارة الفتن. والولاة — كما هو شأنهم فى كل مكان — لا يكون منهم جليل معونة، ولا كبير تأثير فى إحياء أدب، أو إثارة همة إليه، لأن ذلك شأن الملوك.

فلما كان الأمر لخلفاء بنى أمية، وملوك الطوائف من بعدهم، لم يقفوا موقف المعين للشعر، بالجود على الشعراء، وعقد مجالس لهم فحسب، بل زاحموهم فى صناعتهم، وباروهم فى حرفتهم، فكانوا شعراء، يجتمع لأحدهم من القول مالايجتمع فى ديوان شاعر، حتى اضطر المؤلفون إلى أن يعقدوا التراجم للخلفاء والملوك، ويسجلوا مواهبهم فى الشعر، كما يفعلون فى غيرهم من الأدباء المرتزقين بذلك. وهذه ظاهرة لم نر مثلها فى تآليف الشرق، ولا ننكر أن من أمراء الشرق وخلفائه، الشعراء المجيدين، ومن لهم ديوان شعر كابن المعتز، ولـكن كثرة ذلك فى الأندلسيين، هى التى جعلتهم موضوع دهشة وعجب.

ولم يقف تناول الشعر ومعاناته على طائفة دون أخرى، فقد قاله الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد، ونبغ فيه كثير من العوام مثل ابن حاجٍّ الصَّبَّاغ، ويحيى القَصّاب، كما برّزت فيه النساء، مثل حَسّانة التميمية — وكانت على أيام الحكم وابنه عبد الرحمن — ومثل حَفْصة الرَّكُونِيَّة، المشهورة بالجمال والمـال والحسب، ومثل وَلّادة بنت المستكفى،

صاحبة ابن زيدون ، ومثل اعتماد جارية المعتمد بن عباد ، وأم أولاده ، وقد كان أدبها سبب تقريبها ، فقد كان مع ابن عمّار وزيره ، وقد ركبا النهر فمرّت الريح ، فزرّدت صفحة الماء ، فقال ابن عباد لابن عمار ، أجز :

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ . . . .

فلم يستطع الوزير ، فقالت غسالة كانت على مقربة منهما ، هى اعتماد هذه :

أَىُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ . . . .

فطار بها المعتمد إعجاباً ، وشفع لها عنده أيضاً قسامة وجهها ، فضمها إلى جواريه .

ولم يمنع العلماءَ وَرَعُهُمْ ، عن قول الشعر ، والإقبال على مجالسه ، وقضاء الوقت فى مطارحته ، بل عدُّوا ذلك منقبة يستبقون إليها ، ويحرصون عليها ، ولقد بلغ من القاضى أبى عبد الله ، أن خرج إلى حضور جنازة بمقابر القرشيِّين بقُرْطُبة ، فمال إلى منزل صديق له ، فأحضر له طعاماً ، وأمر جاريته فغنَّتْ :

طَابَتْ بِطِيبِ لِثَاتِكَ الْأَقْدَاحُ   وزَهَا بِحُمْرَةِ خَدِّكَ التُّفَّاحُ (١)

وإِذَا الرَّبِيعُ تَنَسَّمَتْ أَرْوَاحُهُ   طَابَتْ بِطِيبِ نَسِيمِكَ الْأَرْوَاحُ (٢)

وإِذَا الحَنَادِسُ أَلْبَسَتْ ظَلْمَاؤُها   فَضِيَاءُ وَجْهِكَ فى الدُّجَى مِصْبَاحُ (٣)

فكتبها القاضى على يده ، وخرج من عنده ، ثم رؤى يكبر لصلاة الجنازة ، والأبيات مكتوبة على كفه ! !

واستمرّ خلفاء الأمويين الأندلسيين، ينافسون العباسيين فى المشرق، بما استطاعوا من حيلة ، وما التمسوا من وسيلة ، حتى لقد ذكروا أن المستنصر لما أراد غزو الروم سنة ٣٣٢ هـ ، تقدم إلى والد القاضى الأجلّ يونس بن عبد الله أن يكون معه فاعتذر ، فقال الحَكَم: إن ضَمِنَ لى أن يؤلّف فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس، مثل كتاب الصُّولى فى أشعار خلفاء بنى العباس، أعفيته من الغَزاة ! فأجابه إلى ذلك، فأفرد له مكانا فى دار الملك المطلّة على النهر ، فأتم الكتاب فيما دون شهر .

---

(١) اللثة كعدة : اللحم الأحمر، تنبت عليه الأسنان .

(٢) أرواح الأولى: جمع ريح وياء ريح واو، ولذلك ظهرت فى الجمع. ومعنى تنسم الأرواح : انبعاثها نسيما لينا. وأرواح الثانية : جمع روح ، بمعنى النفس ، والجناس ظاهر الحسن ، حسن الموقع .

(٣) ألبس الأمر : اختلط .

ثم لما كان الأمر لملوك الطوائف ، استمر للأدب نشاطه ، بل زاد بما كان من تنافس هؤلاء الملوك فى الاختصاص بالفضل ، وضم العلماء والشعراء إليهم ، وقد ورد فى نفح الطيب من كلام الشَّقَنْدِىّ فى تفضيله الأندلس على بر العُدْوَة :

« ولما ثار بعد انتشار هـذا النظام ملوكُ الطوائف ، وتفرقوا فى البلاد ، كان فى تفرقهم اجتماع النعم لفضلاء العباد ، إذ أنفقوا سوق العلوم ، وتباروْا فى المنثور والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتِهم إلاّ قول : العالم الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى ، وليس منهم إلا من بذل وسعه فى المكارم . ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرّياض ، وتفتك فى أموالهم فتك البرّاض (١) ، حتى إن أحد شعرائهم ، بلغ به ماراه من منافستهم فى أمداحه ، أن حلف لا يمدح أحداً منهم إلا بمائة دينار !! وأن المعتمد بن عباد على ما اشتهر من سطوته ، وإفراط هيبته ، كلفه أن يمدحه ، فأبى حتى يعطيه ما شرط فى قَسَمه. وكان لبنى عباد من الحنوّ على الأدب، مالم يقم به بنو حَمْدان فى حلب ، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا فى بلاغتى النثر والنظم ، مشاركين فى فنون العلم .

ولما صار الأمر إلى المرابطين والموحدين فتر أمر الأدب ، وانصرفت عنه الهمم ، بانصراف هؤلاء عن شد أزره، لاشتغالهم بأمر الملك فى بلادهم ، واعتبارهم الأندلس ولاية تابعة لهم ، ثم لما كان فيهم من ضعف فى ملكة العربية ، حتى لقد ذكروا أن يوسُف ابن تاَشِفِين لما حضر إلى الأندلس رغب الشعراء عن مدحه، ولم يرضوا بالتقدم إليه، لعلمهم بمكان الأدب من نفسه، حتى رجاهم المعتمد فمدحوه ، وفيما كان الشعراء يُنْشدون ، قال له المعتمد : هل يعلم أمير المسلمين ما يقولون ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخير .

ولما انصرف يوسف إلى حاضرة ملكه ، كتب له المعتمد رسالة فيها :

بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانِحُنَا ... شَوْقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا

حالَتْ لفقدِكُمو أيّامُنا فغدَتْ ... سُودًا وكانت بكم بِيضاً ليالِينَا

---

(١) البراض : الذى يأكل كل ماله ويفسده .

فلما قرئ عليه هذان البيتان ، قال للقارئ : يطلب منا جوارى سودا و بيضا ؟ فقال القارئ : لا ! يا مولانا ، ما أراد إلا أن ليله ، كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا، لأن ليالى الحزن سود ، فقال:والله جيد! اكتب له فى جوابه « إن دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا من بُعْده » .

وفى دولة بنى الأحمر ، عاد الانتعاش إلى الأدب ، فسمع ملوكها من الشعراء ، واستوزروا الأدباء، بل كان منهم۔ مثل ما كان من ملوك الطوائف۔ شعراء وأدباء، لأنهم عرب خلص ، وقد عاشت أصولهم منذ الفتح بالأندلس ، فنشئوا نشأة أهلها ، وكانت لهم مزاياهم ، من ذكاء ، وقوة بيان ، وسعة خيال ، ولكنهم أدركوا زمانهم فى هَرَمه فساءهم ، وكان انفضاض الملك ، ونزوح المسلمين من هذه البلاد على أيديهم .

أغراض الشعر الأندلسى

لم تتسع أغراض الشعر ، إلا فى عهد الخلفاء من الأمويين ، والأمراء من ملوك الطوائف بعدهم ، وذلك لأن الحضارة لم تكن قد استقرّت بعد .

فلما كانت هذه الأيام ، وكان ما عرفت مبلغه من نصرة هؤلاء الملوك للأدب عامة، والشعر خاصة ، ظهرت براعة الأندلسيين، وبان مقدار قرائحهم، ومدى إجادتهم، فملئوا الدنيا بقول الشعر فى جميع الأغراض ، التى قالها المشارقة من مدح، ورثاء، ووصف خمر ، وغزل بالنوعين ، ووصف للرياض وما تحوى ، والطبيعة وما يتجلى من جمالها ، وروعتها فى سحاب ، وبرق ، ورعد ، وخسوف ، وكسوف ، ومطر ، وثلج .

ولسنا نقول إنهم فعلوا ذلك تقليداً للمشارقة ، للاتصال الذى كان بين الشرق والغرب، طول حكم العرب للأندلس ، وكثرة ما اجتلب الأندلسيون من كتب المشارقة ودواوين شعرهم ، وما كان من تردد رحالتهم على البلاد الشرقية ، ونزوع المشارقة إلى الأندلس ، استدراراً للثروة من أيدى هؤلاء الملوك ، الذى اشتهروا بالجود .

لم يكن قول الأندلسيين للشعر فى الأغراض التى قالها المشارقة أثراً للتقليد ، لأن

التقليد إنما يكون شأن الجامد القريحة، الضيق مجال الخيال، العاثر الملكة، ولم يكن هذا شأن الأندلسيين، ولو أنهم كانوا مقلدين، لوجب أن يقفوا عند ما قاله المشارقة لا يتعدَّونه، ولا يفكرون فى الزيادة عليه، ولـكنهم جرَوْا فى بعض الأغراض أشواطاً، قصّر فيها المشارقة كل تقصير.

أرأيت أن الأندلسيين لو ظلُّوا فى عُزْلة عن المشارقة، هل كان يفوتهم أن يقولوا فى الغزل؟ وهو غرض يوحى به الطبع، وتدعو إليه حرارة الشباب، وفتنة الجمال؟ وهل كانوا يُغْفلون المدح؟ وهو غرض اقتضته الحياة، واستلزمه التكسب بالشعر، ودعت إليه رغبة الخلائف والأملاك، فى أن تذاع محامدهم. وهكذا بقية الأغراض، لابد لها من أسباب تمت فى الأندلسيين، فقالوها مدفوعين بما توافر لديهم من أسبابها.

وقد يكون من الأسباب ما هو أقوى عندهم منه عند المشارقة، فيبين فيه الافتنان ويكثر الـكمّ. وبعض الأسباب كانت خاصة بهم، فتبعتها أغراض اختص بها الشعر الأندلسى. وبعض الأغراض قلت أسبابها، فقل نِتاجهم منها.

فمن كل ذلك:

١ — الوصف: وقد كثر عندهم، فتناول كل ما تقع عليه العين، من جليل الأشياء، وحقيرها، وهينها، وخطيرها، ومما هو من مظاهر الطبيعة، أو عمل الإنسان.

ولقد كان جمال الأندلس الطبَعِىّ، مخصباً للخيال، داعياً إلى امتلائه بالصور التى لا تتناهى، ولـكنهم لم يكتفوا به، بل حاولوا الزيادة عليه، بما زخرفوا من البساتين، وما نسّقوا من الميادين، وما أنشئوا من المدن والقصور، حتى لقد حاولوا تغيير الطبيعة، وجعل تجهُّمها ابتساما، فقد ذكروا أن الناصر، كانت له جارية تسمى الزهراء، وكان يحبها حبًّا شديداً، فقالت له: اشتهيتُ أن تبنى لى مدينة تسميها باسمى، فبناها تحت جبل العروس، فى شمالى قرطبة، وأتقن بناءها، وجعلها متنزها، ومسكنا للزهراء، ونقش صورتها على الباب، فلما قعدت الزهراء فى مجالسها، ونظرت إلى بياض المدينة، فى حجر ذلك الجبل الأسود، قالت: ياسيدى!

ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء، فى حجر ذلك الزنجى الأسود!؟ .. فأمر بإزالة ذلك الجبل، فقال له بعض جلسائه : أُعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له مايشين العقلَ سماعه!! لو اجتمع الخلق على هذا الجبل ما أزالوه، ولا يزيله إلا خالقه . فأمر بقطع شجره، وغرسه تيناً ولوزاً، فلم يكن منظر أحسن منه، ولا سيما فى زمان إيراق الأشجار و إزهارها.

من الوصف للقصور قول ابن حَمْديس الصِّقِّلّى[1] المتوفى سنه ٥٢٧ هـ، يصف قصراً بناه المنصور بن أعلى الناس، ببجاية[2] :

١ أَعْمِرْ بقصر الملك ناديكَ الذى ... أضحى بمجدك بيتُه معمورا
٢ قصر لوَ أنكَ قد كَحَلْتَ بنُوره ... أعمى، لعاد إلى المقام بصيرا
٣ واشتُقّ من معنى الجِنان نسيمُه ... فيكاد يُحدِث فى العظام نُشورا
٤ نُسى الصَّبيحُ مع الفَصِيح بذكره ... وسما ففاق خَوَرْنقاً وسَديرَا
٥ لو أن بالإيوان قوبل حسنُه ... ما كان شيئاً عنده مذكورا
٦ أذْكرْتَنَا الفردوسَ حِيْنَ أَرَيْتَنا ... غُرَفاً رفَعتَ بناءها وقصورا
٧ فالمحسنون تزيّدوا أعمالهم ... ورجَوْا بذلك جنةً وحريرا
٨ والمذنبون هُدُوا الصراط وكَفَّرَتْ ... حسناتُهم لذنوبهم تكفيرا
٩ فَلَكٌ من الأفلاك إلا أنه ... حَقَرَ البُدورَ فأطْلَع المنصورا

---

(١) صقلية بكسرات : اسم جزيرة بمياه بحر الروم، كانت لملوك الأندلس، وانتزعها النصارى منهم سنة ٤٦٤ هـ والنسبة إليها بفتح الصاد والقاف تخفيفا، كذا ضبطه ابن خلكان .

وابن حمديس، هو عبدالجبار بن أبى بكر بن حمديس الأندلسى المولود بصقلية سنة ٤٤٧ هـ، ثم هاجر إلى إشبيلية سنة ٤٧١ وخدم المعتمد بن عباد، ثم هاجر إلى المغرب بعد نكبة ابن عباد، وتوفى بجزيرة ميورقة سنة ٥٢٧ هـ، وكانت أيامه بصقلية أيام محنة، فقد استولى عليها النصارى وقامت فيها حروب فنى فيها المسلمون، وعاشوا فى أشد الأحوال، ففر العلماء وغيرهم إلى الأندلس وإفريقية مستصرخين .

(٢) المنصور هذا، هو ابن المنتصر الصنهاجى، من ملوك صنهاجة الذين أزال ملكهم عبد المؤمن بن على، وأسر آخرهم يحي بن عبد العزيز بن المنصور، وكانوا يملكون بجاية، بعد ما ارتحل عنها الفاطميون إلى مصر .

وإذا الولائدُ فتّحَتْ أبوابَه   جعلَتْ ترحِّبُ بالعُفاةِ صَرِيرا

عَضَّتْ على حَلَقاتِهنّ ضراغمٌ   فغرَتْ بها أفواهَها تكبيرا

فكأنها لَبَدَتْ لتهْصِرَ عندها   من لم يكن بدخولها مأمورا

وضَراغمٍ سَكَنَتْ عرينَ رِياسة   تَرَكَتْ خريرَ الماءِ فيه زَئِيرا

فكأنما غَشَّى النُّضارُ جُسومَها   وأذاب فى أفواهها البَلُّورا

أُسْدٌ كأَنَّ سكونَها مُتحركٌ   فى النفس لو وَجدَتْ هناك مُثِيرا

وتذكّرَتْ فتكاتِها فكأنما   أَقْعَتْ على أدبارها لِتَثُورا

وتخالُها ، والشمسُ تجْلُو لونَها   نارًا وألْسُنَهَا اللواحِسَ نُورا

وكأَنّما سَلَّتْ سُيُوفَ جداولٍ   ذابَتْ بلا نَار فعُدْنَ غَدِيرا

وكأَنّما نَسَجَ النسيمُ لمائه   دِرْعًا فقَدَّرَ سَرْدَها تَقْدِيرا

وبَدِيعةِ الثَّمَراتِ تَعْبُر نَحْوَها   عيناىَ بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورا

شَجَرِيَّةٌ ذهبيّة نَزَعَتْ إلى   سِحْرٍ يؤثِّر فى النُّهى تأْثيرا

وكأنّما تأبى لِوُقَّعِ طَيْرِها   أن تَسْتَقِلّ بنَهْضِها وتَطِيرَا

من كُلِّ واقعةٍ تَرَى مِنْقارَها   ماءً كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا

خُرْسٌ تُعَدُّ من الفِصَاحِ فإنْ شَدَتْ   جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بالمياه صَفِيرا

وكأَنّما فى كلّ غُصْن فِضّةٌ   لانت فأُرسلَ خَيْطُها مجْرورا

٣ — نظم الفنون : وقد كثر عندهم، فنظموا التاريخ ، والعروض، والنحو ، والصرف، والبديع ، والفقه ، ولابن عبد ربه أُرجوزتان ، إحداهما فى العروض ، والأخرى فى تاريخ المنذر بن محمد ، من خلفاء بنى أمية ، وهى طويلة ، ومنها :

بِالمنذرِ بن محمَّدٍ   شَرُفَتْ بلادُ الأنْدَلُسْ

فالطَّيْرُ فيها ساكِنٌ   والوحشُ فيها قد أنِسْ

ولا يغيب عنك ألفيـــة ابن مالك ، ولامية الشاطبيّ ، ورائيته فى القراءات ، ورسمِ المصحف .

٣ — القول فى الحكمة ، وضرب المثل : كما فعل صالح بن عبد القُدُّوس ، وأبو تمام ، والمتنبّي ، من المشارقة ، ويتبع ذلك الفلسفةُ ، ونقدُ الاجتماع ، والعيبُ لنُظُمه ، كما فعل أبو العلاء المعرىّ فى لُزومياته ، وهذا كله كان عندهم قليلا نادراً ، لما علمت من زهدهم فى الجدل ، والمنطق ، والعلوم الإلٰهية عامة . نعم قالوا فى نوع يتصل بذلك ، وهو التصوّف الذى هوفلسفة التدين ، وهم — كما علمت — فى غالب أمرهم أهل ورع ، وخاصة فقهاءهم ، فكان منهم من نظم فى هذا الباب ، وغلا فيه جدًّا كابن العربىّ محمد محيي الدين المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ ، بعد أن رحل إليها سنة ٥٩٨ هـ ، وأبو عثمان التُّجِيبيّ (١) ، من شيوخ لسان الدين بن الخطيب .

٤ — رثاء الممالك الزائلة ، والثغور المغصوبة : وقد فاضت الكتب التى تؤرخ الأندلس بذلك ، ومن أشهر قصائدهم قصيدة ابن عَبْدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، فى رثاء بنى الأفطس التى أوّلها :

١ الدهرُ يَفجَعُ بعد العَيْن بالأثَرِ ... فما البكاء على الأشباحِ والصُّوَرِ (٢)

أَنْهاكَ أَنْهاكَ لا آلوكَ واحـــدةً ... عن نَوْمة بين ناب الليث والظُّفُرِ

فالدهر حَرْبٌ وإن أبدى مُسالمةً ... والبِيضُ والسُّمْرُ مثل البِيض والسُّمُرِ (٣)

---

(١) نسبة إلى تجيب ، وهى قبيلة منها كنانة بن بشر ، قاتل عثمان رضى الله عنه .

(٢) فجعه كمنع : أصابه بمصيبة : عين الشىء : نفسه. الأثر : بقيته. الأشباح جمع شبح : وهو الشخص أى سواد الانسان وغيره . الصور جمع صورة : وهى شكل الشىء . وقد جعل الشاعر الأشباح فى مقابلة العين والصور فى مقابلة الأثر، والمعنى أن الدهر لا يبقى على شىء ، فإن بقيت منه صورة أتى عليها ، فإذا كان هذا فعل الدهر فلا معنى للبكاء على شىء .

(٣) رجل حرب : أى عدو ، للذكر والأنثى والجمع والواحد ، لأنه فى الأصل مصدر فلما وصف به بقى على إفراده . البيض والسمر الأولان، يصح أن يراد بهما الأيام والليالى، أو يراد بهما النساء البيض والسمر . ويكون قد ضربهما مثلا لغدر الزمان ، يريد أن النساء ، وإن كان شأنها اللين والضعف ، ومسرة الإنسان ، يجىء من ناحيتها الشر ، فيكن كالسيوف والرماح .

ولا هَوادةَ بين الرأس تأخــذه ... يد الضِّراب و بين الصارم الذَّكَر (١)
فلا يغرَّنْكَ من دنياك نَوْمتُها ... فما صناعة عينيها سوى السَّهَر
هوَتْ بِدَارا ، وفلَّتْ غَرْبَ قاتله ... وكان عَضْباً على الأملاك ذا أُثُر (٢)
واسترجعَتْ من بنى ساسانَ ماوهبت ... ولم تدَعْ لبنى يُونَانَ من أَثَر (٣)
وما أقالتْ ذوى الهيئات من يَمَن ... ولا أجارتْ ذوى الغايات من مُضَر (٤)
ومزَّقَتْ سَبَأً فى كل قاصية ... فما الْتَقَى رائحٌ منهم بمُبْتَكِر (٥)
وأنفــذت فى كُلَيْبٍ حكمها ورمت ... مُهَلْهِلا بين سمع الأرض والبصر

وقصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرَّنْدىّ المتوفى سنة ٦٩٨ هـ ، يرثى بها الأندلس ، ومطلعها :

لكلِّ شىءٍ إذا ما تَمَّ نقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هِىَ الأمور كما شاهدتَها دُوَلٌ ... من سرَّه زمن ساءتْه أزمانُ

---

(١) الهوادة : الرفق واللين . الذكر : القوى . يشير إلى أن الدهر لا تهدأ حوادثه ، فلا يمر منه يوم، إلا والحرب فيه مستعرة .

(٢) دارا : آخر ملك من ملوك الفرس الأولى ، وقاتله هو الاسكندر . العضب: السيف . الأثر: إما أن يكون أصلها أثر كسهم ومعناه جوهر السيف وفرنده حركت للشعر ، أو يكون معناه العلامة وماينتج عن التأثير أى أنه سيف ذو آثار .

(٣) بنو ساسان: هم الفرس الأواخر، وأبوهم الذى ينسبون إليه، ساسان الأصغر، وهو أردشير بن بابك.

(٤) الهيئة : الشارة والعلامة . الغاية : من معانيها الراية . يقال أقال الله عثرتك وأقالكها . وأجاره : قبله فى جواره وحماه ، والمعنى أن الأيام والليالى لم تمنع ضررها عن ملوك اليمن ومضر .

(٥) سبأ : هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسمى بذلك لأنه أول من أدخل السبى فى بلاد اليمن، وقد ذكر الله تمزيق أولاد سبأ بقوله تعالى (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) إلى قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وقد وصفوا عمارة هذه الأرض فقالوا إن المرأة كانت إذا أرادت أن تجتنى من ثمارها شيئا وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشى تحت الأشجار وهى تغزل ، أو تعمل ماشاءت فلا ترجع حتى يمتلىء مكتلها . ولما تمزق أولاد سبأ كانوا عشرة ، سكن الشام منهم أربعة: وهم لخم، وجذام، وغسان وعاملة. وسكن اليمن ستة منهم كندة ومذحج وحمير والأزد وأنمار والأشعريون . والرواح الوقت من الزوال إلى الليل ، والسير فيه ، وراح إلى أهله =

وهذه الدارُ لا تُبْقِى على أَحَدٍ　　ولايدوم على حالٍ لها شان
يُمَزِّقُ الدهرُ حتماً كل سابغةٍ　　إذا نَبَتْ مَشْرَفِيّاتٌ وخُرْصانُ(١)
ويُنْتَضَى كلُّ سيفٍ للفناءِ ولو　　كان ابن ذى يَزَنٍ والغِمْدُ غُمْدانُ(٢)

ومنها :

دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لاعزاءَ له　　هوى له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ(٣)
أصابها العَيْنُ فى الإسلام فارْتَزَأَتْ　　حتى خَلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فاسأل بَلَنْسِيَةً ماشأن مُرْسِيَةٍ　　وأين شاطِبَةٌ أم أين جَيّانُ
وأين حِمْصٌ وما تحويه من نُزَهٍ　　ونهرُها العَذْبُ فياضٌ وملآن
قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلاد فما　　عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركان

ويتصل بهذا الغرض ، استنجاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكبار الصالحين ، واستنهاض همم الملوك القادرين على إنقاذ البلاد ، ومن ذلك قصيدة ابن الأَبَّار القُضَاعىّ ، الذى أرسله زَيّان صاحب بَلَنْسِيَة ، إلى أبى زكريا صاحب إفريقية يستنجده ، وأولها :

= أى رجع فى هذا الوقت، والابتكار أوالبكور: الخروج وقت البكرة ، وهى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

(١) السابغة :الدرع التامة الطويلة. نبا السيف:أخطأ الضريبة. المشرفيات: جمع مشرفى، وهوالسيف وإنما سميت السيوف كذلك، نسبة إلى المشارف وهى قرى من أرض العرب، تدنو من الريف فى بلاد الفرس، كانت العرب تجلب منها السيوف فنسبت إليها، والنسبة كما تعلم للواحد . الخرصان: بضم الخاء وكسرها ، جمع خرص بالضم ، وهو القناة أو السنان .

(٢) انتضى السيف:جرده من غمده كنضاه. ذويزن : من ملوك اليمن . غمدان : قصر بصنعاء باليمن، بناه يشرخ بأربعة وجوه ، أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ، وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف، بين كل سقفين أربعون ذراعا .

(٣) أحد: جبل أحمر قرب المدينة يقع شماليها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة، التى قتل فيها حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم، وثلاثة وسبعون صحابيا، وكسرت رباعية الرسول، وشج وجهه الشريف، وكلمت شفته . ثهلان : جبل من جبال نجد .

أَدْرِكْ بخيلك خيلِ اللهِ أَنْدَلُسا ... إنَّ السبيلَ إلى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا(١)

وهَبْ لها من عزيز النصر ماالتمست ... فلم يَزَلْ منك عِزُّ النصر مُلْتَمَسَا

وحاشِ مما تُعانيه حُشَاشَتَهَا ... فطالما ذاقت البلوى صباحَ مَسَا(٢)

يالِلْجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَراً ... للحادثات وأمسى جَدُّها تَعِسا(٣)

فى كلِّ شارقةٍ إلمامُ بارقةٍ ... يعود مَأْتَمُهَا عند العِدَا عُرُسَا

وكلِّ غاربةٍ إخجالُ شائبةٍ ... تَثْنِي الأمانَ حِذَاراً والسُّرورَ أَسَى(٤)

وفى بَلَنْسِـــيَةٍ منها وقُرْطُبَةٍ ... ما يَنْسِفُ النفْسَ أوما يَنْزِفُ النَّفَسا(٥)

مـــدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتسما ... جَذْلانَ وارتحلَ الإيمانُ مُبْتَئِسا

ومما كتب به آخر ملوك الأندلس، أبو عبد الله محمد، إلى سلطان فارس يتوسل إليه، وهى من إنشاء كاتبه البليغ، أبى عبد الله محمد العُقَيْلىّ :

مولى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ ... رَعْياً لما مِثْلُه يُرْعَى من الذِّمَمِ

بك استجَرْنَا ونِعْمَ الجارُ أنت لِمَنْ ... جارَ الزمانُ عليـــه جَوْرَ منتقِمِ

---

(١) درس الطريق ودرسته الريح كلاهما من باب قعد بمعنى خفيت معالمه .

(٢) يقال حاشى فلان فلانا من القوم أى استثناه ، والمعنى هنا أنقذ حشاشة الأندلس (بقية روحها) مما تعانيه وتقاسيه من العذاب .

(٣) اللام فى للجزيرة ، داخلة على المستغاث له، فهى لذلك مكسورة ، والمستغاث به مقدر والأصل ياللك أيها الملك للجزيرة . الجزر: بالتحريك الشاء السمينة، ومعنى كون أهل الجزيرة صاروا شياها سمانا، أنهم أعدوا للذبح ، كما تعد هذه الشياه له .

(٤) الشارق : الجانب الشرقى فتكون الشارقة الناحية الشرقية ، وكذلك الغاربة الناحية الغربية . البارقة: السيوف . الشائبة: واحدة الشوائب وهى الأدناس والأقذار، يقول فى كل ناحية شرقية من هذه البلاد تدنو سيوف يكون من آثار فعلها مأتم عند أهل البلاد، وعرس عند المغيرين المعتدين كما قال المتنبي (مصائب قوم عند قوم فوائد) وكذلك فى كل جهة ، غربية تحدث أمور دنسة مخجلة من فعل الأعداء ، تقلب الأمن للأهلين خوفا، والسرور حزنا .

(٥) نسف الشيء : اقتلعه من أصله . نزف البئر: نزح ماءها . النفس: من معانيها الجسد والدم . وظاهر أنه يجب إرادة المعنى الأول فى قوله ينسف النفس ، والمعنى الثانى فى ينزف النفس ، مع ملاحظة أن الأخيرة وردت فى البيت محركة ، والأصل تسكينها .

حتى غـــدا مُلْكُهُ بالرَّغْمِ مُسْتَلباً ... وأفظعُ الخطْبِ ما يأْتِي على الرَّغْمِ
حكمٌ من الله حَــــتْمٌ لا مَرَدَّ له ... وهل مَرَدٌّ لحكم منـــــه مُنْحَتِمِ
هِيَ الليالى وقاك الله صــــولتها ... تَصُولُ حتى على الآسادِ فى الأَجَمِ
كُنَّا ملوكا لنا فى أرضــــنا دُوَلٌ ... نِمْنـــا بها تحت أفنانٍ من النِّعَمِ
فأيقظَتْنــــــا سهامٌ للرَّدَى صُبَبٌ ... يُرْمى بأفجعِ حتفٍ مَن بهن رُمِي (١)

معانى الشعر الأندلسى

لم يعرف عن الأندلسيين أنهم أهل اختراع للمعانى ، لأن ذلك يحتاج إلى ثقافة غير التى ثقفوها ، يحتاج إلى دراسة للعلوم الرياضية والفلسفية ، وقد كانوا فى بعضها زاهدين ، ولبعض آخر محرِّمين ، و إنما علومهم كلها نقل ورواية، وهذه لاتدرب الذهن على التماس الأسباب واستنباط النتائج و إدراك الأمور الخفية ، لذلك اقتصروا على المعانى القريبة المتناول، التى تخطر بكلّ بال ، والتى عرضت فى شعر إخوانهم الشرقيين ، ولكن لم يفتهم أن يكون لهم ــ بما وهبوا من ذكاء فطرىّ ــ توليد فى هذه المعانى ، وزيادات عليها ، وعكس فى ترتيبها ، ونمط جديد فى صياغتها . ولقد عد الشَّقَنْدِىّ من هذه الأنواع كثيراً ، فقال فى افتخاره على أهل المغرب :

هل منكم من وصف ماتحدثه الخمرة من الحمرة فى الوجنة، بمثل قول الشريف الطَّلِيق:

أَصبحتْ شمساً وفُوهُ مغرِبًا ... ويدُ الساقى المُحَيِّي مَشْرِقَا
وإذا ما غَرَبَتْ فى فَمِه ... تَرَكَتْ فى الخَدِّ منه شَفَقَا

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُمُوَّ حَبَابِ الماء حالاً على حالِ

(١) الصبة كغرفة : ماصب من طعام وغيره ، وجمعها صبب كغرف .

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، فى قول ابن شُهَيْدٍ، وزير المنصور ابن أبى عامر المَعافرىّ، توفى سنة ٤٢٦ هـ بقرطبة :

ولمّا تَمَلَّأَ من سُكْرِهِ ونامَ ونَامَتْ عُيُونُ الحَرَسْ
دَنَوْتُ إليـــهِ على قُرْبِهِ دُنُوَّ رَفِيقٍ دَرَى ما الْتَمَسْ
أدِبُّ إليه دبيبَ الكَرَى وأسمو إليه سموَّ النَّفَس

وهل منكم من قُيِّد بالإحسان، فأطلق لسانه بالشكر، فقال مثل قول ابن اللَّبّانة :

بنفسى وأهلى جيرةٌ ماستعنْتُهُمْ على الدَّهْرِ إلا وانْثَنَيْتُ مُعانا
أراشوا جَناحى ثم بَلُّوه بالنَّدَى فلم أستطعْ من أرضهم طَيَرَانا

وهل منكم شاعر رأى الناس ضَجُّوا من سماع تشبيه الثغر بالأَقاح، والزهر بالنجوم، والخدود بالشقائق، فتكلف لذلك بأن يأتى فى مَنْزِعٍ يصير خَلَقه فى الأسماع جديداً، وكليله فى الأفكار حديداً، وهو ابن الزَّقَّاق، حين قال :

وأغيـــدٍ طاف بالكؤوس ضحا وحَثَّها والصَّـــباحُ قد وَضَحَا
والروضُ أهـــدى لنا شقائقَهُ وآسُـــه العَنْبَرِىُّ قد نَفَحا
قلنا وأين الأَقاحِ قال لنــــا أودعته ثَغْرَ من سَـــقَى القَدَحَا
يَظَلُّ ساقى المُـــدامِ يَجْحَدُ ما قال فلمـــــا تبسَّمَ افتضحا

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين .

وهل منكم من تغزل فى غلام حائك بمثلِ قول الرُّصافىّ :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عَذَلِى لو لم تَهِمْ بمُذَالِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ (١)
علقتـــه حَبَبِىّ الثغر عاطره حُلْوَ اللَّمَى ساحر الأجفان والمُقَلِ (٢)
غُزَيِّلٌ لم تزل فى الغَزْلِ جائلةً بنانُه جَوَلَانَ الفكرِ فى الغَزَلِ

---

(١) المذال : الممتهن المحتقر .

(٢) يقال علقه (كفرح) وعلقه (بالبناء للمجهول وتضعيف الفعل) أى أحبه . اللمى : سمرة الشفة

جَذْلانَ يَلْعَبُ بالمحواكِ أَنْمُلُه على السَّدَى لعب الأيام بالأجَلِ
ضَمًّا بكفيه أو فَحصًا بأَخْمَصِــه تَخَبُّطَ الظبي فى أشراكِ مُحْتَبِلِ

وهل منكم مثل حَمْدونة بنت زياد الوادى آشية التى تقول (تتغزل فى عشيقها) :

ولما أبى الواشون إلا فِراقنا وما لهمُ عندى وعندكَ من ثارِ
وشَنُّوا على أسماعنا كلَّ غارةٍ وقلَّ حُماتِى عند ذاك وأنصارى
غزوْتُهُمُ من مقلتيك وأدمُعى ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

ثم قال :

وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبى بكر بن بَقِيٍّ ليكون الختام مسكا :

عاطيتُه والليلُ يســحَبُ ذيله صهباءَ كالمسك الفَتِيق لناشقِ
وضَمَمْتُه ضَمَّ الـكمىِّ سلاحه وذُؤابتاه حمائلٌ فى عاتقى
حتى إذا مالتْ به سِنَةُ الـكَرَى زَحْزَحْتُه شيئاً وكان مُعَانِقى
باعدته عن أضلُعٍ تشــتاقه كى لا ينام على وِسادٍ خافق

⁂

ونحن مطمئنون كل الاطمئنان إلى حسن اختيار الشَّقَنْدِىّ ، فقد دل على سعة اطلاع على الشعر الأندلسى ، وحسن تقدير لمحاسنه ، لذلك نكتفى باختياره عن اختيارنا ، وصاحب الدار أدرى بما فيها .

أسلوب الشعر الأندلسى

لقد ظهر فى شعر الأندلسيين أثر الفطرة — كما كان ذلك فى نثرهم — فلم يعرفوا الغرابة فى اللفظ ، ولا التعقيد والمعاظلة فى الأســلوب ، ولم يغرموا بمحسن ، بل ربما لا تكاد تعثر بأمثلة من عويص البديع ، كالاستخدام والتورية ، إلا القريب الواضح منها. وكان قولهم إلى الرقة أقرب منه إلى الجزالة . لذلك أحسنوا جدًّا فى أغراض الغزل ، والوصف للرياض ، ولم ينهض أسلوبهم اللين ، ولفظهم السهل ، بالمعانى القوية فى مثل الفخر والحماسة .

ولم يعمِدُوا إلى إدماج المعنى الكثير فى لفظ قليل ، كما يتكلف ذلك المشارقة ، بل كانت عباراتهم فضفاضة طويلة الذيل ، أومحكمة التقدير ، ومن عدل منهم عن هــذه الجادّة عابوه ، كابن خَفاجَة ، لكثرة تعويله على ذلك فى شعره ، كقوله يصف شيبه :

أَرِقْتُ على الصِّـبا لطُلُوعِ نجمٍ ... أُسَمِّيه مُسامحةً مَشِـيبَا

كفانى رُزْءَ نَفْسِي أَنْ تَبدَّى ... وأعظمُ منـه رُزْءًا أَنْ يغِيبا

وهذا المعنى الذى أدمجه ابن خفاجة فى بيت واحد ، هو ماقاله مسلم بن الوليد أو بشار، فى بيتين ، وهما :

الشيب كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يفارقنى ... فاعجب بشىء على البغضاء مودود

يمضى الشباب ويأتى بعده خلف ... والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وقاله أبو تمام فى أبيات :

غـدا العمر مختطاً بفودىَ خطة ... طريق الردى منها إلى الموت مهيع

هو الزور يُجفى والمعاشر يُجتوى ... وذو الإلف يقلى والجديد يُرقع

له منظر فى العين أبيض ناصـع ... ولكنه فى القلب أسود أسفع

ونحن نرجِّيه على السخط والرضا ... وأنف الفتى من نفسه وهو أجدع

والذى لحظته فى أشعارهم ، ورأيته شائعاً فى صياغة معانيهم ، بعد الافتنان فى صوغ الاستعارة ـ وقد مرّ بك كثير من أمثلتها ـ هوقلب التشبيه مثل قول ابن سَفَر المَرِينى:

أنهارها فضة والمِسْـكُ تُرْبَتُهَا ... والخَزُّ رَوْضَتُهَا والدُّرُ حَصْبَاءُ

وقول القائل :

غازلْتُهـا والأُقْحُوانةُ مَبْسِمٌ ... والآسُ صُدْغٌ والبَنَفْسَجُ خَالُ

كذلك يكثرون الإتيان به ، مضافا فيه المشبه به إلى المشبه ، مثل قول ابن خفاجة :

والريحُ تَعْبَثُ بالغصونِ وقد جَرَى ... ذهب الأَصِيلِ على لُجَـيْنِ الماء

وقوله أيضاً :

أُعانِقُها طوراً وأَلْـــــثِمُ تارةً   إلى أَنْ دَعَتْنَا للنَّوَى رايةُ الفَجْرِ

وقول القائل :

مُتَقَسَّمُ الأَلْحَاظ بَيْنَ مَحَاسِنٍ   مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ

وقول الرُّصَافيّ :

طائرٌ شادٍ وغُصْنٌ مُنْـــــثَنٍ   والدُّجَى تَشْرَبُ صَهْبَاءَ الأَصيل

الموشـــحات

شَعَر العرب ، منذ أوائل العصر العباسى ، بضيق قيود الشعر العربى ، وأن هذه الأوزان الستة عشر ، لا تحقق رغبات المتغنين بهذا الشعر ، كما أن وَحْدة القافية فى القصيدة ، لايستطيعها إلا كل تام الملكة ، مالك لزمام اللغة ، كثير الثروة من ألفاظها وأساليبها ، وقد صار هؤلاء قليلا فى ذلك الحين .

لم يقف المشارقة حائرين أمام هذا الضيق، بل استخدموا فى شعرهم وزنا فارسيا، أعجبتهم نغْمته فى الشعر الفارسى، وهو الدُّوبيت، فقلّدوهم فيه وأكثروا منه، وكان أول من نظمه هم الفرس الذين حذِقوا العربية ، فصاغوها فى قالبه المألوف لهم .

كذلك نسبوا إلى أبى العتاهية، ومسلم بن الوليد إحداث أوزان ، و إخراج صور من الكلام العربى على نمطها ، ولعل الذى هداهم إليها أنهم سمعوها فى ألحان المتغنين بغير العربية ، أو أن مقدرتهم الموسيقية، من كثرة ترنمهم بأوزان الشعر، مكنتهم من ذلك .

كذلك ذكروا أن الخليل بن أحمد ، لما صنع دوائر البحور لضبط أوزانها ، ودرسها الناس ، رأوا فى عكس هذه الدوائر أوزانا وألحانا، ساغت فى أذواقهم ، فقالوا على غرارها

كلاما عربيًّا، وسموا ذلك بأسماء من نوع أسماء البحور الشعرية، فسموا مقلوب الطويل مستطيلا ، وهو مثل قول القائل :

أَيَسْلُو عنكَ قَلْبٌ بنار الحُبّ يَصْلَى   وَقَدْسَدَّدْتَ نَحْوِى من الأَلْحَاظِ نَصْلاَ

وسموا مقلوب المديد ممتدا ، وهو مثل قول القائل :

مَنْ لِقَلْبِي يَابْنَةَ العَامِرِىّ   بالذى يَتَمَنَّى من وصَال القَصِىّ

وعدوا من هذه الأوزان ستة ، مرّت بك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فلا نطيل بذكرها .

وكان من أشهر ما استحدث فى الشرق من الأوزان غير ماتقدم : السلسلة ، والقُوما ، والموَاليّا ، وكان وكان .

⁂

كذلك حاول المستعربون التخلص من ضيق القافية ، فعمدوا إلى الازدواج ، والتسميط ، والتخميس ، يتوسعون بها فى نوع القافية ، و يستريحون إلى المخالفة بينها .

والمجترئون على هذا النمط العربى الموروث ، الخارجون عليه بما أحدثوا من أوزان وصور للقافية ، كانوا يحاولون أن يثبتوا أنهم لم يَعُقّوا العربية ، ولم يبيحوا لها حمى ، فيذكرون أن امرأ القيس قد سبق إلى التسميط ، فى قوله :

تَوَهَّمْتُ من هندٍ معالم أطلالِ   عفاهُنّ طُولُ الدهر فى الزَّمَنِ الخالى

مَرَابعُ من هندٍ خَلَتْ ومَصَايفُ   يَصِيح بمغناها صَدًى وعَوَازِفُ

وغَيَّرَها هُوجُ الرياح العواصفُ   وكلُّ مُسِفٍّ ثم آخرُ رادفُ

بأسحمَ منْ ضوءِ السِّما كَيْنِ هَطَالِ

ولكن هذا القول ظاهر الكذب ، ينطق بذلك لسان شاهده ، فإن هذا القول المنسوب إلى امرئ القيس ، ظاهر التوليد والنحْل .

☆☆☆

ولما أحسّ الأندلسيون ــ عند تفشى حضارتهم ــ بما أحسّ به المشارقة ، وأحبوا التفصّى من ضيق الوزن والقافية معا ، أحدثوا المُوَشَّح . وفى اختراعهم لهذا النوع ، مع سبق المشارقة إلى إحداث الدو بيت والسلسلة وغيرهما ، دليل على أنهم لاينزِعون عن قوس التقليد لهؤلاء ، و إلا لقلدوهم فى هذا الذى بدَتْ حاجتهم إليه .

فللأندلسيين فى كلّ شيء ذوق ، وفى الشعر خاصة ذوق ، لايهتدون بغير هديه ، ولا يعولون على غير وحيه ، وقد هداهم ذوقهم إلى الموشح ، فكانوا أصحابه ومُذِيعيه فى العربية ، وسار المشارقة وراءهم يضربون على نغمتهم ، و يتغنَّون بنشيدهم .

على أن العصبية للوطن ،ومحبة الاستبداد بالمفاخر دفعت المشارقة إلى أن يقولوا ، إن ابن المعتز قد سبق إلى التوشيح بقوله :

أيُّها الساقى إليك المشتكَى قد دعوْناك و إن لم تَسْمَعِ

ونديمٍ هِمْتُ فى غُرَّتِهِ

وشَرِبْتُ الراحَ من راحَتِهِ

كلما استيْقَظَ من سَكْرَتِهِ

جَذَبَ الزِّقَ إليه واتَّكَا وَسقانى أربعاً فى أَرْبَعِ

ما لِعَيْنِى عَشِيَتْ بالنَّظَرِ

أنْكَرَتْ بَعْدَكَ ضَوْءَ القمرِ

و إذا ما شِئْتَ فاسْمَعْ خَبَرِى

عَشِيَتْ عيناى من طُولِ البُكَا وبَكَى بَعْضِى عَلَى بَعْضِى مَعِى

والذى يجعلنى أوقن بكذب هذا الزعم ،وأن هذه القطعة مدسوسة فى ديوان ابن المعتزّ، بعد شيوع الموشح بالمشرق منقولا من الأندلس ، أنك لاترى لمعاصريه فى الشرق شيئاً من هذا النوع ، مع أنهم هم الذين وَلِعوا به، وألحوا فيه ، بعد انتقاله إليهم من الأندلس،

وأذواقهم هِيَ هِيَ لم تتغير ، فكيف حرّموه ثم أحلُّوه ، ورغبوا عنه ، ثم رغبوا فيه !؟ مع أن ابن المعتزّ جليل القدر بينهم ، نابه الذكر فى شعرائهم ، فكان تقليده من الأمور التى يحرصون عليها ، و يتنافسون فيها .

الموشحات وتاريخها بالأندلس

قال ابن خلدون «وأما أهل الأندلس ، فلما كثر الشعر فى قطرهم ، وتهذّبت مناحيه وفنونه ، و بلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون فيه فناً منه سموه الموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ، ومن أعاريضها المختلفة ،و يسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، و يلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد ، إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات . . . . . . » .

وتفصيل كلام ابن خلدون ، على حسب ما انتهى إليه الاصطلاح فى تسمية أجزاء التوشيح ، أنه يشتمل على أقفال ، وأبيات .

فالأقفال : هى الأجزاء التى تبتدئ بها الموشحات غالباً ، وتتكرر قبل كلّ بيت منها ، و يشترط أن تكون متفقة فى عدد أجزائها ، وقوافيها .

والبيت : ماولى القُفْل غالباً ، وقديبدأ به ، فإن تكوّن من أجزاء مفردة سمى بسيطاً، و إن تركب كلّ جزء من فقرتين أو أكثر سمى مركباً .

و يسمى التوشيح المبتدئ بقفل تاما ، والمبتدئ بالبيت أعرج .

مثال التوشيح التامّ قول الأعمى التُّطَيْلِيّ :

ضاحك عن جمانْ سافرٌ عن بدرِ ضاق عنه الزمانْ وحواه صدرِى

آهِ مما أَجِدْ شفَّنى ما أجِدْ

قام بى وقعدْ باطشٌ متئدْ

كلما قلتُ قدْ قال لى أين قدْ !؟

واثنى خوط بانْ ذا مَهَزٍّ عابثته يدانْ للصَّبا والقطر

ليس لى منك بدْ خُذْ فؤادى عن يدْ
لم تدع لى جَلَدْ غير أنى أَجْهَدْ
مَكْرعٌ من شَهَدْ واشتياقى يَشْهَدْ

وهكذا . . .

ومثال الأعرج :

سطوة الحبيبِ أحلى من جنى النحلْ
وعلى الكئيبِ أن يخضع للذلّ
أنا فى حروبِ مع الحَدَق النُّجْلِ

ليس لى يدانْ بأحورَ فتانْ من رأى جفونَهْ فقد أفسدت دِينَهْ

وهكذا . . .

والقفل كما ذكرنا آنفاً يتركب من جزأين ، فأكثر إلى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر .

فمثال المكون من جزأين ، قول الشابّ الظريف :

قمرٌ يَجْلُو دجا الغَلَس بَهَرَ الأبصارَ مذ ظَهَرَا

ومثال المكوّن من ثلاثة أجزاء :

حلَّتْ به الأمطار أَزِرّة النُّوَّار فيا خَدَنِى

وهكذا . . .

ومثال المركب من أحد عشر قول ابن سَنَاء المُلْك :

مظلومْ ، المسواكْ ، ثَغْرٌ هداكْ ، بالابتسامْ ، إلى الغرامْ ، فياخِلِّى ، لا تعذِلِ ، دعنى فلنْ ، أصْبِرَ عَنْ ، سَحّارْ ، وفتاكْ .

والبيت قلنا إنه بسيط ومركب ، فالبسيط يكون من ثلاثة أجزاء أ وأربعة أو خمسة ،

ومثاله فيما تركب من ثلاثة :

أرى لَكْ مُهَنَّدْ أحاط به الإثْمِدْ فجَرَّد ما جَرَّدْ

فياساحر الجفنِ حسامك قطاعْ

فالأجزاء الثلاثة الأولى بيت ، والأخيران قفلة مركبة من فقرتين .

والمركب من الأبيات ، ما كان كلّ جزء منه مركباً من فقرتين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، وبملاحظة أن البيت نفسه يكون مكوّناً من ثلاثة أجزاء أو أكثر ، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة ، ولنضرب لها أمثلة توضحها .

فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء :

أقم عـــذرى فقد آن أن أعكف

على خَمْـــرِ يطوف بها أوطف

كما تَـــدْرى هضيم الحشى مُخْطَفْ

إذاما ماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ويلاحظ فى هذا المثال ، أن قفلته مكوّنة من أربعة أجزاء .

ومثال ماتركب من ثلاث فِقَر وثلاثة أجزاء :

من لى به يرنو بمقلتى ســاحر إلى العبـــاد

ينأى به الحسن فينثنى نافــر صعب القياد

وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثمـــاد

فجيده أغيد ، والخدّ بالخال ، منمق ، تكتمه الحجب ، فلى إلى الكلة ، تشوق .

ويلاحظ فى هذا المثال أن قفلته مكوّنة من ستة أجزاء .

وأكثر ما يتركب الموشح إن كان تامًّا من ستّ قفلات وخمسة أبيات ، وإن كان أعرج من خمس وخمسة ، والقفلة الأخيرة فى الموشح تسمى الخرجة .

وهذا الذى ذكرناه من اشتمال الموشح على القفل والبيت ، هو الوصف العام الذى ينطوى تحته كلّ ما ذكروه من أقسام وأحوال للتوشيح .

فما ذكروه من قولهم إن من بعض أنواع الموشح أن تأتى ببيتين يسميان لازمة ، ويكون صدراها بقافية واحدة ، وكذلك عجزاها ، ثم يأتى بعد ذلك ثلاثة أبيات متفقة صدورها فى القافية ، وكذلك أعجازها . مثل موشحة ابن سهل الإسرائيلى ، التى ستمرّ بك فى عنوان (تاريخ الموشحات) ، ينطبق عليه ما ذكرناه . فهذه الموشحة ، بيتاها الأوّلان هما ما نسميه قفلا ، والأبيات الثلاثة بعدهما هى التى نسميها بيتاً ، والبيتان بعد ذلك قفل ، والأبيات الثلاثة التى تجىء بعدها بيت ، وهكذا . . .

فلا داعى إلى كثرة الأقسام التى ذكروها ، ونكتفى بالوصف العام الذى قدمنا لك ، لأن كلّ كلام ذكروه منطو تحته .

أوزان الموشح وأغراضه وأسلوبه

قال ابن سناء المُلْك ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ فى كتابه « دار الطراز » ـ وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ـ .

« والموشحات تنقسم قسمين : الأول ، ما جاء على أوزان أشعار العرب ، وهو قسمان : أحدهما ما لا يتخلل أقفاله وأبياته ، كلمة تخرج تلك الفقرة التى جاءت فيها عن الوزن الشعرى . وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء ، وذلك كقول القائل :

يا شقيق الروح من جسدى أهوى بى منك أم لَمَمُ ؟

فهذا من المديد .

وكقول الآخر (وهو ابن المعتزّ) :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل .

ثم ذكر من القسم الثانى ، ما تخللته كلمة أخرجته من الوزن ، مثل قول ابن بَقِيّ :

صَبَرْتُ والصبرُ شيمةُ العانى ولم أقل المطيل هجرانى مُعَــــــذِّبى كفانى.

وذكر بعد ذلك أن القسم الثانى من الموشحات ، وهو مالا مدخل فيه لشىء من أوزان الشعر هو القسم الكثير ، والجم الغفير ، والقدر الذى لاينحصر .

أما أغراض الموشح فقد كان يقال أوّلا للتغنى ، فلم يكن موضوعه إلا المعانى المناسبة للغناء ، وهى الغزل ، ووصف الخمر ، ولكنه لما تعلق به القوم ، وخفّ على ألسنتهم ، وحلا فى أسماعهم، قالوه فى كل غرض من أغراض الشعر، من مدح وتهنئة ، ووصف وهجاء ، ورثاء ووعظ .

أما أسلوبه فهو عربىّ التراكيب والألفاظ ، وإن كان مهمل الإعراب أحياناً فى بعض ألفاظه ، وكان كلما تقدم به الزمن زاد إهمال الإعراب فيه ، ولكنه لا يخرج بمجموعه عن الصياغة العربية ، وذلك فيما عدا الخرجة ، وهى كما علمت آخر قفل فى الموشح، فقد اشترطوا فيها أن تكون فكاهة ، ونادرة حارّة ، ملحونة الألفاظ، جارية على لسان ناطق أو صامت ، ولعلّ هذا الاشتراط لم يكن إلا فى العهود الأخيرة .

تاريخ الموشحات

ذكروا أن أوّل من اخترعها بالأندلس ، هو مُقَدَّم بن مَعافِر الفَرِيرىّ ، من شعراء الأميرعبد الله بن محمد المروانى ، الذى حكم من سنة ٢٧٣ هـ إلى ٢٧٥ هـ ، وأخذه عنه أحمد بن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ولكن موشحاتهما كسدت أخيراً ، ولم يكن لها ذكر بجانب موشحات المتأخرين ، ثم نشأ عُبادة القزّاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، وهو شاعر المعتصم بن صُمادح ، صاحب المَرِيّة وقد برع فيه ، وظهرت له موهبة حسنة ، حتى قيل كل الموشِّحين عِيالٌ عليه فى قوله :

بَدْرُ تِمّْ ، شمس ضُحا غُصْنُ نَقَا ،مِسْكُ شَمّْ
ما أتمّْ ، ما أَوْضَحا ما أَوْرَقا ، ما أَنَمّْ
لا جَرَمْ ، من لَمَحَا قد عَشِقَا ، قد حُرِمْ

ثم جاء بعده ابن أَرْفَع رأسَه ، شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طُلَيْطُلة ، وله موشحة طارت شهرتها ، وأوّلها :

العود قد ترنَّمْ ، بأبدعْ تلحينْ ، وشَقَّتْ المَذَانِبْ ، رياضَ البَسَاتِينْ .

وفى آخرها يقول :

تَخْطِرْ ولا تُسَلِّمْ ، عساك المأمونْ ، مُرَوِّع الـكتائب ، يحيى بن ذى النون .

وفى دولة الملثمين تبارى الموشحون ، فظهرت لهم بدائع ، ويعتبر الأعمى التُّطَيْلىّ المتوفى سنة ٥٢٠ هـ سابق حلبتهم بقوله :

ضاحك عن جمانْ ، سافرٌ عن بدرِ ، ضاق عنه الزمانْ ، وحواه صدرِى

وقد ذكروا فى شأن هذه الموشحة ، أن جماعة من الموشحين اجتمعوا فى مجلس بإشْبيلِيَة ، وكان كلّ واحد قد أعد موشحة ، وتأنق فيها ، فتقدّم الأعمى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته الآنفة ، خَرّق ابن بَقِيّ موشحته ، وتبعه الباقون .

وكان من معاصرى الأعمى ، الحكيم أبو بكر بن بَاجَّهْ ، ذكروا أنه حضر مجالس مخدومه صاحب سرقسطة ، فألقى عليه موشحته التى ختمها بقوله :

عَقَدَ اللهُ رايةَ النصرِ لأمير العلا أبى بكر

فصاح الأمير : واطرباه ! وشقّ ثيابه ، وحلف الأيمان المغلظة ، ألا يمشى ابن باجة إلا على الذهب ، فاحتال ابن باجَّهْ ، بأن جعل فى نعله ذهباً ومشى عليه !!

وممن اشتهر بالأندلس من الموشحين بعد من تقدم ، ابن سهل شاعر إشبيلية ، وابن زَمْرَك ، ولسان الدين بن الخطيب .

ومن موشحات ابن سهل[١] .

هل درى ظبي الحِمَى أن قد حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حـله عن مَكْنِسِ
فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثلمـا لَعِبَتْ ريح الصَّـبا بالقَبَسِ

يا بدوراً أشرقتْ يوم النـوى غُرَرًا تَسْلُكُ بى نَهْجَ الغَرَرْ
ما لنفسى فى الهوى ذَنْبٌ سوى منكمُ الحسنُ ومنْ عينى النظرْ
أَجتَنِي اللذاتِ مَكْلُومَ الجَوَى والْتذاذى من حبيبى بالفِكَرْ

كلما أشـكوه وَجْدِى بَسَمَا كالرُّبا بالعارض المنبجِسِ
إذْ يقيم القَطْرُ فيهـا مأتَمًا وَهْىَ من بَهْجَتِها فى عُرُسِ

أيها السائل عن جُرْمى لديه لى جزاء الذنب وهْوَ المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه مشرقا للشمس فيـه مغرب
ذهب الدمع بأشـواقى إليه وله خـدٌّ بلحظى مُذْهَب

وهى طويلة ، فالتمسها فى الجزء الثانى من المنتخب.

وقد عارضها لسان الدين[٢] ، بقوله :

جادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمان الوَصْـل بالأَنْدَلُسِ
لم يَكُنْ وصْلُكَ إلاَّ حُلُمَا فى الـكَرَى أو خُلْسَةَ المُخْتَلِسِ

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنَى تَنقُلُ الخَطْوَ عَلَى ما يَرْسِمُ
زُمَرًا بين فُرادَى وَثُنَى مِثْلما يدعو الوفودَ المَوْسِمُ

(١) هو إبرهيم بن سهل الإشبيلى ، يهودى أسلم ، وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلى ، مات غرقاً سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) هوأبوعبد الله محمد ، المعروف بابن بالخطيب، وزير بنى الاحمرملوك غرناطة، كان وزيرا لأبى الحجاج يوسف، من عظماء ملوكهم ، ثم لابنه، فاتهم بالخيانة فى السياسة، وبالزندقة ففر إلى المغرب، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه ، فقتل سنة ٧٩٠ . وكان شاعرا كاتبا مؤرخا مؤلفا فقيها متفلسفا .

والحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنَى   فَثُغُورُ الزَّهْرِ مِنه تَبْسِمُ

وهى كذلك فى المنتخب .

ولابن زَمْرَك موشحة منها :

والحبُّ ذو عُدْوانْ   يجهد فى ظُلْم البَرِي
وصارمُ الأجفانْ   مـؤيد بالْحَوَر
رُحْماك فى صَبّ   أذكرتَهُ عَهْدَ الصِّبَا
بواعثُ الحُبِّ   قادت إليه الوَصَبَا
لم تَهْفُ بالقلب   ريح الصَّبَا إلا هَبَا(١)

وقد انتقل التوشيح ـ بعد شيوعه بالأندلس ـ إلى بلاد البربر والشرق، فنبغ فيه كثير ، على رأسهم ابن سناء المُلْك ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، وقد فتح فيه فتحاً جديداً ، وأحدث أنواعا وأوزانا لم يسبق إليها ، ومن موشحاته موشحته المشهورة :

كَلِّلِي ، ياسُحْبُ تيجان الرُّبَا بالحُلِي
واجعلى ، سِوارَكِ منعطَفَ الجدولِ

⁂

ياسما ، فيك وفى الأرض نجوم وما(٢)
كلما ، أَغْرَبْتِ نَجْماً أشرقَتْ أَنْجُمَا(٣)
وهى ما ، تَهْطِلُ إلا بالطُّلَى والدِّما(٤)

⁂

فاهطلى ، على قُطُوف الـكَرْمِ كى تمتلى

---

(١) هبا يهبو : مات .
(٢) ماء السماء فى سحابها ، وماء الارض فى غدرانها وأنهارها .
(٣) يقول إن غياب نجوم السماء ينشأ عنه ظهور نجوم الارض وهى نباتها .
(٤) يقول إن الارض لا تهطل إلا بأعناق القتلى ودمائهم .

واتْقُلِى للدَّنِّ طعم الشَّهْد والفُوْفَلِ (١)

⁂

تَتَّقِدْ كالكوكب الدُّرِّىِّ للمرتَصِدْ
يَعْتَقِدْ بها المجوسىُّ بما يَعْتَقِدْ
فاتَّئِدْ يا ساقىَ الراحِ بها واعتمِدْ

وهى طويلة فاطلبها فى كتابه «دار الطراز» .

الأزجال

الزجل لغة الصوت ، وقد سمى هذا الفنّ زجلا لترجيع الصوت به فى الإنشاد ، ويقال له الشعر العامى ، وقد كانت الأندلس بيئة الزجل الأولى ، كالتوشيح . ولكنه تأخر عنه فى الظهور ، وذلك أنه لما اخترع التوشيح واستعذبه الناس ، وتداولوه بكثرة ، وكان يلتزم فيه الإعراب غالباً ، ولم يسهل على العامة متابعة الشعراء المعربين فى قوله ، رأوا أن ينسجوا على منواله بلغتهم البلدية ، فأتوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه لبلاغتهم مجال فسيح ، وهو يصاغ من جميع أوزان الشعر العربى ، ويزيد عليها كلّ ما وافق الترنم ، فلا حدّ لأوزانه حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال ، وأوّل شروطه التزام العامية .

وأوّل من اخترعه رجل يقال له راشد ، ولكن لم تظهر محاسنه بالإكثار من أنواعه ، ونظمه فى كلّ غرض ، إلا فى دولة الملثمين ، على يد أبى بكر بن قُزمان القرطبى ، المتوفى سنة ٥٥٥ ﻫ ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، وقد اشتهرت أزجاله ببغداد ، أكثر من اشتهارها بحواضر المغرب . ويقال : إنه حين كان صغيراً بالمكتب ، دخل

---

(١) الفوفل : ثمر نخلة وهو صلب كأنه خشب .

عليه صبيّ صغير مثله ، فناداه وأجلسه بجانبه ، وصار يحييه ، فرآه الفقيه على ذلك فضربه ، فكتب فى أعلى اللوح هذا المطلع :

المِـلَاحْ أولادْ إمارهْ والوِحَاشْ أولادْ نَصَارَهْ
وابن قُزْمَانْ جَا يغفِّرْ ما قبلْ لهُ الشيخْ غفَارَهْ

فاطلع الفقيه على اللوح، فرأى هذا المطلع ، فقال : هجوتنا بكلام مزجول ـ يعنى مقطعاً يُترَنّم به ـ فسمِّى زجلا ، ومن أمثلة الزجل من ابن قُزْمان هذا ، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصبّ الماء من فيه ، على صفائح من الحجر مدرجة :

وعريشْ قام على دُكَّانْ بحـال رُوَاقْ
وأسدْ قد ابتلع ثعبانْ فى غُلْظِ ساق
وفتح فُمُّو بحال إنسانْ فيه الفوَاقْ
وانطلق يجرى على الصُّفَّاحْ ولَقَى الصَّباح[1]

وقد جاء بعده عبد الله بن الحاج المعروف بمَدْغَلِّيس فأجاد أيضاً ، ومن أزجاله :

ورَذَاذْ دِقّْ يِنْزِلْ وشعاع الشمس يِضْرَبْ
فترى الواحد يِفَضَّضْ وترى الآخر يِذَهَّبْ
والنَّبَاتْ يِشْرَبْ ويِسْكَرْ والغصون تِرْقُصْ وتِطْرَبْ
وتُرِيد تيجى إلينا ثم تِسْتَحْيي وتِهْرَبْ

وقد انتقل الزجل إلى المشرق ، كما انتقل الموشح ، وقالوه فى الشام والعراق ومصر ، وقد أجاده المصريون أيام المماليك .

ونحن نورد هنا هذا الزجل ، من كلام قاسم بن عبود الرياحي ، ليكون صورة واضحة لعامية بلاد الأندلس ، التى لم نكد نظفر لها بأمثلة إلا فى تلك الأزجال :

---

(١) الصفاح : حجارة رقيقة عراض مفردها صفاحة . ومعنى لقى الصباح أنه يشبه الصبح فى بياضه .

بالله أى نصيب من ليس لى فيه نصيب
محبــو باً مخالف ومعـــــو رقيب

⁂

حين قصد مكانو يقيم فى المقـام
ويبخـــل علينا بردّ الســــلام
أدخلْتَ يا قلــبى روحَكْ فى زحام

⁂

سَلاَمْتَكْ عندى هى شىء عجيبْ
وكيف بالله يِسْلَمْ من هُو فِى لَهِيبْ

⁂

بالله يا حبيــبى أُتْرُكْ هذا النِّفارْ
واعمد أَنْ نَطِيبْ فى هـــذا النهارْ
واخرج مَعِى للوادِى لشُرْبِ العُــقَارْ

⁂

نِتَمِّمْ نهـــارنا فى لَذَّهْ وطِيبْ
فى الارْحَى وإلاَّ فى المَرْجِ الخَصِيبْ

⁂

أو عند النواعيرْ والروضِ الشَّرِيقْ
أو قصر الرُّصَافَهْ أو وادى العَقِيقْ
حرق والله دونك هو عندى الحريق

⁂

وفى حُبَّكْ أمسيتْ فى أهلى غريبْ
وما الموت عندى إلاَّ حينْ تِغِيبْ

⁂

اتكل على اللهْ وكن فَظَّ جَسُورْ
وإنْ رإيتْ فُضُولِى فقُلْ أى تمور
كَمِّشْ عنى وَجْهَكْ فإنْ رَآك نفُورْ

⁂

يهْرَبْ عنك خائفْ ويبْقَى مُرِيبْ
وامْشِ إنتَ مُوَقَّرْ كأَنَّكْ خَطِيبْ

⁂

ما أعجبْ حديثى إيشْ هٰذَا الجُنُونْ
نُطْلُبْ وَنْدَبِّرْ أمراً لايكون
وكَمْ ذا نُهَوِّنْ شـيئاً لايَهُونْ

⁂

وإيشْ مقدارْ مانِصْبِرْ لِبُعْـدِ الحبيبْ
ربِّ اجمعنى مَعُو عاجـلا قريبْ

تراجم بعض رجال الأندلس

ابن هانىء الأندلسى

٣٢٦ — ٣٦٢ هـ

ذكروا عن أبيه أنه كان شاعراً أديباً ، من أهل قرية من قرى المهديّة ، عاصمة ملك الفاطميين بالمغرب ، وأنه أزْدىّ من سلالة يزيد بن حاتم بن قَبِيصة بن المهلب ابن أبى صُفْرة ، أو أخيه رَوْح بن حاتم ، فهو لذلك عربىّ الأرومة ، شاعر بالوراثة .

انتقل أبوه إلى الأنداس ، منتجعاً خير هذه البلاد ، طامعاً فى جود خلفائها ، مرتزقا بأدبه ، كما فعل غيره من الوافدين على الأنداس ، وقد رضى هانئ عن سفرته ، ونال ما أمل ، فاستقرّ به المقام بمدينة إشْبِيلِيَة ، وولد له بها ابنه أبو القاسم محمد بن هانئ .

وإشبيلية هى تلك المدنية ذات الوادى الفرج ، والنادى البهج ، التى عرف أهلها بالخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان ، الساعة بعد الساعة ، واشتهرت بجبل الشرف ذى التراب الأحمر ، المترامى النواحى ، المشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت كلها بشجر الزيتون ، وعرفت كذلك بالنهر الذى يصعد فيه المد اثنين وسبعين ميلا .

تلك هى إشبيلية التى ولد بها شاعرنا ودرج ، ونشأ وترعرع ، وقد أدركها والزمان غض الإهاب ، وملك بنى أمية فى نَضْرته أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، فقد كان

مولد شاعرنا فى سنة ٣٢٦ هـ ، أو قبل ذلك بست سنوات ، أى فى خلافة الناصر التى استمرّت إلى عام ٣٥٠ هـ ، وسمى عصرها بالعصر الذهبى بالأندلس ، لاستقرار ملك الأندلسيين ، ونفاق سوق العلم والأدب ، واستبحار المدينة ، واتساع الثروة .

تعلم أبو القاسم ، والعلم إذ ذاك أمنية كلّ ناشىء ، فمن حصله ونبغ فى فن منه، ضمن الثراء والجاه ، عند ملوك هذا الزمان وأمرائه ، وقد تَقَيَّل القاسم ظلّ أبيه ، أو هدته الوراثة إلى الشعر والأدب ، فنشأ أديباً يتكسب بالشعر ، وهو أربح تجارة ، وكانت حظوته عند أمير إشْبِيلِيَة ، الذى أدنى مجلسه ، بل خلطه بنفسه ، وكان فى ابن هانئ خفة إلى اللهو ، وتبجح(١) بالدعارة ، ومجاهرة بآراء ينتحلها فى الفلسفة ،والمذاهب الجامحة . فلم يرق ذلك أهل المدينة ، لأنهم أندلسيون يكرهون ـ كما علمت ـ الفلسفة ، ويمقتون كل متكلم بها ، ويرمونه بالزندقة ، وليس وراء هذه التهمة إلا أن يثوروا بنُعَرَة دينية شديدة ، فيقتلوا الزنديق أو ينفُوه من بلدهم . ولقد ساء رأيهم فى الأمير ، وظنوه راضياً عن معتقد الشاعر ، مشاركا له فيه ، لكثرة ما كان من ملازمته له ، فلما أحسّ الأمير ذلك منهم ، أشار على ابن هانئ بالفرار من وجههم حينا ، حتى تهدأ ثائرتهم عنهما جميعاً .

خرج ابن هانئ من إشبيلية ، وعمره سبع وعشرون سنة ، فنزل ببر العُدْوة ؛ واتصل بجوهر القائد ومدحه ، ثم اتصل بيحيى بن علىّ وأخيه جعفر ، وكانا واليى المَسِيلة (الزاب) من قبل المعزّ لدين الله أبى تميم معد بن منصور العُبَيْدىّ . ثم نمى خبره إلى المعزّ ، فطلبه منهما ، فلما انتهى إليه ، بالغ فى إكرامه والإنعام عليه .

واتفق أن فتح جوهر القائد مصر ، ووطد فيها الملك لسيده المعزّ ، فلما أراد الخليفة الخروج إليها ، شيعه ابن هانئ ، واستأذنه فى العودة لأخذ ماله وعياله ، ولكنه حين كان ببَرْقة ، أضافه رجل من أهلها فبقى عنده أياما . فيقال : إنه خرج ليلا وهو

---

(١) البجح : الفرح بالشىء والافتخار به ، والفعل كفرح ويقال بجحته بالتضعيف فتبجح .

سكران ، فنام فى الطريق فأصبح ميتاً ، وقيل : إن أصحابه عربدوا عليه وقتلوه ، وكان ذلك عام ٣٦٢ هـ ، فيكون عمره ستا وثلاثين سنة ، أو اثنتين وأربعين على رواية .

ولما بلغ المعز نعيه أسف أسفاً شديداً وقال : كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدَّر لنا ذلك .

أثر هذه الحياة فى شاعريته

اجتمعت لابن هانئ أهمّ الأسباب التى تكوّن الشاعر المطبوع على الشعر ، النابه الشأن فيه . وهى أنه عربىّ الأرُومة ، إذ كان من الأزد ، ومن نسل المهالبة الُّلسُن الذين جمعوا إلى الفصاحة الشجاعةَ والبلاء فى خدمة الإسلام بالمشرق ، فقد رمى عبد الملك بن مروان بالمهلب بن أبى صُفْرة خوارجَ العراق، فأخمد أنفاسهم وشتت شَمْلهم ، وأراح الدولة من كثير من شرورهم .

وثانى أسباب تلك الشاعرية وراثتُه لها عن أبيه . وللوراثة أثرها ، فهى تجعل من الوليد غالباً صورة من أبيه فى خلقه ، وخلقه ، وفنه ، وكل نزعاته . هذا إلى مايصح أن يكون من أخذ والده له بالتدرب على الشعر ، حتى يضمن له حياة فى دولة الأدب القائمة إذ ذاك .

وثالث أسباب تلك الشاعرية ما امتازت به إشبيلية خاصة من بين بلاد الأندلس ، من جمال الطبيعة فى أوديتها ومياهها ، وما عرف به أهلها من المرح والفرح ، وانتهاز فرص اللذات ، فهى بحق مدينة الشعر و بيئته الجامعة لأسبابه .

ورابع تلك الأسباب ، ما اتفق له فى عصره من معونة الخلفاء والأمراء للأدب ، وحَدَبِهم على رجاله، ومبالغتهم فى إكرامهم، حتى قصدهم أهل الفنون من كل ناحية .

وقد حدب هؤلاء الخلفاء والأمراء على الشعراء ، لعروبتهم المتأصلة فيهم التى

جعلتهم يترنحون لسماعه ، وتهتز أعطافهم بما اشتمل عليه من مدح وتعداد لمآثرهم ، وذلك شأن العربى الذى إن لم يفخر بلسانه التمس من يسجل له مفاخره ، ويذيع محامده ، لهذا تستطيع أن تفهم السر فى كون ابن هانئ قد أكثر من المدح ، حتى كاد يكون كل شعره أو أغلبه فيه ، وقد انتهى به إلى الكفر فى كثير من مبالغاته .

الأغراض فى شعر ابن هانئ

أظهر غرض فى شعر ابن هانئ هو المدح ، ولا يبالغ من يقول : إن شعره كله بنى عليه ، وما جاء فى غيره منه فقد وقع بسبب منه. وأمامنا ديوان شعره ، قد أحصينا ما به من القصائد ، فإذا هى إحدى وخمسون قصيدة فى المدح ، وثلاث فى الرثاء ، قالها فى أمهات من كان يمدحهم من الولاة والملوك ، فهى فى الواقع مدح لهؤلاء الأحياء فى صورة رثاء للموتى ، وقصيدتان فى الهجاء ، وهو — وإن كان ضد المدح — تجتمع أسبابهما فى نفس الشاعر فالطمع فى العطاء يدفع إلى المدح استدراراً له ، كما يدفع إلى الهجاء عند اليأس منه ، ولم تظفر الأغراض الأخرى إلا بقصيدة فى وصف أكول .

فها أنت ذا ترى أن المدح قد استهلك صفحات ديوانه ، فلم تظفر الأغراض الأخرى السامية ، من وصف للطبيعة وتمجيد للفضيلة ، ببلاء من الشاعر ، أو جهد محمود ، فكأنه إنما عاش لنفسه ، يشبع نَهْمتها من عطايا الممدوحين ، فلم يفكر فى خدمة الأغراض الشريفة التى خلق لها الشعر ، وكان من أجلها جليل القدر .

وهو لم يفعل ذلك إلا مدفوعا بالحاجة إلى المال ، ليروى به ظمأه من الخمر ، التى عكف عليها ، وكانت سبب احتضاره فى ريعان الشباب . والخمر يتبعها كل الموبقات ، ولا سيما من رجل مُسْتَهْتَر مثل ابن هانئ ، الذى كان يتبجح بالدعارة ، ولا يبالى أين وقع من رأى الناس من جرائها !

ولقد عرف من طبائع ممدوحيه ، أنهم إنما يعطون على قدر المبالغة فى إطرائهم ،

و بقياس الإشادة بذكرهم ، فغلا فى المدح ، ولم يكن له دين يحجزه عن الصيرورة إلى الـكفر بمغالاته ، وخلع صفات الألوهية على هؤلاء البشر ، فتورط فى أقوال سجلت عليه الـكفر أو أوقعته قريباً منه ، وليست هذه الأقوال قليلة فى ديوانه حتى نقول إنها من فلتات اللسان التى تقبل فيها التوبة من قريب ، ولـكنها كثيرة تدل كثرتها على التعمد ، والرضا بمـا كان منها .

فمن ذلك قوله فى المعز لدين الله :

ما شِئْتَ لا ما شاءَتِ الأَقْدارُ فاحْكُمْ فأنتَ الواحِـدُ القهّارُ
وكأَنَّمـا أَنْتَ النـــبيُّ محمدٌ وكأَنَّمـا أنصارُك الأَنْصَـــارُ

ولا يدفع عنه الـكفر فى البيت الأول ، عدوله فى البيت الثانى عن الوصف بالألوهية إلى دعوى النبوة ، أو التشبيه بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فإن الشاعر لم يفعل ذلك عدولا عن رأيه الأول ، ولـكنه اضطراب منه ، وخروج من ورطة إلى ورطة .

ومن ذلك قوله يمدح أبا الفرج الشَّيبانى :

فَرَغَ الإلهُ له بكلِّ فضيـــلةٍ أيامَ آياتُ الـكتابِ تُنَزَّلُ
هذا الذى تُتْلَى مآثِرُ فِعْـلِهِ فينا كما يُتلَى الـكتابُ المُنزَلُ

وقوله فى المعز أيضاً :

وَلَكَ الجوارى المنشآتُ مَواخِراً تَجْرِى بأَمْرِكَ والرِّياحُ رُخاءُ
قد جالَتِ الأَفْهامُ فيك فدَقَّتِ الْـــأَوْهـــامُ فيك وجَلَّتِ الآلاءُ(١)
فعَنَتْ لك الأبصارُ وانقادَتْ لك الْـــأَقْدارُ واسْتَحْيَتْ لك الأَنْواءُ(٢)

فإذا لم يكن هذا كفراً ، فهو سوء أدب بوصف المخلوق بصفات وردت للخالق ، فى القرآن الـكريم !!!

---

(١) الآلاء : النعم وهى جمع إلى كبئر ، أو ألو كدلو ، أو ألى كنهر ، أو ألى كفتى ، أو إلى كرضا .
(٢) عنا عنوا كقعد قعودا : ذل وخضع . استحيا : خجل . ومعنى استحياء الانواء له أو منه : أنها خجلت أن تبخل بمائها فجادت وهطلت ، أو أنها رأت ماتجود به قليلا بالنسبة لجوده .

والمالكية - رضى الله عنهم - قد حرموا الاقتباس من القرآن ، ولعلهم لم يحرموه إلا لمثل هذا ، وقد استعاذ غيرهم ممن نقل ما ورد فى القرآن منسوباً إلى الله تعالى فنسبه إلى نفسه ، كما ورد عن أحد خلفاء بنى أمية فى المشرق أنه وقع فى شكاية من بعض عماله « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » ولسنا نرى فى هذا الاقتباس الأخير شناعة مافعل ابن هانئ ، فإن قوله « وانقادت لك الأقدار » لو فهم على حقيقته ، لجعل الممدوح متصرفا فى الكون ، يمحو ويثبت مايشاء ، وهذا مالايدعيه عاقل !

ومن قوله فى المعز :

غامَرْتُه فعَجَزْتُ عن إدراكه ... لكنَّهُ بضمائرى معقول (١)

فافخَرْ فمن إنشائِكَ الفردوسُ إنْ ... عُدَّتْ ومِنْ إحسانِكَ التَّنْزِيلُ

ولا أرى فى البيت الثانى إلا كفرا صُراحا ، لا يحتمل تأويلا !

وقال فى المعز أيضاً :

فَرْضَانِ من صومٍ وشُكْرِ خليفةٍ ... هذا بهذا عندنا مقرونُ

فارزُقْ عبادَكَ منك فَضْلَ شفاعةٍ ... واقرُبْ بهم زُلْفَى فأنت مَكِينُ

لك حَمْدُنا لا أن ذلك مَفْخَرٌ ... ما قَدْرُك المنثورُ والموزونُ

قد قال فيك الله ما أنا قائلٌ ... فكأنَّ كلَّ قصيدةٍ تَضْمِينُ (٢)

فهل بعد هذا إصرار على الكفر يكرره فى كل قصيدة ظاهراً وخفيًّا ومنشوراً ومطويا ! ؟ ولعل الإثم فى ذلك على هؤلاء الممدوحين ، الذين قبلوا مثل هذا القول ، وجازَوْا عليه بالمال ، فعليهم إثم الشاعر الذى كان بحاجة إلى التأديب ، ممن نصب نفسه لزعامة الناس وتولى أمورهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

---

(١) المغامر : الملقى بنفسه فى غمرة الشىء ، وهى شدته ومزدحمه ، والمعنى فى البيت أنه حاول وعالج معرفة كنه الممدوح ، فكأنما دخل فى غمار شىء وعانى شدته .

(٢) هذا البيت يريد به قائله ، أن الله سبحانه وتعالى قد سبق فأثبت الممدوح فى القرآن هذه الصفات ، فلما جاء الشاعر ، فقال شعره ، فكأنه استعاره من آيات القرآن ، فيكون مقتبسا لقصائده من كلام الله ! ! وهو قول ظاهر الكذب ، للبون الشاسع بين كلامه وآيات القرآن الكريم ، إلا أن يريد أن معنى مدائحه ، قد ورد فى القرآن ، فلما أثبتها للممدوح كان كالمضمن لمعناها فى كلامه .

ومن مدحه الذى لم يتعرض فيه لما يمَسُّ الدين، قوله فى مدح أبى الفرج محمد ابن عمر الشيبانى :

حَلَفْتُ بالسابغاتِ البِيضِ واليَلَبِ ... وبالأَسِنَّةِ والْهِنْدِيَّةِ القُضُبِ (١)
لأنتَ ذا الجيشُ ثم الجيشُ نافلةٌ ... وما سواك فلغوٌ غيرُ مُحْتَسَبِ
ولو أشرْتَ إلى مصرٍ بسوطك لم ... تُحْوِجْكَ مصرٌ إلى رَكْضٍ ولا خَبَبِ
ولو ثَنَيْتَ إلى أَرْضِ الشَّآمِ يداً ... أَلقَتْ إليك بأيدى الذُّلِّ عن كَثَبِ

بقية الأغراض فى شعر ابن هانئ

وبقية الأغراض فى شعره جاءت عرضاً وفى طريق المدح ، فإذا وصف جيشاً فإنما يصفه ويبالغ فى عدده، وما يلقيه من رعب فى قلوب الأعادى ، تمجيداً للممدوح إذ كان هذا الجيش له .

ومن ذلك قوله، من قصيدة يصف جيش جوهر، الذى خرج به إلى مصر :

رأيتُ بعينى فَوْقَ ما كنتُ أَسْمَعُ ... وقد رَاعَنى يومٌ من الحَشْرِ أَرْوَعُ
غداةَ كأَنَّ الأُفْقَ سُدَّ بِمثْلِهِ ... فعاد غُرُوبُ الشَّمْسِ من حَيْثُ تَطْلُعُ
فلم أَدْرِ إِذْ سَلَّمْتُ كيف أُشَيِّعُ ... ولم أَدْرِ إِذْ شَيَّعْتُ كيفَ أُوَدِّعُ
وكيف أَخُوضُ الجيشَ والجَيْشُ لُجَّةٌ ... وإِنِّى بِمَنْ قادَ الجيوشَ لَمُولَعُ
فلا عَسْكَرٌ من قَبْلِ عَسْكَرِ جَوْهَرٍ ... تَخُبُّ المطايا فيه عَشْرًا وتُوضِعُ
تَسِيرُ الجبالُ الجامداتُ لِسَيْرِهِ ... وتَسْجُدُ من أدنى الحَفيفِ وَتَرْكَعُ
إِذَا حَلَّ فى أَرْضٍ بناها مَدائنًا ... وإن سارَ عَنْ أَرْضٍ ثَوَتْ وهى بَلْقَعُ (٢)

---

(١) اليلب : ما اتخذ من الجلد للقتال ترسا أودرعا أوخوذة. القضب: جمع قضيب وهو السيف القطاع

(٢) أى أن هذا الجيش لكثرة عدده، يحتاج إلى مدائن لإيواء جنده، فهو لاتكفيه مدينة واحدة ، لذلك إذا نزل بأرض بنى له بها مدائن لا مدينة ، وإذا غادرها تركها خاوية على عروشها، لا يكفى أهلها الذين نزل عليهم لتعميرها .

وقوله متغزلا من قصيدة يمدح بها يحيى بن على :

(وهو مما يتغنى به) .

فَتَكَاتُ لَحْظِكِ أم سُيُوفُ أَبِيكِ ... وكُئُوسُ خَمْرٍ أم مَرَاشِفُ فِيكِ (١)
أَجِلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتْكُ مَحَاجِرٍ ... مَا أَنْتِ رَاحِمَةٌ ولا أَهْلُوكِ (٢)
يا بِنْتَ ذِى البُرْدِ ، الطَّوِيلِ نِجَادُه ... أَكَذَا يَجُوزُ الحُكْمُ فى نَادِيكِ (٣)
قَدْ كَانَ يَدْعُونِى خَيَالُكِ طَارِقاً ... حَتَّى دَعَانِى بِالقَنَا دَاعِيكِ
عَيْنَاكِ أم مَغْنَاكِ مَوْعِدُنَا وفى ... وادى الكَرَى أَلْقاكِ أَمْ وَادِيكِ (٤)
مَنَعُوكِ من سِنَةِ الكَرَى وسَرَوْا فلو ... عَثَرُوا بطَيْفٍ طارقٍ ظَنُّوكِ (٥)
ودَعَوْكِ نَشْوَى ما سَقَوْكِ مُدَامَةً ... لَمَّا تَمَايَلَ عِطْفُكِ اتَّهَمُوكِ
حَسِبُوا التَّكَحُّلَ فى جُفُونِكِ حِلْيَةً ... تاللهِ ما بِأَكُفِّهِم كَحَلُوكِ (٦)

(١) هذا الأسلوب يسمى تجاهل العارف ، وهو محسن بديعى معروف .

(٢) يقول : أيجتمع علىّ ضرب السيوف من أهلك — حين يصدوننى عنك — وتأثير نظرك ، الذى هو مثل السيوف فى فعلها ! ؟ فالقسوة على واقعة منك ، ومن أهلك .

(٣) الطويل نجاده ، وصف آخر معطوف على ذى البرد ، فهو يصف أباها بأنه ذو برد وذو سيف طويل النجاد ، يريد أنه بدوى .

(٤) يقول لها : أنجتمع فى عينيك ، أى عند نومك إذ ألتقى بخيالك ، أم يكون الاجتماع فى منزلك ؟

(٥) يقول إن أهلها — مبالغة فى الغيرة عليها — منعوها أن تنام ، حتى لا يطرق خيالها محبها ، وهذا أبلغ ما عرف فى الغيرة ، لولا أنه مبنى على خطأ فى الفكر ، إذ الخيال يطرق المحب فى حال نوم المحبوبة ويقظتها ، فحملها على اليقظة لا يمنع طروق خيالها للمحب ، وهذا الخطأ قد وقع فيه قبل ذلك قيس بن الخطيم فى قوله :

ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه ... فى النوم غير مصرد محسوب

ثم تبعه البحترى فى قوله :

هجرتنا يقظى وكادت على عا ... داتها فى الصدود تهجر وسنى

(٦) الكحل بالتحريك : سواد منابت الأهداب خلقة ، والتكحل : وضع الكحل فى العين ، ويقال كحلته (كمنع ونصر) وكحلته بالتضعيف : أى وضعت له الكحل فى عينه ، وتكحل هو واكتحل : وضعه بنفسه . والبيت لا يستقيم فهمه ، إلا على تقدير أن التكحل مفعول أول لحسب ، وفى جفونك هو المفعول الثانى ، والمعنى أنهم ظنوا ما فى جفونك من كحل طبعى تكحلا صناعيا ، وهم واهمون فى ذلك ، فهل لديهم دليل على زعمهم ؟ وهل كحلوك بأيديهم حتى يتم لهم هذا الزعم ؟

وجَـلَوْكِ لى إذ نحن غُصْنَا بَانَةٍ　　حتى إذا احْتَفَلَ الهوى حَجَبُوكِ
ولَوَى مُقَبَّلَكِ اللِّـثَامُ وما دَرَوْا　　أن قَدْ لَثِمْتِ به وقُبِّل فُوكِ(١)

وقال متغزلا أيضاً ، من قصيدة يمدح بها الأميرين طاهراً ، وأبا عبد الله الحسين ابن المنصور :

إمْسَحُوا عن ناظِرِى كُحْلَ السهاد　　وانْفُضُوا عن مَضْجَعِى شَوْكَ القَتَاد
وَخُذُوا مِـــــنِّىَ ما أبقيتمو　　لا أُحِبُّ الجسمَ مَسْلُوبَ الفؤاد
هل تُجِيرُون مُحِبًّا من هوًى　　أو تَفُـكُّونَ أَسِيراً من صِفاد(٢)
أَسُلُوًّا عنكُمُ من هَجْرِكُمْ　　قلما يَسْلُو عن الماء الصَّوَاد(٣)
إنَّمَا كانت خطوبٌ قُيِّضَتْ　　فَعَدَتْنَا عنكُمُ إِحْدَى العَوَاد
فَعَـــلَى الأيامِ من بَعدكُمُ　　ما على الظلماء من لُبْس الحِدَاد(٤)
لا مَزَارٌ منكُمُ يدنو سِـوَى　　أن أرى أعلام هَضْبٍ أو نِجَاد(٥)

وقوله فى صفة أكول :

ياليت شِعْرِىَ إذْ أُومِى إلى فِمِهِ　　أَحَلْقُهُ لَهَوَاتٌ أم مَــيَادِينُ(٦)
كَأَنَّهَا وَخَبِيثُ الزَّادِ يُضْرِمُها　　جَهَنَّمٌ قُذِفَتْ فيها الشياطينُ
تبارك الله ! ما أَمْضَى أَسِنَّتَه !　　كَأَنَّمَا كُلُّ فَكٍّ منه طَاحُونُ ! !

---

(١) لويت الشىء ليا وليانا: طويته وأخفيته ، ومنه اللوية كغنية لما أخفيته، يقول إنهم لما وضعوا اللثام على فمك، ظنوا أنهم بذلك يسترونه ، ويصدون عنه من يريد تقبيله ، ولم يعلموا أنه لم يخف مكانه على المحب ، فقبلك وأنت ملثمة به !
(٢) الصفاد ككتاب : مايوثق به الأسير .
(٣) الصوادى جمع صاد: اسم فاعل من صدى كعطش، وزنا ومعنى ، فهو صاد وصد وصديان، وهى صديا وصادية .
(٤) يقول إن الأيام بعد فراقكم صارت سودا مثل الليالى ، وذلك لأنها لبست الحداد لهذا الفراق .
(٥) الهضب : اسم جنس جمعى لهضبة كفحمة وفحم.
(٦) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم، والجمع لها لهيات ولهوات .

كَأَنَّ بيت سِلاَحٍ فيه مُخْتَزَنٍ ... مما أعدَّتْهُ للرُّسْلِ الفَرَاعِينُ(١)
أينَ الأسنةُ أم أيْنَ الصوارمُ أم ... أيْنَ الخناجرُ أم أيْنَ السكاكينُ
كأَنَّما الحَمَلُ المُشْوِيُّ فى يَدِهِ ... ذو النُّونِ فى الماء لما عَضَّهُ النُّونُ(٢)
كأنما كُلُّ رُكنٍ من طَبائِعِهِ ... نارٌ وفى كل عُضْوٍ مِنْـهُ كَانُونُ
كأنَّما فى الحَشَا من حَمْلِ مِعْدَتِه ... قَرَنْفُلٌ وجـواريشٌ وكَمُّونُ(٣)
قوموا بنا فلقد رِيعَتْ خـواطرنا ... وجاذَبَتْنَا الأعنَّاتِ البَرَاذِينُ
نَصحتُـكُمْ ! فخذوا من شِدْقِهِ حَذَراً ... أوْ لاَ فأنتم سَوِيقٌ فيه مَطْحُونُ(٤)
فليسَ يَرْوِيهِ أمواهُ الفُرَاتِ ولا ... يَقُوتُهُ فُلْكُ نُوحٍ وهو مَشْحُونُ

أثر الفاطميين فى شعره

عرفت من تفصيل حياة ابن هانئ أنه عاش فى الأندلس أكثر عمره ، وأنه غادرها فى السابعة والعشرين منه ، ولم يلبث أن مات وعمره ست وثلاثون ، أو اثنتان وأربعون ، على خلاف فى تاريخ ميلاده هل هو سنة ٣٢٦ ، أو قبل ذلك بست سنوات ، فهو لم يفارق الأندلس إلا بعد أن كان شاعراً يرتزق بشعره .

وقد رددنا الطرف فى مدائحه الأندلسية والفاطمية ، فرأينا فرقاً عظيما ، واختلافا ملموساً ، رأينا ابن هانئ فى الأولى شاعراً كغيره من الشعراء، يرفع من شأن ممدوحيه ، ويبالغ فى صفاتهم ، ولكنه لايغلو الغلو الذى أطلعناك على صدرمنه فى مدحه للفاطميين،

---

(١) ترتيب الشطر الأول كأن بيت سلاح مختزن فيه على أن يكون الجار والمجرور خبرا لـكأن .
(٢) النون : الحوت . وذو النون يونس عليه السلام .
(٣) الحمل: هدب القطيفة ، ونحوها ، معدة: كـكلمة وتكسر. الجواريش: أراد بها التوابل المدقوقة، لأن الجريش الشيء ينعم دقه أو هو الملح . القرنفل : بفتحتين فسكون فضم ، وهو أفضل الأفاويه الحارة وأذكاها .
(٤) الشدق: بالفتح والكسر جانب الفم ، وجمع المفتوح شدوق كفلس وفلوس ، وجمع المكسور أشداق كحمل وأحمال . السويق : مايطحن من الشعير والحنطة .

بل يكاد يكون مقتصداً فى مدح الأندلسيين، قريباً من الاعتدال فى تمجيدهم ، على قدر ما هو شديد المبالغة ، حائد عن القصد فى شأن الفاطميين .

رأينا ذلك ، فأدركنا أن التبعة فيما تورط فيه مع هؤلاء ، إنما تقع عليهم ، لأنهم طالبوه بها، بل أوجبوها عليه ، وهم جديرون بأن يكون منهم ذلك ، فقد بنوا خلافتهم على تمجيد أنفسهم عند رعيتهم ، ودعوى أنهم الأوصياء ، أو المهديون ، الذين وكلوا بالدنيا يصلحون فاسدها ، ويقيمون عوجها . وادعاؤهم الغيب ظاهر فى أكثر ما روى عنهم ، وليس الحاكم بأمر الله وحده هو الذى ظهر بهذا ، بل إن المعز نفسه حين كان بإفريقية ، ووكل إلى جوهر قيادة الجيش لفتح مصر ، اتفق أن مرض جوهر مرضا أشرف منه على الهلاك وعاده مولاه المعز ، فقال : هذا لايموت وستفتح مصر على يديه ! واتفق إبلا له، فخرج إلى مصر وفتحها. فلا شك أن هذه التنبؤات وأمثالها، لم يكن يريد بها المعز ولا غيره محض الرأى يبديه ، أو الخاطر يَعِنُّ له ، ولكنه يصوغها فى قالب العالم بالغيب ، حتى يتم له ما يريد من اعتقاد الرعية أنه إنما يحكمهم بالروح ، ويدبر أمرهم بقوة غير بشرية .

فهل يقبل هؤلاء الممدوحون ، أن يقال لهم ما يقال لغيرهم ، وهم يعتقدون أنهم فوق الناس!؟ لذلك نرى ابن هانىء — وقد أبى إلا أن يستدر أيديهم — مضطرا إلى أن يقول فى مدحهم ما قال ، مادام يرضى أن يبيع آخرته بدنياه .

وبعد، فانظر إلى مدح ابن هانىء ليحيي بن على الأندلسى ، فإنك لا ترى فيه إلا شاعراً يقول على عادة الشعراء ، وذلك فى قوله :

ولم تُرَ يوما غيْرَ عاقِدِ حُبْوَة ... لِتَدْبِيرِ مُلْكٍ أَوْ كَمِيًّا مُدَجَّجَا[1]

---

(١) احتبى الرجل بالثوب : اشتمل عليه أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ، والاسم الحبوة بالفتح والضم .

وَكُنْتَ إذا ثَارَتْ عَجَاجَةُ قَسْطَلٍ ... تَجَلَّلَتِ الْأُفْقَ الْبَهِيمَ يَرَنْدَجَا(١)
تَجَلَّلْتَهَا فى المَعْرَكِ الضَّنْكِ مُقْدِمًا ... وَخُضْتَ غِمَارَ الموتِ فيها مُلَجِّجَا(٢)
فِدَاؤُكَ نفسى ماجداً ذا حفيظةٍ ... يُدِيرُ رَحَى العَلْيَا على قُطُبِ الحِجَا
وسَيِّدَ ساداتٍ إذا ما رأيتَهُ ... عَرَفْتُ يَمَانِيَّ النِّجار مُتَوَّجَا
تَأَلَّقَ فى أَوْضَاحِهِ وحُجُولِهِ ... فلم تَرَ عَيْنِي مَنْظَرًا كان أَبْهَجا(٣)
لقد نَبَّهَ الآدابَ بعدَ خُمولِها ... وجَدَّدَ منها عافى الرَّسْمِ مَنْهَجا(٤)
ألَا لا يَرُعْه بأسُ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ ... فلن يُذْعَرَ الليثُ الهزبرُ مُهَجْهَجَا(٥)
نَحَا المغربَ الأقصى بسَطْوَةِ سَيْفِه ... فغادره رَهْواً وقد كان مُرْتَجَا(٦)
مُطِلٌّ على الأعداء يَنْهَجُ بَيْنَهَا ... بِسُمْرِ الْعَوَالِى وَالْقَوَاضِبِ مَنْهَجَا
ليالى حروبٍ شِدْتَ فيها لجعفرٍ ... مآثرَ لَمْ يُخْلِفْنَهُ فيك ما رَجَا(٧)

إلى أن يقول فى نهايتها :

فَدُمْ للشَّبَابِ الْمُرْجَحِنِّ وَعَصْرِه ... تُؤَمَّلُ فينا لِلْخُطُوبِ وتُرْتَجَى(٨)

ويكاد ابن هانىء فى هذه القصيدة ، يكون بعيداً عن المبالغة ، بل لعله فيها كما قيل عن زهير : إنه لم يمدح أحداً بما ليس فيه.

كذلك نرى ابن هانىء يتشيع حين اتصل بالفواطم، وهو ذلك الذى كان يتزندق بالأندلس ؛ فكيف يعقل هذا الانقلاب !؟ على أنه غير معقول أن يكون له سابق عهد

---

(١) القسطل : الغبار . اليرندج أو الأرندج : السواد يسود به الخف ، أو نحوه . تجلل : لبس الجل (بالكسر) وهو من متاع البيت البسط أو الأكسية ، ومن استعمال تجلل بهذا المعنى قول الشاعر :

تجللت عارا لايزال يشبه ... سباب الرجال نثرهم والقصائد

(٢) لجج تلجيجا : خاض اللجة .
(٣) الوضح بالتحريك : بياض الغرة والجمع أوضاح .
(٤) المنهج : الطريق الواضح .
(٥) هجهج بالسبع : صاح .
(٦) نحاه ينحوه وينحيه : قصده . الرهو : الواسع . المرتج : المغلق .
(٧) جعفر : أخو الممدوح .
(٨) المرجحن : المهتز المائل ، يريد بذلك ميعة الشباب وتأود غصنه .

بالتشيع فى بلاد الأندلس ، لأنها كانت إذ ذاك أموية شعباً وحكومة ، ولعلهم لم يكونوا يسمعون بالتشيع، فضلا عن اعتناقه مذهباً. فابن هانئ قد اضطر إلى دراسة هذا المذهب، ليحْطِب فى حبل القوم، الذين لم يقبلوا من أحد عهداً، إلا إذا عقدت أيمانه على التشيع، لذلك نرى شاعرنا يقول فى سيفه :

لى صارمٌ وهو شِيعىٌّ كحامله   يكاد يسبِقُ كرَّاتِى إلى البَطَلِ
إذا المعزُّ مُعِزُّ الدين سَلَّطَه   لم يرتقب بالمنايا مُدَّةَ الأَجَلِ

آراء الناس فى شعره

تبنى هذه الآراء على أسَّين ، ينضم إليهما أمور مفرعة عنهما :

فأول الأسين ، كونه أشعر أهل المغرب على الإطلاق ، كما يقول ابن خلكان ، وأنه ليس منهم من متقدم ولا متأخر ، من بلغ مداه فى قدرته وافتنانه .

ونحن نؤيد هذا الرأى ، لأن لشعر ابن هانىء روعة ، وفخامة فى التركيب ، وجزالة فى العبارة، وإبداعا فى التمثيل، وله معان يغوص عليها ، ويعرضها فى أشرف لفظ وأنبله. والأندلسيون — وهم أرقى المغرب كله شعراً — يغلب على عباراتهم اللين ، وقل أن يغوصوا على معنى ، يتعبون فى استخراجه ، اللهم إلا ما يأتيهم عفو الخاطر ، فى وصف الرياض والغزل ، الذى امتلأ به شعرهم .

كذلك فى شعر ابن هانىء نزعة فلسفية، يحاول بها أن يكون صاحب حكمة تروى، وإن لم يبلغ شأو المشارقة فى ذلك ، ولكنه على رغم تقصيره محاول لكمال ، لم يلتمسه أهل بلاده .

وأما الأس الثانى ، فهو أنه فى المغرب نظير المتنبى فى المشرق . وتلك مناظرة عقدها المغاربة أنفسهم، شأنهم فى غيره من الشعراء ، كابن زيدون الذى جعلوه بحترى الغرب ، والمخزومى الأعمى الذى لقبوه معرى الغرب .

والذى نراه، أن بين ابن هانئ و بين المتنبى، جهات اتفاق لم تقتصر على الشاعرية، بل كانت أيضاً فى غيرها من أمور .

فقد بالغا فى المدح، حتى وصلا إلى الغلو الممقوت، وعنيا بالحكمة، وأجادا فى وصف الجيوش والحروب، وارتقى كل بشعره بعد ضعة، وتنافس الملوك فى سماعه. وقد انتهت حياتهما بالقتل، على حين كان فيهما بقية من شباب، تجعل الأمل فى نتاجهما الأدبى عظيما، كما أنهما اشتركا فى النُّجْعة بالشعر، والانتقال لمدح الولاة والملوك ... ولكن الذى يهمنا من كل ذلك هو المزايا الشعرية فحسب، فإذا أمكننا أن نجعلهما متقاربين فيها، فقد صح ما قيل من أن بن هانئ متنبى الغرب .

فأما فخامة اللفظ وجزالته، فإن ابن هانئ فيها لا يقل عن المتنبى، وليست زيادة المتنبى عليه فى هذا إلا إغرابا وجنوحا عن القصد، ولعل ما انتهى إليه ابن هانئ فى ذلك، هو الغاية التى تطلب من شاعر حضرى يعيش فى عصره، على أنه أقرب إلى السليقة العربية من المتنبى، الذى يغلب عليه أسلوب القياس المنطقى، وربط الأسباب بالمسببات بلام التعليل، وهى فى الحق لغة الرياضيين لا الأدباء(١) .

وأما المعانى والغوص عليها، فإن المتنبى أبرع من زميله فى ذلك وأبعد غوراً وأكثر اختراعا، ولكن القدر الذى انتهى إليه ابن هانئ، كفيل بأن يجعله من أصحاب المعانى، ويحشره فى زمرة المجددين فيها، فهو فيها شريك المتنبى، وإن لم يبلغ شأوه .

وأما الحكمة، فبضاعة ابن هانئ فيها قليلة جدا، ثم هى بسيطة التركيب، لا تدل

---

(١) من استعمال أسلوب المناطقة قوله :

والأسى بعد فرقة الروح عجز ... والأسى لايكون قبل الفراق

ونتيجة هذا القياس مقدرة، أى فلا مسوغ لحزنك، وحذرك من الموت، ومن استعماله التعليل على لغة الرياضيين قوله :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها ... من أنها عمل السيوف عوامل

على ثقافة خاصة ودراسة واسعة ، كالتى كانت من المتنبى ، فالحق أن الموازنة بينهما فى هذا النوع لاتنعقد ، لما امتاز به المتنبى من كثرة وجودة ، وليس أدل على ذلك ، من أنك لا تكاد تجد صفحة من ديوان المتنبى ، خلت من حكمة خالدة مروية على الألسن ، على حين لاتجد بيتاً واحداً من حكمة ابن هانئ تناقله الرواة ، فهذا فرق ظاهر بينهما ، وإن كان لابن هانئ قصيدة جمعت حكما كثيرة ، وهى رثاؤه لوالدة يحيى وجعفر ابنى على التى يقول فيها :

إنَّا وفى آمالِ أَنْفُسِنَا ... طُولٌ وفى أعمارِنا قِصَرُ
لنَرَى بأعيُنِنَا مَصارِعَنَا ... لو كانت الأَلْبابُ تَعْتَبِرُ
مما دَهَانا أن حَاضِرَنا ... أَجْفانُنَا والغائبُ الفِكَرُ
وإذا تَدَبَّرْنَا جَوارِحَنَا ... فَأَ كُلُّهُنَّ العينُ والنظرُ
لو كان للألباب مُمْتَحِنٌ ... ما عُدَّ منها السَّمْعُ والبَصَرُ
أَىُّ الحياةِ أَلَذُّ عِيشَتَهَا ... مِنْ بَعْدِ عِلْمِى أَنَّنِى بَشَرُ
خَرِسَتْ لعَمْرُ اللهِ أَلْسُنُنَا ... لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا القَدَرُ

ولكن كثرة هذه الحكم فى هذه القصيدة ، لاتلحقه بالمتنبى ، الذى ربما لم يكن له — فى نوع حكمته — نظير فى الشرق ذاته .

وأخيراً نقبل تشبيههم ابن هانئ بالمتنبى ، مع مراعاة الفروق التى ذكرناها ، لأن التشبيه لا يشترط فيه التساوى والتعادل ، بل يكفى التلاقى ولو فى طرف دون آخر .

وأما ما انضم إلى الأسَّين السابقين ، فذلك هو حكم أبى العلاء المعرى بأن ألفاظ ابن هانئ جوفاء لا طائل تحتها ، يستر تحت اللفظ الضخم منها معنى سقيما متواريا ، وكان إذا سمع شعره قال : ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا ! وهو قول لا يقبل من المعرى فى جميع شعر الرجل ، وإن كان جائزاً فى بعضه ، كذلك ابن رشيق عده من أصحاب الجلبة والقعقعة ، ومثّل لذلك بقوله :

أَصَاخَتْ فَقَالَتْ وَقْعُ أَجْرَدَ شَيْظَمٍ   وَشَامَتْ فَقَالَتْ لَمْعُ أَبْيَضَ مِخْذَمِ (١)
وما ذُعِرَتْ إِلاَّ لِجَرْسِ حُلِيِّهَا   وَلاَ رَمَقَتْ إِلاَّ بُرًى فى مُخَدَّمِ (٢)

قال « وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد . ما الذى يفيدنا أن تكون المنسوب بها ، لبست حليها فتوهمته ـ بعد الإصاخة والرمق ـ وقع فرس ، أو لمع سيف ، غير أنها مغزوة فى دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تتوقعه فما هذا كله !؟ »

وهذا الحكم هو حكم أبى العلاء نفسه .

ولكن نصيب شاعرنا من التقدير ، وحسن الثناء ، ينسينا ما عيب به من هذه المآخذ الهينة ، التى لا تشمل كل شعره .

ابن زيدون

بيئته وتعلمه

هو ذو الوزارتين أبو الوليد ، أحمد بن عبد الله بن زيدون ، من سلالة بنى مخزوم ، من بطون قريش النازحة إلى الأندلس منذ الفتح . فهو عربى صميم ، ولهذا النسب شأنه وخطره فى حياة الشاعر أو الكاتب ، إذ يكون فى صناعته نازعا عن قوس العروبة ، ناقلا لبلاغة الأرومة .

كان أبوه قاضياً من قضاة قُرْطُبة ، ولكن القدر لم يمهله حتى يتم تربية ابنه ، فقد مات وسن أبى الوليد إحدى عشرة سنة ، ولكن يكفى أن يكون لوالده هذه المكانة العلمية ، حتى نعلم كيف يكون اتجاه ابنه ، فهو لابد أن ينشأ فى العلم الذى أحاطت به بيئة منزله ، وسما بأبيه إلى درجة القضاء ، وهى منزلة سامية ، و بخاصة فى تلك البلاد ،

(١) الإصاخة : الميل بالأذن للاستماع . الأجرد : الفرس القصير الشعر . الشيظم : الطويل الجسيم ، الفتى من الأبل والخيل والناس . المخذم : السيف . شام البرق : نظره .

(٢) البره كثبة : الخلخال والجمع برى وبراة وبرين . المخدم : موضع الخلخال من الساق .

التى كان لخطة القضاء فيها شرف لا يَعْدِله شرف .

هذه البيئة المنزلية ، قد انضم إليها بيئة عامة هى مدينة قُرْطُبة ، تلك التى صارت عاصمة البلاد منذ الفتح الإسلامى ، وعمل بنو أمية على أن تناهض بغداد فى شرف العلم ، فجبَوْا إليها ثمرات العقول ، حتى صار بها من المكاتب العامة سبعون ، واستدرجوا إليها علماء المشرق يغْرُونهم بالمال وحسن الضيافة ، حتى صار بها من أعلام الأدب وأثبات العلم ، ما تفاخر به بغداد أيام زهوها ، واجتماع شرفها .

هذه هى بيئة ابن زيدون ، مضافاً إليها روح كانت تسرى فى نفوس الخلفاء ، من إيثار الأدب والتعويل على العلم ، حتى صارت الوزارة وقفاً على كل أديب ، ولم نر مَن هؤلاء إلا من كان شاعراً أو كاتباً ، وبلغ من غرام القوم بإيثار ذلك ، أن أسندوا الوزارة إلى اليهودى ، حين راعهم أدبه وبهرتهم بلاغته ، وذلك غرام ماعهد مثله فى الشرق ! !

نشأ ابن زيدون تحفزه كل هذه الدوافع إلى الكمال ، فهو يرى من أبيه القدوة الحسنة فى العلم ، ويشهد من إيثار القوم للبلاغة ورفعهم صاحبها إلى الوزارة ، ما يحمله على الجد فى التحصيل ، فلم يزل دائباً مشمراً حتى صار علماً من أعلام زمانه ، فتنافس الملوك فى الاختصاص به .

وأسلوب التعليم فى تلك البلاد ، مبنى على ثقافة عربية خالصة ، يؤخذ فيها الطفل بحفظ القرآن، فإذا ماشدا روى الحديث وطلب الفقه، وهو بين ذلك ينهل من الأدب، ويَعِلّ بحفظ أشعار المتقدمين ومعرفة أمورهم ، ولا يفوته مع ذلك إلمام بالطب ، وقد شعروا بالحاجة إليه ، حتى لم نر أديباً ولا عالماً إلا وله فيه نظر ، وهم بعد ذلك فى عزلة عن الفلسفة بجميع ضروبها ، يرغبون عنها بطبعهم . فلذلك تنشأ ملكاتهم عربية ، لايشوبها لُوثة المنطق ولا تعقيد الفلسفة ، ذلك إلى ما احتفل به القوم ـ ملوكا وسوقة ـ من عقد مجالس الأدب ، والتنافس فى إظهار البراعة من حُضّارها وشهودها ، وغرامهم

بمطارحة الشعر ، والمبادهة به ، والولع بالخروج إلى الرياض والتلهى بجمالها ، ووصف محاسنها ، ثم ما كان للمرأة من مشاركة فى ذلك بحضور هذه المجالس ، وقد تأدبت بأدب الرجال ، وروت مثلهم الشعر ، ودرست التاريخ ، فكان شهودها تلك المجالس ومشاركتها للرجل فى حديثها مثيراً لهمم الرجال ، وحافزاً لهم إلى الظهور أمامها بمظهر الكمال ، وهو ما يحرص عليه الرجل دائماً أمام المرأة .

وقد كان من كل ما ذكرنا أسباب ، جعلتنا نظفر بكثير من أمثال ابن زيدون ، فضلا وعلماً و بلاغة .

تصرف ابن زيدون

إن الفترة التى نشأ فيها ابن زيدون ، كانت فترة انتقال من حكم إلى حكم ، أو هى فترة عمت فيها فوضى السياسة بانتشار أمر بنى أمية ، وذهاب ريحهم ، وقيام هؤلاء الأمراء والقواد فى نواحى البلاد ، يستبد أحدهم بما يستطيع الاستبداد به من البلاد ، فيجلس على عرشها ، ثم ما يلبث أن يغلبه على ملكه غالب . والشعب الأندلسى إذ ذاك ثائر الخواطر ، فكل إقليم إذا غضب أهله على أميرهم ، قاموا فانتزعوه من الحكم وقتلوه ، أو نفوْه ، أو فرّ من أيديهم ، ورفعوا إلى مكانه من اقتنعوا بفضل شجاعته ، واطمأنوا إلى صلاحيته . وعلى حسب ما يكون للأمير من شيعة وعصبية تناصره، يكون توطد ملكه وثبات عرشه .

ذلك هو عهد ملوك الطوائف ، الذى شهد ابن زيدون أوائل أيامه ، فكان لما رأى من قيام الممالك ، وثلّ العروش أثر فى نفسه، استحكمت به تجاربه ، وعظم دهاؤه وقويت حيلته ، حتى اشتهر — إلى جانب أدبه — بتلك الخصال ، وهى مزايا تكبر فى نظر المتغلبين إذ ذاك من الملوك ، ليستعينوا بصاحبها ، على تدبير أمرهم ، ورد غائلة أعدائهم .

وهكذا كان لابن زيدون شأن عظيم من ناحية أدبه، وحنكته السياسية، فحرص

أبو الحزم بن جَهْوَرٍ المتغلب على قُرْطُبة أن يكون ابن زيدون عونه فى ملكه ، فأدناه منه ، وما زال يعظم فى نظره حتى صيره وزيره ، ومنحه لقب « ذا الوزارتين » وهو لقب للوزير الذى يعمل مع الملك فى تدبير الملك ، ويتولى عنه بعض الشئون من جيش أو جباية ، فيكون تصرفه فى أمور الرعية بالقول والعمل . وقد كانت الوزارة بالأندلس على درجتين ، فالوزير هو عندهم مستشار الملك أو الخليفة ، الذى يلزم مجلسه ، ويبدى رأيه فيما يعرض من أمور الملك . ولكنه لا يتعدى إبداء الرأى إلى تناول العمل والدخول فى غماره . فأما الذى يجاوز ذلك إلى تنفيذ الرأى ، ومباشرة أمور الرعية ، والسيطرة على العمال ومحاسبتهم ، فذلك هو « ذو الوزارتين » أى وزارتى المشُورة والتنفيذ ، فهذا هو حال ابن زيدون مع ابن جهور .

ومن شأن هذا الوزير، الاتصال بملوك الأقاليم الأخرى، والسفارة عن ملكه عندهم، وقد اتصل ابن زيدون بهؤلاء ، فتجاوزت شهرته قرطبة، وحل من رأى الملوك الآخرين محل التجلة والاحترام ، فخوطب فى الميل عن صاحبه إليهم ، ولكنه كان وفيا ، فأبى إلا البقاء على عهد صاحبه .

وكان من اللازم الحتم لعظم مكانة ابن زيدون عند أميره، أن تكثر حوله الوشايات، وأن يعمل الحسد عمله فى تغيير قلب صاحبه عليه . والحاسد والواشى لا يعدمان السبيل إلى تغيير قلب ملك أَلقى إلى وزيره بمقاليد حكمه ، فتصرف ما شاء، وبعثه الإدلال على سيده والثقة برضاه ، إلى ما بعث .

وقد تم للحساد ما أرادوا ، فإن قلب ابن جَهْوَرٍ تغير على ابن زيدون فسجنه . وكان سجنه من مثارات أدبه ، فإنه طالما توجع فيه وابتأس ، ورجا ويئس . وهو فى كل ذلك يرسل الشعر المملوء بالأنين ، والنثر الذى يصدع الصخر أو يُلين . وما زال هذا دأبه مدة طويلة ، عانى فيها من ضيق السجن أذى شديداً ، حتى قنط من عطف مولاه ، فعوّل على الهرب من سجنه ، وقد تمكن من ذلك . ثم اختفى بقُرْطبة حيناً

لتعلق قلبه وأمله بها. فأما قلبه فعند ولاّدة بنت المستكفى، صاحبته الأديبة الشاعرة، التى ملكت عليه مشاعره . وأما أمله فعند الأديب أبى بكر أحد أصدقائه ، وأبى الوليد ابن أبى الحزم بن جَهْوَرٍ ، لعل شفاعتهما تقبل عند الأمير ، فيظهر بالمدينة ، ويعود إلى سابق عهده . وقد ظل مدة اختفائه يراسل ولاّدة ، ويستشفع إلى ابن جهور حتى رضى عنه ، فعاد إلى الظهور بقُرْطبة ، وبقى حتى مات أبو الحزم ، فاستوزره ابنه أبو الوليد . ثم خاف ابن زيدون من تغيره عليه بفعل الوشاة ، فعول على الخروج إلى إشْبِيلِيَة حيث ينتظره أحد المعجبين بفضله ، النافسين على آل جهور اختصاصهم به ، ذلك هو المعتضد ابن عباد صاحب إشبيلية . فهاجر ابن زيدون إليها سنة ٤٤١ ﻫ ، فأكرم المعتضد مثواه، فكان وزيره المدبر لأموره حتى مات سنة ٤٦٣ ﻫ .

أدب ابن زيدون

نثره

أما نثره فكثير كثرة ما تولاه من الأعمال ، وقام به من التدبير ، وسفر به عند الملوك ، وما صادفه فى حياته من أحداث جرت عليه . ولكن أشهر ما عرف من نثره رسالتاه الجدّية والهزلية .

فأما الجدية فقد كتبها يستعطف بها سيده ابن جَهْوَرٍ ، وقد احتفل فيها وأفرغ قصارى جهده ، بعد أن أرسل إليه بقصائده ، وقصير رسائله فلم تنجع فيه حيلة .

وأما الهزلية فإنه كتبها إلى الوزير أبى عامر المعروف بابن عَبْدُوسَ ، وقد زاحمه على حب ولاّدة التى هام ابن زيدون منها بالجمال الفاتن ، والظَّرْف النادر ، والأدب الجم . وكانت ولاّدة جديرة بحب مثل الأديب ابن زيدون ، لأنها جمعت إلى كرم النِّجَار وشرف النسب ، أدباً بارعاً ، وجمالاً رائعاً ، وعفة وتصونا ، فكان مجلسها حبيباً إلى نفسه ، يملأ منه عينيه وأذنيه مما أحب .

وولّادة هذه ، هى بنت المستكفى بالله، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله . وقد قال عنها ابن بَشْكُوال فى الصلة « كانت أديبة شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشِّعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء وتفوق البُرَعاء ، عُمِّرت طويلا ولم تتزوج قط ، وكان مجلسها منتدى لأهل المصر ، وفِناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها ، ويتهالك الشعراء والكتَّاب على حلاوة عشرتها ، وهى على سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » .

ولقد تناقل الناس نادرة بدرت منها، دلت على بارع أدبها ، وحسن فهمها ، وبديع ظرفها ، فقد مرت بابن عبدوسَ ، وهو جالس بباب داره ، وأمامه بركة تتولد من كثرة الأمطار ، وربما استمدت مما هنالك من الأقذار ، فقالت تخاطبه :

أنتَ الخَصِيبُ وهذه مصرُ فتَدَفَّقَا فكِلا كما بَحْرُ

فلم يُحِرْ الوزير جوابا ، وحفظت هذه النادرة ، وشغل بها الناس حيناً ، والبيت لأبى نواس ، فى مدح الخصيب والى مصر ، فتمثلت به ولادة ، ونقلته هذا النقل الحسن ، من المدح إلى الهجاء !

⁂

وقد حدث أن ابن عبدوسَ نافس ابن زيدونَ فى حب ولّادة ، ففاز بميلها إليه ، إذ كانت قد ملّت صداقة ابن زيدون ، واتهمته بالغش فى صحبتها ، ثم اتفق أن عادت إلى ولاء ابن زيدون فخَفَتْ ابن عبدوس ، فأرسل إليها عجوزاً تستنزلها عن أبى الوليد ، وتستبقيها على عهد أبى عامر بذكر محاسنه ، وتعداد فضائله ، فاتصل خبر هذه العجوز بابن زيدون ، فأرسل إليه، على أثر خروج العجوز من عند ولادة ، رسالة هى التى سميت بالرسالة الهزلية ، لمقابلتها بالأخرى التى سميت بالجِدّية ، وجعلها على لسان ولّادة تتهكم به فيها ، وتوجعه بالسخرية اللاذعة ، والهجاء المُمِضّ .

وقد مر بك من الرسالتين، ماتستطيع أن تستدل به على روحهما، ونوع أسلوبهما، فهو أسلوب يدل أوضح دلالة، على أن ثقافة الأندلسيين عربية، عنوا فيها بحفظ أشعار العرب، وأمثالهم وحكمهم، وتتبعوا أيامهم فى الجاهلية، وحوادثهم فى الإسلام، وأضافوا إلى ذلك إحاطة بتاريخ الأمم فى قديم عهودها وحديثها، فعرفوا أكاسرة الفرس، وقياصرة الروم، وأخبار متغلبيهم، وجميع ما كان من شئونهم.

ترى كل ذلك جليًّا فى الرسالتين، فهما من هذه الناحية مظهر متكرر لهذه الثقافة، وإن اختلف موضوعهما.

وليس بيسير على الكاتب، أن يوفق بين معانيه وما تدل عليه هذه الحكم، أو ماتشير إليه تلك الأمثال، فيأتى بها فى المواضع اللائقة، حتى تراها من حسن اتساقها وتمام انسجامها مع ماقبلها وما بعدها، كأنها لم تجتلب اجتلابا، ولم تُدَسّ بين الكلام دَسًّا، والأبلغ فى الدلالة على مهارة ابن زيدون، أنه يجمع من تلك الحكم والأمثال وأنصاف الأبيات، مايؤلف منه جملا كاملة، تشتمل على مايريد من المعنى، الذى توجه به إلى مخاطبه!

ولكن هذا الأسلوب وإن دل على براعة وسعة اطلاع، لا يدل على ملكة الكاتب ومقدرته على التعبير، لأن قياس الملكة، بما ينشئه الكاتب من أساليبه وقوالبه التى يكسو بها معانيه، وابن زيدون فى رسالتيه، لم يزد على أن استعار ثياب غيره فلبسها، وإن كان قد ظهر بها فى مظهر لائق، كأنما قدرت عليه تقديراً.

وبعد، فهل وقفت مقدرة ابن زيدون البلاغية، عند حد القدرة على استعمال كلام غيره، والتلطف لمواقعه؟ لا! بل إنه البليغ الذى عرف باللَّسَن، واشتهر بحسن البيان، ترى ذلك فيما كتبه من رسائل غير هاتين الرسالتين، اللتين لعله كان يجرب فيهما مقدرته على استعمال كلام غيره، ويتزيد فيهما على الناس بواسع اطلاعه ووفير حفظه، وإن كان فى كثير مما روى له، لوثٌ (١) مما فى رسالتيه، فإن له رسائل كتبها كما يكتب

---

(١) اللوث بالفتح: شبه الدلالة من غير أن تكون بينة ظاهرة.

الناس عادة كتابة مرسلة ، قوامها تلك الجمل التى ينشئها الكاتب إنشاء، ولا ينقلها نقلا . وهذه الرسائل تجلت فيها ملكته الصَّناع ، وبلاغته التى تعتمد على طبع سليم ، ولقد شهد له أهل زمانه بفَوْقه فى البلاغة ، وامتلاكه ناصية العبارة . فقد حكى ابن بَسّام فى الذخيرة، عن بعض وزراء إشبيلية، قال: عهدى بأبى الوليد بن زيدون، قائمًا على جنازة بعض حرمه ، والناس يعزُّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمعته يجيب أحداً بما أجاب به غيره لسعة بيانه وحضور جنانه ! !

ومما كتبه ابن زيدون ، وفيه لَوْث من طريقة الرسالتين ، ما أرسل به إلى أحد أصدقائه ، وهو مختف بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور :

« وبلغنى أنّك أحدُ اللائمين لى . ومن أمثالهم « وَيْلٌ لِلشجىِّ من الخَلِىّ[1] » « وهان على الأمْلَسِ ما لاقى الدَّبِر[2] » وعلِمْتُ أن العاجزَ من لا يَسْتَبِدُّ . فالمرء يَعْجِزُ لا محالة . ولم أَستجزْ أن أكون ثالث الأذَلَّيْن ، العَيْرِ والوَتَد ، وتذكرت أن الفِرار من الظُّلْم ، والهَرَبَ مما لا يطاق ، من سُنَنِ المُرْسَلِين ، وقد قال تعالى على لِسان موسى « ففَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » فنظرت فى مفارقة الوطن ، فقديماً ضاع الفاضل فى وطنه ، وكَسَد العِلْقُ فى مَعْدِنه ، كما قال :

أَضِيعُ فى مَعْشَرِى وَكَمْ بَلَدٍ يَكُونُ عُودُ الكِباءِ من حَطَبِه[3]

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الأمْنِ ، إلاّ أن الغَىَّ لم يَرْتَفِعْ ، ومادّة البَغْىِ لم تنقطع » .

---

(١) الشجى كفرح: المشغول، وقد شدد فى الشعر ويجوز التشديد فى المثل أيضا للمقابلة بالخلى . الخلى كغنى: الفارغ ، والذى قال هذا المثل، أكثم بن صيفى، لما عاد له ابنه بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجمع قومه ورغبهم فى الإسلام . فقال له مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم! فقال له أكثم « ويل للشجى من الخلى»

(٢) الأملس: البرىء من القروح . الدبر كفرح : من به قرحة الدبرة بالتحريك: يضرب هذا المثل فى سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه وكذلك المثل قبله .

(٣) الكباء ككساء : عود البخور .

ومما تجلى فيه استقلاله بالعبارة ، ما كتبه فى المعنى السابق :

« لقد كان من محاسن الشِّيَم ، وشروط المروءة والكرم ، أن يَهَبَ لى ما أَنْكَرَ لما عَرَف ، ويَغْفِرَ ماسَخِط لما رَضِيَ ، ويدفع بالتى هي أحسن، ويُؤْثِرَ الذى هو أجملُ وأرفقُ ، ويتوقف عند ما نُصَّ[١] له من سعاية ، وزُفَّ إليه من وِشاية ، فإن كان باطلا ألقاه ، وفَضَح المتقرب به وأقصاه ، وإن كان حقًّا صَبَرَ صَبْرَ الحليم ، وأغْضَى إغضاء الكريم ، وقبل إنابة المُعْتِب ، واقتصد فى مؤاخذة المُذْنِب ، فقدَّم التوقيف قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ، فإن الرِّفْق بالجانى عتاب ، والحُرَّ يُلْحَى ، والعَصَا للعَبْد[٢] » .

ولا نكون مُبْعدِين إذا قلنا ما قاله ابن نَباتة فى الحكم على نثر ابن زيدون ، قال :

« أما نثره ، فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب ، وحل أشعار المتقدمين والمتأخرين ، إلى أن قيل إن رسائله أشبه بالمنظوم منها بالمنثور ، وعلى ذلك فقد دلّ على اطلاع معجب ، واستحضار معجز »

رسالتا ابن زيدون

بيان ما تحويان من المعانى ، وما يوجه إليهما من نقد

الرسالة الجدية

بدأها باستعطاف سيده ، فزعم أنه لا يعول على غيره ، ولا يستند إلى سواه ، ثم دعا له بدوام العزم الماضى ، والزند الوارى ، واعتذر عنه فيما ناله به من أذى ، بأن شأن الأيام أن تجعل المنية حيث الأمنية ، وأكثر فى هذا المقام من ضرب الأمثال ، وجمع كل ما قيل فى فوات الأمل ، ووقوع مالا يتوقع ، وأن تأخر الخير لا يمنع من امتلاء اليد به ، حين تنقشع السحب ، وتزول العقبات .

---

(١) نص الرجل الحديث : رفعه .
(٢) العتاب : التأنيب على الذنب . لحاه يلحوه : شتمه .

ثم عرج على تبكيت سيده ، على شدة أخذه ، وخشونة عقابه ، مع كون الجرم كله وهماً لا حقيقة فيه ، ودسيسة حاكها حسد الحاسدين ، وضرب الأمثال بما عرف فى التاريخ من ذنوب الآحاد والأمم ، وأن ما جرى له كان كافياً فى العقوبة ، لو تحقق الإجرام ، فكيف ولا ذنب إلا وشاية الوشاة !؟

وقد لوحظ أنه أخطأ فيما عده من تلك الحوادث التاريخية ، فمن ذلك قوله « وتأولت فى بيعة العقبة » وسياق كلامه يدل على أنه يذكر ناساً بما وقع منهم من ذنوب وعيوب ، ولم يُنْقل أن أحداً ممن بايع هذه البيعة تأولها أو نكثها .

وكذلك قوله « وتخلفت عن صلاة العصر فى بنى قُرَيظة » ولم يُعلم أن رسول الله أنكر على من تخلف عنها ، فى بنى قريظة وصلاها فى الطريق ، بل لقد أقرّ الجميع على عملهم . ومن ذلك أيضاً قوله « وزعمت أن خلافة أبى بكر كانت فلتة » . وهذه الكلمة إنما قيلت فى معرض غير معرض الذم ، لأن قائلها سيدنا عمر بن الخطاب ، وإنما قالها شكراً لله على حصولها ، بعد تدبير أصحاب السقيفة . ومن ذلك قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعيد أن جَعْجِع بالحسين » والذى فى التاريخ أن المكتوب إليه هو الحارث بن زيد .

ثم أخذ ابن زيدون يمنّ على سيده بوفائه ، ويؤنبه على عدم رعاية خدمته ، فى كلام طويل ، يحيل فيه ما أصابه على الوشاة ، ثم يلوم سيده على عدم الدفع عنه ، وذلك فى قوله :

« والله ما غَشَشْتُك فى النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصَّاغِيَةِ إليك ، ففيمَ عَبِث الجفاء بأذمّتى ، وعاث العُقُوق فى مَوَاتِّى . ؟ » .

ومن مَنِّه عليه بإذاعة محامده ، وملء المجالس بالثناء عليه قوله « وهل لَبِسَ الصَّبَاحُ إلا بُرْداً طَرَّزْتُه بفضائلك ، وتَقَلَّدَتِ الجوزاء إلاّ عِقْداً فَصَّلْتُه بمآثرك ..؟ » .

وأرى أن هذا الأسلوب فى الاستعطاف ، مؤدّ إلى الإحفاظ والحقد ، أكثر مما يراد به من إعادة الرضا والودّ ، وليس الشأن فيمن تستعطفه أن تقول له : إنك عاق للمروءة ،

جاحد لسابق الخدمة ، وإنى أحسنت إليك بكذا وكذا ، وإنما الشأن أن تبقى صاغراً ، معترفاً بالْجُرْم ، مستدرًّا للعطف ، ولعلّ هذه القطعة فى الرسالة من أسباب عدم الصفح عنه .

ثم أخذ فى بيان، لم يراع فيه كسابقه، مقام الاستعطاف، فذكر أنه قادر على الفرار من سجنه فى قوله « وَلَعَمْرُكَ ما جَهِلْتُ أَنّ صَرِيحَ الرأى أَنْ أَتحوّلَ إذا بَلغَتْنِى الشمس » ويذكر أن أدبه وطنه ، وأنه واجد به إكراماً فى كلّ مكان ، وأنه لا يمنعه من الفرار ، إلا إيثاره للوطن والمنشأ ، وكأنه أحس بما فى هذا من إساءة إلى سيده ، فعاد يصلح غلطه بقوله « هذا إِلى مُغَالاَتِى بعَقْد جِوارِكَ ، ومُنَافَسَتِى بلَحْظَةٍ من قُرْبِكَ » ولكن هذا الاستدراك لا يمحو ما أثبته من الخروج على طاعة سيده .

ولعلّ فى موقف ابن زيدون من سيده، ماجعل هذا القول منه لائقاً بموضعه ، وأن الاستعطاف على النحو الذى ألفناه من غيره ، لا يناسب مقامه وشرفه ، وسمو درجته ، وأن التهديد بالانضمام إلى غيره ، كان وسيلة فى نظره إلى انتباه ابن جهور من غفلته ، وتعجيله فى التكفير عن إساءته .

الرسالة الهزلية

فى هذه الرسالة شبه من رسالة التربيع والتدوير ، التى كتبها الجاحظ إلى أحمد ابن عبد الوهّاب ، وذلك ما يحمل على الظن بأن ابن زيدون قلده فى لاذع تهكمها ، والإكثار ـ إلى حد الثرثرة ـ من ذكر أعلام عرفوا فى التاريخ بصفات، ضرب بهم المثل فيها ، ولكن بين الرسالتين فرقاً ظاهراً ، فإن الجاحظ لم يُسِفّ فى الهجاء ، ولم يُمِضّ به ، بل كان قوله كله تهكما ، يضحكك من المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة ما يحملك على رحمته ، والحنق على الكاتب لشناعة حملته ، وهذا من فضل الجاحظ ،

نال كل ما يريد من صاحبه ، وجعل القارئ يشاركه فى السخرية به ، دون أن يشعر بأنه ظلمه أو قسا عليه ، ولـكن ابن زيدون متحامل مُمِضّ بقوله إلى حد إحفاظ القارئ عليه ، ولعل الضغينة فى نفسه على ابن عبدوس، كانت شديدة فلم يستطع أن يقول غير ماقال، وهو ـ كما تعلم ـ منافسه فى حبه ومَنْصِبه، وليس بعد هذا كله مثار للحقد والضغن .

هذا أول عيوب الرسالة ، ويليه الإسراف فى ذكر الأعلام ، حتى عد منها أكثر من خمسين ، وكان فى دون ذلك كفاية لمن أراد التمثيل ، أما هو فقد أراد الدلالة على الإحاطة بالتاريخ ، ومعرفة كل ما قد ورد به من رجال .

ويظهر فى هذه الرسالة قلة معانيها ، لأنك لو جردتها مما أطالها به من ذكر هذه الأسماء ، لما بقى بها إلا ذم وإقذاع فى ابن عبدوس ، وتسفيه لرأيه فى إرسال العجوز لاستدامة ود ولاّدة . ولعل فى ارتجالها وبعثه بها على أثر علمه بأمر العجوز وعقيب خروجها من عند ولاّدة ، أثراً فيما ظهر بها من فقر فى المعانى ، وحيلة على الطول ، بذكر الأسماء والتمثيل بها ، وهى إذ كانت حاضرة فى ذهن قائلها لا تحتاج إلى عناء .

شعر ابن زيدون

لشعر ابن زيدون صفات ممتازة ، من رقة كادت تسيل سيلا ، ومعان هى مرة ذوب الشوق ، ولهيب العشق ، وأخرى أنين الشكوى وانكسار الذل ، إلى غير ذلك من وصف بارع ، لروض نضير وغدير نمِير ، أو مدح لأمير خطير ، ذلك هو شعر ابن زيدون ، كان نِتاجا لازماً لبيئة عاش فيها ، وحياة أحاطت به مؤثراتها .

ومن أولى من ابن زيدون بالشاعرية ، وقد نشأ عربى الأُرومة والثقافة ، وأُرْهِف حسه بما جرى عليه من حوادث صقلته صقلا !؟ وكان أطولها أمداً، وأكثرها علاقة بشاعريته ، تعلق قلبه بولاّدة ، وما لاقى منها من قرب وبعد ورضاء وصد ، وما بلى به من مزاحمة المزاحمين له على قلبها ، حتى ظفر ابن عبدوس به حيناً ما .

فهذه حوادث لها أثرها فى عاطفة الشاعر ، فقد صَهرَتها صهراً كان محمود الأثر فى صفاء نفسه ، وانطلاق خياله ، والاستفادة من عبرة الأيام. فإذا أضفت إلى ذلك ماعركه به الدهر ، من غضب ابن جهور عليه ، وما بلى به فى سجنه ، علمت كيف اصطلحت الأحداث على الشاعر ، لتجلو لنا منه ذلك الوجدان الدقيق الحس ،. الذى يحسن تصوير حُرقة الفراق ، وفرحة اللقاء ، و بَرْد الرضا ، وهجير الغضب ، و يستطيع فهم ما تشدو به الأطيار ، وما تبثّه نسمات الأسحار ، وما تتفتح عنه أكمام الزهر ، أو ما يطرد به ماء النهر ، وقد صار حفيف الأشجار فى رأيه نجوى حبيبين ،وتلاقِى أغصانها تعانق أليفين، إلى غير ذلك من أسرار الطبيعة ومظاهرها ، التى يفسرها بما هدته إليه تجاربه ، وما أبقت فى نفسه مسراته وآلامه .

من مدحه لبنى جهور ، قوله فى أبى الوليد ، وهو قول كما ترى سرىّ اللفظ ، سنىّ المعنى ، دل فى جملته على أنفة القائل واعترافه بالجميل ، فى عزة لم يطأطئ معها رأسه ، ولم يتدل ذلك التدلى ، الذى يكون من أكثر الشعراء ، قال :

يا بنى جَهْوَرٍ الدُّنيا بكم … حَلِيَتْ أيامُها بعد العَطَلْ
إنما دولتُكم واسطةٌ … أَهْدَتِ الحسنَ إلى عِقْد الدُّوَل
نحنُ من نعمائكم فى زَهْرَةٍ … جَدَّدَتْ عَهْدَ الربيعِ الْمُقْتَبَل[1]
طابَ كانونٌ لنا أثناءَها … فكأنَّ الشمسَ حَلَّتْ بالحَمَلْ
زَهَرَتْ أخلاقكم فابتسمتْ … كابتسامِ الورد عن لُؤْلُؤِ طَلّْ
أيها البحرُ الذى مهما تَفِضْ … بالندى يمناه فالبحرُ وَشَلْ
من لنا فيك بعيبٍ واحدٍ … تَحْذَرُ العَينُ إذا الفضلُ كَمَلْ[2]

---

(١) اقتبل المرء أمره : استأنفه، والربيع المقتبل (بصيغة اسم المفعول) : المستأنف أى المنتظر .

(٢) المعنى أن العين تخشى على المرء إذا كمل ، فنحن نطلب فيك عيبا ، لنأمن عليك العين .

شرفٌ تغْـنَى عن المَدْحِ بِهِ ... مثل مايغنى عن الـكحل الـكَحَلْ
أنا غَرْسٌ فى ثرى العلياءِ لَوْ ... أبطأَتْ سُقْيَاكَ عنــه لَذَبَلْ
لِىَ ذِكْرٌ بالذى أَسْدَيْتَهُ ... نابهٌ وَدَّ حَسُودٌ لو خَمَــلْ
فلْيَمُتْ بالداءِ من حَالِ فتًى ... أَدَّبَتْه سِـيَرُ الناسِ الأُوَلْ
فوَعَى الحـكمةَ عن قائلهم ... «الزم الصحة يَلْزَمْكَ العَمَلْ»
أَقْبَلَتْ نُعْماكَ تَهْدِى نَفْسَهَا ... لم أُرِغْ حَظِّىَ منها بالحِيَـلْ
فَقَبِلْتُ اليدَ مِنْ بَطْنِ يَدٍ ... ظَهْرُها الدهرَ مَحَــلٌّ للقُبَلْ
كُلُّنَا بُلِّغَ ما أَمَّــلَهُ ... فابْلُغِ الغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَل
وإذا ما رَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ ... وإذا رُمْتَ الأَمَانِىَّ فَنَلْ

وقال يستعطف ابن جهور :

أَبَا الحزْمِ ! إنِّى فى عتابك مائلٌ ... إلى جانب تَأْوِى إليه العلا سَهْلِ
حمائمُ شَـكْوِى صَبَّحَتْكَ هوادلاً ... تُنَادِيكَ من آداب أَفْنَانِىَ الهُدْلِ (١)
جوادٌ إذا استَنَّ الجيادُ إلى مَدًى ... تَمَطَّرَ فاستولى على أَمَدِ الخَصْلِ (٢)
ثَوَى صافِناً فى مَرْبِطِ الهُونِ يَشْتَـكِى ... بِتَصْهَالِهِ مانالَهُ مِنْ أَذَى الشَّـكْلِ (٣)
أفى العدل أَنْ وافتك تَتْرَى رَسَائِلِى ... فلم تَتْرُكَنْ وَضْعاً لها فى يَدَىْ عَدْلِ
أُعِدُّكَ للجُــلَّى وآملُ أَنْ أُرَى ... بنُعماك موسومًا وما أنا بالغُفْلِ

---

(١) هوادل : جمع هادلة أى حمامة ذات هديل . هدل : جمع أهدل أى غصن متدل . يشبه شكاويه إليه بحمائم تهدل على أغصان شجرة متهدلة .

(٢) استن الجواد : أسرع . تمطرت الخيل : جاءت يسبق بعضها بعضا . يقال أحرز خصله وأصاب خصله أى غلب ، وأصل الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس .

(٣) الصافن من الجياد: الذى يقوم على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة وهوعلامة العتق. الشكل: شد قوائم الدابة . وفى معنى البيت يقول أبو الطيب .

وإن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال

وما ذاكَ وَعْدُ النفسِ لى منك بالمُنَى ... كأنّى به قد شِمْتُ بارقةَ المَحْلِ
أَئِنْ زعم الواشون ماليس مَزْعَمًا ... تُعذِّرُ فى نصرى وتُعذِرُ فى خَذْلى (١)
وأَصْدَى إلى إسعافِك السائِغ الجَنَى ... وأَضْحَى إلى إنصافك السابغِ الظِّلِّ (٢)
ولو أنَّنِي واقعتُ عَمْداً خطيئةً ... لمـا كان بِدْعامن سَجَايَاكَ أَنْ تُملِى
فلم أستتر حَرْبَ الفِجَارِ ولم أُطِـعْ ... « مسيلمةً » إذ قال إنى من الرُّسْلِ (٣)
ومِثْلِيَ قد تَهْفُو به نَشْــوَةُ الصِّبَا ... ومثلُكَ قد يعفو ومالَكَ من مِثْلِ
وإنِّى لتنهانى نُهاى عن التى ... أشارَ بها الواشِى ويَعْقِلُنِى عَقْلِى

وانظر كيف وفى للمحبوب فصان سره ، ولم يبع حظه منه، واحتمل فى سبيله ما لا يحتمل، وثبت على العهد ، مهما اشتط صاحبه واستبد ، وذلك حيث يقول :

بينى وبينَك مالو شئتَ لم يَضِـعِ ... سِرٌّ إذا ذاعَتِ الأسرارُ لم يَذِعِ
يا بائعاً حَظَّه مِـــنّى ولَوْ بُذِلَتْ ... لِيَ الحياةُ بحَظِّى مِنْهُ لَمْ أَبِـعِ
يَـكْفِيكَ أَنَّكَ لَوْ حَمَّلْتَ قَلْبِيَ مَا ... لا تَسْتَطِيعُ قلوبُ الناسِ يَسْتَطِـعِ
تِهْ أَحْتَمِلْ واسْتَطِلْ أَصْبِرْ وعِزَّ أَهُنْ ... وَوَلِّ أُقْبِلْ وَقُلْ أَسْمَعْ وَمُرْ أُطِـعِ

وانظر إليه وقد ضاق بولّادة ذَرْعا ، ولاقى من حبها بَرْحًا ، فظن فى جمال الطبيعة

---

(١) عذر كقدم : لم يثبت له عذر، والمعنى تقصر فلا يكون لك عذر تبديه ، وأعذر من الأضداد بمعنى ثبت له عذر أو قصر ، والمراد هنا هو الثانى .

(٢) يقول هل يكون جزائى أن أعطش ، ولك إسعاف سائغ وأبرز للشمس، أو أتعرض للضرر ولك ظل سابغ وارف ؟

(٣) الفجار : أربعة أيام كانت بين كنانة وهوازن . وإنمـا سميت فجارا لأن العرب فجروا فيها فأحلوا القتال فى الأشهر الحرم. وأشهر أيام الفجار هو الفجار الرابع ، وكان سببه قتل البراض الـكنانى لعروة الرجال لمـا فضله كسرى عليه ، وأسند إليه إجارة عير اللطيمة ، وهى تجارة من القطف والطيب كان يبعث بها كسرى إلى بلاد العرب ويستبدل بها حاصل تلك البلاد . وقد حضر النبي هذا الفجار الرابع وكانت سنة أربع عشرة سنة ، وقال فيها « كنت أنبل على عمومتى يوم الفجار ورميت فيه بأسهم، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

سَلْوةٌ عن جمالها ، وفى انفساح الرياض خلوصاً من ضيق هجرها ، فإذا بالقمر يطالعه بوجهها ، والزهر يَبْسِم عن ثناياها ، وإذا كل مافى الطبيعة يُغْرِى بها، ويدعو إليها ، وذلك حيث يقول:

إنِّى ذكرتُكِ بالزهراءِ مُشْتاقَا ... والأُفْقُ طَلْقٌ ووَجْهُ الأَرْضِ قد رَاقَا[1]

وللنسيم اعتلالٌ فى أصائِلِه ... كأنَّما رَقَّ لى فاعْتَلَّ إشْفَاقَا[2]

والرَّوْضُ عن مائِهِ الفِضِّيِّ مبتسمٌ ... كما حَلَلْتَ عن اللَّبَّاتِ أطوَاقَا[3]

يوم كأيامِ لذَّاتٍ لنا انْصَرَمَتْ ... بِتْنَا لها حين نام الدَّهْرُ سُرَّاقَا

نلهو بما يَسْتَمِيلُ العينَ من زَهَرٍ ... جال النَّدَى فيه حتى مال أَعْنَاقَا

كلٌّ يهيجُ لنا ذِكْرى تَشَوُّقِنا ... إليكِ لم يَعْدُ عنها الصَّدْرُ أَنْ ضاقا

لو كان وفَّى المُنَى فى جمعنا بكمُ ... لكان من أكْرَمِ الأيامِ أَخْلاقَا

لا سَكَّنَ اللهُ قَلْبا عَنَّ ذِكْرُكُمُ ... فلم يَطِرْ بجناح الشوق خَفَّاقا

وانظر إليه كيف تذوب نفسه فى شعره ، حين يصف موقف الوداع لولّادة، وما يحزُّ فى صدره من ألم ، على رضاه بالفراق حين ودع ، ولم يتبع ، فى قوله :

ودّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ... ذائعٌ مِنْ سِرِّهِ ما اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَ على أَنْ لم يَكُنْ ... زاد فى تلك الخُطَا إذ شيَّعَكْ

يا أخا البدر سَناءً وَسَنًى ... حفظ اللهُ زَمَاناً أَطلَعَكْ[4]

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِى فَلَكَمْ ... بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ

وانظر إليه، وقدتلاعب باللفظ، وأتى بالقياس المحال ليرضى محبوبه، فجعل نفسه مذنباً وهو

---

(١) الرجل الطلق الوجه : الضاحكه المشرقه، واليوم الطلق الذى ليس بحار ولا بارد، والمعنيان صالحان هنا

(٢) اعتل النسيم : هدأ ولم يشتد . الأصائل جمع أصيل وهو الوقت قرب الغروب .

(٣) اللبة موضع القلادة من العنق .

(٤) السناء : الشرف والرفعة ، والسنى : الضوء .

مجنى عليه ، وطالب الجانى بالصفح ، مجاهراً باتهامه، وذلك فى قوله :

يا قمـــرا مَطْلَعُه المَغرِبُ   قد ضاق بى فى حُبِّك المَذْهَبُ
ألزمتنى الذنبَ الذى جِئْتَهُ   صَدَقْتَ فاصْفَحْ أيها المُذْنِبُ
وإنَّ من أغْرَبِ مامَرَّ بى   أَنَّ عَذَابِى فيك مُسْتَعْذَبُ

أما قصيدته الحاوية لمعانى غرامه ، المسجلة لشتى آلامه ، الممثلة لآماله فى الحب وأحلامه ، التى هى فى شعر الأندلس كله نجم يتألق ، وعلم يخفق ، فهى قوله يخاطب ولادة :

أَضْحَى التَّنَائِى بديلاً من تَدَانِينَا   وناب عَنْ طيبِ لُقْيَانَا تجَافِينَا
بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جوانِحُنَا   شَوْقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقِينَا
نَكادُ حين تُناجِيكُمْ ضمائِرُنا   يَقْضِي عَلَيْنا الأَسَى لَوْلاَ تَأَسِّينَا
حالتْ لفقدكُمُ أيامُنَا فَغَدَتْ   سُوداً وكانت بكم بيضاً لَيَالِينَا[١]
إذْ جانبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تَأَلُّفِنا   ومَوْرِدُ اللَّهوِ صافٍ من تَصافِينا[٢]
وإذ هصَرْنَا غُصُونَ الأُنْسِ دانِيَةً   قُطُوفُهَا فَجَنَيْنَا منه ما شِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السرورِ فما   كنتُمْ لأَرْوَاحِنَا إلاّ رَيَاحِينَا
مَنْ مبلغُ المُلْبِسِينَا بانْتِزَاحِهِمُ   حُزْناً مع الدَّهرِ لا يَبْلَى ويُبْلِينَا
إنَّ الزمانَ الذى ما زالَ يُضْحِكُنَا   أُنْسًا بقربِكُمُ قَدْ عادَ يُبْكِينَا
ما حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِى حَسَدٍ   بنا ولا أن تَسُرُّوا كاشِحاً فينا[٣]
غِيظَ العِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فدَعَوا   بأَنْ نَغَصَّ فقَالَ الدَّهْرُ آمِينا
فانحَلَّ ما كان مَعْقُودًا بأنفسنا   وانْبَتَّ ما كان مَوْصُولاً بأيدينا

---

(١) حالت : تغيرت .
(٢) فى الديوان « مربع » بدل « مورد » .
(٣) الكاشح : مضمر العداوة .

وقد نكونُ وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا ... واليومَ نحنُ وما يُرْجَى تلاقينا
لم نعتقدْ بعدَكُمْ إلا الوفاءَ لكُمْ ... رأيًا ولم نتقلَّدْ غيرَه دِينا
لا تحسَبُوا نأيَكُمْ عنا يغيِّرُنا ... إنْ طالَ ما غيَّرَ النَّأْيُ المحِبِّينا
واللهِ ما طلبَتْ أهواؤُنا بدَلاً ... منكم ولا انصرَفتْ عنكُم أمانينا
ولا استفَدْنا خليلاً عنك يشغَلُنا ... ولا اتَّخَذْنا بديلاً منك يُسْلِينا[1]

⁂

يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصْرَ فاسْقِ بهِ ... مَنْ كانَ صِرْفَ الهوَى والوُدَّ يَسْقِينا
ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغْ تحيَّتَنا ... مَنْ لوْ على البُعْدِ حيًّا كان يُحْيِينا
يا روْضةً طالَ ما أجْنَتْ لَواحِظَنا ... وَرْدًا جلاه الصِّبا غضًّا ونسْرِينا
ويا حياةً تملَّيْنا بزهرتِها ... مُنًى ضُرُوبًا ولذَّاتٍ أفانينا[2]
ويا نعيماً خطرْنا من غضارتِهِ ... فى وَشْيِ نُعْمَى سحَبْنا ذيْلَها حِينا[3]
لسْنا نُسمِّيك إجلالا وتكرِمَةً ... وقَدْرُكَ المعتلِي عن ذاك يُغْنِينا
إذا انفرَدْت وما شُورِكْت فى صفة ... فحسبُنا الوصفُ إيضاحا وتبيينا
يا جنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بسِدْرتِها ... والكوثَرِ العذْبِ زَقُّومًا وغِسْلِينا[4]
كأنَّنا لمْ نَبِتْ والوَصْلُ ثالثُنا ... والسَّعْدُ قدْ غضَّ من أجْفانِ واشِينا
إنْ كانَ قدْ عزَّ فى الدنيا اللقاءُ ففى ... مواقفِ الحَشْرِ نَلْقاكُمْ ويَكْفِينا
سِرَّانِ فى خاطرِ الظَّلْماءِ يَكْتُمُنا ... حتَّى يكادَ لسانُ الصُّبْحِ يُفْشِينا

---

(١) فى الديوان :

فما استعضنا خليلا منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا

(٢) التملى : طول التمتع بالشيء . الضرب من الشيء : النوع منه ، وكذلك الأفنون والفن .

(٣) الغضارة : النعمة والسعة .

(٤) السدرة : شجرة النبق . ويروى سلسلها وهو الماء العذب أو البارد . الزقوم طعام أهل النار، الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار .

لاغَرْوَ فى أنْ ذَكَرْنَا الحُزْنَ حين نَهَتْ　　عنه النُّهَى وتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إنَّا قرأنا الأسى يوم النَّوَى سُوَرًا　　مكتوبةً وأَخَذْنا الصبرَ تَلْقِينَا
أَما هَوَاكِ فَلَمْ نعدِلْ بِمَنْهَلِهِ　　شِرْبًا وإن كان يَرْوِينَا فيُظْمِينَا(١)
لم نَجْفُ أُفْقَ جمالٍ أنتِ كَوْكَبُه　　سالينَ عَنْهُ ولم نَهْجُرْه قَالِينا
ولا اختياراً تَجَنَّبْنَاكِ عن كَثَبٍ　　لكنْ عدَتْنَا على كُرْهٍ عَوَادِينَا
نَأْسَى عليكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً　　فينا الشَّمُولُ وغَنَّانَا مُغَنِّينَا(٢)
لاأَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا　　سِيمَا ارْتِيَاحٍ ولا الأَوْتَارُ تُلْهِينَا
دُومِى على العَهْدِ ما دُمْنَا محافظةً　　فالحُرُّ من دَانَ إنصافا كما دِينَا(٣)
فما ابْتَغَيْنَا خليلاً منك يَحْبِسُنَا　　ولا اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عنكِ يُغْنِينَا
ولو صَبَا نَحْوَنَا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ　　بدرُ الدُّجا لم يكن حَاشَاكِ يُصْبِينَا
أَوْلِى وَفاءً ولم إن تَبْذُلِى صِلَةً　　فالذكر يُقْنِعُنَا والطَّيْفُ يَكْفِينَا
وفى الجواب «مَتَاعٌ» لو شَفَعْتِ بهِ　　بِيضَ الأَيادِى التى ما زِلْتِ تُولِينَا(٤)
عليكِ منى سلامُ الله ما بَقِيتْ　　صَبَابَةٌ منك نُخْفِيها وتُخْفِينا(٥)

---

(١) الشرب بالكسر : الماء والمورد .

(٢) حثت: أديرت سريعا. المشعشعة : الخمر الممزوجة.

(٣) الدين بالفتح ويكسر: الجزاء، ودنته أدينه جازيته أو أحسنت إليه.

(٤) هذه رواية الديوان ، الذى أظهره الأستاذان عبد الرحمن خليفة وكامل كيلانى ، أما رواية قلائد العقيان فهى «قناع» ولامعنى لها ، إذ يكون أصلها قناعة فحذفت التاء، ولكنّ ذلك غير مألوف، لذلك نرجح الرواية الأولى .

(٥) نخفيها وتخفينا : الفعل الأول رباعى أو ثلاثى بمعنى ستر ، والثانى ثلاثى بمعنى أظهر ، والمعنى أننا نحاول كتم ماعندنا من عشق وصبابة ، ولكنهما يدلان علينا ، بما ينتابنا من اضطراب وسقم ولوعة، فنحن نخفى الحب وهو يعلن أمرنا للناس . ويكون أقرب إلى الفهم، وأجرى على طريقة الشعراء فى القول، أن يكون الفعلان رباعيين بمعنى يستر ، والمراد من إخفاء الصبابة لهم أنها تحيل عليهم الهزال والسقم ، حتى لاتبين أشخاصهم ! وقد تناول الشعراء هذا المعنى كثيرا، فقال المتنبي:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل　　لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ابن زيدون بحترى الغرب

كما شبهوا ابن هانئ بالمتنبى ، شبهوا ابن زيدون بأبى عُبادة البحترىّ ، ونحن نريد بحث هذه الحقيقة ، وبيان نصيب هذا التشبيه من الصحة .

إن المطلع على ديوان ابن زيدون ، وهو ديوان ضخم الحجم ، متناول لجميع أغراض الشعر من مدح ورثاء ، وهجاء واستعطاف ، ووصف وغزل ، يرى أن الغزل فيه قد ظفر بنصيب كبير ، حتى لم يخل مطلع قصيدة منه ، وقد يطول نفَس الشاعر فيه ، حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة ، وقد تكون القصيدة فى الاستعطاف ، وهو إلى البكاء وندب الحظّ أقرب منه إلى السرور واللهو اللذين يبعثان الغزل ، ويعيدان ذكرى الوصال ، فيستهلها بالغزل ويطيل فيه على عادته . هذا إلى غزل مستقلّ لم يقله تابعاً لغرض آخر ، وذلك كثير فى شعره . وأشهر مثل له قصيدته النونية التى وجهها إلى ولادة ، وقد مرّت بك قريباً .

فلنا أن نستخلص من ذلك ، غلبة هذا النوع من الشعر عليه ، وكثرة دواعيه عنده ، فهذه ناحية شارك فيها أبو الوليد بن زيدون ، أبا عبادة البحترى ، إذ أنّ البحترى — كما تعلم — مكثر من الغزل ، يصدّر به أغلب قصائده .

وناحية أخرى يشتركان فيها ، وهى أن كليهما أغرم بمحبوبة ، فذكرها فى شعره وأطال ترداد اسمها فى قوافيه ، فابن زيدون أغرم بولادة التى ملكت عليه مشاعره ، وكان صدها عنه وحرمانه من مجلسها ، إحدى نكباته التى أطال منها الشكوى ، وأكثر فيها الأنين ، كما أغرم أبو عبادة بعَلْوة حبيبته بالشام . وليس يهمنا أن يكون حبّ البحترىّ صادقاً أو متصنعاً ، فإن الذى يعنينا ، أن يصدر الشاعر عن صورة ماثلة ، يرى فيها ضروب الجمال ، وأفانين الفتنة ، فيحسن تصوير ذلك ، فأما أن يكون خياله جامحاً

شارداً غير صادر عن حقيقة ، فذلك جدير ألاّ يكون فيه صورة للغرام الجادّ . وما مثل الشاعرين فى ذلك إلا كمثل المصوّرين ، يصوّر أحدهما من خياله ، فيكون حائداً فى كلّ ما يأتى ، وقد يخلط من الألوان ما لا تناسب فيه ، ويصوّر الآخر من جمال ملموس له ظلّ فى الوجود ، فيحاكى فى صورته الطبيعة ويعكس ظلها ، وما أعظم الفرق بين الطبع والتكلف ! .

ووجهة ثالثة قد توافى عليها شاعرانا ، وهى أنهما اشتركا فى خفة الروح المناسبة للغزل ، فكانا يتلطفان باختيار الموازين المرقصة لقصرها ، كما فى قول أبى الوليد :

أنَّى أُضَيِّعُ عَهْدَكْ ... أم كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكْ
وقد رأتْكَ الأمَانِى ... رِضاً فَلَمْ تَتَعَدَّكْ
يا لَيْتَ مالك عِنْدِى ... مِنَ الْهوَى لِيَ عِنْدَكْ
فطال ليلك بَعْدِى ... كَطُولِ لَيْلِيَ بَعْدَكْ
سَلْنِى حَيَاتِى أَهَبْهَا ... فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكْ
الدَّهْرُ عَبْدِىَ لَمَّا ... أصبحتُ فى الحُبِّ عَبْدَكْ

ومن قول أبى عُبادة فى مثل هذا :

سَقَانِى الْقَهْوَةَ السَّلْسَلْ ... شَبِيهُ الرَّشَإِ الأَكْحَلْ
مَزَجْتُ الرَّاحَ من فِيهِ ... بمثل الرَّاحِ أَوْ أَفْضَلْ
عَذِيرِى من تَثَنِّيهِ ... إذا أَدْبَرَ أَوْ أَقْبَلْ
ومن وَرْدٍ بِخَدَّيْهِ ... إذا جَمَّشْتُهُ يَخْجَلْ

ورابع ما نرى اتفاقهما فيه ، أن سهولة قولهما ، وعذوبة ألفاظهما ، قد وافقتا مقام الغزل ، فجاء شعرهما مساوقاً للسليقة ، متمشياً مع الطبع ، ولم تحل قساوة اللفظ وخشونته بينهما وبين ما يريدان ، من إظهار اللوعة وذلّ الغرام والاحتراق بنار الجفوة ، وذلك مثل قول أبى الوليد :

كم ذا أريدُ ولا أُرَادْ يا سُــــوءَ مالَقِيَ الفؤادْ
أُصْــفِي الوِدَادَ مُدَلَّلاً لم يَصْفُ لِي منه الْوِدَادْ
يَقْضِي عَلَيَّ دَلاَلُه في كُلِّ حِينٍ أَوْ يَكَادْ
كَيْفَ السُّلُوُّ عَنِ الَّذِى مَثْوَاهُ فى قَلْبِي السَّوَادْ
مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْــنِهِ فَلَهَا إِذَا أَمَرَ انْقِيَادْ

وقول أبى عبادة :

جائرٌ فى الحُــكْمِ لو شاءَ قَصَدْ أَخَذَ النَّوْمَ وأعطانى السُّهُدْ
غاب عَمَّا بِتُّ أَلْقَى فى الهوى وَهُوَ النَّازِحُ عِطْفا لَوْ شَهِدْ
وِبنَفْسِي ـ والأمانى ضِــلَّةٌ ـ سَيِّدٌ يَصْدِفُ عَنِّي وَيَصُــدّ
حَالَ عَنْ بَعْضِ الذى أَعْهَدُهُ وأَرانِي لَمْ أَحُــلْ عَمَّا عَهِدْ

ووجهة خامسة ، هى بساطة الفكرة فى معانى الحب عندهما ، فهما لم يتفلسفا بشرح حقيقة الحب ، كما فعل المتنبى مثلا فقال :

الحُبُّ ما منع الكلامَ الأَلْسُنَا وأَلَذُّ شكوى عاشِقٍ ما أَعْــلَنَا

ولـكنهما يكتفيان بذكر الأمور العارضة فيه ، من صدّ ووصل ، ولقاء وفراق ، وإذا وصفا المحبوب ، فلا يتعديان تشبيه خده بالورد ، وأسنانه بالبرَد ، ووجهه بالقمر ، وقدّه بالغصن ، وقد يحسدان المسواك على ما نال من تقبيل فم الحبيب ، ولـكن حسن السبك منهما يخرج هذه التشابيه جميلة رائعة ، وكأنهما لم يسبقا إليها ، ومثل ذلك قول أبى الوليد :

أَهْــدِى إلىَّ بَقِيَّةَ المِسْوَاكِ لا تُظْهِرِى بُخْــلاً بِعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسى أَنْ يُنَفَّسَ ساعَةً عَنْهَا بتقبيــلِ المُقَبِّلِ فاكِ
يا كَوْكَباً بارى سَنَاه سَنَــاءَهُ تُزْهَى الْقُصُورُ بِه على الأَفْلاكِ
قَرَّتْ وفَازَتْ بالخَطِيرِ من المُنى عَــيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

وقول أبي عبادة :

تَغَـــيَّرَ أَوْ حَالَ عَنْ عَهْدِهِ ... وأَضْمَرَ عُـــذْراً وَلَمْ يُبْدِهِ
مَلِيءٌ بأن يَسْـــتَرِقَّ الْقُلُوبَ ... على هَزْله وعلى جِـــدِّهِ
وأنْ يُوجَـدَ السحرُ فى طَرْفِه ... وأنْ يُجْتَنَى الوردُ من خَدِّه
يَشُفُّ القلوبَ وإن أَكْذَبَ الظـنونَ وأَخْلَفَ مِنْ وَعْـــدِهِ
بما أَشْبَهَ البــدرَ مِنْ حُسْنِهِ ... وما شَاكَلَ الْغُصْنَ من قَدِّه

ولو ذهبنا نفصل القول ، فى جهات اتفاقهما فى باب الغزل ، لطال بنا القول ، ولـكنا نجمله فى أن القول كان منهما زفرة حب ، طاوعتها عبارة رقيقة ، وخيال قريب المتناول ، طريف الصوغ بارعه .

ابن حزم الظاهرى

٣٨٣ — ٤٥٦ هـ

فى المدة بين عامى ٣٨٣ ـ ٤٥٦ هـ عاش بقُرْطُبة وغيرها من بلاد الأندلس ، على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن صالح بن خَلَف بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

وإذا استجلينا صفحة التاريخ فى هـذه الفترة ، وجدناها فترة نزاع وثورات ، ووثبات على الملك وسقطات ، ووجدنا مُلك بنى أمية الذى وضع أساسه صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، ثم دَعَمه بعد تصدّع ، ورده إلى حظيرته بعد توزّع ، ثامن هؤلاء الخلفاء عبد الرحمن الناصر ، لم يمض على هذا الملك قرنان من الزمان ، حتى صار بَدَدا لا نظام له ، وطمع فيه خُدّامه الذين رفعهم وأعلى شأنهم .

كانت قُرْطُبة التى ولد فيها ابن حزم ونشأ ، ساحة لهذا النزال والصراع ، يستبد حاجب بمولاه فينفذ حكمه عليه ، ويستعين ملك بجاره ، فيجعل معونته اعتداء على هذا

الملك واستلابا له ، ويُخْلَع خليفةٌ ، ثم يولّى مرات ، هذا شأن الفترة التى عاشها ابن حزم بقُرْطُبة ، وإن شئت فقل إنه شأن البلاد كلها ، مدة القرون الثمانية التى عاشها المسلمون بها ، إذا استثنينا الأيام الأولى من حكم بنى أمية .

ولقد كان لهذه الحال المضطربة أثر فى نفس ابن حزم ، فإنه مع كونه الوزير ، وابن الوزير ، وحفيد الوزير ، قد رغب عن هذا المركز السامى ، وآثر العافية ، وأقبل على العلم يَعِلّ منه بعد نَهَل ، ويستقصى بعد استطراف .

نسب ابن حزم : قد رأيت فيما قدمنا لك من سلسلة نسبه ، أنه فارسى ، وأن آباءه الأول موالى بنى أمية بالمشرق ، وبذلك يسهل علينا تعليل انتقال أسرته إلى الأندلس ، وقد ذكروا أن أوائل آبائه بالأندلس ، سكنوا قرية مَنْتَ لِيشَمَ ، من أعمال لَبْلة فى غرب الأندلس .

قال ابن خلكان « وأول من أسلم من آبائه هو يزيد ، وأول من دخل الأندلس منهم هو خلف » .

وقال ياقوت الرومى « وسكن هو (المترجم) وآباؤه قرطبة ، ونالوا فيها جاهاً عريضاً ، وكان أبو عمرو أحمد بن سعيد بن حزم ، أحد العلماء من وزراء المنصور محمد ابن أبى عامر ، وابنه المظفر بعده . وكان ابنه الفقيه أبو محمد ، وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، ثم لهشام المعتمد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبدالرحمن الناصر، ثم نبذ هذه الطريقة ، وأقبل على قراءة العلوم»

وقال أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربى « إن سعيدا جد ابن حزم ولد بأَوْنَبة (قرية على بعد نصف فرسخ من مَنْتَ لِيشَم) ثم انتقل إلى قرطبة ، وولى بها الوزارة» .

فعلى هذا يكون ابن حزم وزيراً ، وابن وزير ، وحفيد وزير . ونشأ لابن حزم ولد يسمى أبا رافع الفضل كان نبيهاً سَرِيًّا فاضلا ، وكان فى خدمة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس .

ويذكرون من دلائل نباهة أبى رافع هذا ، أن المعتمد غضب على عمه أبى طالب عبدالجبار ، وهمّ بقتله لأمر رابه منه ، فاستحضر وزراءه ، وقال لهم : من يعرف منكم فى الخلفاء

وملوك الطوائف من قتل عمه عند ماهم بالقيام عليه ؟ فتقدم أبو رافع ، وقال : ما نعرف أيدك الله إلا من عفا عن عمه بعد قيامه عليه ، وهو إبراهيم بن المهدى عمّ المأمون من بنى العباس ، فقبّله المعتمد بين عينيه وشكره ، ثم أحضر عمه ، وبسطه وأحسن إليه ، وأبو رافع هذا هو الذى قتل مع مخدومه المعتمد فى وقعة الزّلّاقة(١) سنة ٤٧٩ هـ .

ثراء بيت ابن حزم : لاحاجة إلى الاستدلال على ثراء بيته ، بعد ماذكرنا من عراقته فى الوزارة ، وأنت عالم بأحوال بلاد الأندلس ويسر أهلها ، وأن عامتهم كانوا فى رغد من العيش .

قال ابن حَوْقل — وقد دخل الأندلس فى مدّة خلافة بنى مروان فى المائة الرابعة — « تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرُّخْص والسعة فى الأموال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهينهم ، وأرباب صناعاتهم لقلة مئونتهم ، وصلاح معاشهم » .

وذكر ابن بَشْكُوال ، أن جباية الأندلس بلغت فى أيام عبد الرحمن الناصر ، خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً .

هذه هى حال تلك البلاد ، يشمل اليسر فيها عامتها ، حتى يملك مهينهم والصانع منهم ، الجوارى والقصور العالية ، فما بالك بالوزراء الذين اتصلت الوزارة فى بيوتهم ؟ وقد ذكروا أن قرية مَنْتَ لِيشَمَ هذه ، التى أقبل منها آباء ابن حزم ، كانت مِلْك ابن حزم وملك سلفه من قبله .

كذلك يصف لنا مقدار الرخاء ، الذى كان يعيش فيه ابن حزم ، أنه اجتمع هو والفقيه أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجّى ، وجرت بينهما مناظرة ، فلما انتهت ، قال الفقيه أبو الوليد : تَعْذِرنى ! فإن أكثر مطالعاتى كانت على سُرُج الحُرّاس !

(١) كان المعتمد بن عباد قد استصرخ الأمير يوسف بن تاشفين ملك المغرب ، على نصارى الأندلس فانتصر فيها المسلمون نصراً عظيما . الزلاقة : مدينة بغرب الأندلس قرب بطليوس .

فقال ابن حزم : وتَعْذِرنى أيضا ! فإن أكثر مطالعاتى كانت على منائر الذهب والفضة ! أراد أن الغنى أمنع عن طلب العلم من الفقر .

علم ابن حزم : لا نزيدك معرفة بِنَهَم أهل الأندلس فى العلم ، وشدّة إقبالهم عليه ، وتناولهم لجميع أنواعه : من فقه ، وحديث ، وتاريخ ، وأدب ، وطب . وهكذا كان أبو محمد ابن حزم ، فقد حصل العلوم فى صغره برعاية والده ، ثم انقطع إليها كما علمت بعد زهده فى الوزارة ، حتى تمّ له فيها مالم يتمّ لكثير من رجال الإسلام قديماً وحديثاً . ذكر ابنه أبو رافع الفضل ، أن مبلغ تآليف أبيه أبى محمد ، فى الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل وغير ذلك ، نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وله نصيب وافر من النحو واللغة ، وقرض الشعر والخَطابة .

قال القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى فى كتابه « طبقات الأمم » : وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى دولة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً ، وذكر أن قوماً من تلاميذ أبى جعفر أحصوا أيام حياته ، مذ بلغ الحلم إلى أن توفى سنة ٣١٠ هـ ، وهو ابن ستّ وثمانين سنة ، فصار منها لكلّ يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكرم عناية البارئ به وحسن تأييده .

ومن عجيب أمر ابن حزم ، أنه لم يعتن فى أوّل حياته بالفقه الذى كان أهمّ العلوم عند أهل الأندلس — حتى إنه ذكر عن نفسه أنه كان وزيراً ، ولم يكن يدرى كيف يجبر الصلاة « لعله يريد إتمام الصلاة إذا فاته شىء مع الإمام » كما ذكر أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه ، فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه ، فجلس ولم يركع ، فقال له أستاذه الذى ربّاه بإشارة : أن قم فصلّ تحية المسجد ، فلم يفهم ، فقال بعض المجاورين له : أبلغت هذه السنّ ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ! وكان قد بلغ حينئذ ستاً وعشرين سنة ، قال : فقمت وركعت وفهمت إذن إشارة الأستاذ إلىّ بذلك . قال : فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقارب

الميت ودخلت المسجد ، بادرت بالركوع ، فقيل اجلس اجلس !! ليس هذا وقت صلاة ، فانصرفت عن المجلس وقد خزيت ، ولحقني ما هانت به عليّ نفسي ، وقلت للأستاذ دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دَحُّون ، فدلني فقصدته من ذلك المشهد ، وأعلمته بما جرى فيه ، وسألت الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته ، فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه ، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام .

وعلم الفقه هذا ، هو الذي نبغ فيه فيما بعد حتى قالوا عنه « إنه أوغل في العلوم الشرعية حتى نال منها ما لم ينل أحد قطّ بالأندلس قبله وصنف فيها مصنفاتٍ كثيرةَ العدد ، شرعية المقصد ، معظمها في أصول الفقه وفروعه ، على مذهبه الذي ينتحله ، وطريقه الذي يسلكه ، وهومذهب داود بن عليّ بن خلف الأصبهاني الظاهريّ » .

وعلى ذكر داود الظاهري نقول، إن ابن حزم إنما سمي بالظاهري، نسبة إلى داود هذا . وسُمى داود بالظاهريّ ، نسبة إلى مذهبه الذي ارتآه . وهو القول بظاهر القرآن والسنة ، فما جاءا به ظاهراً حكم به ، ولم يعول على القياس والتعليل ، وقد عرف بهذا المذهب فنسب إليه ، وسُمي أصحابه ومشايعوه عليه ، بالظاهرية . وداود الظاهريّ من أصحاب الشافعيّ ، وأكثر الناس تعصباً له ، ألف في فضله والثناء عليه كتابين ، وقد انتهت إلى الظاهري رياسة العلم ببغداد ، مع تقلل وتزهد وورع كثير ، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٠ هـ .

الحكم على تآليف ابن حزم : لاشك أن ذكاء ابن حزم، هو الذي مكنه من كل هذه العلوم ، التي نقلنا رواية ابنه أبي رافع في مقدار معرفته بها وتأليفه فيها، على مختلف أنواعها ، ونؤيد هذه الرواية بقول أبي مروان بن حَيَّان « كان أبو محمد حامل فنون : من حديث ، وفقه ، وجدل ، ونسب ، وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة كالمنطق، والفلسفة، وله في بعض الفنون كتب كثيرة»

كما نذكر أن ابن بَشْكُوال قال فى حقه « كان أبو محمد ، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار » .

والذين كتبوا عنه — مع إجماعهم على فضله — يختلفون فى مقدار فهمه لعلم المنطق ، فبعض يقول ، إنه خالف أرسطاطاليس واضع العلم ، فزلّ وضلّ ، ودلّ بمخالفته على أنه غير فاهم ، ولا مرتاض بهذا العلم . ويقول بعض آخر ، إنه سلك فى تأليفه كتاب « التقريب بحد المنطق » مسلكا لم يسلكه أحد قبله ، فإنه عبر عن مسائله بالألفاظ العامية ، وجعل أمثلته من الأحكام الفقهية ، وأزال سوء الظن عن هذا العلم ، وكذب المخرقين به ، الذين يحاولون تعميته على الناس .

ونحن إذا رجعنا إلى أصحاب الرأى الأول ، رأيناهم من أهل الأندلس ، الذين ستعلم مقدار ضغينتهم على الرجل ، حتى أغروا به العامة والأمراء ، فشردوه فى البلاد وأحرقوا بعض كتبه علانية فى إِشْبِيلية ، وأخيراً ألجئوه إلى قريته يقبع فيها حتى آخر حياته .

فمن هؤلاء أبو مروان بن حيّان ، الذى يقول ، بعد مانقلنا لك من وصفه لتآليف ابن حزم « . . غير أنه لم يخل فيها (الكتب) من غلط وسقط ، لجراءته فى التسور على الفنون ، لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل فى شكول المسالك ، وخالف أرسطاطاليس واضعه ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض فيه » .

ومن هؤلاء أيضاً صاعد الأندلسى الذى يقول « وألف فى المنطق كتاباً سماه « التعريف لحدود المنطق » بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية ، وجوامع شرعية ، وخالف أرسطاطاليس واضع العلم ، فى بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض فى كتابه ، فكتابه من أجل ذلك كثير الغلط بين السقط » .

وليس هذا غريباً من أهل الأندلس ، فقد كانوا دائماً حرباً على كل من اشتغل

بالفلسفة، حتى كان أهلها لايظهرون مقالتهم للناس ، ولا يطالعونها إلا فى خفية وتستر ، وهم مع ذلك حاقدون على ابن حزم ، لأن الرجل كان حر الرأى ، لا يعرف المداراة فى العلم ، وكان كما يقولون مستنداً على العهد الذى أخذه الله على العلماء « لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ » ، فلم يك يلطّف صدعه بما عنده بتعريض ، ولم يرقّه بتدريج ، بل كان يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه إياه إنشاق الخردل، فنفّر عنه القلوب ، واستهدف إلى فقهاء وقته ، فحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عامتهم عن الدنوّ إليه والأخذ عنه .

هذه أقوال أهل الأندلس، الذين شوّهوا علم الرجل ، ولكن انظر إلى مايقوله عنه ابن خِلّكان فى شأن كتاب التقريب هذا ، قال: وكتاب « التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية » فإنه سلك فى بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب المخرقين به ، طريقة لم يسلكها أحد قبله .

والذى يصفه أهل الأندلس من عمل ابن حزم فى تأليف المنطق ، يدل على أن الرجل ، غير جامد على أقوال القدماء ، ولا ملتزم لطريقتهم فى التأليف ، فهو لايتقيد بعباراتهم الغامضة ، بل يأتى بها واضحة جلية، من مثل مااعتاد الناس فى كلامهم، ويلتمس له الأمثلة والأقيسة من الأحكام الفقهية ، كما يفعل المجددون اليوم — فى هذا العلم نفسه — حين يجعلون أمثلة أشكاله من نظريات علم الهندسة وغيرها ، وهذا تصرف حسن يقرب به العلم الصعب من طلابه .

ولكن الغرض يعمى ويصمّ ، فأهل الأندلس حين كرهوا ابن حزم ، جعلوا هذا التصرف خلطاً فى العلم ، وجهلا بمعانيه ، وخروجاً على واضعه ، ولكن ابن خلكان ، وهو القاضى العادل والحكم النزيه ، يصف هذا العمل بأنه توضيح للعلم ، وإزالة لسوء الظن به ، وتكذيب للمخرقين المموهين فيه . ولو أن هذا الكتاب بأيدينا ، ولم يكن مفقوداً فيما فقد من آثار ابن حزم، لكان لنا فى هذه الآراء رأى أوضح من هذا .

فضل ابن حزم : نجد الدلائل كثيرة على رجاحة عقل هذا الرجل ، وقوة قلبه وشجاعة نفسه ، ولسنا نستدل على ذلك بكثرة تآليفه وتنوعها ، فإن كثرة التآليف وتنوعها شأن أهل الأندلس ، الذين لم تقو عندهم رغبة ، بمقدار ما قويت رغبتهم فى العلم ، ولكن الذى نستدل به فى الرجل على هذه المزايا ، التى جعلته فَذًّا بين قومه ، هو اتهاجه فى العلوم منهجاً ، لم يستطعه غيره من الناس ، فعمله فى علم المنطق ، دليل على رجاحة عقله ، وتكسيره لقيود التقليد التى كان يرسف فيها أهل زمانه ، وفيه دليل آخر على أنه لم يكن ذا أَثَرة فى العلم ، يحيطه بالغموض ليبقى مفتاحه دائماً معه ، فيظل الناس فى حاجة إليه ، يشترون منه العلم بالملق والمال . هذا شأن علماء القديم إلا قليلا منهم كابن حزم . ونظرة واحدة إلى عنوان كتابه نستشف منها الغرض الذى قصده الرجل ، فهو يريد أن يقرب ما أبعده الناس على طالبيه من هذا العلم .

كذلك نجد الدليل على استمتاع الرجل بنصيب كبير من حرية الرأى وقوة القلب وشجاعة النفس ، فى مجاهرته أهل الأندلس بمذهب غير مذهب الإمام مالك ، الذى ينتهجه أهل البلاد عامة ، حتى بلغ من تعصبهم له ، أن كادوا — فى بعض الأحيان — يكفرون من لم يكن ينتقلده . وابن حزم لا يكفيه أن يدين بذلك المذهب ، بل هو يجاهر باعتناقه ، ويضع الكتب فى بسطه وينافح عنه ، ويجادل العلماء عنه بالصراحة والصرامة ، التى عرفتها له من أنه كان يصك معارضه صك الجندل وينشقه الخردل ، ثم إنك ترى له فى الجدل باعاً واسعاً وسَبْحاً طويلا ، فهو يجادل اليهود والنصارى فى كتابيهم ، ويبين تناقضهم فيما بين أيديهم من ذلك . قالوا ، وهذا معنى لم يسبق إليه . ونقول ، وهذا دليل على مبلغ تلك الصفات التى أثبتناها للرجل فى حديثنا هذا .

ثبت كتبه : سنستوعب لك كل ما أثبته المترجمون له قديماً وحديثاً من كتب ، وقد يعتبر بعض الناس ذلك عبثاً ، مادامت هذه الكتب قد ضاع أغلبها وعفّت الأيام على آثارها ، ولكن فى هذا الذكر عبرة للمعتبر ، ليقدر قدر هؤلاء العلماء ، ويقيس

بجهدهم جهده، و ببلائهم بلاءه ، كما أن فى ذلك أيضاً حثًّا للمنقبين، أن يجدّوا فى البحث، حين يعلمون أن هذه الذخائر لابد أن يفلت بعضها من يد الأيام ، فهى تنتظر اليد التى تنفض عنها ترابها ، وتنشرها بين طلابها . وفى كثير من الأحيان تفيدنا هذه الأثبات التى نسجلها للعلماء ، فنرد بمراجعتها كل بضاعة إلى أهلها ، ونرجع كل حق إلى صاحبه، فقد علمتنا الأيام ، أن للكتب لصوصاً يدّعونها لأنفسهم ، ليحوزوا فخرها ، كما علمنا أن نساخًا يخلطون ، فيجعلون الكتب لملاكها لا لمؤلفيها ، فكل هذا تكشف عنه هذه الأثبات ، التى يحتفل المؤرخون بتحقيق نسبتها إلى أصحابها .

لأبى محمد بن حزم كتب كثيرة ، فقد كان ـ كما ذكروا عنه ـ لايفتر عن التأليف فى سفر ولا حضر ، قال الإمام أبو محمد بن العربى : صحبت الشيخ الإمام ابن حزم سبعة أعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته حاشا المجلد الأخير من كتاب الفِصَل ، وهو يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذى قرأنا منه ، فيكون الفائت نحو السدس ، وقرأنا من كتاب الإيصال أربع مجلدات ، وكان كتاب الإيصال عند الإمام ابن حزم فى أربعة وعشرين مجلداً بخط يده ، وكان فى غاية الإدماج . قال ابن العربى : وربما كان للإمام ابن حزم، شىء من تآليفه ألفه فى غير بلده، فى المدة التى تجوّل فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه .

قال ياقوت الرومى فى الحديث عن كتبه : من أشهرها فى علم الجدل كتابه المسمى الفِصَل بين أهل الآراء والنحل ـ كتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين ـ الرد على من قال بالتقليد ـ كتاب شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله ـ كتاب الجامع فى صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها ، واجتلاب أكمل ألفاظها ، وأصح معانيها ـ كتاب التلخيص والتخليص فى المسائل النظرية ، وفروعها التى لا نص عليها فى الكتاب والحديث ـ كتاب منتقى الإجماع ، وبيانه من جملة مالايعرف فيه اختلاف ـ كتاب الإمامة والسياسة فى قسم سير الخلفاء ومراتبها والواجب منها ـ كتاب أخلاق النفس ـ كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال

كتاب كشف الاقتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس . . . إلى تآليف غيرها ورسائل فى معان شتى كثير عددها .

ويقول عنه ابن خلكان : وألف فى فقه الحديث كتاباً سماه « الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام فى الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع » . أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، رضى الله عنهم أجمعين، فى مسائل الفقه ، والحجة لكل طائفة وعليها ، وهو كتاب كبير ـ وله كتاب الإحكام لأصول الأحكام فى غاية التقصى ، و إيراد الحجج ـ كتاب الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل ـ كتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ـ كتاب فى مراتب العلوم ، وكيفية طلبها ، وتعلق بعضها ببعض ـ كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، و بيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل ، وهذا معنى لم يسبق إليه ـ كتاب التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية ، والأمثلة الفقهية ، فإنه سلك فى بيانه ، و إزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب المخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله ـ وله كتاب صغير سماه « نقط العروس » جمع كل غريبة ونادرة ، وهو مفيد جدا .

ويلاحظ أن العنوان الذى ذكره ياقوت لكتاب الإيصال خطأ ، وصوابه ما ذكره ابن خلكان لما تعلم من مقدار تحرّيه للحقيقة ، ولأنه ذكر العنوان كاملا ، كذلك يلاحظ مثل هذا فى عنوان كتاب الفصل ، كما يلاحظ أن ابن خلكان رأى هذه الكتب، لأنه أتبع كلا منها بالحكم عليه ، وذلك مالم يفعله ياقوت ولا غيره غالباً .

وقد كشف لابن حزم أخيراً كتاب فى الحب اسمه : « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » ، وكان الفضل فى إظهاره للمستشرقين ، وقد طبع فى ليدن بعناية الأستاذ بتروف ، وكان لظهوره ضجة دهشة لغرابة الموضوع أولا ، ولصدوره عن هذا العالم الدينى ثانياً ، ويعدون الكتاب أسبق التآليف فى فن الحب فى جميع اللغات ، فإن أوربا التى عرفت بالعناية بهذا الفن، لم تكن فى القرن العاشر للميلاد (أيام ابن حزم) كثيرة المعارف فى الفنون بله الوجدانى منها كالحب .

وقبل الانتقال إلى بحث آخر فى حياة الرجل، نذكر أن تآليفه التى بلغت أربعمائة فى عد ابنه أبى رافع الفضل ، لم يبق منها فى أيدينا إلا الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وهو مطبوع يحمل فيه المؤلف على أهل السنة ، ويفرط فى التعصب على أبى الحسن الأشعرى ، حتى صرح بنسبته إلى البدعة ، وكذلك كتاب « مداواة التقوى فى تهذيب الأخلاق ، والزهد فى الرذائل » وهو مطبوع أيضاً ، والناسخ والمنسوخ (مطبوع) والإحكام لأصول الأحكام وهو مخطوط ، والمحلى (مخطوط) وطوق الحمامة ، وقد كشف أخيراً بهمة المستشرقين فطبعوه .

ابن حزم بعد الوزارة ، قالوا: إنه أقام فى الوزارة من لدن بلوغه إلى أن صارت سنه ستا وعشرين سنة ، وهذا عندنا عجيب ، كيف يوكل تدبير الملك أو يعوّل فى الاستشارة فى أمور الرعية، على حدث مراهق أو فتى لم يجرب الأمور! ولكن هكذا قالوا، وقد يفسر هذا القول، ما لعل التاريخ يكشف من نظام الأمور بالأندلس فى الأيام التى عاش فيها ابن حزم ، والذى يدلنا عليه تتبع أحواله، أنه كان إلى هذه السن قليل العلم، بدليل ما حكى عن نفسه فى جهله بعلم الفقه، الذى هو أهم العلوم عند هؤلاء القوم ، فلعله لم يكن حصل إلى تلك الأيام ، إلا القدر القليل الذى يكفيه فى كتابة الرسائل بين يدى مولاه ، ولعل لسابقة أبيه فى الوزارة يداً فى اختياره لها ، وهو على هذه الحال من فتاء السن والغرارة ، وإن حادث عزوفه عن الوزارة من أجل التفرغ للعلم، لأمر يستوجب النظر ، فإننا لم نعهد شابا فى مثل حداثة ابن حزم يترك أبهة المنصب وعز السلطان ، خصوصاً وهو الموفور النعمة، المتقلب فى أعطافها منذ الصغر ، فما باله يترك كل ذلك إلى العمل المضنى فى التحصيل والتأليف حتى تبلغ علومه ، وكتبه ما بلغت !!

صار ابن حزم بعد ترك الوزارة، مثلا من الأمثلة التى يضربها التاريخ فى حياة العلم وشدّة النهَم فى تحصيله ، كما هو مثل أيضاً فى تعرّض أصحاب الآراء الحرّة لتحريض العلماء، ولإهانة العامة واضطهاد الرؤساء، فهذا الوزير ابن الوزير حضير الوزير، صاحب النعمة الموروثة ، والغنى الكثير، يناله من شرّ هؤلاء جميعاً ما يقضّ مضجعه، فيشرده

فى البلاد ، وكلما حلّ بواحدة منها نمّ عليه فضله ، وحرّض عليه الناس مجاهرته برأيه ، وجداله عن مذهبه ، فينفى منها فيصير إلى غيرها ، فينتهى إلى ما انتهى إليه حاله فى الأولى ، حتى انتهى به الحال إلى قبوعه فى قريته مَنْتَ لِيشَم فى أقصى بلاد الأندلس غربا ، واستمرّ فى جهاده العلمى مؤلفا ومدرسا ، وجعل صغار الطلاب ينتابونه ، فيحدثهم ويفقههم ، ويكتب لهم الكتب ، حتى تمت مؤلفاته أربعمائة أو تزيد ، ولكنها لم تَعْدُ عتبة باديته لتزهيد الفقهاء طلابَ العلم فيها حتى لقد أحرق بعضها فى إشبيلية ، ومزّقت علانية فى غيرها ، ولا يزيد ذلك صاحبها إلا بصيرة فى نشرها ، وجدالا للمعاند فيها .

ولم يكن له من عيب فى نظر الناس ، إلا بعده من المداجاة والمواراة والمداهنة ، ولو لم يكن كذلك لادخر رأيه ، وكتم مالا يُؤلف من قوله ، وظهر للناس بما يحبون ، كما كان كثير غيره من دهاة العلم فى تلك البلاد ، يحصلون سرّا ما أحبوا من فلسفة وإلٰهيات وغيرها ، ثم هم أمام الناس يتجاهلون ما علموا ، ويطوون صدورهم على ما اعتقدوا . ولذلك ترى المنصفين ممن حكموا على ابن حزم يقولون ، إن أكبر عيبه جهله سياسة العلم ، التى هى أعوص من إتقانه !! فسياسة العلم عندهم هي الظهور بخلاف المعتقد ، والاعتماد على مداراة الناس فى القول والعمل ، ولكن هيهات أن يخضع لهذا الأسر الفكرى رجل كابن حزم مشبوب الهمة ، واسع مدى الحرّية . ولا يدلك على استهانته بالناس ، وعدم إصغائه إلا إلى داعى نفسه وصوت ضميره ، مثل تشيعه لأمراء بنى أمية ، ماضيهم وحاضرهم بالشرق والأندلس ، واعتقاده لصحة إمامتهم ، وانحرافه عن سواهم من قريش ، مع أن الزمن زمن طوائف لم تقم دعوتهم إلا على خلاف هذا الرأى . فكأن ابن حزم لم يكن يقصر حرّية رأيه على العلم ، بل كان يتعدى بها إلى السياسة ، وذلك غاية ما يكون من اندفاع الرجل وراء الصراحة ، ولو أن حياته انتهت بالقتل وإحراق جثته ، كما فعل بغيره ما كان ذلك بدعا فى أهل الأندلس .

أدب ابن حزم : لعلك غير ناس من شأن الأندلسيين أن أحدهم يكون أديباً قبل أن يكون عالماً ، فإن الأدب كان طبعهم الثانى ، حببه إلى نفوسهم عربيتهم ، وجمال

بلادهم ، ورقة هوائهم ، وما يكذب من يقول « إن جميع أهل الأندلس من العرب كانوا أدباء » قال الشعرَ عوامهم كما قاله خواصهم، وتجارهم كما قاله نسّاكهم ، ومن لم يقله فهمه ، وأغرم بسماعه فى تلحين المغنين ونشيد المنشدين . فابن حزم كان على جارى عادة بلاده أديباً ، وزاده بسطة فى الأدب نصيبه من الثقافة وحسن التنشئة . لذلك ترى له — وإن كان فقيهاً — شعراً ، فيه المطبوع الذى لا ظلّ فيه للثقل الملحوظ فى شعر الفقهاء والفلاسفة أمثاله ، كما ترى فيه بعضاً له شبح شعر الفقهاء من التحديد فى المعنى واللفظ وصيغ الشرط والجزاء ، وإيراد الاعتراض والتصدّى للردّ عليه ، ولكنه مع ذلك برىء من كثير من سخف هذه الأشعار ، ولو كان نصيب الثقل فى الشعر على قدر نصيب صاحبه من الإمعان فى العلم والفلسفة ، لوجب أن يستغلق شعر ابن حزم حتى لا يكاد يفهم ، ولا يكاد يتحرّك به لسان ، ولكنه كان فى جملته شعراً جميلا ، رقيق اللفظ ، بديع الخيال ، تغزل فيه فأتى برقة المطبوعين ، وشكا وبكى ، فكان من خير من عرفوا بالشكاية والبكاء ، أليس هو الذى يقول فى الفراق :

أَقَمْنَا سَاعَةً ثمّ ارْتَحَلْنَا ... وَمَا يُغْنِى المَشُوقَ وُقُوفُ ساعَه
كأَنّ الشَّمْلَ لم يَكُ ذا اجتماعٍ ... إذا ما شَتَّتَ البَيْنُ اجتماعَهْ

أليس هو الذى يقول خالطاً الغزل بمذهبه الفقهى :

وذى عَذَلٍ فيمن سبانِىَ حُسْنُهُ ... يُطِيلُ مَلاَمِى فى الهوى وَيقُولُ
أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاَحَ لَمْ تَرَ غَيْرَهُ ... وَلَمْ تَدْرِ كيف الجِسْمُ أنتَ قتيلُ
فقلت له أَسْرَفْتَ فى اللَّوْمِ فاتَّئِدْ ... فعندىَ رَدٌّ لوتشاء طَوِيلُ
ألم تر أَنِّى ظاهرىٌّ وأَنَّنِى ... عَلَى مَا بَدَا حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

أو ليس هو الذى يقول فى صروف الدهر :

هَلِ الدَّهْرُ إلاَ مَا عَرَفْنَا وَأَدْرَكْنَا ... فجائعُهُ تَبْقَى وَلَذَّاتُه تَفْنَى
إِذَا أَمْكَنَتْ مِنْهُ مَسَرَّةُ ساعَةٍ ... تَوَلَّتْ كَمَرِّ الطَّرْفِ واستخلفتْ حُزْنَا

إلى تبعاتٍ فى المَعادِ وَمَوْقِفٍ ... نَوَدُّ لديْهِ أننا لمْ نَكُنْ كُنَّا
حَصَلْنَا عَلَى هَمٍّ وإثمٍ وَحَسْرَةٍ ... وَفَاتَ الَّذى كُنَّا نَلَذُّ بِهِ عَنَّا
حَنِينٌ لِمَا وَلَّى وَشُغْلٌ بما أَتَى ... وَغَمٌّ لما يُرْجَى بِعَيْشِكَ لاَتَهْنَا
كأَنَّ الذى كُنَّا نُسَرُّ بِكَوْنِهِ ... إِذَا حَقَّقَتْهُ النَّفْسُ لَفْظٌ بلاَ مَعْنَى

ومن شعره يصف ما أُحرق من كتبه :

وإنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لا تَحْرِقُوا الذى ... تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بل هو فى صَدْرِى
يَسِيرُ معى حيث استقَلَّتْ رَكَائِبِى ... وَيَنزِلُ إن أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فى قَبْرِى
دَعُونِىَ من إحْرَاقِ رَقٍّ وكاغِدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَىْ يَرَى الناسُ مَنْ يدْرِى
وإلاَّ فَعُودُوا فى المكاتب بَدْءَةً ... فَكَمْ دُونَ مَا تبغُون لِلّهِ مِنْ سِتْرِ

وله يخاطب قاضى القضاة بقرطبة ، عبد الرحمن بن بَشِير ، يفخر فيها بالعلم ، ويذكر أصناف ما تعلّم :

أنَا الشمسُ فى جَوِّ السماءِ مُنِيرَةً ... وَلَكِنَّ عَيْبِى أَنَّ مَطْلَعِىَ الْغَرْبُ
وَلَوْ أَنَّنِى مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ ... لَجَدَّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِىَ النَّهْبُ
فَوَاعَجبًا ! من غابَ عَنْهُمْ تَشَوَّقُوا ... له وَدُنُوُّ المرءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ
وإنَّ مكاناً ضاق عَنِّى لَضَيِّقٌ ... عَلَى أَنَّهُ فِيحٌ مَذَاهِبُهُ سُهْبُ
وإنَّ رجالا ضيَّعونى لضُيَّعٌ ... وإنَّ زماناً لم أَنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ
ولكنَّ لى فى يُوسُفٍ خيرَ أُسْوَةٍ ... وَلَيْسَ عَلَى مَنْ بالنَّبِيِّ ائْتَسى عَيْبُ
يقول مقَالُ الحقِّ والصدقِ إِنَّنِى ... حَفِيظٌ عليم ما على صادقٍ عَتْبُ

ولقد يدلك على أدبه أيضاً، ماتراه بين كتبه ، وإن غلب عليها الفقه والفلسفة، من أنه ألف كتاباً سماه « نقط العروس » جمع فيه كما يقول ابن خلكان « كل غريبة ونادرة وهو مفيد جدا » وألف كتاب « طوق الحمامة » الذى سيبين لك — مما

نرويه منه ـ صراحةُ الأديب ، وصدقُ لهجته ، ومقدارُ فهمه لأسرار الجمال ، كما يبين فيه ، ما فرقه من شعره الدال على لوعته . وإذا كانت الصداقة رابطة تلتقى عندها الأهواء ، فإننا نفهم مقدار أدبه مما كان بينه وبين أبى عامر بن شُهَيد من مكاتبات ومداعبات ، وابن شُهَيد هو من هو أدبا ، بل إغراقاً فيه وإغرابا .

كتاب طوق الحمامة

أبواب هذا الكتاب ثلاثون وهى :

(١) الكلام فى ماهية الحب . (٢) باب علامات الحب . (٣) باب من أحبّ فى النوم . (٤) باب من أحب بالوصف . (٥) باب من أحب من نظرة واحدة . (٦) باب من لا يحب إلا مع المطاولة . (٧) باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها . (٨) باب التعريض بالقول . (٩) باب الإشارة بالعين . (١٠) باب المراسلة . (١١) باب السفير . (١٢) باب طىّ السر (١٣) باب الإذاعة . (١٤) باب الطاعة . (١٥) باب المخالفة . (١٦) باب العاذل . (١٧) باب المساعد من الإخوان . (١٨) باب الرقيب . (١٩) باب الواشى . (٢٠) باب الوصل . (٢١) باب الهجر . (٢٢) باب الوفاء . (٢٣) باب الغدر . (٢٤) باب البين . (٢٥) باب القنوع . (٢٦) باب الضنى . (٢٧) باب السلوّ . (٢٨) باب الموت (٢٩) باب قبح المعصية . (٣٠) باب فضل التعفف .

فقر مما فى كتاب طوق الحمامة

١ ــ من باب علامات الحب :

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى ، فأوّلها إدمان النظر ، والعين باب النفس الشارعُ ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبرةُ لضمائرها ، والمعربة

عن بواطنها ، فترى الناظر لايطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال ، كالحرباء مع الشمس ، ومن ذلك أقول شعراً ، منه :

فليس لعينِى عند غَيْرِكَ موقفٌ   كأنَّكَ ما يحكون من حَجَرِ البَهْتِ
أُصَرِّفُها حيثُ انصرفتَ وكيف ما   تَقَلَّبْتَ كالمنعوت فى النحو والنعت

ومنها الإقبال بالحديث ، بما لا يكاد يقبل على سوى محبوبه ، ولو تعمد ذلك . وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصاتُ لحديثه إذا حدّث ، واستغراب كل ما يأتى به ، ولو أنه عين المحال وخَرْقُ العادات ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك ، وأى وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمدُ للقعود بقربه ، والدنوّ منه ، واطراحُ الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانةُ بكل خطب جليل داعٍ إلى مفارقته ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه ، وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنك لم أمْشِ إلاَّ   مَشْىَ عانٍ يُقادُ نحوَ الفَنَاءِ
فى مَجِيئِى إليك أحْتَثُّ كالبَدْ   رِ إذا كان قاطعاً للسَّماء
وقيامى إن قمت كالأنجم العا   لية الثابتات فى الإبطاء

ومنها بَهْتٌ يقع ، وروعةٌ تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأةً ، وطلوعِهِ بَغْتَةً .
ومنها اضطرابٌ يبدو على المحب، عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة ، وفى ذلك أقول :

إذا ما رأتْ عَيْنَاىَ لابِسَ حُمْرَةٍ   تَقَطَّعَ قَلْبِى حسرةً وتَفَطَّرَا
غَدَا لدماءِ الناسِ باللحظ سافكاً   وضَرَّجَ منها ثوبه فتَعَصْفَرَا

ثم يقول بعد كلام طويل فى نفس الباب :

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ، ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات الحب ، ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هائل

الشؤون، تجيبه عينه، وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جَمودُ العين، عديم الدمع، وأنا منهم!

ثم قال :

ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره ، حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتَتَبُّعُهُ لحركاته . ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا ، والعاقل فطناً .

٢ — ويقول فى باب الإشارة بالعين :

ثم يتلو التعريض بالقول — إذا وقع القبول والموافقة — الإشارةُ بلحظ العين ، وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويقطع به ويتواصل ، ويوعد ويهدد ، وينتهر ويبسط ، ويؤمر وينهى ، وتضرب به الأوعاد ، وينبه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى . ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ ، لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ، ولا وصفه ، إلا الأقلَّ منه ، وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى : فالإشارة بمُؤْخِرِ العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليلٌ على التوجع والأسف ، وكسرُ نظرها آية الفرح ، والإشارة إلى إطباقها دليلٌ على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ثم صرفها بسرعة تنبيهٌ على مشار إليه ، والإشارة الخفية بمُؤْخِرِ العينين كلتيهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المأْق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين فى وسط العينين نهى عام ، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

٣ — ومن رأيه أن المحبة لا تثبت إلا بعد دوام المشاهدة ، وتمادى الأنس ، وأن الحب بالنظرة الأولى ضرب من الشهوة ، قال فى ذلك :

«وإنى لأطيل العجب ، من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدّقه ، ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة ، وما لصق بأحشائى حب قطّ إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ،

وكذلك أنا فى السلو والتوْق ، فما نسيتِ لى ودّا قط ، وإنّ حنينى إلى كل عهد تقدم لى ، ليَغِصُّنى بالماء ، ويُشْرِقنى بالطعام ، ولا رغِبْتُ الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الألّاف والإخوان وحدهم ، ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطراق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجا يعتادنى ، وولوع همّ ما ينفك يطرقنى ، ولقد نَغَّصَ تذكُّرى ما مضى كلَّ عيش أستأنفه ، وإنى لقتيلُ الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال ، لا إله إلا هو !!

٤ — يرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب بل يزيد شعلته ، وذلك حيث يقول :

« إنى ما رويت من ماء الوصل ، ولا زادنى إلا ظمأ ، وهذا حكم من يتداوى بدائه ، وإن رُفِّه عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أُحِبُّ أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتنى إلا متزيدا ، ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ، ولا رهقتنى فترة ، ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنت أحب ، فلم أُجِل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً من مرادى ، وغير شافٍ وجدى ، ولا قاضٍ لُبانة من لُباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنوّاً ازددت تلذذا ، وقدحتْ زنادُ الشوق نارَ الوجد بين ضلوعى . وما فى الدنيا حالةٌ تَعْدِل محبَّين ، إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العُذَّال ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافئا فى المحبة ، وأتاح الله لهما رزقاً دارًّا ، وعَيْشاً قارّا ، وزمانا هادئاً ، وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال » .

٥ — ويتكلم عن رسائل الحب ، فيقول :

« وللكتب آيات ، ولقد رأيت أهل هذا الشأن ، يبادرون بقطع الكتب وحلها فى الماء ، وبمحو آثارها ، فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . » وقال أيضاً :

« وينبغي أن يكون شكل الكتاب ، ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس ، ولعمرى إن الكتاب لَلِسان فى بعض الأحايين ، إمّا لحصر فى الإنسان ، أو لحياء ، أو لهيبة . نعم ! حتي إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه ، لَلَذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لردّ الجواب ، والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء ، ولهذا ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه .

٦ — ومن رأيه أن الحسن يختلف فى نظر الناس ، تبعا لموقعه فى قلوبهم بمناسباته التى تمت له ، فهو يذكر أنه يفضّل الشعر الأشقر ، لأن الفتاة التى أحبها لأول عهده بالحب ، كانت شقراء ، وفى ذلك يقول :

« ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون فى تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ، ولا تقصير فى حدْسهم قد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى فى الجمال ، فصارت هِجِّيراهم ، وعُرْضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم ، ثم مضى أولئك إما بسلو أو بَيْن ، أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلها ، على ما هو أفضل منها فى الخلقة ، ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس ، مهجورة عندهم وساقطة لديهم ، إلى أن فارقوا الدنيا ، وانقضت أعمارهم حنينا منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه ، وما أقول إن ذلك كان تصنعاً ، لكن طبعاً حقيقيًّا واختياراً لا دخلة فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طى عَقْدهم بغيره ، وإنى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعض الوَقَص ، فما استحسن أغيد بعد ذلك !! وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر ، فما أحب طويلة بعد هذا !! وأعرف أيضاً من هوى جارية فى فمها فَوَهٌ لطيف ، فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذمّه ويكرهه الكراهية الصميمة !! . . دعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن

نفسه ، وإنى لأجد ذلك فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تواتينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره ألبتة .

٧ — دل ابن حزم على دراسته لأحوال المرأة ـ والمرأة شغل الرجل منذ القديم ـ فقد ذكر أنه شاهد النساء ، ودرس أسرارهن ، لأنه ربى فى حجورهن ، وتعلم الكتابة والقرآن فى سن الطفولة عليهن ، وقال فى شأن وفاء المرأة : إن زوج يحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق كانت تحبه ، فبلغ من أسفها عليه حين مات أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلت ذلك آخر العهد بوصله . وحدث عن عاتكة بنت قَنْد ، وكانت زوج أخيه أبى بكر ، فلما مات ذبلت إلى أن ماتت بعده بعام ، فى اليوم الذى كمل فيه تحت الأرض عاما ، وكانت تقول : ما يقوى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته ، إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا ، فقد أمنت هـذا الذى ما كنت أتخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

واستنبط أيضاً من أخلاق النساء المحافظة على أسرار الحب ، والتواصى بكتمانه ، ورأيه فى ذلك ، أن الرجال مشغولون بغير الحب ، أما النساء فلا يشغلهن إلا الحب ودواعيه ، فهن يحرصن عليه .

ويرى أن الرجل والمرأة معرضان للفساد بقدر واحد ، فما من رجل عرضت له امرأة جميلة إلا وقع فى شركها ما لم يمنع مانع ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا أمكنته ، وإن طال الزمان ، وليس معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعاً معرضون للفساد ، ولكنه يقول « إن المرأة الصالحة هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت ، والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت ، وكذلك الرجل الصالح والفاسق » ، ويقول:

«إن الصالحين من الرجال والنساء، كالنار الكامنة فى الرماد، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك» (والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شىء) .

ويختم ابن حزم رسالته بقوله «ومع هذا يعلم الله، وكفى به عليما، أنى برىء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقى الحُجْزة، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام إنى ما حَلَلْتُ مئزرى على فرج حرام قط، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا، منذ عقلت إلى يومى هذا».

إجمال حالة اللغة العربية

ببـــلاد البربر

أطلق علماء تقويم البلدان كلمة «المغرب» على البلاد الواقعة بين بَرْقة والبحرالأخضر « بحر الظلمات » وهى التى تنقسم ثلاثة أقسام : طَرَابُلُس وتُونِس والجزائر ومَرَّاكُش، وتسمى على الترتيب : المغرب الأدنى والأوسط والأقصى .

ويختلف النسّابون فيمن يرجع إليه نسب هذا الجيل من الناس الذين سكنوا هذه البلاد ، فقال بعضهم : إنهم من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقال آخرون : إنهم يمنيون ، فالمسعودى يذكر أنهم من غسان ، وغيره يقول إنهم من لخم وجذام . وقال الطبرى وغيره إنهم أخلاط من كنعان[1] والعماليق . وقيل إنهم من ولد حام بن نوح . ويقول نسّابو البربر إنهم من مضر ، وأنهم كانوا يسكنون الشام، ويجاورون العرب فى المساكن ، ويشاركونهم فى المياه والمراعى والمسارح ، ويُصهرون إليهم ، ثم رحلوا إلى مواضعهم التى استقرّوا بها أخيراً فى بلاد المغرب . وقد فند ابن خلدون كلّ هذه الأقوال ما عدا الرأى القائل إنهم من ولد حام بن نوح ، قال « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح » .

والبربر قبائل كثيرة ، وشعوب جمة ، منها : هوَّارة ، وزِنَاتَةُ ، وكُتامَة ، ولَوَاتَةُ ، ومَصْمُودة ، وصِنْهاجة[2] . وكون الجمهرة من هذه الشعوب ، من ولد كنعان

---

(١) كنعان بن سام بن نوح عليه السلام. والكنعانيون قوم تكلموا بلغة تشبه اللغة العربية .

(٢) زناتة بالكسر : قبيلة بالمغرب . لواتة كسحابة: قبيلة من البربر، وموضع بالأندلس . صنهاجة : قوم من المغرب من ولد صنهاجة الحميرى . كذا ذكرها القاموس ، ولم يقيدها بالضبط، وإن كان ذكرها بعد قوله عبد صنهاج وصنهاجة (بكسر الصاد فيهما) عريق فى العبودية، ويقول ابن دريد : هى بالضم لاغير ، وفى وفيات الأعيان ، أنها بالضم والكسر .

ابن حام ، لا يمنع أن يكون بعض قبائلهم ، قد ثبتت نسبتها إلى العرب، فإن الراجح عند نسّابي العرب أنفسهم ، أن صنهاجة وكتامة يمنيتان، وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها . ونسابو البربر المعتدلون فى حكمهم ، يزعمون لكثير من قبائلهم نسباً عربيًّا ، فلواتة عندهم من حمير ، وهوّارة من كِندة، وزِناتة من العمالقة ، أو من بقايا التبابعة .

ويرجح ابن خلدون أن ادعاء نسابى البربر كاذب ، قال « والحقّ الذى تشهد به المواطن والعجمة، أنهم بمعزل عن العرب، إلا ماتزعمه نسابة العرب فى صنهاجة ولواتة».

أما سبب تسمية هذه الشعوب بالبربر ، فهو أنّ إفْرِيقِش بن قيس بن صيفيّ من ملوك التبابعة الذى غزا المغرب ، وقتل الملك جِرْجِيس ، وبنى المدن والأمصار ، وباسمه سميت إفريقية ، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها ، تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم !! فسموا البربر ، والبربرة بلسان العرب ، هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد : إذا زأر .

وقد أتعبت هذه الشعوب العرب فى إخضاعها للاسلام ، لما كان لهم من صفات البداوة ، التى جعلتهم أشداء المراس أقوياء الشكيمة ، ولكون أغلبهم كان على دين المجوسية ، وهؤلاء يكونون أشد كفرا ، وأكثر حاجة إلى العناء ، فى إقرار الإيمان فى قلوبهم . وقد ذكر المؤرخون أنهم ارتدوا اثنتى عشرة مرة ، ولم يثبتوا على الإسلام إلا فى أيام موسى بن نصير ، ولكنهم لما اطمأنوا إلى هذا الدين واستقاموا على طريقته شاعت فيهم الخلال الحميدة من عز الجوار ، وحماية النزيل ، ورعى الذمة ، والوفاء ، وإقامة مراسم الشريعة ، ومدارسة القرآن ، والمرابطة ، والجهاد ، وبيع النفس فى سبيل الله . وكان منهم للإسلام نفع كبير، بنشره فى جزر بحر الروم، التى كانوا يغزونها بالسفن، وهم الذين أطالوا أمد العرب بالأندلس ، حين كان ملوك الطوائف يستنصرونهم باسم الدين ، فيلبون الدعوة ، ويشدون أزر الضعيف منهم ، ويرهبون العدو الكافر ،

فيعوقونه عن الضربة التي جمع لها يده، منذ زوال ملك بني أمية بالأندلس، فأخره تدخّل ملوك البربر في أمر الأندلس زهاء خمسة قرون .

ولكثرة شعوب البربر، بهذه البلاد المترامية الأطراف المشتملة على الوهاد والنجاد والأودية والجبال ، لم يستطع العرب أن ينشروا لغتهم في كل البلاد التي حكموها، لأنهم كانوا بين البربر قُلاًّ من كُثْر، وحامية وعمالا يقيمون في الأمصار فحسب، لذلك بقيت لغة البربر أو لغاتهم المتعددة سائدة بينهم يتكلمون بها .

ثم ترجموا إليها القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الفقه ، وكتبوها بالحروف العربية ، إذ لم تكن لغتهم مكتوبة ، قبل اتصالهم بالعرب .

وقد حُكمت بلاد البربر أوّلا، بولاة الدولة الأموية بالشرق، فالعباسية، ثم بدول مستقلة ، إما عربية كدولة الأشراف الأدارسة[(١)] والأغالبة[(٢)] والفواطم[(٣)] ، وإما بربرية كالمرابطين والموحدين .

وكان الأدب والعلم ينتعشان ويخمدان تابعين لحال الدولة الحاكمة ، ففي عهد الولاة الأمويين والعباسيين ، والدول العربية المستقلة ، نفقت سوقهما ، ولقي أهلهما المعونة وحسن المكافأة ، وانتجع ولاتها وملوكها من أهل الأمصار الأخرى ، من طمع في مكافأتهم ، وبعض دول البرابرة شجعت العلم والأدب ، التماساً منها لأسباب الكمال

---

(١) دولة الأدارسة تنسب إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن، الذى بايعه المنصور، ثم نكث بيعته، ففرّ إلى مصر واختفى بها، ثم إلى المغرب، فبويع هناك أيام الرشيد. واستمرت دولته من سنة ١٧٢ — ٣٧٠ هـ ولكن أصحابها لم يسموا أنفسهم خلفاء .

(٢) دولة الأغالبة هى الدولة التى أقامها بتونس وما حولها إبراهيم بن الأغلب وظلت من سنة ١٨٤ — ٢٨٩ هـ وكان الرشيد قد ولى ابراهيم بن الأغلب التميمى بلاد أفريقية، ليكون حاجزا بين الأدارسة بالمغرب وبين الدولة العباسية، فعظم أمره وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخطب للرشيد، واستمر الملك فى أعقابه إلى انتهاء دولتهم .

(٣) الفواطم وهم المسمون بالعبيديين ، والنسبة الأولى إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وزوج على كرم الله وجهه ، وينتهى نسب رجال هذه الدولة اليها على ماحققه ابن خلدون وغيره من المؤرخين ، والنسبة الثانية إلى عبيد الله المهدى ، أول من أقام منهم الدولة بالمغرب ٢٩٦ هـ .

ورقّ البلاد ، فقد اســتقدم المرابطون والموحدون إلى حواضرهم بالمغرب ، كثيراً من الـكتّاب والشعراء الأندلسيين ، ولـكن الحكم العام فى غير العربى ألا يناصر العربية ولا يأبه لهـا .

فمن رحل إلى المغرب من الأندلسيين ، أبو عبد الله محمد بن أبى الخِصَال ، وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون ، وقد تخرج عليهم من أبناء البلاد كثير مثل ابن الميمون وابن محشوَّة . وقد مرّ بك أن ابن هانئ لمـا ضاقت به بلاد الأندلس لم يجد ملجأ إلا بلاد المغرب ، فنزل على الفاطميين بها ، فلاقى منهم الإكرام والحفاوة البالغين .

والأثر الظاهر لاستفادة هذه البلاد من رحلة العلماء والأدباء إليها ، بل أهل الصناعات وأرباب الفنون عامة ، إنما كان حين انقضاء مدة العرب بالأندلس وإجلائهم عنها ، فإنهم انساحوا فى بلاد المغرب ، فـكان لهم عليهم اليد الطولى فى الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى أخملوا أهل البلاد ، وقطعوا أرزاقهم ، وكان لا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى .

على أن ابن خلدون يقول فى هذا الشأن . . . « وألقت الأندلس بأفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة — يريد الملكة العربية — بالجلاء إلى إفريقية ، ولم يلبثوا أن انقرضوا ، وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة، لعسر قبول أهل العدوة لها، وصعوبتها عليهم ، وعوج ألسنتهم ، ورسوخهم فى العجمة البربرية » .

كما أنه قد وردت لبلاد المغرب جالية أخرى قبل ذلك ، هى جماهير كثيرة من هلال بن عامر وسُلَيم بن منصور ، الذين أجلاهم الفواطم فى القرن الخامس لتأديب الصنهاجيين الخارجين عليهم ، فانبثّ هؤلاء فى بلاد المغرب كلها ، ولـكنهم كانوا بدواً جهالاً ، قد فسدت ألسنتهم العربية بإقامتهم قرب الحواضر ، ومخالطتهم للأعاجم ، خصوصاً القرامطة [1] الذين ظاهروهم على الخروج على العباسيين مدّة طويلة ، فلم

(١) ظهر فى أواخر دولة المعتمد العباسى رجل بسواد الـكوفة ، قدم إليها من نواحى خوز ستان =

تكن لرحلتهم إلى المغرب فائدة ، فى بثّ الملكة العربية بين البربر ، لأنهم أميّون فاسدو الملكات العربية ، ثم كانوا لبداوتهم يخربون مانزلوا به من المدن ، ويميلون غالباً إلى سكن البرارى ، فلم تنل العربية منهم خيراً ، ولم يكن من أدبهم الذى نشروه فى البلاد، إلا ذلك الشعر العامىّ الذى يشاكل الشعر الفصيح فى الوزن ، واتحاد القافية ، ويخالفه باللحن والعامية ، وقد يجعلونه مربعات من نوع المسمط ، وهم يسمون شعرهم هذا بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى الراوية المشهور ، وقد وصفه ابن خلدون ، وذكر أمثلة منه ، لا تصلح لنظرنا ، لكونها ملحونة و بعامية غير مفهومة لنا .

ولشدّة العجمة فى لسان البربر ، لم تحسن استفادتهم ممن عاشرهم ، وقام بتعليمهم من الراحلين إليهم من الأندلس وغيرها ، وقد ضرب ابن خلدون المثل بالبربر فى قلة استفادة الأعجمى من اللسان العربى ، إذا كان معرقا فى العجمة قال :

« وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق فى العجمة وأبعد عن لسان مضر، قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية ، وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ ، واعتبر ذلك فى أهل الأمصار ، فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق فى العجمة وأبعد عن اللسان الأول ، كان لهم قصور تام فى تحصيل ملكته بالتعليم » .

ولقد نقل ابن الرقيق(١) أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له « يا أخى ومن لاعدمت فقده قد أعلمنى أبو سعيد كلامًا ، أنك ذكرت أنك تكون مع الذين تأتى ، وعافنى اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين ،

= كان يظهر التقشف والزهد ويسفّ الخوص (يضفره) ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة، ويدعو إلى إمام من أهل البيت فأقام على ذلك، وكان يزداد فى أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ، ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه الناس «قرميتة» لحمرة عينيه ، ومعنى الكلمة بالنبطية أحمر العينين فحمل المريض إلى منزله ، وصار يدعو الناس باسمه ؛ فدخل فى دعوته كثيرون .

(١) ابن الرقيق شاعر من أهل القيروان كان يتكسب بالكتابة فى دواوين الإنشاء ، وله كتب منها «تاريخ إفريقية» مات سنة ٤٠٠ ه .

فقد كذبوا ، هذا باطلا ليس من هذا حرفاً واحداً ، وكتابى إليك ، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله » .

وقد مرّ بك ما كان من أمر يوسف بن تاشفين لما قدم الأندلس لمعونة المعتمد ابن عباد ، وجعل الشعراء ينشدونه أشعارهم ، قال له ابن عباد : أيعلم أمير المسلمين ما يقول هؤلاء ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخير !! وأنه لما عاد يوسف هذا إلى المغرب ، وكتب إليه المعتمد رسالة ورد فيها البيتان :.

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابتلَّتْ جَوانحُنا شَوْقاً إليكم ولا جفَّتْ مَآقِيا
حالَتْ لفقْدِكُمُ أيامنا فغَدَتْ سُوداً وكانت بكم بِيضاً لَيَالِينَا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ : يطلب منا جوارى سوداً و بيضاً ؟ فقال له : لا يامولانا ! ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً ، لأن أيام الحزن سود ، فقال : والله جيد ! . ا كتب له فى جوابه إن دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده !!! ....

⁂

وقد نبغ من أهل المغرب أنفسهم : علماء وكتاب وشعراء ، سامى بعضهم أمثالهم بالأندلس ، ولكنهم قليلون لا يصحّ أن ينسب فضلهم إلى بيئتهم ، و إنما ينسب إلى امتياز ملكاتهم ، بما وهبهم الله من خصائص فى الإدراك ، و إلى ظروف أخرى أحاطت بهم ،فابن خلدون منهم ، وهو هذا العالم العالمى ذو النظريات التى مرّت عليها السنون، وهى باقية تدلّ على غور إدراكه ، و بعد تصوّره وصدق تقديره ، ولكنك لا تجد من نعده نظيره فى فضله ، أو من يقع قريباً منه من أهل هذه البلاد فى جميع أطوارها .

ومن أدباء أهل المغرب ، أبو إسحق ابراهيم التِّلمْسانى الأنصارى، الكاتب الشاعر، الرحالة الذى دخل مصر والشام وغيرهما ، ومات بسبتة سنة ٦٩٠ ﻫ .

ومن شعرائهم ، عبد الجبار بن حَمْدِيس الصِّقِلّى(١) المشهور بوصف المصانع البديعة من قصور وتماثيل وغيرها . وربما كان لرحلة هذا الشاعر إلى الأندلس ، أثر فى شعره يجعله غير خالص للمغرب ، وقد مرّ بك شىء من شعره ، وقد توفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة مَيُورَقَة .

ومنهم ابن شَرَف القَيْرَوانىّ(٢) الكاتب الشاعر المؤلف ، الذى كان قرين ابن رشيق فى خدمة المعزّ بن باديس ومنادمته ، وقد رحل إلى الأندلس بعد موت المعزّ ، وتوفى سنة ٤٦٠ هـ بالمَرِيّة ، ومن شعره ، وكان يشوبه بالبديع وخاصة الجناس :

إِنْ تَدْعُكَ الغُرْبَةُ فى مَعْشَرٍ قَدْ جُبِلَ الطَّبْعُ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ ما دُمْتَ فى دَارِهِمْ وأَرْضِهِمْ ما دُمْتَ فى أَرْضِهِمْ

ومنهم ابن رَشِيق القَيْرَوانىّ ، وهو من موالى الأزد ، كان أبوه روميًّا صائغاً ، فتعلم ابنه الأدب ، وألف فيه كتابه « العمدة » الذى لم يؤلف مثله فى نقد الشعر ، وكان من كتاب المُعزّ بن بَادِيس ، وقد توفى بجزيرة صِقِلِّيّة سنة ٤٥٦ هـ ، ومن شعره :

فى الناس مَنْ لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ إلا إذا مُسَّ بأَضْرَارِ
كالعُودِ لا تَطْمَعُ فى طِيبِهِ إِنْ أَنْتَ لَمْ تَمْسَسْه بالنَّارِ

وقوله :

أُحِبُّ أَخِى وإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ وقَلَّ عَلَى مَسَامِعِهِ كَلَامِى
وَلِى فى وَجْهِهِ تَقْطِيبُ راضٍ كما قَطَّبْتَ فى وجهِ المُدامِ
ورُبَّ تَجَهُّمٍ من غير بُغْضٍ وضِغْنٍ كامنٌ تحت ابتسام

ومنهم ابراهيم بن علىّ الحُصْرِىّ القَيْروانى ، صاحب « زهر الآداب » وغيره المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، ومن شعره قوله :

(١) هو عربى الأصل ، يتصل نسبه بالأزد إحدى قبائل كهلان من عرب اليمن .
(٢) هو عربى من قبيلة جذام اليمنية .

كَتَمْتُ هواكَ حتى عِيلَ صَبْرِى ... وأَدْنَتْنِى مُكاتَمتِى لِرَمْسِى
ولم أَقْدِرْ على إخفاءِ حالٍ ... يَجُولُ بها الأَسَى دُونَ التَّأَسِّى
وحبُّك مالكٌ لَحْظِى ولَفْظِى ... وإظهارِى وإِضمارِى وَحِسِّى
فإِنْ أَنْطِقْ ففيك جميعُ نُطْقى ... وإن أَسْكُتْ ففيكَ حَدِيثُ نفسِى

ومنهم أيضاً ، أبو الحسن بن علىّ بن عبد الغنى الفِهْرِىّ المَقَّرِئُ الضرير القيروانى ، المعروف بالحُصْرِىّ ، ذكر ابن بَسّام فى الذخيرة أنه « بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة » وقد طرأ على الأندلس فى منتصف المائة الخامسة ، وتوفى سنة ٤٤٨ ﻫ بطَنْجة من بلاد المغرب ، وهو رقيق الشعر ، وأشهره داليته ، التى افتتن الشعراء بها وعارضوها فى كلّ زمن ، وهى :

يا ليلُ ! الصبُّ متى غَدُه؟ ... أقيامُ الساعة مَوْعِدُه
رَقَدَ السُّمّارُ فأَرَّقَه ... أسفٌ للبين يُرَدِّدُهُ
فبكاه النَّجْمُ ورَقَّ لهُ ... ممَّا يَرْعَاهُ ويَرْصُدُهُ
كَلِفٌ بغزال ذى هَيَفٍ ... خَوْفُ الواشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عيناىَ لَهُ شَرَكاً ... فى النوم فَعَزَّ تَصَيُّدُهُ
وكَفَى عَجَباً أنى قَنِصٌ ... للسِّرْبِ سَبَانِىَ أَغْيَدُهُ
صَنَمٌ للفتنةِ مُنْتَصِبٌ ... أَهْوَاهُ ولا أَتعَبَّدُهُ

عارضها نجم الدين القمراوى، فقال :

قد ملّ مريضَكَ عُوَّدُه ... ورثى لأسيرك حُسَّدُهُ
لم يُبْقِ جفاكَ سوى نَفَسٍ ... زفراتُ الشوقِ تُصَعِّدُهُ

كما عارضها ناصح الدين الأَرَّجانىّ ، فقال :

هل أنت بطولك مُسْعِدُه ... يا ليلُ فصبحك موعُده

لا كان قصيرَ الليل فتًى　　ميعاد منيته غـــده

ومن معارضة المرحوم ولىّ الدين يكن قوله :

الحسن مكانك معبده　　واللحظ فؤادى مَغْمده

يا سيدتى هـــذا حُرّ　　لم يعرف قبلك سيّده

ومن معارضة المرحوم أحمد شوقى بك :

مضناك جفاه مرقـــده　　و بكاه ورحّم عُــوّده

حيران القلب معذبه　　مقروح الجفن مسهده

أودى حرَقاً إلا رمقاً　　يُبْقيه عليك وتُنْفِدُه

صاحٍ والخمرُ جَنَى فَمِهِ　　سكرانُ اللّحْظ مُعَرْبِدُهُ

يَنْضُو من مُقْلَتِهِ سَيْفاً　　وكأنّ نُعــاساً يُغْمِدُهُ

فيُريقُ دَمَ العُشّاقِ به　　والوَيلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ

كلاّ! لاذنب لمن قتلَتْ　　عَيْناهُ ولَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

يامن جَحَدَتْ عيناه دمى　　وعلى خــدّيْه تَوَرُّدُهُ

خدّاكَ قد اعترفا بِدَمِى　　فعلام جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ

إنّى لأُعِيذُكَ من قَتْلِى　　وأظنّكَ لا تَتَعَمَّدُهُ

باللهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرًى　　فلَعَلّ خيالَك يُسْعِدُهُ

ماضَرّكَ لوداوَيْتَ ضَنَى　　صَبٍّ يُدْنِيكَ وتُبْعِدُهُ

لم يُبْقِ هواكَ له رَمَقاً　　فَلْيَبْكِ عَلَيْهِ عُوّدُهُ

وغداً يقضى أو بعْدَ غَدٍ　　هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ

⁂

يأهْلَ الشَّوْقِ لنا شَرَقٌ　　بالدَّمْــعِ يَفِيضُ مُوَرّدُهُ

يَهْوَى المُشْــتَاقُ لِقَاءَكُمُ   وصُرُوفُ الدَّهْــرِ تُبَعِّدُهُ
ما أَحْلَى الْوَصْلَ وأَعْــذَبَهُ   لَوْلَا الأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بالبَيْنِ وبِالْهِجْرَانِ فيَا   لِفُؤَادِي كَيْفَ تَجَــلُّدُهُ

وقد أثبتناها كلها لشهرتها ورقتها ، ولمعارضتها من الشعراء فى عصور كثيرة .

⁂

والذى يجب أن نلحظه فى أمر هؤلاء النابغين المغاربة الذين ذكرناهم ، أنك تجدهم لا يرجعون فى نسبهم إلى البربر أهل البلاد ، بل منهم من هو عربىّ ، أو رومىّ ، وأغلبهم تقلبت به الأحوال ، فعاش فى غير بلاده ، فكان لذلك ـ بلا شكّ ـ تأثير فى نبوغه .

وهــذا ما يؤيد ما قاله ابن خلدون ، من أن البربرى نسباً ولغة ، غير قابل للسان المضرى ، ولا مستعدّ لتمام ملكته فيه .

انقضاء العصر العباسى

قد تقرّر عند دارسى الآداب ، أن اللغة والعلم ظلاّن تابعان للأطوار السياسية ، التى تمرّ بالأمة ، وعلى قدر ما يكون الطور السياسى شديداً بالغ الأثر فى حال الأمة ، قد غير من نوع حكمها ، ومحا وجدّد من نظام اجتماعها ، وأوهن أو قوّى من عزمها ، يكون مظهر اللغة وآدابها وعلومها ، ومقدار بينونته عما قبله من عصر كان له شأنه فى السياسة والاجتماع .

ونحن فى حديثنا عن انقضاء العصر العباسى ، أمام حادث فظيع ، وكارثة كبرى لم يعلم التاريخ لها نظيراً فى شناعتها ، وسرعة اكتساحها مدنية ، كانت موطدة الدعائم منشورة الألوية ، مبسوطة الرقعة من الصين إلى بحر الروم . ذلك الحادث المشئوم ، هو خروج هؤلاء البدو القساة ، الغلاظ الأكباد ، الذين لم يهذّبهم دين ، ولا راضهم أدب ، أولئك هم المُغْل من أمة التتر، الذين كانوا يقيمون حول بحيرة بِيقال فى جنوبى سيبريا ، وكانوا قبل تفكيرهم فى الإغارة على الممالك الإسلامية ، يعيشون على الغارة والصيد .

وكان بأسهم بينهم فى تلك النواحى القاصية ، لا يصل شرّهم إلى أحد ، حتى كان من رؤسائهم من اشتهر بالبأس ، فأقرّ له قومه بالزعامة ، وسموه جنكيزخان « الملك العام » فخرج بقومه ، وحمل على الصين ، واخترق سورها العظيم ، ولم يصدّه ما كان عند الصينيين من عدد ومخترعات حربية . ثم تقدّم يكتسح الممالك الإسلامية ، ويأتى من الفظائع ما تخوله خشونته وفظاعته ، فلم يمر بمدينة إلا نهب أمتعتها ، وخرّب مبانيها ، وأحرق ما وصلت إليه يده من آثار علمائها ، فكان لا يترك وراءه إلا أطلالا لا تحسن الحديث عن مجد أصحابها ومدنيتهم ونظامهم . وقد وصل هذا الغاشم فى فتوحه

إلى بحر بَنْطَش (البحر الأسود) ثم توفى سنة ٦٢٤ هـ ، وعمره ٧٦ سنة ، وقد تولى المملكة ٢٢ سنة .

وكان من أحفاده هولاكو ، الذى كان من نصيبه فى هذه المملكة الواسعة ، بلاد فارس ، ملكها سنة ٦٥٤ هـ ، ثم أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه ، فقصد بغداد ، مكان الأمل من المسلمين فى جميع أقطار الدنيا ، وموئل عزهم ، الذى يطاولون به و يفاخرون .

زحف على بغداد ، وخدع الخليفة المستعصم وفقهاء المدينة وأماثلها ، حتى حضروا إليه بمعسكره ، فأمر بذبحهم ، ثم هجم على دار الخلافة ، فاستولى على ما بها ، وقتل أهلها ، وسبى أطفالها ، ثم أباح بغداد أربعين يومًا ، كانت كفيلة أن تمحو منها كل فضل تجمع لها فى خمسة قرون ، ظلت فيها عاصمة الإسلام ومثابة العلماء والأدباء ، وكان أفظع جناياته فيها قضاؤه على نتاج العقول ، وعصارة الأذهان ، فى هذا المدى الواسع ، والأمد المتطاول ، وقد كان هذا النتاج عظيما جداً ، لما صحبه — طول مدة الخلافة بهذه المدينة — من الهمة الفائقة والجهود الموفقة فى سبيل العلم ، خدمة للدين وتحقيقاً لرغبة الخلفاء والأمراء .

قضى على كل ذلك بين غمضة عين وانتباهتها ، وأودى بالكتب التى كانت أنفس ذخائر المدينة حرقاً و إغراقا ، حتى لقد اسودّ ماء دجلة من كثرة ما رمى به من الكتب التى تراكمت ، فكانت جسراً يعبر عليه جند هذا المكتسح المبيد(١) .

---

(١) وصف استيلاء هولاكو على بغداد

من كتاب (الخميس فى أحوال أنفس نفيس) ، للديار بكرى حسين بن محمد بن الحسن ، الذى تولى قضاء مكة وتوفى سنة ٩٨٢ هـ ، ما ملخصه :

فى سنة ٦٥٤ هـ خرج مبيد الأمم الطاغية العنيد هولاكو بن تولى بن جنكيز خان المغلى ، فاستولى على الرى وغيرها ، ولم يجترئ على بغداد لكثرة جندها ، وكان ابن العلقمى وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد ، رافضيا يكره العباسيين ، ويحب أن يكون الأمر للعلويين ، فكتب إلى هولاكو أن يحضر إلى بغداد ، وهو يسلمها إليه ، فكتب إليه هولاكو إن جندها كثير ، فإن كنت صادقا فيما تقول وداخلا فى طاعتنا ففرق عساكر بغداد ونحن نحضر إليك ،

وقد امتد طمع هذا الغاشم إلى مابعد بغداد ، فسار نحو الشام ، وكانت فى يد المماليك الذين حكموها بعد الدولة الأيوبية ، وكانت لهم شكيمة وجيوش جرارة ، فردوه عن بلادهم ، فصانها الله من عبثه وجهل قومه .

قنع المُغل بما صار إليهم من البلاد المفتوحة ، فتقسموها بينهم دويلات صغيرة ، لم تلبث أن اضطرب أمرها ، وضعف ملوكها ، ووثب بعضهم على بعض ، أو وثب عليهم الملوك الذين كانوا قد أقصوا عن ملكهم ، فاستردوا ما استطاعوا رده منه .

وقد ظل المُغْل زهاء قرن يتولون أمر المسلمين (٦٥٤ ـ ٧٥٠) وهم على وثنيتهم وجهالتهم ، فلم يستقم لهم أمر ولا اطّرد نظام ، ثم رأوا أنهم مضطرّون إلى الإسلام ، ليستطيعوا حكم شعوبه ، ومحتاجون إلى العلم ، ليحسنوا تدبير ملكهم ، فكان من بعضهم إبقاء على آثار المسلمين ، وحياطة للعلماء ، وإنشاء للمدارس والمساجد ، وكان عملهم هذا تكفيراً عن سيئاتهم التى أتوها ، وهم فى غمرة جهلهم وثورة فتكهم ، ولكن الذى أضاعوه وأبادوه ، كان ثمرة عصورمتطاولة ، وهمم متضافرة ، فلم يكن تلافيهم لجنايتهم إلا إبقاء على الدّماء ، وإمساكا للحَوْباء .

فلما وصل إليه كتابه دخل على المستعصم ، وقال له : إن الجند كثير ، وكلفتهم طائلة ، والعدوّ قد رجع إلى بلاد العجم ، والصواب أن تعطى دستورا لخمسة عشر ألفا وتوفر معلومهم ، فأجابه المستعصم إلى طلبه ، ثم فعل ذلك بعشرين ألفا آخرين ، وكتب إلى هولاكو يعلمه بالأمر فقصد بغداد ، وخرج إليه أهلها فانتصروا عليه وكسروا جنده أقبح كسرة ، فولى هاربا ، ولكن العلقمىّ اتفق مع بعض أعوانه أن يقطعوا جسر دجلة فتفرق الجند وغرقت أمتعتهم ومواشيهم ، وصار السعيد منهم من يجد فرسا ينجو عليه ، فأرسل العلقمىّ إلى هولاكو يعلمه بذلك فأقبل على بغداد ، واستولى عليها بأيسر حال ، وأسر الخليفة وأسرته وأمر أن يجعلوا فى خيمة خارج بغداد ، حتى إذا كان العصر، أمر فوضع الخليفة وابنه فى عدلين ، وما زال الجند يرفسونهما حتى ماتا فى المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، وأغرقت بغداد بعد قتل أكثر أهلها ، وقيل إن من قتل فى هذه الفتنة كان ألف ألف وثمانمائة ألف .

ثم إن هولاكو بعد مدة طلب العلقمىّ ، ووبخه على مافعل بسيده وقال له : إذا كان لاخير لك فيه وقد رأيت نعمته ، فكيف يكون لك خير فى هولاكو ؟ ثم قتله شر قتلة ، فى أوائل سنة ٦٥٧ هـ .

ثم ظهر فيهم فاتك من فتاكهم أعاد سيرتهم ، فخرج فيما وراء النهر ، وظل يغزو ، ويفتح ، ويقتل ، وينهب ، حتى وصل إلى آسية الصغرى [١] ، فاستطاع أن يستولى عليها ، ويأخذها من بايزيد سلطان العثمانيين ويأسره سنة ٨٠٤ ه ، ولم تمتنع عليه الشام ، فاستولى عليها كلها ، ولكن الله صان مصر من فتكه وعدوانه ، فلم يقدم إليها ، واكتفى بما بذله له مماليكها من طاعة ، فتحول لمحاربة الصين ، فمات فى طريقه إليها سنة ٨٠٧ ه .

ذلك هو تَيْمُرْلنك ، ولم يكن تيمرلنك المسلم بأقلّ من هولاكو الوثنى شدةً وقسوة ، فإنه قتل العلماء ، وخرب المدن ، واشتدّ فتكه بالعرب ، حتى يقال : إنه بَنَى من رءوسهم قلاعاً وأهراماً ، ولكنه استصفى بعضاً من العلماء ، خصوصاً من اشتهر منهم بالفلسفة . وتبعه فى خطته من إكرام العلماء ابناه شاه رُخ وأولوغ بك ، فتمكنا من خدمة العلم ، وظهرت فى مدتهما مؤلفات ، ونبغ كثير من العلماء .

وتَيْمُرْلنك هو الذى قصده ابن خَلْدُونَ من مصر ، فى جملة العلماء حين كان يحاصر دمشق ، فأعجب به وسرّحه إلى مصر ، على أن يعود إليه بما ألف من كتب ، ولكنه لم يعد إليه خشية غدره به .

حفظ الله مصر من هذا العدوان ، ووقاها شرّ تلك الأيام ، فلم يصل إليها أحد من المغل ، وصارت الحصن الحصين ، والمعقل الأَشِب ، الذى لجأت إليه الخلافة الإسلامية [٢] ، ومن استطاع الفرار من هذه المحنة فى جميع أطوارها ، من العلماء وأبناء الخلفاء ، فأصبحت موضع آمال المسلمين ، تهوى إليها أفئدتهم ، ويجدون فى مماليكها الشجعان حامياً للدين ، دافعاً عن بيضته ، مكرمًا للعلماء ، مكبراً لشأنهم .

---

(١) هى البلاد الواقعة فى شمال الشام وجنوب بحر بنطش « البحر الأسود » وهى المسماة قديما بلاد الروم .

(٢) فى سنة ٦٠٩ ه وصل إلى القاهرة أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى البغدادى ، فتلقاه الظاهر بيبرس بالعساكر وأنزله بالقلعة ، وعقد له البيعة ولقب بالمستنصر ، وبقى خلفاء العباسيين يتعاقبون بمصر ، إلى أيام الغورى ، حين استولى العثمانيون على مصر .

خلفت القاهرة بغداد فى مظاهرها ، فكانت مستقر الخليفة العباسى وموئل العلماء من كل قطر ، وامتلأت نواحيها بالمدارس ، لأن كل حاكم من المماليك ، كان يعمل على تخليد أثر يذكر به، فعمدوا إلى إقامة المساجد للصلاة، والمدارس لدراسة العلم، والمستشفيات لعلاج المرضى ، فكان عملهم كله خيراً ، وعوض الله على الإسلام مافاته فى كثير من أقطاره ، بما جمعه فى مصر من : خير، ونعمة ، ودين ، وعلم .

وقد اتسقت الأحوال على نحو ماذكرنا بمصر والشام ، وهما أكبر أقطار الإسلام إذ ذاك ، حتى فتح العثمانيون مصر ، ونقلوا الخلافة إلى الأستانة ، فكانت تلك حادثة عظمى أثرت فى تاريخ الأدب والعلوم بما سنشرحه فيما بعد ، وكان من نتائج سقوط بغداد أوّلا فى يد المغُل ، ثم سقوط مصر فى يد الأتراك ثانياً ، أن انقسمت الفترة من سنة ٦٥٦ هـ ، إلى سنه ١٢٢٠ هـ قسمين ، كان أولهما إلى سنة ٩٢٣ هـ ، وهى السنة التى استولى فيها العثمانيون على مصر ، والثانى إلى سنة ١٢٢٠ هـ ، وهى التى استقل فيها محمد على باشا بحكم مصر .

حالة اللغة العربية عامة

فى المدة من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ

كانت جمهرة الدول الإسلامية فى هذا العهد غير عربية ، بل كان يتولى بعضها وثنيون ، وهم المغُل فى الفترة بين ظهورهم وإسلامهم .

وهذه الدول التى كانت تحكم المسلمين ، كانت منها دول مُغْلِيّة يمتدّ سلطانها من حدود الهند شرقاً إلى سورية غربًا ، وإن تخللتها سيادات فارسية وتركية ،

وكانت المماليك البحرية[١] ، ثم البُرْجيّة[٢] تحكم مصر والشام ، مع صورة رسمية للخلافة العباسية لا يجوز معها أن نقول إن البلاد كانت تحت حكم عربىّ .

وقد ساد البربر فيما وراء مصر غرباً إلى المحيط الأخضر ، فلم يكن الحكم العربى الحق إلا فى جهات اليمن ، وفى البلاد القليلة التى بقيت للعرب بالأندلس .

تلك هى حال الأمة الإسلامية فى زهاء ثلاثة قرون ، يتولاها فى غالب أمرها من لا يَمُتّ إليها بنسب ، ولا تجمعه بها لغة ، ولولا أن الإسلام هو دين القوم ، والقرآن قانونه الأكبر ، ومرجع أحكامه ، والقوم مضطرّون فى سبيل قيادة هذه الشعوب أن يجعلوا للقرآن وعلومه المكان الأول ، لولا ذلك لزالت العربية ، ومحيت آثارها ، ولكن الله سبحانه وتعالى قدر للعربية أن تحيا بحياة القرآن على شدّة فعل الأيام فى خضد شوكتها ، حتى لقد كانت لغة التخاطب ولسان الحكومة الرسمىّ فى بعض هذه الممالك ، هى اللغة المغلية ، أو الفارسية ، أو التركية ، ولكن العربية مع ذلك ظلت لغة التأليف والأدب . وتلك عناية الله بلغة قرآنه .

شأن العربية فى مصر والشام

إذا صحّ أن العربية كانت تموت فى أغلب بلاد الإسلام ، فإن حياتها كانت مضمونة مرجوّة الخير فى مصر والشام بعناية المماليك الذين كانت حكومتهم أقوى

---

(١) المماليك البحرية : هم فى الأصل مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، كانوا معه مدة سجنه بالكرك وبقوا معه حتى تخلص سنة ٦٣٧ هـ . فلما ملك مصر أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وأسكنهم معه فى قلعة الروضة ، وسماهم البحرية ، وكانوا على أيامه نحو ألف كلهم أتراك ، وأول من تسلطن منهم هو عز الدين أيبك سنة ٦٤٨ هـ .

(٢) المماليك البرجية أو الشراكة حكموا مصر من سنة ٧٨٤ هـ إلى ٩٢٣ هـ وأولهم السلطان برقوق ومنهم المؤيد والأشرف برسباى وقايتباى وقانصوه الغورى .

وبرقوق أولهم هو الذى خطب باسمه فى بعض بلاد العجم ، وفى الموصل ، وماردين وسنجار وضرب السكة باسمه فى كل هذه البقاع .

وإنما سموا بالبرجية تمييزا لهم من البحرية ولأنهم سكنوا برج قلعة القطم .

حكومة إسلامية فى أيامهم دان لها بالطاعة كثير من قانات العجم وملوك الإفرنجة فى جزائر البحر الرومى وأدى إليها بعض هؤلاء الخراج عن يدٍ وهم صاغرون .

وكان حدب المماليك على العربية وعلومها يرجع إلى أسباب :

منها أنهم نشئوا فى حجرها لأنهم كانوا يجلبون من بلاد لا يعرفون لها تاريخاً يتعصبون له ، ولا أدبًا يسعون فى نشره ، ثم هم يحكمون شعباً مسلماً يتعصب لإسلامه ولغته ، فلا يستطيع حاكم أن يظهر بغير التجلة والإعزاز لهذا الدين وتلك اللغة .

هذا إلى أنهم وقد تمكنوا من هذا السلطان الواسع والملك الكبير أرادوا أن يخلفوا لأنفسهم ذكراً ، ويرفعوا لهم مجداً ، وليس لهم فى آبائهم الأوّلين من يشرفون به ، فأراد كلّ أن يكون شرفه فى آثاره ، ومجده فى مخلفاته ، فتنافسوا أشدّ تنافس ، ورأوا أن خير وسيلة للرفعة هى خدمة الدين وعلومه ، فبنوا المدارس والمساجد ، وجمعوا الكتب ، وحثوا المؤلفين أن يؤلفوا ويوشّوا صدور كتبهم بأسمائهم ، ولذلك ازدحمت القاهرة ، والإسكندرية ، وأسيوط ، وقوص فى مصر ، ودمشق ، وحلب وغيرهما فى الشام بالمدارس ، والمساجد ، وخزائن الكتب .

ومما جعل المماليك يحرصون على إقامة هذه المدارس والمساجد أنهم لم يكونوا يتوارثون الملك غالباً بل كان القوىّ فيهم يغلب ويصير له الأمر ، فحرصوا على تخليد ذكرهم بهذه الأعمال ، كما أنهم جعلوها وسيلة لضمان الرزق لأعقابهم لأنهم كانوا يقفون عليها أوقافاً ، ويجعلون أعقابهم نظاراً عليها ومستحقين فى ريعها .

المـــــدارس

كان بالقاهرة منها :

١ — المدرسة الظاهرية : بناها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ ، ورتّب بها دروساً لفقه الحنفي والشافعي والقراءات ، وجعل لها أوقافاً ، ومكتبة ، و بنى بجوارها مكتبا لتعليم الأيتام ، وكانت بخط بين القصرين .

٢ — المدرسة المنصورية : أنشأها الملك المنصور قلاوون ، و بنى بجانبها بيمارستانا ، وقد هنأه الشعراء بها ، فقال البوصيري :

أنشأت مدرسة ومارستانا   لتصحح الأديان والأبدانا

فأعجب به السلطان ، وأجزل عطاءه ، وهى بشارع النحاسين تجاه المدرسة الكاملية . وكان يقرأ بها الفقه على المذاهب الأربعة : والحديث ، والتفسير ، والطب .

٣ — خانقاه شيخو : بناها سنة ٧٠٧ هـ سيف الدين شيخو العمرى ، وهو من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، وجعلها لقراءة الفقه على المذاهب الأربعة ، وللحديث والقراءات والطب ، وكان يقرأ بها الشفاء لابن سينا ، ومن قول ابن أبى حَجَلة فيها ، وهو من أهل المغرب من تلمسان توفى سنة ٧٧٦ هـ :

ومدرســـــةٍ للعلمِ فيها مَواطنٌ   فشيخو بها فَرْدٌ وَآثَارُهُ جَمْعُ
لَئِنْ بات منها فى القلوب مهابةٌ   فواقفها لَيْثٌ وأشياخها سَبْعُ

وكانت بخط الصليبة تُجاه جامع شيخو .

٤ — المدرسة الناصرية أعدّها الناصر للدراسة سـنة ٧٠٣ هـ ، ورتب فيها دروساً للمذاهب الأربعة ، وهى بشارع النحاسين بجوار المنصورية المعروفة الآن بجامع المارستان ، وكان الذى بدأ فى بنائها الملك العادل ، ثم أتمها الناصر قلاوون حين عاد إليه الملك .

٥ — مدرسة السلطان حسن أنشأها سنة ٧٥٨ هـ ، ومكثت عمارتها ثلاث سنوات ، وكانت نفقة اليوم الواحد لاتقل عن عشرين ألف درهم .

وكان لهذه المدرسة ثلاث منائر ، فسقطت واحدة منها على من تحتها ، وكان منهم نحو ثلثمائة من الأيتام الذين كانوا يتعلمون بمكتب السبيل ، وقد أرجف الناس بشؤم ذلك على الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين السُّبْكيّ :

أَبْشِرْ فسعدُكَ يا سلطانَ مصرَ أَتَى ... بَشِــيرُه بمقالٍ سارَ كالمَثَلِ
إنَّ المَنَارَةَ لم تَسْقُطْ لِمَنْقَصَةٍ ... لـكنْ لسرٍّ خَفِيٍّ قَدْ تَبيَّنَ لى
من تحتها قُرِئَ القرآنُ فاستمعَتْ ... فالوَجْدُ فى الحالِ أدَّاها إلى المَيَلِ
لَوْ أنزلَ اللهُ قرآناً على جبــل ... تصدَّعَتْ رأسُه من شدّة الوَجَلِ
تلك الحجارةُ لم تَنْقَضّ بل هَبَطَتْ ... من خَشْيَةِ اللهِ لا لِلضَّعْفِ والخَلَلِ
وغاب سلطانُها فاستوحَشَتْ فرَمَتْ ... بنفْسِهَا لجَوًى فى القلب مُشْتَعِلِ
لا يَعْتَرِى البؤسُ بَعْدَ اليومِ مَدْرَسَةً ... شَـيَّدْتَ بُنْيانَهَا للعلم والعَمَلِ
ودُمْتَ حتى تَرَى الدُّنيا بها امْتَلأَتْ ... عِلْماً فليسَ بمصرٍ غيرُ مُشْتَغِلِ

٦ — المدرسة الظاهرية ، وتسمى البرقوقية أيضاً ، أنشأها الظاهر سيف الدين بَرْقوق سـنة ٧٨٦ هـ ، واختار لها كبار العلماء ، وكان يجلهم حتى بلغ من تقديره لأحدهم ، وهو الشيخ علاء الدين السِّيرامىّ أن كان يفرش له المُصَلّى (السجادة) بيده ، وكان مدرس الحنفية بهذه المدرسة وشيخ الصوفية بمصر ، وكان بها دروس للفقه الشافعىّ والحنبلى والحديث والتفسير والقراءات ، وهى بخطّ بين القصرين فى شارع النحاسين بين مدرستى الناصرية والكاملية .

٧ — المدرسة المؤيدية أنشأها الملك المؤيد سنة ٨١٩ هـ ، وقد أنفق عليها أربعين ألف دينار ، وقد اتفق أن مالت إحدى مناراتها ، فقال الحافظ ابن حجر فى ذلك معرضاً بالشيخ العينى :

لجامع مولانا المؤيَّد رَوْنَقٌ مَنَارَتُهُ بالحسنِ تَزْهُو وبالزَّيْنِ
تَقُولُ وقد مالَتْ عن القَصْدِ أَمْهِلُوا فليس على جِسْمِي أضرَّ من العَيْنِ

فقال الشيخ العينى رادًّا عليه :

مَنارةٌ كعروس الحُسْنِ إذْ جُلِيَتْ وهَدْمُها بقضاء اللهِ والقَدَرِ
قالوا أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ قلت ذا غَلَطٌ ما أَوْجَبَ الهَدْم إلا خِسَّةُ الحَجَرِ

الأزهر الشريف

ولا تنس الجامع الأزهر الذى أسسه الفاطميون ، وأجروا عليه الجرايات ، وزينوه بكتبهم الكثيرة ، وصار فى أيامهم مصلًّى ، وموضع تلاوة ومدرسة للعلم .

وفى أيام الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقْدَارِىّ من المماليك ، جدّد الأزهر بعد تعطيل مائة سنة من الدراسة وصلاة الجمعة ، إذ كان قاضى القضاة صدرُ الدّين عبد الملك ابن دِرْباس قاضى القضاة على عهد صلاح الدّين الأيوبى ، أفتى بعدم جواز الجمعة إلا فى مسجد واحد بالمدينة ، وأقرّ الجمعة بالجامع الحاكمى لاتساعه ، فبطلت من الأزهر .

ثم لما كانت أيام الظاهر بِيبَرس أفتى العلماء بجواز الجمعة فيه ، فعاد إليه شأنه سنة ٦٦٥ هـ ، ثم جدّد مرّة أخرى بعد الزلزال الذى أصاب مصر سنة ٧٠٣ هـ ، فتصدّع منه الأزهر والجامع الحاكمى وجامع مصر (جامع الصالح) ، فتقاسم الأمراء إعادة هذه المساجد ، فكان الأزهر من نصيب الأمير سَلاَر .

وما زالت أيدى المماليك تتعهد الأزهر بالإصلاح والتوسيع ، حتى كانت سنة ٧٦١ هـ ، فإن الأمير سعد الدّين بشير الجامَدَار(١) استأذن السلطان الملك الناصر

---

(١) فى صبح الأعشى أن كلمة الجمدار أصلها الجامدار فحذفت الألف استثقالا وهى مركبة من كلمتين جاما بمعنى ثوب ودار بمعنى ممسك، فمعنى التركيب متولى إلباس السلطان أو الأمير ثيابه .

محمد بن قلاوون فى عمارته ، فأذن له ، فتتبع سقفه وجدرانه بالإصلاح حتى عادت كأنها جديدة ، ورتب للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كلّ يوم ، ورتّب فيه دروساً لفقهاء الحنفية ، واستمرّ الأمراء وأهل الغنى من أنصار الدّين والعلم فى مصر وغيرها يقفون عليه أوقافاً لمساعدة الفقراء من طلاب العلم فيه ، ولتكون منها رواتب العلماء المدرسين . وحتى كان لهذه الجامعة الكبرى من خيرات هؤلاء الواقفين ما ضمن بقاءها قائمة ساطعة النور عامة الفائدة مثابة للطلاب النازحين من نواحى العالم يعشون إلى ضوء الأزهر ، ويهتدون بهديه ، ثم يعودون إلى بلادهم بعد امتلاء جعابهم ، فيفيضون على قومهم نوراً وحكمة وهدى .

المؤلفات فى هذا العصر

نرى فى هذا العصر نشاطاً فى التأليف ، وإظهاراً لكتبٍ جامعةٍ فى كل علم ، وموسوعات تشمل كثيراً من العلوم ، مع أن ذلك فيما يبدو لأوّل نظرة غير ملائم لما كان للعصر فى ظاهره من انصراف عن الآداب ، وجهل من أغلب الملوك باللغة العربية التى ظهرت فيها هذه الكتب الجليلة .

ولكن الذى يتروى فى البحث ويمعن فى النظر ، يجد أن أسباباً تضافرت على هذا العمل الجليل ، فمنها ما كان من شعور العلماء بالدين الذى فى أعناقهم للغة القرآن ، وذلك شأنهم فى كل عصر يتقرّبون إلى الله بالخدمة الخالصة للعلوم فى شتى مناحيها لأنها جميعاً تتوافى على غاية واحدة ، وهى نصرة الدّين ، وتيسير السبيل لفهم القرآن . وكذلك كان ملوك هذه الأيام قد احتاجوا إلى المآثر يخلدونها والمصانع تبقى بعدهم ليذكروا بها ، وكان كثير منهم يخشى عقاب الآخرة لأن توليه للحكم ربما عرضه لظلم الناس ، فهو يكفر عن ذنوبه ، ويطلب المغفرة من الله بما يبنى من المساجد ، وما يقيم من المدارس ، وما يساعد به نشر العلم .

وسببٌ أعظمُ من كلّ ما ذكرنا وهو إقفار البلاد من الكتب ، بعد ما حلّ بها من نكبات المُغْل وغيرهم ، فحفزهم ذلك إلى التشمير فى جمع المتفرق ، وإحياء الدارس والتعويض عما فات ، ولقد قال السيوطى فى هذا المقام ، وهو من المبرزين فى التأليف فى هذا العصر :

« حكى عن الصاحب بن عباد أن بعض الملوك أرسل إليه يسأله القدوم عليه فقال له فى الجواب : أحتاج إلى ستين جملا أنقل عليها كتب اللغة التى عندى . قال : ولقد ذهب جلّ الكتب فى الفتن الكائنة من التتار وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن فى اللغة من تصانيف المتقدّمين والمتأخرين لاتجىء حمل جمل واحد » ، وفى قول السيوطى مبالغة شديدة فى انعدام الكتب فإن صاحب القاموس المحيط يقول فى خطبة كتابه : « وأنت إذا تأملت صنيعى هـذا وجدته صَرِيح ألفى مصنف من الكتب الفاخرة » واعتقادنا أن صاحب القاموس لا يقلّ فى المبالغة عن السيوطى ، فلا هذه القلة جائزة ، ولا تلك الكثرة معروفة . وخشية أن يتشعب الحديث عن هذه المؤلفات ، ويدخل بعض فى بعضه نفرد لكلّ علم كلاماً يجمع ما ألف من الكتب فى هذا العصر ، معرفين بالكتاب ، وصاحبه ، والناحية التى ظهر بها .

اللغـــة وعلومها

ويشمل ذلك الكلام فى المعاجم وكتب النحو والصرف والبلاغة

المعاجم

١ — لسان العرب : وهو لأبى الفضل محمد بن مُكَرَّم بن علىّ الأفريقى المصرى ، الملقب بجمال الدين ، ولد بأفريقية سنة ٦٣٠ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٧١١ هـ . وكتابه يجمع بين تهذيب الأزهرى[١] ، ومُحْكَم ابن سِيدَه[٢] والصحاح ، وجمهرة[٣] ابن دُرَيْد ، والنهاية[٤] لابن الأثير ، وهو يحتوى على ثمانين ألف مادة ، وقد رتبه صاحبه على أواخر الكلمات كالصحاح[٥] وهو كبير الحجم ،طبع بمصر فى عشرين مجلداً .

---

(١) الأزهرى هو أبو منصور بن الأزهر ، كان فقيها ، وغلبت عليه اللغة . وقع فى أسر قوم من العرب فاستفاد منهم ماجمعه فى مصنفه ومنه نسخة كاملة فى مكاتب أياصوفيا ونور عثمانية وكوبرلى فى الأستانة ، وفى الأحمدية فى حلب ، ومنه جزءان كبيران فى دار الكتب المصرية ينتهيان بمادة ذرا . توفى سنة ٣٧٠ هـ .

(٢) سبقت ترجمة قصيرة لابن سيده فى الكلام على العلوم بالأندلس . أما محكمه فهو المسمى المحكم والمحيط الأعظم ، وهو مرتب على ترتيب كتاب العين ، ومنه نسخة تامة بالمتحف البريطانى ، وبدار الكتب المصرية أجزاء منه منها ماهو مكرر .

(٣) جمهرة ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ : معجم مرتب ترتيب العين، ونظامه أنه يجعل المثلث وحده ثم الرباعى . ثم الخماسى ، وهكذا ويرتب كل طائفة على ترتيب الخليل ، ومنه نسخة ناقصة بدار الكتب المصرية .

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لأبى السعادات مجد الدين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وهو مطبوع فى أربع مجلدات ومرتب ترتيب أساس البلاغة للزمخشرى فيبدأ بالهمزة مع الباء ثم مع التاء وهكذا والكتاب موضوع خدمة لحديث رسول الله واستشهاده به وبكلام الصحابة .

(٥) الصحاح للجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ويمتاز باستيعاب الألفاظ المستعملة . فى ديار مضر وفيه أخطاء ينسبونها إلى أنه وسوس فى آخر حياته ، ولم يكن بيض كتابه فبيضه تلميذه أبو إسحق الوراق وهو مرتب على أواخر الكلمات ، ومطبوع فى مصر، وغيرها وله مختصرات منها مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازىّ من أهل القرن الثامن ، وفيه زيادات من التهذيب ، وتكميل لما أهمله الجوهرى .

وفضيلته شرح ما ورد به من الشواهد من آيات القرآن ، وحديث النبى ، وأشعار المتقدّمين ، وبعض مأثور النثر عن الذين يحتج بقولهم . ولتوسعه فى ذلك الشرح ، وإكثاره من الاستشهاد ، وتعريجه على مسائل فى النحو والصرف ، صار الكتاب روضة أدب ، إلى جانب ضبطه للغة العرب ، وقد قيل فيه :

مَنْهَلٌ عَـــــذْبٌ نَمِيرٌ سائغٌ   يُورِدُ النَّاهِــلَ أَهْنا مَشْرَبِ

وقد أبان مؤلفه عن وصفه ، فقال :

« وإنى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز ، والسنة النبوية ، ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان ، ويخالف فيه اللسان النية ، وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا ، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير العربية ، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغـــير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون » .

٣ — القاموس المحيط : وقيل اسمه (القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ؛ لما ذهب من لغة العرب شماطيط[1]) وهو مختصر لكتاب ألفه صاحبه قبل ذلك ، وسماه : « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » ، يريد بذلك أنه جمع فيه ما تفرّق فى المحكم لابن سيده ، والعباب للصغانى ، ولكن هذا الكتاب قد ضاع .

والقاموس المحيط ، لصاحبه الشيخ مجد الدّين بن محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى وربما رفع نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ولد سنة ٧٢٩ هـ ،

(١) شماطيط : جمع شمطاط وشمطيط وهو الفرقة .

أى بعد موت صاحب اللسان بثمان عشرة سنة . وتوفى سنة ٨١٧ هـ ، وليست فيروزاباد بلده التى ولد بها ، وإنما هى بلد والد جده ، أما هو فمولود بكارزين إحدى بلاد فارس .

وسنطلعك على صفحة من تاريخه إن لم يكن سياقنا فى الحديث عن كتابه يحتمل ذلك . لكننا نريد أن نريك مثالاً لما كان من إكرام الأمراء والملوك فى ذلك العصر للعلماء واحتفالهم بهم .

دخل المترجم زبيد فى سنة ٧٩٦ هـ ، فتلقاه الأشرف إسمعيل سلطان اليمن إذ ذاك ، وبالغ فى إكرامه ، وصرف له ألف دينار ، وأمر صاحب عدن أن يجهزه بمثلها وولاه قضاء اليمن ، كله ، وتزوّج ابنته ، وكانت بارعة الجمال ، وألف له مجد الدّين كتاباً اسمه « الجليس الأنيس ، فى أسماء الخندريس » ، وقدمه إليه فى أطباق فملأها له فضة وذهباً ، وكان لا يدخل بلداً إلا أكرمه متوليها وبالغ فى تعظيمه ، وقد فعل ذلك شاه منصور بن شجاع فى تبريز ، والسلطان بايزيد فى الروم ، وابن إدريس فى بغداد ، وتيمرلنك الذى كان على عتوّه يبالغ فى تعظيمه ، وقد أعطاه عند اجتماعه به مائة ألف درهم ، وقيل خمسة آلاف دينار .

ورام مرّة وهو باليمن التوجه إلى مكة ، فكتب إلى السلطان يستأذنه ، فكتب إليه السلطان : إن هذا شيء لاينطق به لسانى ، ولا يجرى به قلمى ، فبالله عليك إلا ماوهبت لنا هذا العمر ، والله يامجد الدين يميناً بارة ، إنى أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله .

هذا مثال من إكرام الملوك والأمراء للعلماء ، فكيف لا تتبارى الهمم ، وتشحذ العزائم فى سبيل رفعة العلم مادام هذا تقدير ملوك الزمان له .

أما القاموس فيشتمل على ستين ألف مادة[١] فهو يقلّ عن لسان العرب عشرين

---

(١) يلاحظ فارس الشدياق فى كتابه (الجاسوس على القاموس) ملاحظة دقيقة على كون مابالقاموس =

ألفاً ، ولكن إذا روعى صغر حجمه منسوبًا إلى اللسان كان الاختصار وحسن الادماج مفخرة له .

ومما ورد فى مقدمة القاموس من إشارة صاحبه إلى مزاياه وفضيلة اختصاره قوله :
« ومن أحسن ما اختصّ به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء ، وذلك قسم يسم المصنفين بالعِيّ والإعياء ، ومنها أنى لا أذكر ماجاء من جمع فاعل المعتلّ العين على فعلة إلا أن يصح موضع العين فيه كجَوَلة وخَوَلة . وأما ماجاء منه معتلا كباعة ، وسادة فلا أذكره لاطراده ، ومن بديع اختصاره ، وترصيع تَقْصاره ، أنى إذا ذكرت صيغة المذكر أتبعتها المؤنث بقولى وهى بهاء . وإذا ذكرت المصدر مطلقاً أو الماضى بدون الآتى ولا مانع فالفعل على مثال كتب . وإذا ذكرت آتيه فهو على مثال ضرب وكل كلمة عريتها من الضبط فإنها بالفتح إلا ما اشتهر بخلافه اشتهاراً رافعاً للنزاع وما سوى ذلك فأقيده بصريح الكلام ، غير مقتنع بتوشيح القلام . مكتفياً بكتابة ع د ة ج م عن قولى : موضع وبلد وقرية وجمع ومعروف » ومما يحتاج إليه المطلع على القاموس أن يعرف عنه أشياء من اصطلاحه غير ماتقدم .

منها أنه عند تصديه للجموع يقدم المقيس منها على غيره وقد يهمل المقيس اعتماداً على الشهرة وقد يترك غيره تقصيراً أو غفلة . ومنها أنه اختار استعمال « بالتحريك » أو « محركاً » فيما يكون بفتحتين كجبل وفرح وإطلاق الفتح أو الضم أو الكسر على ما يكون أوله كذلك مع سكون ثانيه وهو اصطلاح كثير من اللغويين . ومنها أنه إذا ذكر كلمة ثم قال ويفتح يكون قوله عطفاً على محذوف أى بالكسر . ومنها أنه إذا ذكر التثليث فى الأسماء ، يكون لأوائلها ، وفى الأفعال لأوساطها . ومنها أن

= ستين ألف مادة فيقول : إن أرادوا بالمادة مثل كأب وكبب وكتب وكثب الخ فقدار الستين ألفا كثير لأنى عددت إلى حرف الظاء ، وهو نصف الكتاب فوجدته خمسة آلاف وأربعمائة وإحدى ، وخمسين مادة . ولا شك أن الباقى أقل لأن بعض المواد فيه ملأت صفحتين ، وإن أرادوا بالمادة مثل كتب وما يشتق منها ، وعدوا كل كلمة من ذلك مادة فان ذلك يربى على المليون .

ما يقع بعد كاف التشبيه إنما يرجع للمعنى الذى قبلها فقط ، لا لكلّ ماسبق كقوله : الإرب بالكسر الدهاء كالأربة ويضم ، والنكر والخبث والغائلة والعضو والعقل والدين والفرح والحاجة كالأربة بالضم والكسر والأرب محركة .

ومن مزايا القاموس التى يعرفها المكثرون لمراجعته ووزنه بغير من كتب اللغة ، أنه يعنى بالمعرّب ، فيدلّ على معناه وأصله و يضبطه ، وكذلك يهتمّ بأسماء البلاد والمواضع والجبال والأنهار ، والأعلام لمشهورى الصحابة والشعراء والفقهاء والمحدّثين ، فيذكر المواضع و يبين شهرتها ، و يعرف الأعلام تعريفاً مختصراً مفيداً ، مع حرصه على دقة الضبط لكلّ ذلك .

ولشهرة القاموس ، ترجم إلى التركية والفارسية ، وشرحه كثير من الشراح ، فمن شروحه : « القول المأنوس ، بتحرير ما فى القاموس » لبدر الدّين القرافى ، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية بخطّ المؤلف ، وأشهر شروحه : تاج العروس ، للسيد مرتضى الزّبيدى ، وقد طبع بمصر فى خمسة مجلدات .

وقد تناول الشعراء هذا المعجم بالمدح ، فقال نور الدّين العليفى :

مُذْ مَدَّ مَجْدُ الدينِ فى أيّامِهِ   من بَعْضِ أَبْحُرِ عِلْمِهِ القاموسا
ذهبَتْ صِحاحُ الجوهرىّ كأنها   سِحْرُ المدائنِ حينَ أَلْقَى مُوسَى

وقد ردّ عليه ابن النَّابُلُسى ، فقال :

من قال قد بَطَلَتْ صِحاحُ الجوهرى   لما أتى القاموسُ فهو المفترِى
قلت اسمه القاموسُ فهو البَحْرُ إنْ   يَفْخَرْ فمعظم فخره بالجَوْهرِ

وقد ألف الناس فى نقده ، بعضهم كمل نقصه في كتاب سماه « ابتهاج النفوس ، بذكر مافات القاموس» ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومنهم من خطأه والمطبوع من ذلك « الجاسوس على القاموس » ، للشيخ أحمد فارس الشدياق ، وقد طبع بالأستانة سنة ١٢٩٩ ﻫ .

أما كتب النحو والصرف ، فمنها :

١ — ألفية ابن مالك ، وهو محمد بن عبد الله بن مالك الطائى من مدينة جيان بالأندلس ، ولد سنة ٦٠٠ هـ ، وانتقل إلى الشام صغيراً ، وتعلم بدمشق ، وتصدّر للتعليم بحلب ، وأتقن القراءات ، حتى صار إماماً فيها . وكان من سموّ منزلته ، إذا صلى بالمسجد تبعه قاضى القضاة ابن خلكان إلى منزله ، وقد توفى سنة ٦٧٢ هـ .

والألفية مشهورة عندنا بهذا الاسم ، لأنها مكوّنة من ألف بيت[١] «ظاهراً» ، وإن كانت ألفين على الحقيقة ، لأنها من المشطور ، وقد سماها صاحبها الخلاصة ، ولكن هذه التسمية لم تشتهر ، وقد شرحت جملة شروح ، وترجمت هى و بعض شروحها إلى الفرنسية والألمانية .

وإنما سماها ابن مالك الخلاصة ، لأنه لخصها من أرجوزة له فى النحو والصرف سماها : « الكافية الشافية » تشتمل على ٢٧٠٧ بيت — كما ذكروا — وهى فى نظرنا ضعف هذا العدد ، ومنها نسخة بمكتبة الأكاديمية بفينا ، ولابن مالك أيضاً كتب كثيرة فى النحو واللغة ، منها : لامية الأفعال ، وتسمى أيضاً كتاب المفتاح فى أبنية الأفعال ، ولها شروح كثيرة بمصر وأوروبا[٢] .

٢ — مغنى اللبيب ، عن كتب الأعاريب ، وهو كتاب من جزأين لمؤلفه جمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ ،

---

(١) فى حاشية الصبان على الأشمونى مايأتى : قوله (ألفية) نقل شيخنا السيد أن بعضهم أخبر أنها تنقص عن الألف ستة أبيات . فلينظر فإن جماعة ممن أثق بهم أخبرونى بعد التحرى فى عدها بأنها ألف . اهـ .

(٢) وهناك ألفية أخرى لابن معط المتوفى سنة ٦٢٨ هـ . وابن معط هذا مغربى قرأ النحو بدمشق ومصر ، وتصدر بالجامع العتيق (جامع عمرو) وكان كثير المحفوظ حتى كان من محفوظه صحاح الجوهرى وقد نظمه ولم يتمه ومن شعره (وهو سخيف) فيمن لقب زين الدين :

قالوا تلقب زين الدين فهو له ... نعت جميل به قد زين الأمنا
فقلت لا تعذلوه إن ذا لقب ... وقف على كل نحس والدليل أنا

وكان من كبار علماء العربية ذكره ابن خلدون ، فقال : مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه . وقد اشتهر بالتحقيق ، وسعة الاطلاع ، وكتابه هذا عظيم القدر ، جليل الشأن ، يذكر فى مقدمته الغرض العام الذى حدا به إلى تأليفه بقوله :

« أما بعد حمد الله على إفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، فإن أولى ما تقترحه القرائح ، وأعلى ماتجنح إلى تحصيله الجوانح ، مايتيسر به فهم كتاب الله المنزل ، ويتضح به معنى حديث نبيه المرسل ، فإنهما الوسيلة إلى السعادة الأبدية ، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية ، وأصل ذلك علم الإعراب ، الهادى إلى صوب الصواب .

ثم يقول فى السبب الخاص ، وفيه بيان لمزايا الكتاب فى نظره .

وتتبعت فيه مقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها ، ومعضلات يستشكلها الطلاب فأوضحتها ونقحتها ، وأغلاطا[1] وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبهت عليها وأصلحتها ؛ إذ كان الوضع فى هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله .

ثم ذكر أنه تلافى فى كتابه التكرار فى الإعراب إذا كانت كتب الإعراب قبل كتابه لم توضع لإفادة قوانين كلية ، بل للكلام على صور جزئية . كما أنه خلص

---

(١) ذكر هذه الأغلاط فى الباب السادس من أبواب كتابه الثمانية ، ومن قوله فى ذلك مما وقع فيه المعربون من الأغلاط قولهم : إن لولاتدل على امتناع الشرط ولاالجواب . هذا قول أبى على الشلوبينى وغيره . قال ابن هشام . ودلالتها على الامتناع أمر بديهى فإن من سمع لو فهم عدم الوقوع . ولذا صح فى كل موضع وقعت فيه أن تعقبها بحرف الاستدراك داخلا على مثل شرطها منفياً مثل قوله :

فلو أنّ حمدا يخلد الناس لم تمت ولـكنّ حمد الناس ليس بمخلد

ومن الأغلاط أيضا فى لو قولهم إنها تدل على امتناع الشرط والجواب وهذا يستلزم على رأى النحاة ثبوت عصيان حصل من صهيب وهذا غير مراد .

الكلام فى الإعراب من شوائب لا علاقة لها به ، وتجنب إعراب الواضحات من المسائل واستعاض عن كل ذلك بما يتمرن به الخاطر من إيراد النظائر القرآنية والشواهد الشعرية ، و بعض ما اتفق فى المجالس النحوية .

والحق أن الرجل فى كتابه قد أبدى استقلالا كثيراً عن النحويين فى طريقة تأليفهم كما يفهم ذلك من يراجع الأبواب التى بنى عليها كتابه .

وللمغنى شروح عديدة منها شرح الدمامينى المصرى الإسكندرى المتوفى بالهند سنة ٨٢٨ هـ ، وقد سماه : « تحفة الغريب ، بشرح مغنى اللبيب » ، وهو مخطوط فى ليدن والإسكوريال ، و بدار الكتب المصرية ، ومطبوع على هامش « المنصف » للشُّمُنّى ، والمنصف هذا شرح لتقىّ الدّين أبى العباس الشمنى المتوفى سنة ٨٧٢ هـ .

وللشيخ جلال الدّين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ حاشية وشرح لشواهده وهذا الشرح مطبوع ، وله غير هذه شروح أخرى فى هذا العصر والذى بعده[(١)] .

ولابن هشام غير المغنى كتابه « قطر الندى و بلّ الصدى » ، و « شذور الذهب»

---

(١) التعليقات التى على المغنى .

١ ـ « تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب » للدمامينى وهو مطبوع على هامش « المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام للشمنى» .

٢ ـ حاشية السيوطى ، وهى غير تامة . وصل فيها المؤلف إلى حرف حق ، وهى بخطه فى دار الكتب المصرية .

٣ ـ شرح الشواهد للسيوطى وهو مطبوع على حدة بمصر .

٤ ـ « « لعبد القادر البغدادى نزيل مصر المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

٥ ـ حاشية الشيخ الأمير من علماء الأزهر انتهى منها سنة ١١٨٨ هـ وهى مطبوعة .

٦ ـ « « الدسوقي « « المتوفى « ١٢٣٠ هـ « « .

٧ ـ فتح الصمد ، وهو شرح على السبك العجيب لمعانى مغنى حروف مغنى اللبيب ، والشرح للشيخ على مبارك .

٨ ـ الأرجوزة لمولاى عبد الحفيظ باى مراكش .

٩ ـ القصر المبنى على حواشى المغنى للسيد عبد الهادى نجا الابيارى المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ وهو جزءان ينتهيان بأول الباب الثانى وهو مطبوع .

وهما من الكتب التى تدرس بالأزهر الشريف ، كما أن له كتاب « الإعراب عن قواعد الإعراب » ، وهو مخطوط ببرلين ، وقد ذكر فى مقدمة المغنى أن هذا الكتاب كان نواة له ، فإنه لما ظهر واستحسن الناس طريقته استعان الله فأخرج كتاب المغنى .

علوم البلاغة

راجت ببلاد فارس وما وراءها شرقا ، وتناولها المستعربون بالوضع والتوسع والشرح والتحشية ، فنسبت إليهم إذ كانوا أوّل المشتغلين بها . وسبب ذلك أن بعد الملكة عنهم ، واستغلاق الأساليب فى أفهامهم جعلهم يتلمسون طرق فهمها بشىء غير الذوق والملكة ، فوضعوا هذه القواعد مستنبطة من كلام الفصحاء ، والقرآن الكريم ، وحديث رسول الله ليقيسوا عليها ماورد على غرارها من بقية الكلام ، فهما عند ما يقرءون ، واتباعا للنهج عند ماينشئون ، والواقع أن ذلك غير مغن عن الذوق ، فالذوق يستطيع الاستقلال بالفهم ، وإدراك سرّ البلاغة فى القول ، وهو الحكم الذى رضيت حكومته فى كلّ العصور ، حتى فسدت الملكات هذا الفساد ، فالتمسوا من القواعد والشروط ما فاتهم بفوات الذوق السليم المضبوط ، وهذا هو السرّ فى كون المشرق من العراق إلى أقصاه قد احتضن علوم البلاغة على حين قصرت مصر والشام فى أمرها وجاءت تالية فى العناية بها .

قال الشيخ بهاء الدين السبكى فى شرح تلخيص المفتاح : أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرقّ من النسيم ، وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار إليهم بأصابعه ، فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم

يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأعمار الأعمار ، ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ، ما احتجب من الأسرار ، خلف الستار :

والسَّيْفُ مالم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ من طبْعِهِ لم يَنْتَفِـعْ بصِقَالِ

ثم قال :

« وأما أهل الشرق الذين لهم اليد الطولى فى العلوم لاسيا العلوم العقلية والمنطق فاستوفوا هممهم الشامخة فى تحصيله ، واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم ، وكيف وقد أجلبوا بخيلهم ورجلهم فلذلك عمروا منه كل دارس وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس » .

وقال الشيخ شهاب الدين الحلبي فى كتابه : [حسن التوسل فى صناعة الترسل] فى هذا المعنى .

« وهذه العلوم ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة والفكرة المستقيمة ، والبديهة المجيبة والروية المتصرفة . لكن العالم بها متمكن من أزمة المعانى ، وصناعة الكلام يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب ، فهذا هو السر فى مجىء الكتب فى هذه العلوم مستغلقة العبارة عسرة الفهم تجرى فى تقسيمها وترتيبها على طريقة المنطق ، وتسير على نهج الفلسفة ، وهى أبعد ما يكون عن الذوق العربى والفهم الفطرى .

وقد خلف لنا العصر العباسي كتابى عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ﻫ ، ومفتاح العلوم لأبى يعقوب السكاكى الخوارزمى المتوفى سنة ٦٢٦ ﻫ ، فلما أظل الناس العصر التالى لانقضاء الخلافة من بغداد أقبل الناس على كتاب مفتاح العلوم للسكاكى فتناولوا منه القسم الثالث ، وهو كما قالوا أعظم ما صنف فى البلاغة نفعاً ، فجاء الإمام جلال الدين القزوينى المعروف بخطيب دمشق المتوفى سنة ٧٣٩ ﻫ ، فوضع تلخيص

المفتاح متضمناً ما فيه من القواعد ، ومرتباً ترتيباً أقرب متناولا من ترتيبه ثم صنف كتاباً آخر سماه الإيضاح وجعله كالشرح على كتابه الأول ، فتلقى الناس الكتابين بالقبول ، وهما مطبوعان بمصر .

ثم جاء محمد بن مظفر الخطيبي الخلخالى المتوفى سنة ٧٤٥ ﻫ ، فوضع كتابا سماه : مفتاح تلخيص المفتاح ، ثم جاء العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى المتوفى سنة ٧٩٢ﻫ ، فشرح التلخيص شرحاً عظيما ممزوجاً ، وفرغ من تأليفه بمصر سنة ٧٤٨ ﻫ فسمى هذا الشرح بالمطول ، ثم شرحه شرحاً ثانيا ممزوجا مختصرا من الأول ، زاد فيه ونقص ، واشتهر باسم المختصر ، وهذان الشرحان هما أشهر شروح التلخيص ، وأكثرها تداولا لما فيهما من حسن السبك ، ولطف التعبير ، وهما مطبوعان متداولان .

وعلى المطول حواشٍ كثيرة ، منها حاشية العلامة السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ ﻫ . وحاشية المحقق حسن بن محمد شاه الفنرى المتوفى سنة ٨٨٦ ﻫ ، وهى مشحونة بالفوائد . وحاشية الفاضل أبى القاسم السمرقندى المتوفى سنة ٨٨٨ ﻫ ، وهى فى غاية الدقة والتحقيق . وحاشية السِّيرامىّ المصرى المتوفى سنة ٨٣٣ ﻫ ، وكلها على المطول وغيرها كثير ، وليس مطبوعا من هذه إلا حاشية السيد والفنرى والسمرقندى ، وهى متداولة .

ومن شروح تلخيص المفتاح شرح بهاء الدين أحمد بن عبد الكافى السُّبْكىّ (١) المتوفى سنة ٧٧٣ ﻫ ، وهو المسمى بعروس الأفراح ، وهو شرح ممزوج مبسوط مطبوع متداول ، وشرح ابن عرب شاه (٢) المسمى بالأطول ، وهو كذلك .

وللتلخيص مختصرات كثيرة عرفت كلها باسم تلخيص التلخيص كما أن زين الدين

---

(١) فى بغية الوعاة للسيوطى أن لقبه تقى الدين ، وفى كشف الظنون بهاء الدين ، وكذلك فى صبح الأعشى ، ووفاته سنة ٧٧٣ على مافى الكشف وسنة ٧٠٥ على مافى الطبقات .

(٢) ابن عرب شاه ولد بطرخان ثم رحل الى الشام ثم الى مصر وبها مات سنة ٩٥١ ﻫ .

طاهر بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ نظمه وسماه نظم التلخيص كما نظمه جلال الدين السيوطى وسماه مفتاح التلخيص[1] .

فالعناية التى نالهـا كتاب تلخيص المفتاح لا نعلم أنه قد نالها كتاب آخر غير ألفية ابن مالك .

---

(١) ونحن نجمل هنا كل ماخدم به كتاب المفتاح فنقول :

١ ـ تلخيص المفتاح للقزوينى خطيب دمشق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وهو مطبوع .
٢ ـ الإيضاح » » » » » » » » .
٣ ـ مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، وهو مفقود .
٤ ـ المطول وهو شرح للتلخيص لسعد الدين التفتازانى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ وهو مطبوع .
٥ ـ المختصر » » » » » » » » » .
٦ ـ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى » » » ٧٥٥ هـ » » .
٧ ـ الأطول (شرح التلخيص) لابن عرب شاه » » » ٩٥١ هـ » » .
٨ ـ حاشية السيد على المطول للسيد الشريف » » » ٨١٦ هـ » » .
٩ ـ » الفنرى » » لحسن بن محمد شاه » » ٨٨٦ هـ » » .
١٠ ـ » السمرقندى على المطول لأبى القاسم » » ٨٨٨ هـ » » .
١١ ـ حاشية الدسوقى على المختصر » » .
١٢ ـ حاشية السيرامى وهى مفقودة .
١٣ ـ حاشية ملاخسرو على المطول وهى مخطوطة .
١٤ ـ حاشية الإنبابى وهى مطبوعة .
١٥ ـ حاشية البنانى وهى مطبوعة .
١٦ ـ يس على المختصر وهى مخطوطه .
١٧ ـ حاشية الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦ وهى مطبوعة .
١٨ ـ حاشية عبد الحكيم على المطول » سنة ١٠٦٧ وهى مطبوعة .
١٩ ـ ملخص تلخيص المفتاح للحلبى » سنة ٨٢١ وهو مفقود .
٢٠ ـ نظم مفتاح العلوم للسيوطى » سنة ٩١١ وهو مفقود .
٢١ ـ تلخيص تلخيص المفتاح لشيخ الاسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦هـ وهو مطبوع .

التاريخ

وفى هذا العصر كان للتاريخ مظهر جديد ، فقد اتجهت الأنظار إلى نقده ، بعد أن كانت حوادثه تسرد بلا تعليق ولا ملاحظة ، مهما غلا فيها ناقلها ، أو ادعى ، ولم يكن هم المؤرّخ فيما قبل هذا العصر ، إلا أن يتحرّى فى نقل الروايات التى صارت إليه ، ويجمعها فى سياق ، أمانة منه ، وحرصاً على الحقيقة . وبذلك طالت الكتب لهذا التكرار الذى فى رواياتها . وليس معنى ذلك أن العرب لم يكونوا يعرفون النقد ، بل هم قد عرفوه بأرقى أساليبه ، وأدق مآخذه ، ولكنهم أفرغوا جهدهم كله فى النقد الأدبى ، فارتقى عندهم أعظم ارتقاء ، وبقى التاريخ حتى تسلمه أهل هذا العصر الذى تلا سقوط بغداد ، فكان لهم فيه نظرات صائبة ، تجد منها كثيراً فى كتاب الآداب السلطانية للفخرى ، مثل قوله حين روى بيت أبى نواس فى الرشيد ، وهو :

قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أَمَّنَنِى   من أَنْ أَخافَكَ خَوفُكَ اللهَ

فإنه عقّب على ذلك بقوله « ولم يكن الرشيد يخاف الله ، وفعله بأعيان علىّ ، وهم أولاد بنت نبيه بغير جرم ، يدلّ على عدم خوفه الله تعالى ، ولكن أبا نواس جرى فى ذلك على عادة الشعراء » .

والمذكور فى هذا المقام بالباع الأطول ، والفخر الأكمل ، هو الإمام ابن خلدون ، الذى لم يكتف بالملاحظة العارضة ، والنظرة السريعة ؛ بل إنه صدر تاريخه بمقدمة طويلة أبان فى أوّلها عن مزاعم المؤرخين ، وزيّف أوهامهم ، ونقض دواعيهم بالعقل والواقع ، وأطال فى ذلك إطالة الخبير ، الدارس لحوادث التاريخ ، الناقد لكلّ ماوقع عليه بصره ، كقوله :

« . . . . كما نقل عن المسعودى وكثير من المؤرخين فى جيوش بنى إسرائيل ، وأن موسى عليه السلام أحصاهم فى التيه ، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح من

ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ، ويذهل فى ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش ، ولكلّ مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها ، وتقوم بوظائفها ، وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة، والأحوال المألوفة » .

واستمرّ ينقد هذا القول بما اتسع له علمه وقوة بصيرته .

ولم يكتف ابن خلدون بهذا النقد ! بل إنه عرض حوادث التاريخ ، واستخرج منها أحكامًا عامة جعلها مسائل مقدمته . كقوله « إن الحضارة غاية العمران ، ونهاية عمره ، وإنها مؤذنة بفساده ، وكقوله « إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره ، وزيه ، ونحلته ، وسائر أحواله وعوائده » ، وهكذا من الأمور التى استنبطها بصائب فكره من حوادث التاريخ ، فكان بذلك واضع علم « فلسفة التاريخ » ، وقد سمى هو عمله هذا « علم طبيعة العمران فى الخليقة » ، وصرّح بأنه صاحب هذا العلم ، ولم يسبقه إليه أحد .

المؤلفات فى التاريخ

١ — « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، لمؤلفه شمس الدين أبى العباس أحمد بن خلكان المولود سنة ٦٠٨ هـ بأربل ، وهى بلد قرب الموصل ، وينتهى نسبه إلى البرامكة ، وقد رحل إلى الشأم فى طلب العلم ، فلما عرف فضله ولاه الظاهر بيبرس قضاء الشام ، ثم عزله عنه ، فقدم إلى مصر ، وعين مدرساً بالمدرسة الفخرية ، ثم عاد إلى الشام ، وتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وكتابه هذا من كتب التراجم جعله خاصًّا بالعلماء ، والملوك ، والوزراء ، والأدباء ، ولم يتعرض فيه لذكر الخلفاء ، ولا الصحابة غالباً ، لكثرة ورود أسمائهم فى غير كتابه .

وهو يمتاز بتحرّى الدقة فى تحقيق الأنساب ، وضبط الأعلام[1] ، وتحديد تواريخ الولادة والوفاة[2] ، والخلوص من شائبة المبالغات ، والخرافات ، كما يمتاز بسهولة عبارته ، وجلاء أسلوبه ، وقوّة نقده ، بإبداء رأيه فى كثير مما يعرض له من شعر أو حادث ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة ، وعيبه فيها أنه رتبها على أسماء أصحابها ، وإن لم يشتهروا بها ، فهو يترجم مثلا لصلاح الدّين الأيوبى ، فى باب

(١) من تحقيقه للأسماء قوله فى ترجمة أبى عبيد الهروى . والفاشانى بالفاء .. ويقال لها باشان بالباء ، وقد تقدم فى الذى قبله قاسان ، وقاشان ، وهذه الأسماء يقع فيها الاشتباه ، وهى على هذه الصورة ولا لبس بعد هذا .

(٢) من اهتمامه بتحقيق تاريخ الوفاة : أنه قال فى ترجمة أبى الوفاء محمد بن يحيي البوزجانى أحد الأئمة فى علم الهندسة ، كانت ولادته يوم الأربعاء فى مستهل رمضان سنة ٣٢٨ هـ ، وتوفى سنة ٣٧٦ هـ . قال وكنت قد وقفت على تاريخ ولادته فى كتاب الفهرست ، ولم يذكر تاريخ الوفاة فكتبت هذه الترجمة ، وذكرت تاريخ الولادة ثم أخليت بياضا لتاريخ الوفاة لعلى أظفر به . فإن قصدى فى هذا التاريخ إنما هو ذكر تاريخ الوفاة كما ذكرت ذلك أول الكتاب ، ثم إنى وجدت تاريخ الوفاة فى تاريخ شيخنا ابن الأثير . وكان بين شروعى فى هذا التاريخ وظفرى بالوفاة أكثر من عشرين سنة .

وفى ترجمة الحافظ السلفى ، قال وكانت ولادته سنة ٤٧٢ تقريبا بأصبهان .... ثم يقول : قلت ، وجدت العلماء المحدثين بالديار المصرية من جملتهم الحافظ زكى الدين ، أبو محمد عبد العظيم ابن عبد القوى المنذرى محدث مصر فى زمانه ، يقول : فى مولد الحافظ السلفى هذه المقالة ، ثم وجدت فى كتاب (زهر الرياض المفصح عن المقاصد والأغراض) تأليف الشيخ جمال الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى الفضل عبد المجيد بن اسمعيل بن حفص الصفراوى الإسكندرى ، أن الحافظ أبا طاهر السلفى المذكور ، وهو شيخه كان يقول مولدى بالتخمين لاباليقين سنة ٣٧٨ ، فيكون مبلغ عمره على مقتضى ذلك ثمانيا وتسعين سنة . هذا آخر كلام الصفراوى المذكور . ورأيت فى تاريخ الحافظ محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى ما يدل على صحة ماقاله الصفراوى ، فإنه قال : قال عبدالغنى المقدسى سألت الحافظ السلفى عن مولده فقال: أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان لى من العمر حدود عشر سنين . قلت ولو كان مولده على مايقوله أهل مصر أنه فى سنة ٤٧٢ ماكان يقول أذكر قتل نظام الملك سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فإنه على مايقولون قد كان عمره ثلاث عشرة سنة ، أو أربع عشرة ، ولم تجر العادة أن من يكون فى هذه السن يقول: أنا أذكر القضية الفلانية ، وإنما يقول ذلك من يكون عمره تقديراً أربع سنين ، أو خمس ، أو ست . فقد ظهر بهذا أن قول الصفراوى أقرب إلى الصحة وهو تلميذه ، وقد سمع منه أنه قال مولدى فى سنة ثمان وسبعين . وليس الصفراوى ممن يشك فى قوله ولا يرتاب فى صحته .

الياء ، لكون اسمه يوسف ، ولابن حمديس الشاعر ، فى باب العين ، لكون اسمه عبد الجبار ، ولابن سينا ، فى باب الحاء ، لكون اسمه الحسين ، ولو أنه بوّبها على الشهرة لكان أولى ، ولكن هذا فعل غيره من كلّ من ألف فى التراجم .

وقد كمله من جاء بعده من المؤرّخين ، فأضافوا إليه أسماء المشهورين ممن جاء بعده ، وأشهر ذيوله « فوات الوفيات » ، لمحمد بن شاكر الكتبى ، المتوفى سنة ٧٦٤ ه .

٢ — تاريخ ابن خلدون : وله مقدّمة طويلة عرفت باسم المقدمة ، وقد أثبت فيها مباحثه العمرانية ، التى سماها علم طبيعة العمران فى الخليقة ، ويليها كتابان فى ستة أجزاء :

الأوّل منهما ، فى أخبار العرب وأجيالهم منذ الخليقة إلى عهده ، مع التعريج على غيرهم ممن عاصرهم ، كالنبط ، والسريان ، والفرس ، والقبط ، واليونان . والثانى يشتمل على أخبار البربر وأممهم ، وفتح العرب لبلادهم ، ونشوء الدول الإسلامية عندهم .

ويمتاز تاريخ ابن خلدون بما يقدّمه بين يدى فصوله من المقدمات الفلسفية التى يعلل بها سقوط الدول وقيام غيرها ، وذلك زيادة على ما فى المقدمة الكبرى التى قدمها بين يدى هذا المؤلف العظيم ، وقد ختم كتابه بالتعريف بنفسه ، وبيان ما صادفه فى حياته من الحوادث ، وما كان من مجيئه إلى مصر أيام السلطان برقوق وتوليه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ ه ، ثم خروجه للحجّ سنة ٧٨٩ ه ورجوعه فى السنة التالية ، وإتمامه كتاب التاريخ فى سنة ٧٩٧ ه ، وقد توفى بمصر سنة ٨٠٨ ه .

٣ — خطط المَقْرِيزىّ ، وهي لمؤلفها أبى العباس تقىّ الدّين بن علاء الدّين ابن مجد الدّين ، وأصله من بعلبك ، وقد تحوّل والده إلى القاهرة ، فولد له تقىّ الدّين سنة ٧٦٦ ه ، وسمى بالمَقْرِيزى نسبة إلى حارة بها تسمى المقارزة ، واسم الخطط « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » ، ولم يرتبها صاحبها على السنين ، ولا على أسماء الملوك ، بل كان يتكلم عن الخطة أو الأثر ، فيذكر تاريخه ، واسم مؤسسه ، وما توالى

عليه من الأحوال . فإذا ذكر الفسطاط مثلا بدأ بما كان فى موضعها ، وما بعث على إنشائها ، واستطرد إلى فتح العرب مصر زمن عمر على يد عمرو بن العاص ، وإذا ذكر القاهرة ، استتبع ذكره لها الكلام على الدولة الفاطمية وما بعدها إلى أيامه . فالكتاب كثير الفائدة ، لا يقتصر على التاريخ والحوادث ، بل قد تجد فيه أدباً وفقهاً وغيرهما ، فصار بهذه المثابة كشكولا جزيل الفائدة ، وإن كان صعب المراجعة .

بقية العلوم

ولم يقف النشاط والتقدم فى التأليف عند حدّ العلوم السابقة ، بل شمل كلّ نوع عرف قبل ذلك ، ففى الطبيعيات والصناعات، ظهر كتاب أبى العزّ بن إسماعيل بن الرزاز الجزرى ، وهو كتاب « الحيل ، أو الجامع بين العلم والعمل » ألفه الملك الصالح من آل أُرْتُق بديار بكر فى النصف الثانى من القرن الثامن ، وقد وصف فيه آلات سرّية تظهر حركات مدهشة ، كأن يريك رجلا تحرّكه آلات خفية . ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، نقلها المرحوم زكى باشا من مكاتب الأستانة ، وبالنسخة أكثر من مائة رسم .

وفى علم الحيوان ، ألف كمال الدين الدّميرى المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ . كتاب حياة الحيوان الكبرى . وقد توسع فيه مؤلفه بوصف الحيوان ، وشرح أصل اسمه ، وذكر الشواهد من الأحاديث والأشعار التى ذكرت اسمه ، وقد يستطرد إلى ذكر تراجم لبعض المشهورين الذين يعرض ذكرهم من شعراء وأدباء وخلفاء ، وهو مطبوع بمصر ، ومترجم إلى الإنجليزية والتركية ، وله عدّة مختصرات .

ومن العلوم التى نضجت فى هذا العصر فنون الحركات العسكرية والصيد ، والفروسية ، وفيها كتاب « كشف الكروب ، فى معرفة الحروب » ألفه عماد الدّين

موسى بن محمد اليوسفى المصرى المتوفى سنة ٧٥٩ هـ ، للظاهر جقمق ، وجعله على عشرة أبواب ، ومنه نسخه خطية بدار الـكتب المصرية ، وكذلك كتاب « الأحكام الملوكية ، والضوابط الناموسية ، » لمحمد بن منكلى ، نقيب الجيش فى زمن الأشرف شعبان سلطان مصر (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) ، وقد قسمه إلى ١٢٢ باباً ، ومنه نسخة بالمـكتبة التيمورية ناقصة ينتهى الكلام فيها عند الباب العاشر بعد المائة .

الموسوعات

وهى تلك الـكتب الجامعة لموضوعات مختلفة ، وكان الغرض من تأليفها الخوف على العلوم، فإنها إذا جمعت فى كتاب واحد، وسلم من التلف، سلمت جملةعلوم بسلامته. وهذا الغرض قد أفادتهم إياه الحوادث السابقة التى أبادت كثيراً من الآثار . على أن التأليف كان قد ارتقى تبويبه رقيًّا كثيراً ، حتى عرف استلزام العلوم بعضها لبعض ، فعقدت بينها الصلة بإظهار تأليف واحد يجمع شتاتها ، وأكثر مؤلفى الموسوعات من علماء مصر، لأنها كانت القطر الذى عظم رواج العلم فيه فى هذه الأيام ، حتى قصده العلماء من كلّ مكان ، فمن هذه الموسوعات .

نهاية الأرب فى فنون الأدب

وهو لأبى العباس شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب ، من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد بنى كتابه على خمسة فنون ، وقسم كلّ فنّ خمسة أقسام :

فالأوّل ، فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية .

والثانى ، فى الإنسان وما يتعلق به .

والثالث ، فى الحيوان الصامت .

والرابع ، فى النبات .

والخامس ، فى التاريخ ، وهذا الباب أكثر أبوابه ، تكلم فيه أوّلا على بدء الخليقة ، ثم ذكر قصص الأنبياء ، ثم عرب الجاهلية ، فالملة الإسلامية ، وقد سار فى تاريخ الإسلام مرتباً الدول على حسب السنين ، كما فعل الطبرى ، وابن الأثير ، إلى أن وصل إلى سنة ٧٣١ هـ ، أى قبل وفاته بعام واحد .

والفضل فى حصول هذا الكتاب بمصر للمرحوم أحمد زكى باشا فإنه عثر على نسخة كاملة منه بالأستانة ، فنقلها بالتصوير الشمسى فى نحو ٤٤٠٠ صفحة ، وهو أحد الكتب التى تقوم دار الكتب المصرية بطبعها ، وقد أنجزت منه للآن عشرة أجزاء ، ويقدّر أن يصل إلى واحد وثلاثين جزءا كما أخبرنى بذلك رجال القسم الأدبى بالدار .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

وهو لمؤلفه أبى العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله الذى ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ولد بدمشق سنة ٧٠٠ هـ ، وانتقل إلى القاهرة وتعلم بها ، وتولى بها القضاء وغيره ، ثم توفى بدمشق سنة ٧٤٨ هـ .

وهذا الكتاب من نوع كتاب «نهاية الأرب» ، وإن اختلف ترتيبه عنه ، وينتهى تاريخ الدول فيه إلى سنة ٧٤٤ هـ ، أى قبل وفاة المؤلف بأربع سنوات ، وقد عمل الكتاب برسم الملك المؤيد ، كما وجد على الصفحة الأولى من النسخة التى استحضرها المرحوم أحمد زكى باشا ، وهذا الكتاب أيضاً مما نقله بالتصوير الشمسى المرحوم أحمد زكى باشا من مكاتب الأستانة ، وقد قامت دار الكتب المصرية بطبع الجزء الأول منه ، ثم توقفت حينا طويلا ولكنها ستعود إلى إتمام طبعه .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا

هو لأبى العباس شهاب الدين أحمدبن على بن أحمد القلقشندى المصرى ، من قرية قلقشندة القريبة من قليوب ، صار أحد كتاب ديوان الإنشاء بمصر ٧٩١ ه .

وكتابه هذا مبنى على الإنشاء ، وأدواته ، وشروطه ، ومايحتاج إليه الكاتب من علوم أدبية ، وتاريخية ، واجتماعية ، وقد طبعته دار الكتب المصرية فى أربعة عشرجزءًا .

وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه رتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وجعل المقدمة فى مبادئ يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء وفيها خمسة أبواب .

الأول فى فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذم حمقاهم .

والثانى فى بيان مدلولها. والثالث فى صفات الكتاب. والرابع فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء . والخامس فى قوانين ذلك الديوان .

ثم المقالة الأولى فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية ، والمقالة الثانية فى المسالك والممالك ، والثالثة والرابعة فى وصف الكتابة فى أطوارها التى مرت بها وما ظهر فيها من سجع وغيره وما التزم فى بدئها وختامها من أمور اختلفت باختلاف المكتوب إليه ، وموضوع الكتاب .

المقالة الخامسة فى الولايات وأنواعها ، وفيها كلام عن البيعة والعهد ، و بيان أنواع المناصب من أصحاب السيوف والكلام وغيرهم .

وقد تناول فى المقالات الباقية أموراً تشبه ما سبق من كل ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الأقطاعات ، وما يكتب فى صورتها ، والأيمان وحكمها الشرعى ، وعقد الصلح وفسخه ، والهدنة ، وصورة مايكتب فى كل ذلك ، والكلام على البريد ، واتخاذ العرب له ، وذكر مراكزه بمصر والشام ، وذكر حمام الرسائل ومطاراته وأبراجه .

فمن ذلك ترى أن الكتاب موسوعة علمية كبيرة ، عملت لتكون نبراساً لكاتب الديوان يعرف به رسومه ، وماينبغى أن يتأهل به لعمله من معارف وآداب ، فجاء بذلك نافعا له ولغيره .

مثالان لنشاط العلماء فى التأليف

— ١ —

ابن تَيْمِيَّة

٦٦١ —٧٢٨

هو أحمد بن عبد الحليم ، ولد بحَرَّان[١] سنة ٦٦١ هـ ، وانتقل به والده وهو صغير فاراً من وجه المغل فوصل إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ ، وقد نشأ الولد كأبيه ورعا ، عالمًا ، فقيها على مذهب الإمام ابن حنبل ، وقد حذق علوم الشريعة ، وأصول الفقه ، وهو ابن بضع عشرة سنة فبهر علماء زمنه بذكائه ، وقوة حفظه ، وقام بالتعليم وسنه إحدى وعشرون سنة .

ولقداشتهر بالشجاعة، وصراحةالقول، والشدة على المبتدعين، حتى سمى محيي السنة، وآخرالمجتهدين ، و بلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد،أكثرهافى التفسير، والفقه، وأصوله ، و بلغ من مقدرته العلمية أن كان إذا سئل فى فنّ من الفنون ظنّ السامع لإجابته أنه لا يعرف غيره ، ثم حكم أن أحداً لا يعرف مثله .

وقد كان من نتائج شهرته بالفضل، وتحرك الحسد فى نفوس منافسيه ، أن عدوا عليه كلامًا قاله فى بعض دروسه، وأرجفوابذلك، حتى سعوا فى نقله إلى الديارالمصرية وحبسه

(١) حران بلدة على طريق الموصل والشام وهى من ديار مضر .

بها ، فظل فى معتقله يحبر ويرد على متهميه ، ثم منع من الكتابة وأخليت حجرته من أدواتها ، فكتب على حائطها : (إن إخراج الكتب من عندى من أعظم النقم) ، ومات فى سجنه بعد ذلك ، فازدحم الناس فى جنازته ، وبالغ بعض المؤرخين ، فزعم أن من شيعه من المصريين كانوا مائتى ألف .

ومن كتبه المطبوعة : فتاوى ابن تيمية فى خمس مجلدات ، ومجموعة الرسائل الكبرى ، وهى ٢٩ رسالة ، وقد طبعت بمصر كل هذه الكتب .

— ٣ —

جلال الدين السيوطى

٨٤٩ — ٩١١

لا نريد أن نفصل حياة هذا العالم الجليل ، الذى تشرفت مصر بكونه من أبنائها ، بل شرف به الإسلام وعلومه ، لكونه من أعظم خدامها ، وأكبر أعوانها ، وقد كان من نوابغ العالم الذين تضن بهم الدهور إلا فى فترات متباعدة ، وقد تراجم لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة فقال :

«ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده ، أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم .

وأما الفقه فلا أدعى ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسع نظراً ، وأطول باعًا . ودون هذه السبعة فى المعرفة ، أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف ، ودونها : الإنشاء ، والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شىء علىّ ، وأبعده من ذهنى ، وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به ، فكأنما

أحاول جبلا أحمله » ، وقد ذكر فى ترجمته هذه من شيوخه ١٥٠ فى مختلف العلوم والفنون ، وأنه شرع فى التأليف وعمره ١٧ سنة ، وذكر من مؤلفاته ٣٠٠ وأوصلها المستشرق بروكلمن إلى ٣١٦ .

ومن «تآليفه» طبقات النحويين واللغويين ، عملها على ثلاث مراتب : كبيرة ، ومتوسطة ، وصغيرة . وقد ضاعت الأولى ، وبقيت الأخريان وهما مطبوعتان . والصغيرة اسمها (بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة) ، وبها ٢٣٠٠ ترجمة .

ومن أشهر تآليفه ، «المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» ومباحثه ، مما نسميه فقه اللغة وهو جزءان ، تناول فى الأول منهما مسائل كثيرة ، منها معرفة تداخل اللغات والمولّد وغيره ، وخصائص العرب ، والاشتقاق ، والقلب ، والنحت ، وأغلب مباحث الجزء الثانى نحوية ، كالملحقات بالأسماء فى الوزن ، والألفاظ التى وردت بلفظ الجمع ، والمراد بها واحد أواثنان ، والمثنى أوالجمع الذى لايعرف له واحد ، وما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والأفعال التى جاءت على لفظ مالم يسم فاعله ، وهكذا . . .

ومن تآليفه فى النحو «الأشباه والنظائر» ، وهومطبوع بمصر ، وقد رتبه على سبعة فنون فى أربعة أجزاء .

فالفنّ الأول فنّ القواعد والأصول التى تردّ إليها الجزئيات والفروع ، وهو مرتب على المعجم ، وهومعظم الكتاب ومهمه ، وقد أتى فيه بأمور عامة فى علم النحو ، مثل الكلام فى الاشتقاق والقلب ، وأن الشرط مبناه على الإبهام ، والإضافة مبناها على الإيضاح ، وأن التابع لا يتقدم على المتبوع وغير ذلك .

والفنّ الثانى فى الضوابط والاستثناءات والتقسيمات ، وهو مرتب على الأبواب لاختصاص كل ضابط ببابه ، وقد بدأه بباب الكلمة ، فباب الاسم ، فباب الفعل ، وهكذا . . .

والفن الثالث فى بناء مسائل بعضها على بعض ، وقد بدأه بالكلام على بناء فعل الأمر ، فهومبنىّ على رأى البصريين ، ومعرب مجزوم بلام محذوفة على رأى الكوفيين ،

والخلاف فى ذلك مبنىّ على الخلاف فى ثلاث مسائل : الأولى هل الإعراب أصل الفعل ، والثانية هل يجوز إضمار لام الجزم ، والثالثة هل الأمر صيغة مستقلة بنفسها مرتجلة ليس أصلها المضارع ، أو هى صيغة مغيرة وأصلها المضارع ؟.

والرابع فى الجمع والفرق ، وقد بين فيه جملة فروق ، كالفرق بين تقدير المبنى ، وتفسير المعنى (١) ، والفرق بين ضمير الشأن وسائر الضمائر (٢) ، وهكذا . . .

والفنّ الخامس فى الألغاز والأحاجى (٣) .

والفنّ السادس فى المناظرات ، والمجالسات ، والمذكرات ، والمراجعات ، والمحاورات ، والفتاوى .

والفن السابع فنّ الأفراد والغرائب ، وقد أتى فيه بجملة اعتراضات وردودها .

فمن ذلك السؤال عن وجه رفع الشر ونصبه ، ونصب الماء فى قول الشاعر :

فليت كَفافاً كان خــــيرُك كلُّه وشرُّك عنى ما ارتوى الماءُ مُرْتَوى (٤)

---

(١) كقولهم أنت ظالم إن فعلت فالمعنى ، فى أنت ظالم أنها جواب الشرط ، ولكن لايصح إعرابها جوابا، وكذلك زيد قام وهكذا .

(٢) يفارق ضمير الشأن سائر الضمائر فى أشياء :
أولا : أنه لايحتاج إلى ظاهر يرجع إليه .
ثانياً : أنه لايعطف عليه ولا يؤكد ولا يبدل .
ثالثاً : أنه لايفسر إلا بجملة .
رابعاً : أنه لايكون إلا غائبا .
خامساً : أنه يعود على ما بعده .

(٣) مثل قوله الحريرى ، وما العامل الذى يتصل أوله بآخره ، ويعمل معكوسه مثل عمله،وذلك هو حرف النداء (يا) مكوّن من حرفين فأوله متصل بآخره ومعكوسه وهى أى يعمل النداء أيضاً.
ومن ألغازه قوله :
وأين تلبس الذكران براقع النسوان
وذلك فى العدد المركب .

(٤) اسم ليت ضمير الشأن محذوف . وكفافا خبر كان ، واسمها كلمة خير ، وكله توكيد له . وكلمة شر بالرفع معطوفة على خير فيكون اسما لكان مقدرة . وغير أبى على الفارسى يقدر الخبر محذوفا دل عليه خبر كان الأولى ، والتقدير وكان شرك كفافا. أما أبو على فذهب إلى أن خبر كان كلمة مرتوى وسكنت الياء لإقامة الوزن . والمعنى أن الشر ارتوى ولم يصبح بحاجة إلى الشرب ، ومن قال وشرك بالنصب حمله على ليت مقدرة ، ولا يجوز أن يكون معطوفا على اسم ليت المذكورة لأنه ضمير شأن لايعطف عليه . وكلمة الماء بالرفع فاعل ارتوى وبالنصب على نزع الخافض .

فالكتاب على هذا النظام من كتب النحو العالية التى تبحث مسائل فى فقه هذا العلم ، وترد قواعده المشهورة إلى أصولها ، وهو من أجل هذا جدير بالعناية والمراجعة ، على أن مسائل الخلاف بين الأئمة ، ومباحث المجالس ومناظراتها تعدّ فى علم النحو تاريخاً لا يحسن جهله من المتصدّى لهذا العلم ، المتوسع فى معرفته .

ومن مؤلفاته كتاب : « الإتقان فى علوم القرآن » ، وهو يبحث فى العلوم المتعلقة بالقرآن من أماكن نزوله ، وتسمية آياته بمكية ومدنية ، وفى تسمية السور ، وجمع القرآن ، وترتيبه ، ومتى كان ذلك . ثم تناول مافى القرآن من تشبيهات ، ومجازات ، وكنايات ، وفواصل تناسب معانى الآيات المسبوقة بها ، ثم تناول الكلام على إيجازه وأسلوبه فى الجدل وغير ذلك .

الوصف العام للمؤلفات

فى هذا العصر

تظهر فى مؤلفات هذا العصر صفة لم تعهد فى العصور السالفة ، فقد كان العالم منهم يظهر كتابه فى صورتين أو صور ، فيجعل صورة للمبتدئين ، وأخرى للشداة ، وثالثة للمنتهين ، كجلال الدين السيوطى أظهر كتابه «طبقات النحويين واللغويين» على ثلاث مراتب فى ثلاث صور : كبيرة ، ومتوسطة ، وصغيرة ؛ وكابن هشام الذى ألف كتاب «الإعراب عن قواعد الإعراب» ، فكان نواة لكتابه «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» وكالقلقشندى الذى اختصر «صبح الأعشى» ، فى «ضوء الصبح المسفر» ، وكابن مالك الذى استخلص «الألفية» من «الكافية الشافية» ، وسماها «الخلاصة» ، وكالبقاعى

برهان الدين بن عمر المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، الذى ألف كتاب ، «عنوان الزمان[١] فى تراجم الشيوخ والأقران» جميع فيه تراجم شيوخه ، وأقرانه ، وتلاميذه ، ثم اختصره فى « عنوان العنوان[٢] » ، وكما فعل السَّمْهُودى[٣] فإنه جعل « وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» مختصراً لكتاب « الوفاء » الذى جمع فيه ما أمكن جمعه من أخبار المدينة ، ثم ألف « خلاصة الوفاء » اختصاراً للاختصار ، والأخير مخطوط فى دار الكتب المصرية ، والمتوسط مطبوع بمصر ، والأول احترق بعد أن اختصره المؤلف .

وكشمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، الذى ألف « تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير الأعلام » فى نحو ١٢ مجلداً ، ثم اختصره عدّة اختصارات[٤] .

وكذلك كان المؤلف يعمد إلى كتاب غيره ، فيتمه وأكثر ما كان ذلك فى كتب التاريخ ، ككتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، فقد جاء ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، فزاد عليه تراجم من فات ابن خلكان ذكرهم ، فكانت زيادته ٥٥٠ ترجمة ، والأصل به ٨٤٦ كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وككتاب « تتمة المختصر فى أخبار البشر » لعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وهو مطبوع جعله ذيلا لكتاب « المختصر ، فى أخبار البشر » لأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، و « كالإعلام بتاريخ الإسلام » لابن قاضى شهبة المتوفى ٨٥١ هـ ، وهو ذيل لتاريخ الذهبي الكبير المشتمل على نحو ١٢ مجلداً الذى جعل فيه الكلام من أول الإسلام إلى سنة ٧٠٠ هـ ، وهذا الذيل مخطوط غير مجتمع بمكتبة واحدة ، وليس منه بمصر شيء .

كذلك كثر فى هذا العصر ظاهرة أخرى فى التأليف ، وهى تعليق مؤلف على

---

(١) منه نسخة بكوبرلى .
(٢) منه نسخة بأكسفورد .
(٣) من سمهود إحدى بلاد الصعيد توفى سنة ٩١١ هـ .
(٤) من هذه الاختصارات : طبقات الحفاظ وهو مطبوع ، وتاريخ النبلاء ، وطبقات القراء ، وهما مخطوطان .

كلام مؤلف آخر بالشرح له ، والتوسع فى مسائله التى أوردها مع تدخل الكلامين حتى يصيرا كلاماً واحداً ، أو مع عدم تدخل الكلامين . ولا تكاد ترى كتاباً فى النحو غير مشروح على إحدى الطريقتين . وبعضهم يعلق على الأصل مع شرحه تعليقات أغلبها نقد ، ومحاسبة على العبارة ، وبيان لمشتملاته ، وما تخرجه من الشروط والقيود ، ومن أغراضها أيضاً غير النقد مساعدة القارىء على الفهم ببيان وجهة المؤلف فيما يريد من عباراته ، أو شرح لشاهد أورده ، أو بيان غرض لم يستوفه . وتلك هى المسماة بالحواشى .

والذى جعل هذه الأنواع من التأليف مظهر هذا العصر هو زيادة عدد طلاب العلم ، حتى كان منهم المبتدئ والمتوسط والمنتهى ، وكان فيهم المستعجل الذى يريد الإيجاز ، والمتوسع الذى يريد الاستيعاب . كذلك من أسباب حدوث هذه الظاهرة ما نشأ عند القوم من الفخر بالتأليف ، والتزيد به على الناس ، حتى إن من لم يجد موضوعا يؤلف فيه ، نظر فى مؤلفات غيره فاختصرها ، أو زاد عليها ، أو شرحها ، أو نقدها . وتلك حـــركة مباركة تدلّ على النشاط الذهنى الذى لزم القوم فى هذا العصر .

ولم يكن عمل القوم فى هذه التآليف مجرد جمع ، أو اختصار ، أو إطالة ، بل إن فكرة النقد والتمحيص فيها ظاهرة أتم ظهور ، وقد مرّ بك ما ذكرنا من أن ابن خلدون ، والفخرى ، عوّلا فى تأليفهما على النقد وتمحيص الكلام ، وكذلك هذه الشروح والحواشى ليست محض توسع وإطالة ، بل هى نقد صريح وتجريح لاذع ، وتهكم بالغ فى كثير من المسائل التى تناولتها ولا يفوتنا أن هذا النوع من التأليف ، وعكوف أهل الأزهر عليه هو الذى أثبت لهم فضيلة التمحيص ، وكوّن لهم ملكة النقد للعبارات ، فاشتهروا بين طبقات المتعلمين حين كثرت فى عصرنا طبقاتهم ، بأنهم أهل الجدل والنقاش ، المجيدون للمحاورة . وما الفضل فى ذلك إلا لهذا الأسلوب من التأليف ، وإن كان متعباً شاقًّا صعب التحصيل ، لا يجعل للمعلومات فى الذهن

صورة متضامة الأجزاء ، محصورة الحدود ، فكان من عيوبه من جهة أخرى أن الأزهرى الألدّ فى خصومته ، القوىّ العارضة فى مناقشته ، لا يجمع فى ذهنه صورة تامة لمسألة علمية يحيط بأطرافها ، ولـكنه ذكىّ يقظ فى مناقشة أجزاء المسائل وفروعها ، وعبارات المؤلفين ، وبيان إشاراتها . وكذلك من عيب هذه الطريقة أن تدخلت العلوم ، فصرت ترى المنطق مثلا يدخل فى النحو للزومه فى مناقشة التعاريف ، وبيان صحيحها وفاسدها ، وذلك خلط قد يعوق المبتدئ عن المضىّ فى فهم دروسه ، وفيه كذلك تعطيل للفائدة التى يرجوها طالب للنحو لا يطلب غيره من العلوم .

الكتابة والكتاب

فى المـــدة

من ٦٥٦ إلى ٩٢٣ هـ

الـكتابة نوعان : كتابة رسائل ، وكتابة تدوين ؛ ولـكلّ منهما فى هذا العصر صفاته ومزاياه .

كتابة الرسائل

فأما الرسائل (ديوانية وإخوانية) ، فقد جرى الـكتاب فيها على نهج من سبقهم ، كما جرى سابقوهم على نهج غيرهم ، فهى سلسلة من التقليد ألغى القوم فيها عقولهم ، وأهملوا استقلالهم ، وصار اللاحق لا همّ له إلا أن يُحكم الترسم ، لما كان عليه أستاذه ، لا يحيد عن ذلك إلا بما يسمح لنفسه من الإمعان فى تلك الطريقة والتزيد على رؤسائه فيها .

لذلك ترى الـكتابة تنحدر من علوّها يوم كانت على يد بديع الزمان، والخوارزمى ،

وأضرابهما فى أواسط العصر العباسى ، كلامًا رصينًا ، وسجعاً مقبولاً ، قصير الفقرات ، لا يظهر فيه زخرف البديع إلا بقدر ما يسمح به الطبع . فينتهى قصر الفقرات إلى طول ، ويصير الإلمام بالبديع التزامًا له ، والتوشية بالاقتباس والتضمين استكثاراً منهما يطغي على أسلوب الكاتب ، ويواريه تحت جمال المقتبس أو المضمن ، إلى غير ذلك مما تزيّدوا به من الإشارة إلى مصطلحات العلوم ، وأسماء المؤلفات . وما غلوا فيه من الألقاب فى الرسائل الديوانية .

وكان الكاتب الذى ذاع له صيت ، واتصلت أيامه بعصرنا الذى نتحدث عنه ، هو القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ ﻫ ، كاتب صلاح الدين الأيوبى ، ثم وزيره . وقد بنى طريقته على السجع الطويل المتكرر القافية فى عدّة سجعات ، كما بناها على القصد العامد إلى أنواع البديع من الطباق والجناس ، ومراعاة النظير ، والتورية ، والاستخدام ، يجتلبها اجتلابًا ، ويمهد لها تمهيداً ، فمن أجل ذلك طالت فقرات سجعه .

هذه هى طريقة القاضى الفاضل التى سلمت له بعض السلامة ، لما كان له من ملكة صناع وقدرة فى القول مكينة ، فلم يكن حرصه على السجع ، والتزامه لأنواع البديع ، يورث كلامه تلك الكراهة التى تراها فى كلام غيره ممن جروا على طريقته ، ولم تكن لهم ملكته . فأما هؤلاء من أهل عصر القاضى الفاضل ، ومن جاء بعده ، فقد ظهر الاستكراه فى قولهم ، فكنت لا ترى إلا سجعة قلقة ، وتورية مستعصية ، أو جمعاً وتفريقاً ، أو لفًّا ونشراً ، أو غير ذلك من أنواع البديع يجمعونها عامدين ، وكأنما يبنون كلامهم عليها لا على المعنى الذى من أجله خلق التعبير ، وقصدت الإبانة . ويخيل إليك أن أحدهم حين يمسك القلم ليكتب رسالة عن السلطان ، أو تهنئة ، أو تعزية لبعض الإخوان ، قد احتفل للقول ، وجمع أهبته له جاعلاً قصده الأوّل أن يحقق فى رسالته أمثلة من البديع ليفخر أمام إخوانه بكونه قد تمّ له مثال من المقابلة ، قابل فيه بين أربعة من المعانى وأضدادها ، أو أنه راعى النظير بين كذا وكذا من

الألفاظ ، أو استعمل التورية مرشحة ، أو مجردة إلى غير ذلك ، وتلك هى عنايتهم ، وموضوع فخرهم ، لايتحدّثون عن المعنى بأنهم تناولوه وتوسعوا فيه ، أو الفكرة رتبوها وأحسنوا تنسيقها ، أو الأسلوب لاءموا بينه و بين المقام فى الشدّة ، أو اللين ، أو الإيجاز والإطناب ، و بقية الأسس التى يبنى عليها الكلام . فانظر إلى أىّ حد عنوا بالأعراض ، واحتفلوا بالقشور .

تلك هى التركة الإنشائية التى خلفها العصر السابق ، أقبل عليها كتاب العصر الذى نحدثك عنه فجروا على أسلوبها والتزموا نهجها ، ولم يكن لهم من قوّة الاستقلال ما يجعلهم يخلعون نِيرها ، لأن التقليد كان قوى السلطان عليهم ، فلم يستطيعوا اختيار مذهبهم ، بل وجدوا آباءهم على أمة فلم يحيدوا عنها ، اللهم إلا قوماً رزقهم الله حرية الرأى ، واستقلال الملَكة ، فإنهم اختاروا لهم طريقاً أدوا به معانيهم فى أيسر أسلوب ، و بأقرب وسيلة . ولم يكتفوا بذلك ، بل نقدوا أهل عصرهم ، وحاولوا صرفهم عما هم فيه ، فلم تغن نصيحتهم . ومن هؤلاء ابن خلدون ، الذى يقول فى مقدمته ناقداً طريقة أهل عصره فى الكتابة .

« وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر ، وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمرّ المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل ، وخصوصاً أهل المشرق . ثم يقول : «وما حمل عليه ــ أى هذا الأسلوب ــ أهلَ العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع ، يلفقون به مانقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومطابقة الحال فيه ،

ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والألقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك ، وأكثر من أخذ بهذا الفنّ ، وبالغ فيه فى سائر أنحاء قولهم كتّاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالأعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس ، أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الأعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف ذلك التجنيس».

والذى جعل القوم مقلدين لايستطيعون الخروج عما ألفوا ، أنهم قد مرّ عليهم زمن فى التزام هـــذه الخطة ، وتبع فيها اللاحق السابق ، وانضمّ إلى ذلك أن أكثرهم كان جاهلا بأصول الإنشاء ، قليل المحصول من العربية ، قد اكتفى من الكتابة بمظهرها من نظافة الثياب ، واستكمال الأدوات . فأما الملكة ، وأما النظر فى كلام البلغاء ، وأما حفظ المشهور من كلامهم ، فذلك تبع وعرض ، لا يحرص عليه كثير من الكتاب ، ومن أجل ذلك رأينا مثل القلقشندى يضع كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ، يدلّ قومه على وجوب سلوك سبيله فى الاستعداد للكتابة ، والتأهب لها .

ولقد نرى أثر هذه الشكوى من دخول من لا يصلح للكتابة بين أهلها ، فى قول النويرى فى نهاية الأرب : « وقد اتسع الخرق فى ذلك ، ودخل فى الكتابة من لا يعرفها ألبتة ، وزاد على الإحصاء ، حتى إن فيهم من لايفرّق بين الضاد والطاء ، ولقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه فى الكتابة ، وتوسل إلى أن كتب فى ديوان الرسائل ، أنه رسم له بكتاب يكتبه فى حق رجل اسمه « طرنطاى » فقال لكاتب إلى جانبه ، طرنطاى يكتب بالساقط ، أو بالقائم ؟ يريد بالضاد أو الطاء ، وصار الآن حد الكتابة عند هؤلاء الجهال ، أن يكتب أحدهم على المجود مدة ، ويتقن بزعمه أسطراً ، فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزته ، وركب برذونه أو بغلته ، وسعى فى

الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلى أهله[1] ، ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم » ، ولله درّ القائل :

تَعِس الزمانُ لقد أتى بعُجاب ومحا صنوفَ الفضل والآدابِ
وأتى بكُتَّابٍ لو انبَسَطَتْ يدى فيهم رَدَدْتُهُمُو إلى الكُتَّابِ

ولقد كان القلقشندى أصرح فى بيان السبب فى ضعف الكتابة ، إذ علق على قول النويرى ، فقال :

«وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى ، لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك ، لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم ، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصناعتى عربيةٌ وكأنَّنِى أُلْقِى بأكثرِ ما أقولُ الرُّومَا
فلمن أقول وما أقول وأين لى فأسير لابل أين لى فأقيما

تلك الحال التى وصفناها ، هى حال الكتابة فى بلاد لغة حكومتها هى العربية ، ولها ديوان يتولاه كتاب يرتقون إلى درجة الوزارة بكتابتهم ، وتلك هى مصر فى عصر المماليك ، فما بالك بغيرها من ممالك العراق وما وراءه ، وقد كانت لغة حكوماتها : إما المغلية ، وإما التركية ، وإما الفارسية ، لاشك أن ريح الكتابة كانت راكدة ، وأن التنافس فى تحصل ملكتها كان متخاذلا ، فليس وراءها أمل فى مرتبة سامية ، أو أجر يغرى بالحرص عليه ، والسعى فى سبيله .

---

(١) ولم يقف هذا الحال عند حدّ الكتاب بل تعداه إلى الوزراء ، فقد حكى صاحب كتاب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء أنه أمر بكتابة عبارة تكتب على برج أنشأه بعض الخلفاء فكتب الكاتب : (أمر بعمارة هذا البرج أبوفلان فلان ..) فقال الوزير كيف تكتب أبو بالواو وهى من عبارات العامة. ألا قلت أبى؟ فقال الكاتب أبوهنا فاعل ، فقال الوزير وقداشتد غضبه متى رأيت الخليفة هنا فاعلا يحمل الطين ، وينقل الحجارة ؟والله لولا سابقتك لفعلت بك كذا وكذا. ومن ذلك أن بعض الرؤساء أمر كاتبه أن يكتب إلى صديق له : وامتنعت عن الكتابة إليك بخطى لرداوته فجعلها الكاتب لرداءته كما هوالواجب ، فلما نظرفيه الرئيس قال له أما تعرف رسم الحروف، أين الواو وغضب عليه .

وكان صاحب الديوان بالمملكة المصرية ، عظيم القدر ، رفيع الشأن ، لأنه هو الذى تنتهى إليه أسرار الدولة يتصرّف فيها عن السلطان ، ومن دسته تصدر المكاتبات وإليه ترد ، وإلى رأيه ينتهى تدبير المملكة ، وعن إشارته تصدر أعمالها . وأوّل من ولى ذلك المماليك فخر الدين بن لقمان[١] ، وكان يعمل من قبل مع الأيوبيين ، ثم تقلد الوزارة فى أيام المماليك ، وخلفه محيي الدين بن عبد الظاهر ، ثم ابنه فتح الدين ، وهو أوّل من تسمى بكاتب السرّ ، وقد ولى الديوان فى أيام المنصور قلاوون .

وسبب تسميته كاتب السرّ فيما ذكره صلاح الدين الصفدى ، أن الملك الظاهر بيبرس رفع إليه مرسوم أنكره ، فطلب محيي الدين بن عبد الظاهر ، وأنكر عليه ذلك ، فأحال على الأمير سيف الدين وقال : إنه هو الذى أمر بذلك ، فقال السلطان : ينبغى أن يكون للملك كاتب سرّ يتلقى المرسوم منه شفاها ، وكان الأمير قلاوون حاضراً فى جملة الأمراء ، وقرّت هذه الكلمة فى صدره ، فلما تسلطن اتخذ كاتب السرّ فكان فتح الدين .

ومن كتّاب السرّ بعد فتح الدين : علاء الدين بن الأثير ، تولى ديوان الإنشاء للأشرف ، وشهاب الدين الحلى ، وقد تولى الديوان للناصر قلاوون ، وابن فضل الله العمرى ، وقد كتب لآل قلاوون أيضاً ، وغيرهم كثير .

---

(١) كان مع كونه كاتبا وشاعرا ، مؤرخا عمل سيرة السلطان الظاهر بيبرس شعرا ومنها نسخة فى المتحف البريطانى ، وعمل تاريخا لمصر فى زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وتوفى ابن لقمان سنة ٦٩٢ هـ .

خواص الكتابة

فى هذا العصر

قلنا إن كتابة هولاء القوم صورة من كتابة سابقيهم ، لذلك كانت كل خاصة ، أوظاهرة عندالسابقين، قدصارت إلىهؤلاء مع المبالغة فيها ، وشأن المقلد دائماً أن يخرج بتقليده عن الأصل ، ويبالغ فيه ، وسنفصل القول فى بعض الخواص للكتابة عند أهل هذا العصر .

الألقاب

قد علمت من حالها فى الدولة العباسية أنهم جعلوها كثيرة فى صدور كتبهم وعنواناتها ، وأنهم فرّقوا بينها ، فجعلوا أطال الله بقاءك ، أرجح من أطال الله عمرك ، واحترسوا فى كثير منها عن أشياء يأباها الذوق ، حتى امتنعوا فى الدعاء للمرأة عن قولهم وأدام الله كرامتك ، لأنهم لحظوا أن كرامة النساء دفنهن ، كما امتنعوا عن الدعاء لها بقولهم : « أتم الله نعمته عليك » لموضع القبح فى الاستعلاء مضافاً إلى المرأة ، وجعلوا بدله « لديك » وهكذا ، فهذه منهم فروق دلّ عليها الذوق ، وهدى إليها النقد الصحيح فى جملتها .

فأما فيما بعد ذلك ، فقد غلا الكتاب فى هذه الفروق ونوّعوها ، فجعلوا منها لكل وال خلاف ما لغيره ، ولكل ملك لقب لا يشاركه فيه ملك ناحية أخرى ، وللعالم غير ما يقال للقائد ، ولهذا غير ما للوزير ؛ وجعلوا لأفراد كلّ طائفة ألقاباً مرتبة على حسب درجاتهم ، حتى صارت هذه الألقاب فى تشعبها تحتاج إلى معجم ضخم يهدى لأنواعها ، وما يوجه منها لطبقات المكتوب إليهم ، ولم يستطع كاتب ولا وزير أن يعى ذلك ،

فاحتاجوا إلى رصده فى دفاتر ، وجعلوها بين أيدى الـكتاب ليرجعوا إليها فيما يوجهونه من خطاب .

فقد جعلوا الأشرف أرفع من الشريف وهذا ظاهر ، والشريف أرفع من الـكريم لأن الشرف لا يكون إلا فيمن له آباء شرفاء ، والـكرم يكون فى المرء ، وإن لم يكن له آباء كرام ، والـكريم جعلوه أرفع من العالى لأن الـكريم يحتمل أن يكون من الـكرم الذى هو ضد اللؤم ، أو من الـكرم بمعنى عدم البخل ، فكان معناه أشمل ، والعالى : إما من العلو فى الشرف ، أو المكان ، وليس فى الأخير مدح ، وقد جعلوا العالى أرفع من السامى ، وهذا مما لم يظهر له حكمة ، ولذا أنكر على واضعه ، إذ لا فرق بين اللفظين فى المعنى . ولعلّ الواضع لم يغب عنه أنه لا فرق فى المعنى إلا أنه لحظ أن العالى لفظ متداول يفهمه العامّ والخاصّ ، فيكون المدح به أعمّ .

وجعلوا ركن الإسلام والمسلمين أرقى من عزّ الإسلام والمسلمين ، كما جعلوا اللقب الملحقة به ياء النسب أقوى من الخالي منها ، فالقاضوى أرفع من القاضى ، وقد بنوا ذلك على أن بعض العرب يلحقون ياء النسب للمبالغة ، ويقولون أحمرى فى الشديد الحمرة ، فاستغلّ كتاب هذا العصر تلك القاعدة ، وجروا عليها .

ثم جعلوا للألقاب فى جمعها صوراً لا تصحّ مخالفتها ، فجعلوا الشريف والـكريم للمقر والجناب ، ويليهما العالى ، وجعلوا لقب السامى ، يلى المجلس ، ولا يلى المقرّ والجناب ، فكانوا يكتبون للأتابك[(١)] ، ومن يساويه من الرؤساء فى الرتبة : الجناب الـكريم ، ولمن يليه فى المرتبة : المجلس العالى ، ولمن هو دون هذا : المجلس السامى .

ولم يقف الأمر عند ألفاظ الألقاب بل تعداها إلى ألفاظ أخرى ترد فى عرض الرسائل ، ففرّقوا بين أصدرنا الرسالة ، وأصدرت الرسالة ، وصدرت الرسالة والصورة

(١) الأتابك من الألقاب التى تقال لأمير الجيوش ومن فى معناه كالنائب والـكافل ونحوهما .

الأولى : أشرف للمكتوب إليه لما فيها من التصريح باسم المصدر للرسالة ؛ فهى تشرف بشرف متعلقها ، وفى الثانية : فات هذا الغرض بالبناء للمجهول ، وفى الثالثة : تنوسى ذلك حتى كأنها صدرت بنفسها .

وفرّقوا بين قابلت أمره بالطاعة وامتثلت أمره بالطاعة ، و بين شفعت له ، وسألت فيه ، و بين خاطبت فلانا فى شأنه ، وتحدثت فى شأنه ، والثوانى من هذه أبلغ من الأوائل .

التورية بمصطلحات العلوم وما يتعلق بها

ومن البديع الذى حرصوا عليه فى هذه المدّة استخدام مصطلحات العلوم فى رسائلهم الأدبية ، وهو نوع من التورية ، إذ يطلق الكاتب المصطلح ، فيتبادر إلى الذهن معناه المألوف فى علمه ، ثم هو يريد به معنى لغويًّا ؛ فالمعنى الاصطلاحى صار أقرب المعنيين بعد شيوع الاصطلاح به فالعدول عنه إلى المعنى اللغوى عدول عن معنى قريب إلى معنى بعيد ، والاستعمال على هذا النحو هو المسمى فى علم البديع «تورية» .

والسابقون استعملوها بين المعانى اللغوية بعضها و بعض ، وجاءوا بها مقبولة مرضية فى الذوق ، دالة على ألمعية القائل ، مجدّدة لانتباه السامع ، ثم ألحّ فيها قوم أتوا بعد هؤلاء وأغرموا باستعمالها ، وأدقوا فى معانيها ، فاستعصت على الفهم ، ولكنها كانت غير متجهة هذا الاتجاه الأخير ، وهو الإكثار منها فى مصطلحات العلوم .

فأنت ترى أن كتّاب عصرنا لم يبتدعوا هذا النوع ، ولكنهم قد انصب اهتمامهم فيه على المصطلحات العلمية ، ولعلّ مرجع ذلك إلى رواج العلوم ، وكثرة التآليف والعناية بجمع الكتب فى هذا العصر .

وقد قال صاحب صبح الأعشى فى هذا المقام :

« واعلم أن انتفاع الكاتب بالنحو من وجهين أحدهما الإعراب ،وما يلحق به .... والثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العرض ، فيحتاج من ذلك إلى معرفة النحاة ، ومشاهير أهل العربية : كأبى الأسود ، وسيبويه ، والفراء ، وأبى علىّ ، وأبى عثمان المازنى وغيرهم من المتقدمين ، وابن عصفور ، وابن مالك ، وابن معط وغيرهم من المتأخرين ، وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هذا الفنّ : من المبسوطات ، والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ، ومصطلحاتهم التى اصطلحوا عليها : من ذكر الاسم ، والفعل ، والمعرفة ، والنكرة ، والمبتدأ ، والخبر ، والحال ، والتمييز ، وألقاب الإعراب من الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ويدور على ألسنتهم فى استعمالاتهم من قولهم ضرب زيد عمرا وغير ذلك ، ليدرج ما عنّ له من ذلك فى خلال كلامه ، وحيث احتاج إليه فى التواقيع والمكاتبات وغيرها .

ومن أمثلة ذلك ما كتب به القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر :

« حرس الله نعمة مولاى ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادَى جوده لا يرخم ، وأحمد عيشه لاينصرف ، ولا عدم مستوصل الرزق من براعته التى لا تقف الوصل ، ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون معدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدّوه إلا بلام الجحود » ، وهى طويلة فارجع إليها فى الجزء الأول من صبح الأعشى .

الاقتباس

يكون كما تعلم من القرآن الكريم ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدخل فى كلام الكاتب على أنه منه لا على طريقة الاستشهاد ، وقد فصل الفقهاء القول فى جوازه وعدمه .

وقد أغرم الناس قديماً وحديثاً بهذا النوع لما فيه من رفع درجة الكلام بترصيعه بهذه الآيات الكريمة ، أو ذلك الحديث الشريف ، وقد رأينا فى العصور السابقة منذ ظهور القرآن أن الخطباء والكتاب طالما وشوا كلامهم بالاقتباس حتى لقد جعل مصعب بن الزبير خطبة من خطبه سورة من القرآن فلم يزد على أن قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إلى قوله : ونُرِى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانو يحذرون » .

ولم يكن أحد يترفع عن ذلك ، حتى أشد الولاة عتواً وأشهرهم بوصف البلاغة ، كالحجاج فإنه كان يعول عليه كثيراً فى كتابته وخطابته .

ولكن الاقتباس فى العصور السابقة لم يصل فى الكثرة إلى ماوصل اليه فى هذا العصر فقد أغرم به القوم وكثر تعويلهم عليه (١) ولم يتركوه يجىء به عفو الخاطر عند ما يتفق المقام المناسب للآية أو الحديث ويحضر لفظهما فى ذهن الكاتب مما علق بحفظه من التلاوة للقرآن والرواية للحديث ، لم يفعلوا ذلك ولكنهم تعمدوا أن يكونوا مقتبسين ، وأعدوا لذلك العدة بحصر الآيات التى تدور معانيها فى كتابتهم ومداومة حفظها ومراجعتها حتى تحضر عند مناسبتها ، وكذلك فعلوا بالحديث ، وكان الكاتب منهم يدخر بين كتبه صفحات يملؤها من ذلك ويتعرف ماينناسبها من المقامات ، ويبارى أصحابه فى كثرة مايقتبس ، وكانوا إذا اجتمعوا تذاكروا أىّ المواضع تصلح له هذه الآية وأى الفصول يليق فيه هذا الحديث ؟ .

---

(١) ولقد كان من أثر غرامهم بالاقتباس ظهور كتاب « أساس الاقتباس » للقاضى اختيار الدين ابن السيد غياث الدين ، قال صاحب كشف الظنون إنه انتهى منه سنة ٨٩٧ هـ . وقد بناه على أن يذكر المعنى مثل الظلم مثلا ، فيذكر ماورد فيه من الآيات ، والأحاديث ، وكلام الحكماء والشعراء . ثم ختم الكتاب بذكر أسماء الكتب . فى العلوم المختلفة ، وذكر مصطلحات تلك العلوم .

ذكر ابن الأثير فى المثل السائر قال : واعلم أن أكثر الأحاديث تدخل فى الاستعمال ولا يخرج منه إلا القليل . ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب فى هذا الأسلوب كلام فاستوعره واستنكره وقال هذا لا يتهيأ إلا فى الشيء اليسير من الأخبار النبوية فقلت: لا ، بل يتهيأ فى الأكثر منها. فقال : قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه اختصم اليه فى جنين فقضى على من أسقطه بغُرَّةٍ عَبْدٍ أو أَمَةٍ [1] » فأين تستعمل هذا فأفكرت فيما ذكر . ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام ، وأودعته فيه (كذا) وهو

«... وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كله إلى غثائه ، وقلمه بغاثة لا يستنسر وأى بطش لبغاثه ، وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سبل ثلاثة . هذا وهو يدعى أنه فى الفصاحة أمة وحده ، ومَن قس إياد وسحبان وائل عنده؟ . وإذا كشف خاطره وجد بليدا لايخرج عن العمه والكمه ، وإن رام أن يستنتجه فى حين من الأحيان قضى عليه بغرة عبد أو أمه . وكثيرا مايتقدم ــ ونقيصته هذه ــ على الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيض الأرض على هام السماء » .

وحدث ابن الأثير [2] عن نفسه قال : كنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف حديث تدور كلها فى الاستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين فكنت أنهى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتى دار على ناظرى وخاطرى مايزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لايشذ منه عنى شيء

---

(١) المراد بالغرة العبد نفسه أو الأمة نفسها . وكان أبو عمرو بن العلاء يفسر الحديث فيقول: لاتقبل الدية إلا إذا كان العبد أو الأمة بيضاوين . ولكن هذا لايقول به الفقهاء وهم إنما اشترطوا مايكون ثمنه نصف عشر الدية . وإنما تجب الغرة فى الجنين إذا سقط ميتا . فإن سقط حيا ثم مات وجبت الدية كلها . وقرئ الحديث بالاضافة (بغرة عبد أو أمة) .

(٢) ابن الأثير: هو ضياء الدين اللغوى الأديب المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . تفقه بالموصل ، وخدم صلاح الدين الأيوبى ووزر لابنه الأفضل . دخل مصر ثم سار إلى حلب فى خدمة الملك الظاهر غازى وله كتاب « المثل السائر » ، وهو أخو عز الدين بن الأثير المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، ومجد الدين بن الأثير المحدث المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

التحلية بسائر انواع البديع

وبقية أنواع البديع كانت ترد فى كتابات السابقين من أدباء العصر العباسي الثانى ولكنها لم تكثر فى كلامهم الكثرة المروعة ولم تلتزم الالتزام الملح ، كما كان ذلك فى عصرنا هذا وقد زادوا عليها أنواعا لم يكن يحفل بها السابقون مثل التصحيف الذى أكثر منه كتاب هذا العصر .

وإنك لترى هذه الأنواع مجتمعة ومتفرقة فى أمثلة الكتابة التى سنوردها عليك

كتب الشيخ جمال الدين بن نباتة من توقيع بنظر مدرسة .

« .... وكيف لا وهو نعم الناظر والانسان ، وفى مصالح القول والعمل ذو اليد واللسان ، وذو العزائم الذى تقيدت فى حبه الرتب ، ومن وجد الاحسان » .

فهو يشير إلى البيت المشهور للمتنبي وهو :

وقيدت نفسى فى ذَراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

ويعرض عليك مثالا للتورية فى كلمتى الناظر والإنسان .

ومن التضمين للشعر أيضا قول المنير الفتحى صاحب ديوان الانشاء بمصر .

قد لبس شرفا لاتطمع الأيام فى خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى نزعه . وانتهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف . وجلت الرياسة ببقائه فاستغنت عن السِّوَى فألقت عصاها واستقرت بها النوى.

وهو إشارة إلى قول القائل :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ويقع قريبا من التضمين - وهو استعمال البيت كله أو جزء منه صالح للاستقلال بنفسه - ماعرف باسم حَلّ الشعر وهو استيعاب ألفاظ البيت مفردة وإدخالها فى كلام الكاتب كما وقع للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى أبيات ابن الرومى :

وحديثها السحرُ الحلالُ لو أنه　　لم يَجْنِ قتلَ المُسْلِمِ المُتحرِّزِ
إن طال لم يُمْلَلْ وإن هِيَ حَدَّثَتْ　　وَدَّ المحدَّثُ أنها لم توجِــــز
شَرَكُ العُقولِ ونُهْزَةٌ ما مِثْلُها　　للمطمئن وعُقْــلة المستوْفِزِ

فقال فى وصف الـكتابة :

« خطه شرك العقول ، وفتنة تشغل المطمئن بملاحة المرئى والمـكتوب عن فصاحة المسموع والمقول ، لو لم يكن البيان سحرا لما تجسدت منه فى طرسٍ هذه الدرر ، ولو لم يكن بعض السحر حلالا لما انجلى ظلام النفس عما يهتدى به من هذه الأوضاح والغرر »

وفى هذه الفقرة يتجلى طول السجعات الذى احتاج اليه الكاتب ليحقق قوافيها مع التمهيد بهذا الطول إلى نوع بديعى كما هو ظاهر فى القرينة الأخيرة التى أراد فيها أن يراعى النظير بذكر الأوضاح والغرر .

ومما كتبه محيي الدين عبد الظاهر عن المنصور قلاوون ردا على تعزية واردة له عن ابنه من صاحب اليمن ، وإن كان الولد عمل أبيه (وقد رفع الله روح ولدنا فى أعلى عليين) تحقق أنه العمل الصالح (والعمل الصالح يرفعه) وفيما نحن بصدده من اشتغال بالحروب مايهون مايهول من الـكروب ، وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وقلبه يحول ، ومله عن تخيل أسف فى الخاطر يجول .

إذا اعتاد الفتى خَوْضَ المنايا　　فأَهْوَنُ ما يَمُرُّ به الوُحُولُ

ولنا بحمد الله ذرية دَرِّية[1] ، وعقود (والشكر لله) كلها درية .

إذا سيد منهم[2] خلا قام سيد　　قؤول لما قال الـكرام فعول

وأنت ترى فى هذه الفقرة اقتباساً من القرآن وتضمينا لأبيات كاملة ، واحتيالا على الجناس ظهر فى التكلف بجمعه بين درية ودرية .

---

(١) نسبة إلى الدر : وهو اللبن ، والمراد أنها حقيقية النسب رضعت در أمهاتها .
(٢) الـكاتب غير « منا » بمنهم مراعاة للمقام حتى لايكون تشاؤم بجريان الـكلام على لسان السلطان .

وبين أيدينا عهد كتبه ابن عبد الظاهر هذا فى تقليد السلطان الملك الأشرف : صلاح الدين خليل بولاية عهد السلطنة من أبيه السلطان المنصور وهو طويل يمثل ما كان يترسمه كتاب هذا العصر من طريقة القدماء فى تطويل مثل هذه الكتب ، وليس بدعا فى هذا الباب فقد رأينا أطول منه فى أوائل العصر العباسى وهو ما كتبه طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولى ديار ربيعة ، وما كان يكتبه الصابى وغيره من كتاب الدولة العباسية بل من قبلهم عبد الحميد الكاتب .

ولا نريد الاطالة بايراد هذا الكتاب فارجع اليه فى الجزء الثامن من نهاية الأرب ص ١١١ ، ولكننا ننقل لك فقرا منه لتكون أمثلة لما ذكرنا من مظاهر الكتابة فى هذا العصر .

فهو يقول بعد التقديم بحمد الله والصلاة على نبيه « ورضى الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة ومنهم من لم يدرك أحد فى تسويد النفس الحصيفة ولا فى تبييض الصحيفة مُدّه ونصيفه [(١)] » .

ومنه فى وصف الأشرف ولى العهد :

« فاطلعْنا فى أفق السلطنة كوكب سعد كان لحسن الاستخلاف معداً ، ومَن لقبيل المسلمين خير ثوابا وخير مردًّا ، ومن يبشر الله به الأولياء المتقين وينذر به من الأعداء قوما لُدًّا ، ومن لم يبق إلا به أنسنا بعد ذهاب الذين نحبهم وبقى كالسيف فرداً [(٢)] والذى ما أمضى حده فى ضريبة إلا قدَّ البيْض والأبدان قدًّا ، ولاجهَّز راية كتيبة إلا :

أغنى غناء الذاهبيـــن وعد للاعداء عدا

ولا بعثه جزَعٌ فقال :

---

(١) المدّ : مكيال ، وهو رطلان عند أبى حنيفة ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعى أو هو مقدار ملء كفى الإنسان . والنصيف : مكيال .

(٢) يشير إلى قول عمرو بن معدى كرب :

ذهب الذين نحبهـم وبقيت مثل السيف فردا

« كم من أخ لى صالح » ولا لقيه وَرَعٌ[١] فقال :

« وخلقت يوم خلقت جلداً » وهو الذى بقواعد السلطنة الأدرى ، وقوانينها الأعرف ، وعلى الأولياء الأعطف ، وبالرعايا الأرأف ، والذى ماقيل لبناء ملك : هذا عليه قد وهى إلا وقيل : هذا بناء مثله منه أسمى مكاناً وأشرف .

ونقف من هذا العهد إلى الغاية ونتركك تلمس ما فيه من اقتباس من القرآن ، وتضمين للشعر كاملا ، أو بشطر منه كما فى قوله : « كم من أخ لى صالح » فإنه ومابعده من قول ابن معديكرب الزّبيدىّ :

كم من أخ لى صالح　　بوأته بيــــدى لحدا
ألبســـــــته أثوابه　　وخلقت يوم خلقت جلدا

والبيت السابق عليهما من نفس القصيدة ، وإن كان الكاتب قد أباح لنفسه فيه بعض التغيير إذ أصله :

أغْنى غناء الذاهبيــــن أُعَدُّ للأعداء عَدّا[٢]

ونلفتك إلى التورية التى وردت فى آخر الفصل فى كلمة الأشرف ، فإنه اجتلبها ومهد لها لأن اسم ولىّ العهد « الأشرف » .

وإذا سلمت هذه الكتابة بعض السلامة ، أو كان استكراهها غير ظاهر ، فإنما ذلك لكون كاتبها ابن عبد الظاهر من أوائل كتاب هذا العصر وفى بيان فضله يقول النويرى « وكلامه يكاد يكون لأهل هــذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقته فى البلاغة أسهل طريق ، وفى الفصاحة أوضح محجة » .

ومن استعمال الكتاب للألقاب قول فتح الدّين بن محيى الدّين بن عبد الظاهر فى تقليد الأمير سيف الدّين سلار نيابة السلطنة سنة ٧٠٨ هـ وهو :

---

(١) الورع : الجبان .

(٢) معنىقوله يعد للأعداء : أنهم يقولون خذوا فلانا فانه يعد بألف .

وكان الجناب الكريم العالى الأميرى الكبيرى العالمى العادلى الكافلى المؤيدى الزعيمى الغياثى المسندى الممهدى الثاغرى المظفرى المنصورى مقدم العساكر أمير الجيوش كهف الله حصن الأمة نصرة الملوك والسلاطين (سلار المنصورى) نائب السلطنة المعظمة وكافل الممالك الإسلامية (أعز الله نصره) هو واسطة عقد الأولياء، وسيف الدولة الفاتك بالأعداء .

⁂

وقد اقتصرنا من كتابات هذا العصر على تلك الأمثلة المقتضبة التى تؤيد لك بها ما أثبتناه من خصائص الكتابة فى هذا العصر، ولم نكثر من إيراد النصوص لتلك الكتابة لأنه لا مطمع فيها من فائدة تعود على مطالعها بل ربما جنت عليه الغرام بما أغرم به هؤلاء القوم . لذلك اقتصدنا فيها هذا الاقتصاد .

كتابة التأليف

لها مظهران : أحدهما فى كتب الأدب ، والثانى فى كتب العلم .

فأما فى الأولى فقد قرب فيها المؤلفون من طريقة الرسائل فوشوا أسلوبهم بالسجع فى بعض كتبهم ، أو بعض أبوابها ، وقد التزمه بعضهم كما فعل ابن عرب شاه المتوفى سنة ٨٥٤ فى كتابه « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » يريد تيمورلنك ، وقد وصف فيه فظائعه التى ارتكبها ، والكتاب مطبوع بمصر ولم يكن ذلك دأب كثير من المؤلفين ، وقد حدث مثله فى العصر العباسى ، فقد رأينا كتاب الفتح القدسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وقبله كتاب أبى نصر العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى تاريخ اليمينى .

أما كتابة العلوم فقد تمثل فيها الإيجاز الذى يكاد يكون مخلا فى تلك المختصرات التى جمعت مسائل العلم فى أقل لفظ ، وكان القصد منها سهولة حفظها على الطلاب . ولذلك احتاجت إلى الإيضاح والتفسير بما كتب عليها من شروح وحواش ، وتعقدت الأساليب فى كتب الفاسفة ، والمنطق، والبلاغة. لأن جلّ المشتغلين بها من أهل فارس ، ومن يليهم شرقاً ، وعرفت كتب الفقه فى مذهب أبى حنيفة بالغموض ، وغلبة الألفاظ الدخيلة لـكون هذا المذهب قد شاع بين أهل العراق ، ومن يتصل بهم شرقاً ، وعنى به الأتراك بعد إسلامهم ، كما عرفت كتب الشافعية بالوضوح ، وحسن السبك ، و بلوغ الغاية فى الاختصار ، وذلك لـكون المشتغلين بها هم أهل مصر غالباً وذوقهم فى التعبير، وسليقتهم فى البيان أسلم من غيرهم ، وقد فشا اللحن فى كتابة التأليف مما لا يخفى على صغار طلبة العلم اليوم ، فقول ابن إياس فى تاريخه ، وكان مقدار من قتل فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأر بعة أيام ، وقوله : إن كنتم نسيتونا ، فإنا ما نسينا كم وقوله : اخرج ولاقينى فى الجيزة ، وهكذا مما تراه كثيراً فى كتابه هذا .

الخطابة

فى المدة من ٦٥٦ — ٩٢٣ هـ

بعد انقضاء المدّة الأولى من عهد الدولة العباسية لم يكن للخَطابة شأن يذ كر ، لأن الحاجة إليها فى تأييد الملك والردّ على المعارضين له ، الخارجين عليه كانت قد بطلت باستتباب الملك ، وتوطيد أركانه كما أن الجنود وهم أ كثر من تـكون الخطابة لهم قد أصبحوا أعاجم لا تنفع البلاغة العر بية فى استثارة هممهم ، وتثبيت أقدامهم ، ثم انضمّ إلى ذلك ضعف ملـكات الارتجال فى المتكلمين فبطلت أسباب الخطابة وآلاتها جميعاً .

نعم لم يبق منها إلا خطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء والخسوف والإملاك وهذه كلها قد استقرّت الحال فيها على كلام معد يتوارثه الخطباء طبقة بعد طبقة ، وقد وضع

النابهون منهم صور هذه الخطب موزعة على المواسم وأيام السنة ، فعرف لكل إبان خطبته ، وقد انحطت معانيها إلى جانب عباراتها ، فصرت لا تسمع إلا تهويلا فى أمر الحشر والصراط ، وتخويفاً من عذاب القبر ، من كلّ ما صوّره القصاص ، وتوسعوا فى تخيله ليلقوا به الرعب فى قلوب العامة الذين يقبلون على سماع مواعظهم وخطبهم .

هذه هى حال الخطابة فى أواخر العصر العباسى وما وليه من العصور ، وقد تمثلت لضعفها وجهل القائمين بها غالباً فى عصرنا الذى نحدثك عنه إذا استثنيت فى القطر كله من أقطار المسلمين خطيب المسجد الجامع فى عاصمة بلاده فإنه فى غالب أمره يكون قاضى القوم أو كبيراً من علمائهم يترفع من الجهل و يتحاشى عن اللحن ولـكنه لا يستطيع أن يستقل بارتجال الكلام[1] لأن الملكات قد وصلت من الضعف إلى أن صار التعليم ودراسة العربية لا ينهضان بها ، ولا يتغلبان على نقصها . وفى القرى والبلاد الصغيرة من كل قطر يوكل أمر خطبة الجمعة والعيدين إلى إمام المسجد الذى لا يستعد لموقفه إلا بنصيب ضئيل من العلم عامة ، والعربية خاصة ، فلا يستطيع أن يتحرى الصواب فى عبارة ولو احتفل لذلك .

هذا هو الشأن فى البلاد التى يغلب على جمهورها العنصر العربى ، وتـكون العربية مفهومة لعامتها ، فأما البلاد التى يقل فيها ذلك العنصر أو ينعدم ، فإن الخطبة تلقى بالعربية صورة ، ولا يقصد بإلقائها تأثير ولا إفهام ، وإنما يكون القصد منها تتميم شروط الجمعة من كون خطبتها بلفظ عربى ، ثم يكون من الخطيب أن يخطب قومه بعد ذلك أو قبله باللغة التى يفهمونها فارسية أو تركية على حسب العنصر الذى يغلب فى ذلك البلد .

---

(١) ومن كان قادرا على إنشاء خطبة الجمعة عرف بذلك وعدّ ذلك من مفاخره . فى ترجمة ابن جماعة المولود بحماة سنة ٦٣٩ هـ والمتوفى سنة ٧٧٣ هـ وهو المحدث الفقيه ، الأصولى المفسر . تولى خطابة المقدس ثم طلبه وزير مصر فولاه قضاءها . ثم عاد إلى الشام فولى خطابة الجامع الأموى . قال فى فوات الوفيات (وكان يخطب من إنشائه) .

ولقد كان ذلك حاصلاً منذ زمن بعيد فى كل بلد تكون جمهرة الناس فيه من العرب ، ففى زمن المتنبى أى فى النصف الأول من القرن الرابع كان رجل يتعصب على المتنبى ويكرهه جداً فحلف بالطلاق لا يقيم فى بلدة يسمع فيها اسمه فغادر بغداد مبعداً ، فكان كلما مر ببلدة سمع فيها اسم المتنبى من مستشهد بحكمته أو مجادل فى شعره. وما زال يصعد حتى وصل إلى بلاد لا يتكلم أهلها العربية بتة ، فقال هنا يطيب لى المقام حتى إذا حضر صلاة الجمعة خطب الخطيب بالعربية والتركية ، فكان فى العربية قول المتنبى :

أساميا لم تزده معرفة ... لكنما لذة ذكرناها

فقال الرجل أعود إلى بلادى وأكفّر عن يمينى مادمت لم أجد بلداً يستغنى فيه الناس عن اسم المتنبى وشعره . كذلك الحال فى العصر الذى نحدثك عنه لاترى للعربية ذكراً على منبر الخطابة إلا تابعة متممة لشروط الجمعة ومتهافتة ضعيفة تكاد تموت على لسان قائلها قبل أن تصل إلى أذن سامعها ، بل إن البلاد التى عرفت العروبة ، وصار لها فى القديم صيت ذائع ، وكانت مباءة الأعلام من النحاة واللغويين ، وانتهت إلى أهلها الزعامة فى اللغة صارت على أيامنا هذه مستعجمة ، وامحى مجدها العربى ، وتقوضت أعواد منابرها التى تدفقت منها سيول العربية الفصحى ، فساءت الحال فيها وصار خطيبها كبقية الخطباء جهلا باللغة ونقصا فى ملكتها ، فقد حكى ابن بطوطة الرحالة المشهور المتوفى سنة ٧٧٩ هـ أنه فى حين مروره بالبصرة حضر جمعتها ، فسمع من الخطيب لحناً كثيراً ، فعجب من حال هذا البلد الذى انتهت إليه زعامة النحو ، وامتلأت أسواقه باللُّسْن المقاويل ، كيف يصير أمره إلى هذا الجهل الفاضح ، والركة الشائنة ، فسبحان مقلب الأمور[(١)] .

---

(١) عبارة ابن بطوطة بنصها من كتاب رحلته : « شهدت مرة بهذا المسجد (يريد مسجد على) صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين ، فقال لى إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو ، وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الأشياء ومقلب الأمور . هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه الذى لا ينكر سبقه لا يفهم خطيبها خطبة الجمعة على دأبه عليها .

وقد ظهرت دواوين من الخطب لخطباء من المشهورين فى هذا العصر كالشيخ إبراهيم النحاس خطيب الجامع الأزهر المتوفى سنة ٨١٤ هـ ، وكالعلامة ابن حجر العسقلانى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وكشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ .

وجميع هذه الدواوين بين أيدينا مطبوعة بمصر، وتكاد تجمع على نظام واحد وهو أربع خطب لكل شهر من الاثنى عشر شهراً فى العام، ثم يليها خطبتا العيدين، وخطبة وفاء النيل، وخطبة النكاح، وخطبة تلقين الميت، فكأنهم قد أعدوا لكل موقف مايقال فيه ، يأساً من القدرة على الارتجال من كل من يتقدم لهذه المواقف . اللهم اكفنا السوء ، ولا تعقل ألسنتنا مثل هذا العقل .

نماذج الخطابة فى هذا العصر

الخطبة الأولى لشهر جمادى الدولى من ديوان الشيخ إبراهيم بن بدوى النحاس -

«أما بعد فياعباد الله، إلى متى يا صاح هذا الحرص والأمل ، وقد قرب الرحيل واقترب الأجل ، وكأنك بالعمر وقد مضى وأنت ذاهب . يا غريق الغفلات ، وياغافلا عما هوآت ، إلى متى أنت لاه ولاعب . يا مولعاً بلذاتك ، ومصرًّا على زلاتك ، أما آن أنك تائب . يامقبلا على شهواتك ، وياغافلا عن مماتك ، إن الموت مراقب لك وطالب . يا ناسياً لذنوبك ، وياغافلا عن عيوبك ، ستتضح لك والله العواقب . يا مرائياً فى العمل ، ومتستراً بالحيل ، أما علمت أن الرقيب عليك راقب . أما علمت أن الناقد بصير ، وأنك محاسب على التقصير ، وأن الله هو المحاسب. فأفق رحمك الله مما أنت فيه من الغرور ، واستعد لما أنت لاقيه يوم البعث والنشور ، وتب مما أنت كاسب . فوالله لولا رحمته سبقت الغضب ، وفيضه لا يخص من طلب ، لصب على

العصاة المصائب . فتداركوا رحمكم الله أموركم ، والزموا التقوى حيث كنتم ، فالله سبحانه مطلع عليكم ، وعالم بما أخفيتم وما أعلنتم . لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما رب المشارق والمغارب » .

ومن خطب العلامة ابن حجر العسقلانى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ خطبة للنيل المبارك :

« الحمد لله العظيم القادر الحسيب الجليل ، الذى أسبغ على عباده فضله وكرمه الجزيل ، الحكيم ومن حكمته إجراء هذا النيل ، أنزله من الجنة بقدرته ، وأرسله لنفع العباد كما أراد ، فليس له شبيه ولا مثيل ، أحمده حمداً يبرى السقام ويشفى العليل .

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق الوكيل ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الممدوح فى التوراة والإنجيل والتنزيل ، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما استبان السبيل ، واتضح الدليل .

أيها الناس ، إن لله عليكم نعماً لا تعرفون لها قدراً ، ولا تطيقون لمكافأتها حمداً ولا شكراً ، أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة عليكم تَتْرى ، واطلع على أعمالكم فأسبل حلمه عليكم عذراً ، وصفحاً وستراً ، فلو احتبس هذا النيل عن وفائه ولو شيئاً نَزْراً ، لما استطعتم عنه صبراً ، فتأملوا كيف ملأ الأودية مدًّا وجزراً ، وعمّ البلاد بطناً وظهراً . فسبحان من أنزله من بحر عظمته إلى سماء مملكته ، بكيل مكيول ، ووزن موزون ، ويعلم عدّة قطراته ، وعلى كلّ قطرة ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون ، يُنزله من جبال شواهق مرتفعة ، فتقذفه إلى أرض منخفضة وأودية منقطعة ، لا سائق من الآدميين يسوقه ، ولا حارس له فى الليل والنهار يقلقه أو يعوقه ، إلى أن يأتى أرض مصر ينفع من فيها ، فترى خرير تياره ينادى فى نواحيها ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .

الشعر والشعراء

فى المدّة من ٦٥٦ إلى ٩٢٣ هـ

• شأن الشعر ومنزلة الشاعر

كان الشعر العربى رائجاً أيام كان الرؤساء من ملوك وأمراء وولاة ، عربا تترنح أعطافهم ، وتتطاول أعناقهم لتلك الديباجة العربية ، والنغمة البدوية ، وحين كان الشعر مرآة مصقولة تظهر فيها محاسن الممدوحين .

والمَرَايَا تُرِى الجميلَ جميلا ۔ وكذا كمْ تُرِى القبيحَ قبيحا

وأيام كان الأمير العربىّ يرتاح للمدح ، فيهزّه الشاعر هزّ الكمىّ عالية الرمح ، فلو كانت نفسه فى يده لجعلها من عطاياه ، وسيّرها إلى الشاعر فى منحه وهداياه .

وقد بدأت تنقضى تلك العهود بعد المدّة الأولى من العصر العباسى حتى رأينا ابن الرومىّ يشكو من مماطلة الممدوحين وتقصيرهم فى تقدير الشعر ، ولكن قد بقى مع ذلك للشعر جانب كبير من هيبته فى النفوس ، فمن لم يجد اختياراً ، جاد اضطراراً ، ولم يحرم العصر من ملوك عرب أعادوا للشعر شبابه ، كما كان من الدولة الحمدانية بحلب ، فإنها قد أقامت للأدب سوقاً كانت قد درست معالمها وامّحت آثارها ، وكما كان من الفاطميين بمصر الذين حدبوا على الشعر حدباً ظهر فى مواسمهم التى أقاموها له ، وعطاياهم التى أغدقوها على قائليه .

فأما عصرنا الذى نحدثك عنه ، فقد حرم فيه الشعر العون والنصير ، إذ أصبح كلّ رؤسائه أعاجم لا يمتون للعربية بصلة إلا صلة البغض والحنق ، لأنها قضت على

لغاتهم وأبادت آدابهم، حتى لقد ناهضوها فلم ينهضوا، وقاوموها فلم يفلحوا. ومن أخلص لها منهم كان كالمريض يجد الماء الزلال فى فيه مرًّا ، فلم يستطع لها نصراً .

ولا يغرنك ماذكرنا لك من كون العربية : هى لسان الحكومة الرسمى فى مصر والشام، فقد كان إلى جانب ذلك رِطانة وطُمْطُمانِيّة تشغل ألسنة هؤلاء الحكام عن الفصحى ، ولم يكن جعل العربية لسان الحكومة إلا مظهراً من مظاهر إرضاء الشعوب ، كما كان مظهر الخلافة بمصر من حيل السياسة لجمع الأهواء حول المماليك الذين أرادوا أن يمكنوا لأنفسهم فى هذه البلاد .

لذلك لا تكاد تسمع بواحد منهم اتخذ شاعراً واختص به كما كان الحال فى الخلفاء والأمراء فى العصر العباسى حين كان لكل خليفة أو أمير شاعر يؤثره ويحضره مجلس منادمته ويجعل له ميزة على غيره من الشعراء الذين يجلس لهم مجالس عامة فى المواسم والأيام المشهورة ، إلا المؤيد صاحب حماة من أولاد صلاح الدين فإنه اصطفى ابن نباتة وقربه منه .

كذلك كنا نجد فى العصور التى عرفت بنصرة الأدب والشعر فى الشرق والغرب، أن خلفاء وأمراء لم يكتفوا بالحدب على الشعر والشاعر ، ولم يقف إعجابهم بهذا الفنّ الجميل عند الارتياح لسماعه ، والتشجيع للمبرز فيه ، بل كانوا يقولونه بهدى السليقة إذا كانوا عرباً ، ومحاولة وارتياضاً إذا كانوا عجماً ، قد تذوّقوا محاسن العربية وأدركوا جمالها . ولكننا إذا تتبعنا المماليك وهم سلاطين هذا العصر الذين تحيا العربية فى ظل حكمهم ، لا نجد منهم من أتقن العربية وراض نفسه على قول الشعر فيها إلا قنصوه الغورى آخر مماليك الجراكسة ، فإنه قد عرف له ديوان باسمه .

هذه هى منزلة الشعر مدة هذا العصر فى رأى ملوك الزمان ، لا يأبهون له ولا يقيمون له وزناً . وإذا احتفلوا لسماع شىء من القول الموزون ، فإنما يرتاحون إلى

العامى من ذلك ، وهو الأزجال والمواليا وغيرها ، مما راجت سوقه فى عهدهم ، لأن لغة هذه الأنواع هى أقرب الكلام إلى أفهامهم .

لذلك نرى الشعراء وقد يئسوا من رواج أدبهم وعدموا الوسيلة فى التكسب به قد اندسوا فى غمار الناس وتناولوا حرفهم ، فكان منهم : الكحال ، والدهان ، والجزار ، والحمامى . نشئوا فى هذه الحرف وظهرت مواهبهم الشعرية ، فلم يأخذ العصر بضَبْعهم ولم ينهضهم من حضيضهم كما كان الشأن قديماً فى مثل هؤلاء ، فقد كانوا إذا ظهرت فيهم هذه الموهبة استبدلوا بعيشهم الضنك رخاء ، و بمهانتهم شرفاً ، وصاروا جلساء الملوك بعد التسكع فى الأسواق والتصرف بأنواع السلع ، وممتهن الحرف .

فشعراء هذا العصر فقدوا طابعهم الخاص من الفراغ ، وخلوّ البال ، واطراح تكاليف الحياة بالخروج إلى غِمارها المائج ، ومعتركها المتدافع ، وكان الشعراء قديماً لا همّ لهم إلا اللذات يجمعون أسبابها ، ومجالس الطرب يحرصون على إقامتها ، والرياض يكثرون الغدو والرواح إليها ، والخمر ينطقون بها شياطينهم ، فتجرى على ألسنتهم تلك الحلاوة التى لا يستمرئها خلق ، ولا دين .

هذه هى بيئات الشعر التى تنمو فيها جراثيمه وتشع خيالاته ، فأما الحقيقة ، وأما الجد ، وأما تقسم المرء بين هموم الحياة وحمله لأعبائها ، وجره لأثقالها ، فتلك أمور تبدد ذلك الحلم اللذيذ الذى يسبح فيه خيال الشعراء .

لقد كانت هذه الحال جديرة أن تبطل باعث الشعر فى النفوس ، ولكنا رأينا له سوقاً قائمة لا فى قصور الأمراء ومجالسهم ، ولكن فى أندية الشعر و بين جماعة الشعراء يلتقون ليطلع كل صاحبه على ما جادت به قريحته ، و يكثر منهم تطارح الشعر والمباراة فى قوله ، و يعنى كل بما يقوله صاحبه فيتتبعه ولو بعدت الشقة بينهما . فإذا ما أعجبه من قوله معنى سرقه ، وتلطف فى استعماله بتغيير وزنه ، وتقديم وتأخير فى ترتيبه ، أو حذف منه ، أو زيادة عليه .

وتلك حال تدل على أمرين : أحدهما الفقر فى المعانى والجدب فى الخيال ، والثانى اعتياد التقليد ، وانتحال معانى الشعر . حتى تعدّى ذلك نبش قبور الموتى إلى الإغارة على الأحياء وغصبهم ما تعبوا فى تحصيله .

وقد ألحّ صلاح الدين الصَّفَدِىّ[١] بالشام على معانى جمال الدين بن نُبَاتة[٢] بمصر فلم يترك له معنى حسناً إلا أغار عليه حتى اضطرّ جمال الدين أن يؤلف كتاباً يجمع هذه السرقات سماه « خبز الشعير » ، واستهله بقوله تعالى : « رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً » ، ثم بنى كتابه على قوله : « قلت أنا » فأخذه صلاح الدين وقال فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين « قلت » :

وَمُولَعٍ بفِخَاخٍ ... يَمُدُّهَا وشِبَاكِ
قالتْ لِىَ العَيْنُ ماذا ... يَصِيدُ قُلْتُ كَرَاكِ

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

أغار على سَرْحِ الكَرَى عند ما رَمَى ... كَرَاكِى غزَالٌ للبدور يُحاكِى
فقلتُ أُرْجِعِى ياعين عن وَرْدِ حُسْنِهِ ... ألم تَنْظُرِيهِ كيف صادَ كَرَاكِى

ومن ذلك قوله « قلت » :

إسْعَدْ بها يا قَمَرِى بَرْزَةً ... سعيدةَ الطالِع والغارِبْ
صَرَعْتَ طيراً وسكنْتَ الحشى ... فما تعدَّيتَ عن الواجبْ[٣]

---

(١) الصفدى ولد بصفد وتولى ديوان الإنشاء فيها ثم فى القاهرة ثم فى حلب ، وهو عالم جليل له كتاب الوافى فى الوفيات ولعله أكبر كتاب فى التراجم، وليس يوجد كاملا، وكذلك التذكرة الصلاحية ناقصة أيضا . وله كتب كثيرة : منها تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون الجدية صدرها بمقدمة طويلة فى حياة ابن زيدون ونقد شعره ورسائله . توفى سنة ٧٦٤ هـ .

(٢) ابن نباتة المصرى كاتب وشاعر . له ديوان شعر مطبوع وكتاب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية توفى سنة ٧٦٨ .

(٣) طيور الواجب أربعة عشر طائرا ، وهى على ضربين : طيور الشتاء وهى : الكركور والإوز واللغلغ الخ وسميت طيور الشتاء لكثرة وجودها فيه. والضرب الثانى طيور الصيف وهى الكى والغرنوق ، والمرزم ، والشبيطر (راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٦٢).

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال من البحر :

قلت له والطير من فوقه يَصْرَعُه بالبُنْدُق الصَّائِبْ
سكنت فى قلبي فحرّ كْتَهُ فقال لم أخرج عن الوَاجِبْ

وأحسن ماوقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :

بروحى عاطرُ الأنفاسِ ألْمَى مَلِيٌّ الحسن حالى الوَجْنَتَيْنِ
له خالانِ فى دِينارِ خَدٍّ تُباعُ له القلوبُ بحَبَّتَيْنِ

فأخذه الصلاح وقال :

برُوحِى خَدُّهُ المُحْمَرُّ أضحَتْ عليه شَامَةٌ شَرْطُ المَحَبَّهْ
كأن الحُسْنَ يَعْشَقُه قديمًا فنقَّطـــــه بدينارٍ وحَبَّهْ

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح سرق ، كما يقال من الحبتين حبة .

أغراض الشعر

فى هـــذه المدة

قد كان الشعر فى هذا العصر تقليداً لا استقلال فيه ، وصدى لاحياة به ، وصورة معكوسة للشعر فى الأيام الخالية . وأجدر به إذ كان كذلك ألا يكون فيه اختراع ولا تجديد . بل لقد فقد تلك الروحانية التى تراها سارية فى كل قول صادر عن قلب مؤمن بمـا يقول ، متأثر بالفكرة التى ينادى بها ويعبر عنها .

ولقد كان التقليد فى شعر هذا العصر ظاهراً جليًّا حتى رأينا كل تقى ورع لم ير الخمر ولم يلمّ بمجالسها ، قد قال فى وصفها ونبش عن معانيها قبور الدواوين القديمة فجلاها كما نجلو المومياء فى نواويسها وراء الزجاج ، كذلك رأينا الشيخ المتعبد الذى لم

يزنّ بريبة قد أشهد على نفسه بالفسق واتهمها تهمة قوم لوط فتغزل بالمذكر وكشف في غزله عن عورات وأتى بما لم يكن من المشيعين للفاحشة بين الشعراء السابقين . . .

وما بال هذا الذى يقيم بالقاهرة مثلا ، وينتقل فى أحيائها على حماره الحصاوى ، أو بغلته الفارهة ، أو مهره الأرن يكلف نفسه وصف الناقة كما وصفها طرفة ويدعى أنه اخترق بها الصحراء فسفعته بهجيرها إلى غير ذلك من المعانى التى لم يجد حسها .

فلست ترى من معنى تناوله السابقون واستطاع هؤلاء الاعتداء عليه إلا فعلوا ذلك ، ولكنّ كثيراً من المعانى أبية لا يضبط شاردها إلا لفظ قوى وتعبير متين وهم لا يملكون هذه الأداة، فلذلك لاتجد لهم الحكمة العميقة ولا الفكرة البعيدة ولا الخيال الممعن ولا المعنى الدقيق ، بل كل معانيهم قريبة سهلة قرب ألفاظهم وسهولتها .

ومن أثر التقليد فيهم ألا ترى غرضاً من أغراض الشعر إلا قالوا فيه ، فقد تغزلوا وأفحشوا ولو لم يكن الفحش من صفات قائله، ووصفوا الخمر وإن لم يذقها واصفها، وتحمسوا وإن لم يشهد متحمسهم حربًا ولم يقبض على قائم سيف ، وفخروا كذلك وإن ضربت عليهم الذلة والمسكنة .

ولست تراهم صادقين إلا فى نوع من المدح كثر فى أيامهم ، ولكنهم فى رأيى مقلدون لأول من تنبه له ، وهذا النوع هو مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . بدأ به الإمام محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ فتتابع الشعراء بعده يقولون فى هذا المقام الهائل ، ولكنهم يفقدون فى قصائدهم حرارة الوجد ، واستشعار هيبة الممدوح حين حملوا القول فيه غرضاً آخر سخيفاً ، وهو حصر أنواع البديع ، وجعل أبيات القصيدة أمثلة لها ، وهم فى هذا أيضاً مقلدون لأول مجترئ على هذا المقام العظيم ، صارف لألفاظه ومعانيه إلى تلك الناحية النازلة .

وهذا حديث يحتاج إلى تفصيل .

ذلك أن البوصيرى قال قصيدته الميمية التى أولها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بذى سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمِ (١)

فجاءت رصينة فى تركيبها شريفة فى معانيها ، فكانت مدحاً لائقا بالنبى صلى الله عليه وسلم.

فلما اشتهرت القصيدة وشاع لها حديث بين القوم حرصوا على تقليدها وهم مقلدون بفطرتهم ، فجاء صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ ﻫ ، فكان أول من زاحم مدح رسول الله بغرض آخر : وهو حصر أنواع البديع والتمثيل لها فعمل بديعيته التى أولها :

إِنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عَنْ جِيرَةِ العَلَمِ وَاقْرَ السَّلاَمَ عَلَى عُرْبٍ بِذِى سَلَمِ (٢)

ثم جاء بعده جمال الدين بن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ ﻫ ، فعمل بديعيته التى أولها :

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلاَ نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ ولَمْعَةُ بَرْقٍ بالغَضَا تَتَسَعَّرُ

ثم جاء بعده عزّ الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩ ، فجرى على نهج الحلى ، وزاد عليه أن جعل البيت من قصيدته يحمل اسم النوع البديعى ومثاله وأول هذه البديعية :

بَرَاعَةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمْعَ فى العَلَمِ عِبارَةٌ عن نِداءِ المُفْرَدِ العَلَمِ

ثم جاء بعده ابن حِجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، فكان أول بديعيته التى راعى فيها ما راعاه عز الدين الموصلى قوله :

لِى فى ابْتِدَا مَدْحِكُمْ ياعُرْبَ ذِى سَلَمِ بَرَاعةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمْعَ فى العَلَمِ

ثم جاء بعده الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ﻫ ، فعارض بديعية الحموى بأخرى أولها :

مِنَ العَقِيقِ ومن تَذْكَارِ ذى سَلَمِ براعةُ الْعَيْنِ فى استهلالها بِدَمِ

ثم جاءت الشيخة الصالحة السيدة عائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٣ ﻫ ، فكانت لها بديعية أولها :

فى حُسْنِ مَطْلَعِ أَقْمَارِى بذِى سَلَمِ أَصبحتُ فى زُمْرَةِ العُشاقِ كالعَلَمِ

هذا هو حديث تلك المدائح النبوية التى انقلب جدها هزلا .

---

(١) ذو سلم : موضع بالحجاز.

(٢) سلع : جبل بالمدينة .

⁂

ومن الأغراض الظاهرة فى شعرهم الوصف ، ولكنهم تركوا عظائم الأمور ، وجلائل الأشياء مما يحتاج إلى اللفظ الرائع ، والسبك البديع ، والخيال الجائل ، واكتفوا بالأمور التافهة التى لا تكلفهم من ذلك شيئاً فوصفوها ، كما قال شهاب الدين الحلبى فى سبحة :

وسُبْحَةٍ مُسْوَدَّةٍ لَوْنُها يَحْكِى سَوَادَ الْقَلْبِ والنَّاظِرِ
كأننى عند اشتغالى بها أَعُدُّ أَيَّامَكَ يا هَاجِرِى

وكما قال محمد بن سوار بن إسرائيل المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ، بدمشق ، فى مروحة :

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد وفى القُرِّ تجفوها أكف الحبائب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً أتت بالهوى الممدود من كل جانب

وكما قال النَّوَاجِىّ[1] القاهرىّ المتوفى سنة ٨٤٩ أو ٨٥١ هـ يصف مِخَدَّة :

هِىَ نَفْعٌ وَلَذَّةٌ للنفوسِ وحَيَاةٌ وَرَاحَةٌ للجَلِيسِ
كَمْ نَدِيمٍ أَرَحْتِهِ باتِّكَاءٍ وتَوَاضَعْتِ عِنْدَ رَفْعِ الرُّءوس

وقال ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، يصف المصلى (السجادة) :

سَجَّادَةٌ أَذْكَرَتْنِى منك الذى كنت أَعْلَمْ
أَهْدَيْتَهَا لِمُحِبٍّ صَلَّى عَلَيْهَا وَسَلَّمْ

وكما قال ابن نباتة فى دواة فولاذ :

دَوَاةٌ لها جِنْسُ الحَدِيدِ وبَأْسُه وزَادَتْ عليه فى النَّدَى فَهْىَ أَبْهَرُ
وكَمَّلَ مَعْنَاهَا يَرَاعُكَ مُنْشِئاً فَفُولاَذُها فى الْحَالَتَيْنِ مُجَوْهَرُ

كذلك عمدوا فى شعرهم إلى الإلغاز ، وهو غرض لم يبتدعوه فقد تبعوا فيه العباسيين

(١) من قرية نواج بمديرية الغربية .

فى آخر أيامهم حين وَلِعوا به وأكثروا منه وهو من الأمور التى يشتغل بها الشاعر حين تفوته المعانى الجليلة والأغراض السامية وهو إلى التنادر والفكاهة أقرب منه إلى حكمة الشعر، وروعة معانيه . لذلك تراهم قد أكثروا منه كثرة رائعة، واختبر بعضهم ذكاء بعض بالمطارحة لهذا النوع .

قال جمال الدين بن نباتة ملغزا فى قلم :

مَوْلَاىَ ما اسْمٌ لِناحلٍ دَنِفٍ ما به عِــــلَّةٌ وَلاَ سَقَمُ
لسانُ قومٍ فإن حَذَفْتَ وَإنْ صَحَّفْتَ بَعْضَ الحُرُوف فهو فَمُ

وقال بعضهم فى الضرس :

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدهرَ صُحْبَتَهُ يَشْقَى لِنَفْعِى وَيَسْعَى سَعْىَ مُجْتَهِدِ
لم أَلْقَهُ مــذ تَصَاحَبْنَا فَمُذْ وَقَعَتْ عَيْنِى عليهِ تَفَارَقْنَا إِلَى الْأَبَدِ

وقال المعز المرحومى الأمينى صاحب ديوان الإنشاء الشريف بدمشق ملغزا فى فاختة :

وما طائرٌ يَهْوَى الرياضَ تَنَزُّهاً وَيُسْرِعُ فى أفنانها وَيُغَرِّدُ
هجاء اسمه خمسٌ حروفٌ تَعُدُّها وَخُمْسَاهُ حَرْفٌ إِنْ تَأَمَّلْتَ مُفْرَدُ
وبعدهما تصحيفُ باقيهِ إِنْ تُرِدْ بياناً له أَفْعَى تُبِينُ وَتَشْهَدُ
وفيه أخٌ إِنْ تُهْتَ عَنْهُ فَأُخْتُهُ تَدُلُّ على مَا قَدْ عَنَيْتُ وتُرْشِدُ

وممـا يدلّ على أن نظرتهم للشعر كانت منصبة على وزنه وقافيته ، وأنهم لا يحفلون بجليل معانيه ، ولا ما ينبغى أن يتناوله من شريف الأغراض ، وسامى المقاصد ، ماشاع فى عصرهم من نظم العلوم : كالنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والفقه ، والحساب ، وقد نشأ ذلك عن اشتغالهم بالعلوم فى هذه الأيام ، وشدة رغبتهم فى تسهيل سبلها على الطلاب ، فإنهم حين لم يجدوا الادماج والاختصار فى النثر وافياً بالغرض مؤديا للسهولة المطلوبة عمدوا إلى النظم . فرأينا الألفية ، والكافية الشافية ، ولامية الأفعال لابن مالك ، وألفية ابن معط ، والشاطبية فى القراءات ، ومفتاح التلخيص للسـيوطى

(وهو مخطوط بدار الكتب المصرية) ، ونظم زين الدين الحلبى المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ ، للتلخيص أيضاً المسمى « نظم التلخيص » وهو ألفان وخمسمائة بيت كما ذكره صاحب كشف الظنون .

ولا نرى داعياً للتمثيل لما جاء فى هذه الكتب فهى بمتناول يدك .

لفظ الشعر وأسلوبه

لان لفظ الشعر فى هذا العصر ليناً غير محمود، وهو لين الضعف والعجز عن الجزالة، فقد بعد عهد هؤلاء الشعراء بالعروبة وقل نظرهم فى شعر الفحول ، ففقدوا التماسك فى قولهم وانتهى بهم الحال إلى الركة ، وألفاظ العامة لا يتحرجون عنها ولا يصونون شعرهم من دنسها ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا حين صار الشعر حمى مباحاً يصل إليه كل من استطاع أن يقيم وزنه .

وقد كان البهاء زهير فى العصر السابق لهذا ، أول من اختط برقة طبعه هذه السهولة ، ولكنها سلمت له فى كثير من قوله لسلامة ملكته ، فلما قلده الشعراء أو اضطروا بعجزهم إلى السير على نهجه وقع كثير منهم فى العامية الصريحة كما قال ابن الوردى :

وتاجر شاهدت عشاقه ... والحرب فيما بينهم سائرْ
قلت علام اقتتلوا هكذا ... قال على عينك ياتاجرْ[1]

وقوله :

قلت وقد عانقته ... عندى من الصبح فَلَقْ

---

(١) التورية فى لفظ عينك، فالمعنى القريب فى قوله على عينك ياتاجر انظر إلى ماتسأل عنه فهو أمامك، والمعنى البعيد أن القتال حاصل من أجل عينك الجميلة أيها التاجر .

قال وهل يحســـدنا   قلت نعم قال أُنْفَلَق[1]

وقال الشاب الظريف :

لم أنسَ لمّا زارنى مُقبِلاً   أولانىَ الوصل وما أَلْوَى
وقعتُ بالرَّشْفِ على ثغرِه   وقْعَ المساطيلِ على الحَلْوَى

وقال البوصيرى :

إليك أشكو حالَنا إننا   عائلةٌ فى غاية الـكَثْرهْ
أُحَدِّثُ المولى حديثاً جرى   لى معهم بالخَيْطِ والإبرهْ
صاموا مع الناس ولـكنهم   صاروا لمن أبصرَهُمْ عِبرهْ

وقال جمال الدين بن نبَاتة :

وكَمْ ذِى كتابٍ فى الورى وكتيبة   غدا داخلاً فى موته تحت مَكْتُوبِ

وقال فيمن طلق زوجته وكان اسمها دنيا :

ظَلَمْتَ دنياك وطَلَّقْتها   فأصبحت لادنيا ولا آخرهْ

أما أساليبهم فإنهم قد تعمدوا فيها أن تـكون أمثلة لأنواع البديع التى حرصوا عليها وأغرموا بها ، بل لقد كانت هى أغراضهم الأولى فى كثير مما قالوا خصوصاً المقطوعات فليس للفكرة فيها قيمة ، ولا عليها تعويل ، وإنما هى وسيلة لإظهار نوع من تلك الأنواع يباهى به الشاعر إخوانه ، ويريهم فيه صورة من حذقه .

والأنواع التى كثرت فى شعرهم هى .

(١) انفلق بفتح اللام أمر على لهجة المصريين ، أو هو ماض على وزن انفعل ، ويكون المعنى أنه يخبر بحصول الانفلاق له والانفلاق هو الانشقاق .

التورية

وقد طاروا بها عجباً، وادعوا لأنفسهم فضلها، وأن السابقين لم يكونوا أهلا لاجتلاء محاسنها، ولا قادرين على إبراز جمالها، وأنهم هم سباق حلبتها، والمبرزون فى ميدانها، وما دروا أنهم بهذا الغرام قد أفسدوا أذواقهم، وأغمضوا المراد فى قولهم، وصار هذا الحسن الذى يباهون به عيباً نعده عليهم.

ومن إعجاب هؤلاء القوم بقدرتهم على التورية ما نراه فى قول أحدهم وهو تقى الدين بن حجة الحموى قال: « . . . لأن هذا النوع أعنى التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء، وأعيان الكتاب، ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب، وأعلاها مرتبة، وسحرها ينفث فى القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة ... ثم يقول فى مقام آخر بعد أن يوازن بين أمثلة من التورية وقعت للسابقين وأخرى لأهل زمانه « قلت ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية، وأطلعوا شموسها، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها. وقيل إن القاضى الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه (كذا) ونثره » ويقول صلاح الدين الصفدى فى كتابه « فض الختام عن التورية والاستخدام » .

« ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامى المرام.

نَوْعٌ يَشُقُّ عَلَى الْغَبِيِّ وُجُودُه   من أى باب جاء يَغْدُو مُقْفَلاَ

لا يفرع هضبته فارع، ولا يقرع بابه إلا من تنحو البلاغة نحوه فى الخطاب، وتجرى ريحها بأمره رخاء حيث أصاب، وقد دل كلام ابن حجة والصفدى على أنهما يدركان

قيمة هذا النوع ، وأثر الحذق فى صياغته وإحكامه ، ويفخر ابن حجة بأن أهل عصره هم الذين جلوا محاسن التورية ، وأزاحوا عنها حجبها ، ويكفى أن يكون هذا إعجابهم بهذا النوع حتى يلحوا فيه ، وإذا ألحوا فيه خرج بهم إلى الغموض والكراهة التى من أجلها عيب شعرهم .

قال ابن حجة : فمن مخترعات القاضى الفاضل فى التورية قوله من مديح قصيدة طائية وهى نكتة لم تختلج فى صدر غيره وهو :

أَمَّا الثُّرَيَّا فَنعلٌ تَحْتَ أَخْمَصِهِ   وَكُلُّ قافيةٍ قالتْ لذلك طا

وهذا الذى يعجب به ابن حجة قول سخيف ظاهر التكلف ، لأن القافية لم يكن لها ذكر فى البيت لولا أنه أراد أن يمهد بها لقوله (طا) .

ويقول فى شأنه أيضاً .

ومنه قوله وقد أجاد إلى الغاية :

هَلِ السُّيُوفُ عُيُونٌ فى الجُفُونِ لَكُمْ   فَإِنَّهَا لِقِرَابِ البغْيِ تَرْتقِبُ

ولا أرى الغاية التى وصل إليها القاضى الفاضل فى هذا البيت ، إلا غاية الركة فى اللفظ ، والسخف فى المعنى ، وما جنى عليه ذلك إلا تقيده بالألفاظ التى تحقق له التورية ، وهى كلمتا الجفون والقراب .

وليس معنى نقدنا لهذين المثالين من كلام القاضى أن كل أمثلة التورية التى وقعت فى كلام القوم منتقدة ، فقد سلمت لهم منها أمثلة دلت على المهارة ، وسلامة الذوق ، ولطف المدخل ، وما نعيب التورية إلا لأجل الإلحاح فيها ، وكدّ الخاطر بسببها :

ومما نراه حسناً منها قول ابن سناء المُلْك المتوفى سنة ٦٠٨ ﻫ .

أَمَا وَاللهِ لَوْلاَ خَوْفُ سُخْطِكْ   لهَانَ عَلَيَّ مَا أَلْقَى بِرَهْطِكْ
مَلَكْتَ الخَافِقَيْنِ فَتِهْتَ عُجْباً   وليس هما سوى قَلْبِي وَقُرْطِكْ

وقول نصير الدين الحمامى المصرى المتوفى سنة ٧١٢ ﻫ ، وكتب به إلى السراج الوراق وكان مقيماً بالروضة :

كم قد ترددت للباب الكريم لكى   أبلّ شوقى وأحيى ميْت أشعارى
وأنثنى خائباً مما أؤمـــله   وأنت فى روضة والقلب فى نار

وقول السراج الوراق المصرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ، فى شخص اسمه عرفات :

أطنبوا فى عَرَفَاتٍ فغدوا   يَتَعَاطَوْنَ لَهُ حُسْنَ الصِّفَاتْ
ثم قالوا لى هل وافقتنا   قلت عندى وَقْفَةٌ فى عَرَفَاتْ

وقول شمس الدين محمد بن العفيف الملقب بالشاب الظريف المتوفى بمصر سنة ٦٨٨ هـ :

يا ساكنا قلبى المعنى   وليس فيه سواه ثان
لأى معنى كسرت قلبى   وما التقى فيه ساكنان

الاستخدام

وهو قسيم التورية فى عناية أهل مصر والشام من المتأخرين من أهل هذا العصر الذى نتحدث عنه ويقول صلاح الدين الصفدى فى هذا المقام .

« أما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما وتيقظ ، وتحرى وتحرر وتحفز وتحفظ إلا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتضلع من العلوم ، وتطلع من كل باب . وأظن القاضى الفاضل هو الذى ذلل للناس منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب » .

وقد عد ابن حجة فى محاسن الاستخدام قول جمال الدين بن نَباتة من مدحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذا لم تَفِضْ عَيْنِى العقيقَ فَلَا ارْتَوَتْ   مَــنَازِلُه بالقُرْبِ تَبْهَى وَتَبْهَرُ
وإنْ لم تُوَاصِلْ عادَةَ السَّفْحِ مُقْلَتِى   فلا عَادَها عَيْشٌ بمَغْنَاه أخضرُ

ثم يقول فى التعليق عليه : انظر أيها المتأمل إلى صحة الاشتراك بين الاستخدامين وانسجام البيت الأول مع الثانى وسيلان الرقة لذا القطر النباتى والتشبيب المرقص بالمنازل

الحجازية والغزل الذى يليق أن تصدر به المدائح النبوية » وقد أصاب ابن حجة فى تقريظ البيتين والإشادة بشأنهما فإن الاستخدام فيهما حسن سليم من التكلف .

ومنه قول صفى الدين الحلى فى بديعيته :

من كُلِّ أَبْلَجَ وارِى الزَّنْدِ يومَ قِرًى   مُشَمِّرٍ عنـــه يوم الْحَرْب مُضْطَلِمِ

وقول عز الدين المَوْصلى أيضاً :

والْعَيْنُ قَرَّتْ بِهِمْ لَمَّا بها سَمَحُوا   واسْتَخْدَمُوهَا مع الأعدا فَلَمْ تَنَمِ

وقول ابن حجة كذلك :

اسْتَخْدَمُوا العين مِنِّى فَهْىَ جارِيَةٌ   وكَمْ سَمَحْتُ بها أيامَ عُسْرِهِمُ

ومما سلم من هذا النوع أول البيتين من قول الحلى :

لَئِنْ لَمْ أُبَرْقِعْ بِالْحَيَا وَجْهَ عِفَّتِى   فَلاَ أَشْبَهَتْهُ رَاحَتِى فى التَّكَرُّمِ
ولا كنت ممن يَكْسِر الجَفْنَ فى الوغى   إذا أنا لم أغضضه عن رأى مُحْرَمِ (١)

وأرى أن الاستخدام وعر المسلك ولم يختص المتأخرون بفضيلته بل كان من القدماء من أجاده ، وانطبع قوله فيه أكثر من المتأخرين كما فى قول جرير :

إذا نَزَلَ السماءُ بأرض قومٍ   رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غِضَابا

وقول البحترى :

فسقى الغَضَا والسا كِنِيهِ وإن هُمُو   شَبُّوه بين جــوانحى وضلوعى

وقد أنصف ابن حجة البحترى فى هذا البيت ، فإنه رواه وروى قول ابن جابر الأندلسى :

إن الغضا لَسْتُ أَنْسَى أَهلَهُ فَهُمُ   شَبُّوه بين ضلوعى يوم بَيْنِهِمُ

ثم قال : أقول لو عاش البحترى ما صبر للعميان على هذه السرقة الفاحشة ، فإنهم أخذوا لفظه ومعناه وضميره وما اختشوا من الحرج ، ولا سلموا من النقد .

---

(١) رأى بمعنى رؤية ، والمحرم من أحرم الشىء بمعنى جعله حراما .

الاقتباس والتضمين

(وهما شعارهم فى النثر والنظم) وقد فصلنا القول فيهما عند كلامنا عن الكتابة فلنورد هنا من الأمثلة ما يقنعك بأن القوم أكثروا من هذين النوعين فى الشعر إكثارهم منهما فى النثر .

فمن الاقتباس قول ابن نباتة المصرى :

وأَغْيَدَ جارَتْ فى القلوب لِحاظُهُ ... وأسهرتِ الأجفان أجفانُه الوَسْنى

أَجِلْ نَظَرًا فى حاجبيه وطَرْفِهِ ... تَرَى السِّحْرَ منه قابَ قوسين أو أدنى

وقول ابن الوردى ، وقد مات بحلب سنة ٧٤٩ هـ :

رُبَّ فَلَّاحٍ مَلِيحٍ ... قال يا أهــــل الفُتُوَّهْ

كَفَلِى أَضْعَفَ خَصْرِى ... فأعينــــونى بقُوَّهْ

وقول ابن حَجَر العَسْقَلَانىّ :

خَاضَ العَوَاذِلُ فِى حَدِيثِ مَدَامِعِى ... لما جرَى كالبَحْرِ سُرْعَةُ سيرِهِ (١)

فحبسته لأصون سِرَّ هواكم ... حتى يَخُوضوا فِى حديث غــيرِهِ

وقول ابن عبد الظاهر فى معشوقه نسيم :

إنْ كانت العشاقُ فى أشواقهم ... جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولاَ

فأنا الذى أَتْلُو عليهم ليتنى ... كنت اتخذتُ مع الرسول سبيلا

وقول ابن عفيف التلمسانى .

يا عاشقين حاذروا ... مُبْتَسِمًا عَنْ ثَغْرِهِ

فطَرْفُه الساحر مــذ ... شَكَكْتُمُ فِى أَمْرِهِ

يريد أن يخرجكم ... من أرضكم بسحره

---

(١) سرعة مبتدأ خبره كالبحر .

ومن التضمين قول ابن خلكان :

كم قلتُ لمَّا أطْلعَتْ وَجَناتُهُ حولَ الشقيق الغضِّ رَوْضَةَ آسِ
أعذارَه الساري العجول بخده ما في وقوفك ساعة من باسِ

وقول صلاح الدين الصَّفَديّ :

دَبَّ العِذَارُ فظَنَّ فيه عواذلي أني أكون عن الغرام بمَعْزِلْ
لا كان ذاك فإنني من مَعْشَرٍ لا يسألون عن السواد المُقْبِلِ

وقول شمس الدين بن الحلبي :

جلا ثغْراً وأَطلع لي ثنايا يسوق بها المحب إلى المنايا
فأَنْشَدَ ثغرُه يَبْغِي افتخاراً أنا ابن جلا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا

ومن محاسن السِّرَاج الوَرَّاق قوله :

تَوارَى من الواشى بليلٍ ذوائبٍ له من جبينٍ واضحٍ تحتَهُ فَجْرُ
فدَلَّ عليــــه شَعْرُهُ بظَلامه وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ

وقد تلاعب الشعراء بتضمين معلقة امرئ القيس . فمن ذلك ما كتبه الصلاح الصفدى إلى ابن نَباتة من أبيات :

أفي كل يوم منك عَتْبٌ يَسوءنى كجلمود صخر حَطَّه السيلُ من عَلِ
وترمى على طُولِ المَدَى مُتَجَنِّباً بسهميك في أعشار قلب مُقَتَّلِ
فأُمْسى بليل طالَ جُنْحُ ظَلامِهِ علىّ بأنواع الهمُومِ ليَبْتَــــلِي

فأجابه ابن نَباتة من أبيات :

نَظَمْتُ ولائى ثم أقبلتُ عاتباً أفاطمَ مهلا بعض هذا التَّدَلُّل
برُوحِىَ ألفاظٌ تعَرَّضَ عَتْبُها تَعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ
فأَحْيَيْتُ وُدًّا كان كالرسم عافياً بسَقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخُول فحَوْمَلِ

ومن التضمين قول مجير الدين بن تميم الإسْعَرْدِيّ الذى سكن حماة وتوفى بها سنة ٦٨٤ هـ ، وقد اشتهر بالتضمين حتى قال :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طَيْرى
أُضَمِّنُ كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

قال مضمِّنا فيمن نَتَف لحيته :

قالوا فلانٌ تولى نَتْفَ عارضه ليصبح الحسنُ منه غير مُنْتَقِلِ
فقلت سَدُّ طريق الشعر يُعْجِزُه ومن يَسُدُّ طريقَ العارضِ الهَطِلِ (١)

وقال أيضاً :

لَقَدْ نَزَّهَتْ عَيْنى أنابيبُ بها تُقَابِلُنى أمـــواجُها بالعجائب
أنابيبُ جلَّتْ فى عُلُوٍّ كَأَنَّهَا تُحاولُ ثَأْرًا عندبعض الـكواكب (٢)

ومن ظريف التضمين لقصيدة امرىء القيس (ألاعِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) ماقاله أبو الحسين الجزار فى وصف أسماله البالية :

قفانبك من ذكرى قميص وسروال ودُرّاعة لى قد عفا رسمها البالى
وما أنا من يَبْكى لأسماء إن نَأَتْ ولـكنَّنِى أَبْكِى عَلَى فَقْدِ أَسْمَالِى

وأنواع البديع وصلت على يد ابن حِجَّة الحموى إلى ١٤٢ نوعا ، وزادت بعد ذلك كثيراً ، وترى لها جميعاً أمثلة كثيرة فى شعر أهل هذا العصر ، فمما لا يستحيل بالانعكاس فى المفردات كقول القائل :

لَبِقٌ أَقْبَلَ فِيـــهِ هَيَفٌ كُلُّ ما أَمْلِكُ إِنْ غَنَّى هِبَهْ

وفى المركب كقول القائل « أرانا الإله هلالا أنارا » .

وقول ابن حجة فى بديعيته :

---

(١) هو تضمين من كلام المتنبي فى قوله :
وما ثناك كلام الناس عن كرم ومن يسدّ طريق العارض الهطل

(٢) هو من قول أبى تمام :
مكارم لجت فى علوّ كأنما تحاول ثأرا عند بعض الـكواكب

بحر وذو أَدَبٍ بدا وذو رَحَب   لم يستحل بانعكاس ثابت القدم

ونقف عن هذا حتى لا يطول بنا الاستشهاد .

أوزان الشعر وقوافيه

لم يبتدع الشعراء فى هذا العصر جديداً لما علمت من اعتمادهم التقليد فى شعرهم والمقلد لا يكون منه تجديد ، فهم لم يزيدوا على الأنواع التى كانت قد اخترعت فى عصور سابقة (وقد عرفتها بالتفصيل فى غير هذا المقام) بل أقبلوا عليها يكثرون من القول فيها ، وقد ساعد على هذه الكثرة أن أغلب تلك الأوزان أُبيح فيها اللفظ العامى والخطأ النحوى بل قد اشترطا فى بعضها كالزجل ، لذلك أقبلوا عليها يتحللون من شرط الصحة ، و يستريحون إلى اختلاف القافية فى هذه الأنواع ، وقد كان لعامية الملوك أثر فى الإكثار من هذه الأنواع فإنهم أصاخوا بآذانهم إليها ، وأجازوا عليها ، ولا سيما بنو قلاوون و برقوق ، فإن الزجل فى أيامهم كان نافق السوق قد بزّ الفصيح ، وشغل الناس عنه ، ومن أشهر الزجالين فى هذا العصر الشيخ خلف الغبارى الذى قال الزجل فى جميع أغراضه ، و بدر الدين الفرضى ، وأحمد الدرويشى وغيرهم .

ومن الزجل قول الغبارى المقدم يمدح الملك الأشرف شعبان :

حُبُّ قلبي شعْبَان موفق رَشِيد   وجمالُو أشرف ومالُو حـــدود
وأبوه الحَسَنْ وعمه الحسين   وارث الملك من جدود الجدود
سَلْ لحظَكْ صارِمْ لقتل العدا   وأُنت منصورْ طول المدى والسنين
زَعَق السَّعْد بين يديك شاَوِيشْ   فرِحْ القلبْ بعد ما كان حَزِينْ
ونَصَبْ لك كُرْسِي على المملكهْ   ظَهَرْ لك نَصْرُه بفتحه المبين

وقد أسلفنا فى الكلام على الشعر بالمغرب أنه نشأ فيه شعر عامى سمى بالأصمعيات يكون

موزوناً مقفى ، ومن بحر الطويل غالباً ، ولكنه عامى الألفاظ والتراكيب ، وقد نشأ فى العصر الذى نحدثك عنه مثل هذا الشعر فى المشرق ، ولكنهم سموه البدوى ، لأن الذى كان يقوله ويكثر منه هم أهل البدو ، وأمثلته تراها فى مقدمة ابن خلدون فارجع إليها ، وإن أردت تقريباً لوصفها فهى من نوع ما تقرؤه فى قصة الزير سالم والزناتى خليفة .

وقد أكثر شعراء هذا العصر من التشطير والتخميس ، وتناولوا بذلك القصائد المشهورة كمعلقة « امرئ القيس» و « بانت سعاد » لكعب بن زهير وغيرها ، وأرى أن السبب فى هذه الكثرة راجع إلى فقر هؤلاء الشعراء فى القوافى ، فهم يجدون فى قوافى القصيدة المشطرة ، أو المخمسة بعض الراحة من هذا العناء ، كما أن حرصهم على التشطير والتخميس يفسر لنا مادللناك عليه سابقاً : من فقدانهم الاستقلال فى أدبهم ، ولجوئهم إلى التقليد فيه .

ومن ذلك قول ابن داود القرشى المصرى المتوفى سنة ٨٢٨ فى تخميس بانت سعاد :

قُلْ للعواذلِ مَهْمَا شِئْتُمُو قُولُوا   فليس لى بَعْدَ من أهواه مَعْقُولُ
ناديتُ يومَ النوَى والدمعُ مسبولُ   بانت سعادُ فقلبى اليومَ متبولُ
* متيمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ *

وقال الشيخ البِسْطامى المتوفى سنة ٩٦٠ فى تخميس البردة :

يا من له ناظرٌ بالليـــل لم يَنَمِ   وجِسْمُهُ من فِراقِ الحُبِّ فى سَقَمِ
مالى أرى الدمعَ من عينيك يَنْسَجِمِ   أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِى سَلَمِ
* مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ *

ويكفى أن نقول إن بدار الكتب المصرية مجموعة بها ٦١ تخميساً للبردة ، وأخرى بها ٣١ ، وإن كانت هذه التخاميس ليست كلها لشعراء من أهل العصر الذى نتحدث عنه .

من شعر هذا العصر

نثبت هنا أمثلة من الشعر الذى سلم لأصحابه ، قوة لفظ ونفاسة معنى ، فمن ذلك قول البُوصيرى فى مدحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيران بذى سلم ... مَزَجْتَ دمعا جرى من مُقْلَةٍ بدَمِ
أم هبَّتِ الريحُ من تِلْقَاءِ كاظِمَةٍ ... وأَوْمَضَ البرقُ فِى الظَّلْمَاءِ من إِضَمِ (١)
فما لِعَيْنَيْكَ إن قلت اكْفُفَا همتا ... وما لقلبك إنْ قُلْتَ استفقْ يَهِمِ
أَيَحْسَبُ الصبُّ أن الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... ما بين مُنْسَجِمٍ منه ومُضْطَرِمِ (٢)

ومن حكمتها :

والنفسُ كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإن تَفْطِمْهُ ينفطِمِ
فاصْرِفْ هواها وحاذِرْ أن تُوَلِّيَهُ ... إن الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ (٣)
وراعها وهْىَ فِى الأعمالِ سائِمَةٌ ... وَإِنْ هِىَ استحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ (٤)
كم حسَّنتْ لذةً للمرءِ قاتلةً ... من حيث لم يَدْرِ أن السُّمَّ فى الدَّسَمِ
واخْشَ الدسائسَ من جُوعٍ ومن شِبَعٍ ... فرُبَّ مَخْمَصَةٍ شرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واسْتَفرِغِ الدَّمْعَ من عَينٍ قد امتلأتْ ... من المحارمِ والزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

ومن ذلك أيضاً قول صَفِىّ الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ، يمدح الناصر قلاوون بقصيدة عارض بها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

---

(١) كاظمة : على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان . إضم : ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة .

(٢) المعنى : لاينكتم الحب أبدا فى حالتى انسجام الدمع واشتغال القلب بالوجد . فالحالتان دالتان على الوجد .

(٣) التولية: أن تجعل له الحكم والتصرف . يصم (بضم الياء) من أصمى الصيد إذا رماه فقتله . يصم (بفتح الياء) من وصم بمعنى ألصق به وصمة : أى عيبا .

(٤) أسام إبله : تركها ترعى .

بِأَبِى الشموسُ الجانحاتُ غوارِبًا ... اللابساتُ من الحرير جلابِبَا

فقال فى مطلعها :

أَسْبَلْنَ من فوق النهودِ ذوائبًا ... فتركْنَ حَبَّاتِ القلوبِ ذَوَائبا
وجَلَوْنَ فى صُبْحِ الوُجُوهِ أشعةً ... غَادَرْنَ فَوْدَ الليلِ منها شائبا[1]
بيضٌ دَعَاهُنَّ الغَـبِىُّ كَوَاعِباً ... ولو استبانَ الرُّشْدَ قال كَوَاكِبا
وربائبٌ فإذا رأيتَ نفارَها ... من بَسْطِ أُنْسِكَ خِلْتَهُنَّ رَبَارِبَا
سَفَهْنَ رَأْىَ المَـانَوِيَّةِ عِنْدَ مَا ... أَسْبَلْنَ من ظُلَمِ الشُّعُورِ غَيَاهِبا[2]
أَشْرَقْنَ فى حُلَلٍ كأنَّ أَدِيمَهَا ... شَفَقٌ تَدَرَّعُه الشُّمُوسُ جَلَابِبَا
وغَرَبْنَ فى كِلَلٍ فقلتُ لصاحبى ... بِأَبِى الشُّمُوسُ الجانحاتُ غوارِبا
ومعرْبِدِ اللحظاتِ يَثْنِى عِطْفَهُ ... فَيُخَال من مَرَحِ الشبيبة شارِبَا
عاتَبْتُه فتضَرَّجَتْ وَجَنَاتُه ... وَازْوَرَّ أَلْحاظًا وَقَطَّبَ حَاجِبَا
فأرانى الخَدُّ الـكليمُ وطَرْفُه ... ذاالنونِ إِذْ ذَهَبَ الغداةَ مُغاضِبَا
ذو مَنْظَرٍ تَغْدُو القلوبُ بحُسْنِهِ ... نَهْبًا وإن مَنَحَ العُيُونَ مَوَاهِبَا
لا بِدْعَ أَنْ وَهَبَ النواظِرَ حُظْوَةً ... من نُورِهِ وغَدَا لِقَلْبِى نَاهِبَا

وقصيدة المتنبى التى عارضها صفىّ الدّين يقول فى غزلهـا :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا

---

(١) الفود : معظم شعر الرأس ممـا يلى الأذن .

(٢) المـانوية نسبة إلى مانى: وهومن فلاسفة الفرس، قال: إن العالم نشأ من أصلين النور والظلمة. وكل مايصدر عن النور فهو خير . وما يصدر عن الظلمة فهو شر . وهذا هو مذهب زرادشت نبى الفرس، ولـكن الفرق بينهما أن زرادشت كان يرى أن العالم عالم خير لأن الخير يتغلب على الشر فالحياة عنـده محبوبة يجب السعى فيها وتحصيلها . ولـكن مانى يرى أن الشر قد تغلب وأن الحياة غير جديرة بالعناية فمذهبه أقرب إلى الرهبنة ويستلزم أشياء تفسد العالم كتحريمه الزواج وإيجابه الصوم سبعة أيام فى كل شهر وفرضه صلوات كثيرة . ثم جاء من الفرس رجل يسمى مزدك فقال بنصرة الخير وترك الأحقاد وجعل وسيلة ذلك إباحة الأموال والنساء لأنهما سبب العداء فى الدنيا .

المنهباتُ عقولنا وقــــلوبنا وجناتِهِنّ الناهباتِ الناهبا
الناعماتُ القاتلاتُ المُحْيِيــا تُ المُبْدِياتُ من الدلال غرائبا
حاوَلْنَ تَفْدِيَتِي وخِفْنَ مراقبا فوضعْنَ أيديهنّ فوق ترائبا
و بَسَمْنَ عن بَرَدٍ خَشِيتُ أذيبه من حَرِّ أنفاس فكنت الذائبا
يا حبذا المتحملون وحبّذا وادٍ لَثَمْتُ به الغزالة كاعبا

الموازنة بين القصيدتين

اشتركت القصيدتان فى وصف ملابس الجميلات ، فأجاد صفىّ الدين كثيراً ، إذ جعل هذه الملابس شفقاً : وهو لون بهىّ آخذ بالعيون والقلوب . أما المتنبى فلم يزد على أن قال إن هذه الملابس من الحرير . ثم إن صفىّ الدين كمل المعنى ، فجعل هــــذه الجميــــلات شموساً شارقات غاربات . أما المتنبى فلم يزد على جعلها غاربة فقط ، فالمقابلة الحسنة فى كلام صفىّ الدين مفقودة فى كلام المتنبى .

كذلك اشتركتا فى بيان تأثير جمال المحبوبة ، فالمتنبى جعل كلامه فى ذلك مدمجاً لا تفصيل فيه إذ اقتصر على قوله إنها نهبت العقول ، أما الحلى فإنه زاد على ذلك بقوله: إن المحبوب أخذ وأعطى ، وإنه أرضى بمـا أعطى فى نظير ما أخذ . على أن بيت المتنبى داخل فى الإلغاز بقوله : الناهبات الناهبا .

كذلك اشتركتا فى وصف دلال المحبوب ، لـكن المتنبى اكتفى فى ذلك بقوله : المبديات من الدلال غرائبا ، أما الحلى ، فإنه صاغ ذلك المعنى فى بيتين هما :

وربائب . . . . . . وعاتبته . . . . . .

وقد انفرد المتنبى بوصف أسنان المحبوبة ، وهو معنى جميل يزينه لفظ أنيق ، كما امتاز الحلى بإطالة الكلام فى بياض المحبوبة وسواد شعرها ووصف ألحاظها .

والخلاصة: أن معانى الحلى أكثر كما أن أسلوبه رصين وبديعه يزين أسلوبه وإشاراته دقيقة غير ممعنة فى الغرابة كإشارته إلى مذهب المانوية وكالتورية بكلمتى الكليم وذى النون.

ومن ذلك أيضاً قول ابن نَباتة يمدح السلطان الأفضل ويعزيه بوالده المؤيد:

هنــاءٌ محا ذاك العزاءَ المقدَّما ... فما عَبَسَ المحزونُ حتى تَبَسَّــما
ثُغورُ ابتسامٍ فى ثغــورِ مَدامــعٍ ... شبيهانِ لا يَمْتازُ ذو السَّبْقِ مِنْهُمَا
نَرُدُّ مجارى الدمع والبشر واضحٌ ... كوابلِ غَيْثٍ فى ضُحَى الشمس قَدْهَمَى
سَــقَى الغيثُ عَنَّا تُرْبَةَ المَلِكِ الذى ... تَدانَتْ به الدُّنْيا وعَزَّ به الحِمَى
مليكانِ هــذا قد هَوَى لِضَرِيحِهِ ... بِرَغْمِى وهذا للأَسِرَّةِ قــد سَمَا
فَقَدْنا لأَعْنانِ البَرِيَّــةِ مالكاً ... وَشِمْنا لأنواعِ الجَميــلِ مُتَمِّمَا
إذا الأَفْضَلُ المَلْكُ اعتبرت مَقَامَهُ ... وجَدْتَ زَمانَ المُلْكِ قد عاد مِثْلَمَا
أعادَ مَعَانِى البيت حــتى حَسِبْتُهُ ... بوَزْنِ الثَّنَا والحمــدِ بَيْتاً مُنَظَّمَا
وناداه مُلْكٌ قــد تقادم إِرْثُهُ ... فقام كما تَرْضَى العُـــلاَ وتَقَدَّمَا
تُقابِلُ منه مُقْــلَةُ الدَّهْرِ سُؤْدُدًا ... صَمِيماً وتَنْضُو الرأى عَضْباً مُصَمِّمَا
وَيَقْسِمُ فينا كُلَّ سَهْمٍ من النَّدَى ... ويَبْعَثُ للأَعْدَاءِ فى الرَّوْعِ أَسْهُمَا

ويقول فى ختامها:

فَعِشْ للوَرَى واسْلَمْ سعيداً مُهَنَّأً ... فحَظُّ الوَرَى فى أَنْ تَعيشَ وتَسْلَمَا
وسِرْ فى أمانِ اللهِ قُدْمًا بفَضْــلِهِ ... أَسَرَّ الوَرَى مَسْرًى وأَيْمَنَ مَقْدَمَا
أَعَدْتَ زَمانَ الْبِشْرِ والجُودِ والثَّنَا ... إلى أَنْ مَلأْتَ الْعَيْنَ والأَنْفَ والْفَمَا

وقد فتح هذا الباب للشعراء عبد الله بن همام السَّلُولىّ، فإنه لما مات معاوية وتولى يزيد ابنه لم يقدم أحد على تعزيته حتى قام عبد الله بن همام فقال:

اصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ ... واشكرْ حِباءَ الذى بالمُلْكِ حابا كا
لا رزءَ أعظم فى الأقوام قد علموا ... مما رزئتَ ولا عقبى كعقبا كا

أصبحتَ راعىَ أهلِ الأرض كلهمو   فأنت ترعاهمـــو والله يرعاكا
وفى معاوية الـــباقى لنا خلف   إذا نعيتَ ولا نسمع بمَنْعاكا

وبعده قال أبو نواس يهنئ الأمين بالخلافة بعد موت الرشيد :

جرَتْ جوارٍ بالسعد والنَّحْس   فالناسُ فى وحشة وفى أُنْس
والعين تبكى والسِنُّ ضاحكةٌ   فنحن فى مأتم وفى عُرْس
يضحكها القائم الأمين ويبـــكيها   وفاة الرشيد بالأمس
بدران بدرٌ أضحى ببغـــدا   دَ وفى الخُلْد بدرٌ بُطوس فى الرمس

موازنة بين قولى أبى نواس وابن نباتة

نحصر هذه الموازنة فيما يأتى :

١ — أسلوب أبى نواس غير دقيق ، ففى جميع معانيه لم يزد على واو العطف فى الجمع بين الضدين مثل قوله : بالسعد والنحس ، وقوله :

* فنحن فى مأتم وفى عرس *   ومثل : يضحكها ويبكيها

أما ابن نباتة فقد تلافى هذا الأسلوب المكرّر وعمد إلى التنويع بحذق ظاهر كقوله :   هناء محا ذاك العزاء   ، وقوله : * ثغور ابتسام فى ثغور مدامع * وهكذا . . .

٢ — عبارات أبى نواس غير مهذبة مثل قوله : يضحكها ، فى مقابلة قول ابن نباتة : والبشر واضح ، ومثل :   بدر بطوس فى الرمس   ، فى مقابلة قول ابن نباتة :   هذا قد هوى لضريحه برغمى   ، مع ملاحظة أن الاحتراس هنا بكلمة برغمى فى منتهى الحسن وفى أليق مكان به .

٣ — معانى أبى نواس بسيطة لا فخافة فيها مثل : * العين تبكى والسن ضاحكة * فى مقابلة قول ابن نباتة : * نرد مجارى الدمع والبشر واضح * على أن اتباع ذلك بالتشبيه جعل الكلام حسناً جميلا ، وزاد المعنى رونقاً ووضوحاً .

٤ — ابتداء ابن نباتة من الأمثلة الممتازة فى حسن الابتـداء ، لأن أوّل كلمة تقرع الأذن منه دالة على شطر المعنى المراد وهو التهنئة والتعزية ، على أن فى البدء بالكلمة الدالة على التهنئة من الفأل الحسن والإشارة إلى أرجح الشطرين مراعاة لمقام المهنأ ، كما أن فى قوله : « محا » دلالة وإيذان بانتهاء حالة الحزن ، وهذا أيضاً مناسب للمقام فى حين أن أبا نواس جعل الحزن مقيما غـير مفارق فى قوله : * فالناس فى وحشة وفى أنس *

البوصيرى

نسبه فى ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية أنه :

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله ابن حَيّان بن صِنهاج بن مَلاَك الصِّنهاجى البويصيرى أو الأَبوصيريّ أو البُوصيرى أو الدِّلاصى .

وفى فوات الوفيات أنه .

محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى .

ولا نرى تنافياً بين النسبين فإن اسمه فيهما محمد واسم أبيه سعيد . ويزيد النسب الأول ببيان لقبه (شرف الدين) وكنيته (أبى عبد الله) وبذكر بعض أجداده إلى صنهاج وما بعده ، فالنسبان لا يختلفان إلا بالزيادة والنقص . وهما بعد اتفاقهما فى اسم المترجم واسم أبيه يتفقان فى انتهاء النسب إلى قبيلة صنهاجة الكبيرة التى

عاشت ببلاد المغرب . واختلف النسابون فى أمرها أبربرية أم عربية وابن خلدون يحقق أنها عربية يمنية قال : « والحق الذى تشهد به المواطن والعجمة أنهم (البربر) بمعزل عن العرب إلا ما زعمه نسابة العرب فى صنهاجة ولَواتة » .

إذا يكون البوصيرى عربياً وإن كان عهده بالعروبة الصحيحة بعيداً لطول إقامة صنهاجة بالمغرب وتأثرها بلغة البربر . وهو إن فاته من نسبه العربى سلامة الملكة لا يفوته كثير من صفات العرب التى عرفوا بها ، لأن هذه الصفات لم يغير منها إقامة صنهاجة بين البربر ، إذ كانت معيشتهم وحالة اجتماعهم لا تختلفان عما للعرب فى جزيرتهم .

فإذا أثبتنا للبوصيرى الصراحة فى القول ، والشدة فى الحق فإنما يرجع ذلك إلى نسبه الذى قلناه .

« تلقيبه بالبوصيرى » : قال فى فوات الوفيات كان أحد أبويه من أبو صير والآخر من دِلاص فركب له نسب منهما ، وقيل الدلاصيرى ولكنه اشتهر بالبوصيرى .

وفى ديوانه عند ذكر نسبه قال : البويصيرى ، أو الأبوصيرى ، أو البوصيرى ، أو الدلاصى كما تقدم .

ويقول الشيخ الشناوى أحد شراح همزيته : إنه ركبت له نسبة من بوصير ودلاص.

فالاتفاق واقع على البوصيرى والدلاصى أو الدلاصيرى . أما النسبتان البويصيرى والأبوصيرى فلا نعرف لهما مرجعاً ، بل لقد نص الشيخ الشناوى شارح همزيته على أن قول من قال أبوصيرى خطأ . ونرجح كذلك أن نسب بويصرى خطأ إذ لم يقل أحد إن اسم بلدته بويصير بل المقول إنها بوصير أو بوصيرونا .

ودلاص وبوصير أو بوصيرونا من مديرية بنى سويف وتقع الأولى جنوبى الثانية ويرجح أن دلاص بلدة والده وبوصير بلدة أمه ، وأنه ولد بالأولى ونشأ بالثانية .

عصر البوصيرى

الراجح فى تاريخ ميلاده وهو الذى اتفق عليه أكثر المؤرخين أنه كان فى شوال سنة ٦٠٨ هـ .

فيكون قد أظله عهد الدولة الأيوبية ، وعاش فى أيام رابع ملوكها الملك العادل سيف الدين بن أبى بكر . ويحدثنا التاريخ عن سطوة هذه الدولة ، وشدّة شكيمتها فى محاربة الصليبيين ، وحرصها على نشر العلم ، حتى لقد كثرت فيها المدارس بأمهات بلاد مصر كالقاهرة والإسكندرية وغيرهما ، كذلك كان للرخاء ، وتشجيع هؤلاء الأمراء أثر فى رواج العلم والأدب .

وقد عاشر البوصيرى من الشعراء أيام هذه الدولة ، ابن العبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، والبهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ وغيرهم ممن كانت تموج بهم مصر والشام ، والقطران متصلان يدخلان فى حكم الأيوبيين ، كذلك كان من علماء الدين فى الفقه والحديث والتفسير كثير .

ففى هذا العهد انتقل البوصيرى إلى القاهرة وأقام بها وتعلم ، وكان أظهر أساتذته الشيخ أبو العباس المُرْسى ، الذى رحل من الأندلس إلى مصر ، وأقام بالقاهرة حيناً ، ثم رحل إلى الإسكندرية وتوفى بها . وكان البوصيرى وابن عطاء الله الإسكندرى تلميذى أبى العباس الملازمين له ، وكان المرسى ورعاً تقيًّا قد أخذ الطريق عن شيخه أبى الحسن الشاذلىّ ، فانتفع تلميذاه أكبر نفع بصحبته ، وقيل إنه خلع على البوصيرى الشعر وعلى ابن عطاء النثر .

أما تلاميذ البوصيرى ، والظاهر أنهم إنما تلمذوا له فى رواية نوادره وشعره

خصوصاً مدائحه النبوية ، فكان منهم الإمام أبو حَيّان الأندلسى الذى قدم مصر ، وتوفى بها سنة ٧٤٥ هـ ، وكان إماماً فى النحو .

ومنهم الإمام أبو الفتح بن سيد الناس اليَعْمُرِىّ المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، ومحقق عصره العِزّ بن جماعة الذى تولى قضاء مصر وعمر طويلا .

تصرف البوصيرى

لانعلم من أمر تصرفه فى الحياة ، وما تناوله من الأعمال إلا أنه كان يعانى صناعة الكتابة ، ويباشر بُلْبَيْس . هكذا يقول صاحب فوات الوفيات ، ولا يفهم من الكتابة فى قوله إلا كتابة الحساب ، وهى قسيمة كتابة الرسائل ، فإنّ كاتب الرسائل لا يكون إلا بعاصمة الملك يعمل فى ديوان الإنشاء ، فيكون من كتاب الدست (مجلس الوزير) أو كتاب الدَّرْج (سائر الكتاب بديوان الإنشاء) ولا شك أن كتابة الرسائل أشرف من كتابة الحساب إذ كان الوزراء من المبرزين فيها .

وأحوال البوصيرى ، وما عرف عنه من الفقر والشكوى من كثرة الأولاد ، وما كان يمتاحه من عطاء الأمراء ، لايساعد على الاعتقاد بأنه تولى مباشرة الشرقية ، لأن الذى يفهم من المباشرة على ما ذكره النُّوَيْرى فى نهاية الأرب أن المباشر رئيس الجهة ، وكانت الشرقية ثلثمائة بلدة وثمانين ، والمباشر هو الذى يأمر خَوَلة البلاد بذَرْع ماعلاه النيل ، وصَرْف ما يحتاج إليه الزراع من البذور ، فإذا نبت الزرع ندب من مباشرى المساحة ماشاء من العدد ، واختار من الكتاب كل عارف أمين مخلص فحصلوا من الزراع ما كانوا تسلموه من التقاوى والقروض ، وما عليهم من عُشْر ورسوم ، وما لعله بقى عليهم من متأخر من السنة الماضية .

فهذه مهمة عظيمة ، وعمل كبير يكون صاحبه رئيسا على جملة من العمال ، وليس

الشأن فى مثل هذا أن يكون كما كان البوصيرى فقيراً مستجديا يمدح الأمير، ويرجوه تعجيل مرتبه ، ويشكو له مطل الرؤساء فى ذلك . لذلك نعتقد أنه كان مباشراً من مباشرى المساحة الذين يأمرهم المباشر الأكبر بذَرْع الأرض ، وتوزيع البذور كما بينا ذلك آنفا .

ولعلّ هوان هذا العمل وقلة جدواه حمل البوصيرى على تركه ، ولا ندرى كيف عاش بعد ذلك ، ولكن يظهر أنه لم يتركه إلا إلى النسك والزهد والاجتهاد فى طريقته التى تلقاها عن شيخه أبى العباس ؛ فإن ذلك يسهل علينا أن نفهم كيف يعيش ؟ ما دامت القناعة تسيطر على نفسه ، ولعله قد انضم إليها خفة ظهره من الأولاد بكبرهم واستقلالهم بطلب الرزق ، ثم ما يكون من عطف الأمراء والأغنياء على من تدرّع بالورع كالبوصيرى ، فيأتيه عطاؤهم من غير سؤال .

وقد توفى رحمه الله بالإسكندرية ، ويظهر أنه كان قد تبع أستاذه وشيخ طريقته أبا العباس المُرْسىّ إليها . وكانت وفاته سنة ٦٩٥ هـ ، والخلاف فى تاريخ وفاته طويل لاطائل تحته ، وكانت ولادته سنة ٦٠٨ هـ ، فيكون قد عمر زهاء تسعين عاما . وقد أقيم على قبره مسجد جدّد بناءه المرحوم سعيد باشا خديو مصر .

شعر البوصيرى

اختلاف نسجه

قبل أن نخوض فى شعر الرجل نذكر لك ظاهرة تبدو عليه واضحة أتمّ وضوح لمن لم يستقر جميع شعره ، تلك هى اختلاف نسج هـذا الشعر ، وجمعه بين السُّخْف والرصانة ، فيندفع الناظر فى بعض هذا الشعر إلى حكم يطمئنّ إليه بل يعتقده اعتقاداً لا مرية فيه ، وهو أن شعر الرجل منحط ، سخيف ، خلو من المعنى ، عامى العبارة ،

وأن هذا الوصف لا يستثنى منه إلا قصيدته المسماة : بالبردة ، ويذهب المُدْلى بهذا الرأى إلى أن الرجل فى قصيدته هذه قد استولت عليه حالة تملكته ، فأنطقته بهذه الحكمة وجعلت قوله جزلا رصيناً ، وربما ذهب فى الدليل على ذلك إلى أنّ تناوله لمدح رسول الله هو الذى أهّله لهذه البلاغة وذلك السموّ فى المعانى ، وأن ذلك كان بمثابة شدٍّ لأزره ومكافأة له من الرسول صلى الله عليه وسلم على حسن نيته .

ونحن نؤمن بهذا التعليل فى ذاته ، ونعتقد أنه قد تحقق مثله لحسان بن ثابت حين نافح عن رسول الله وهجا كفار قريش ، فقال له رسول الله : «شُنَّ الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقْع الحسام فى غَبَش الظلام » ، وقال له : « اهْجُهُمْ وروح القُدس يؤيدك » ، فكان شعر حسان فى هجاء قريش أقوى من كلّ شعره الذى قاله فى الإسلام .

ولكن الذى يمنعنا من الرّضا بهذا الرأى فى حكمنا على البوصيرى أن فيه غمطاً للرجل ، وإغماضاً عما له من محاسن كثيرة فى شعره تساوق مدائحه النبوية فى علوّها ، ورقّ أسلوبها ، وشرف معانيها ، ويخيل إلينا أن الذين حكموا هذا الحكم الجائر لم يتجاوزوا أن اطلعوا له على إحدى سخافاته « وفى شعره سخافات لاننكرها » ووازنوها ببردته ، فظهر لهم البون الشاسع ، والفرق الظاهر الذى يورث العَجَب حقا ، ويدعو إلى مثل ما التمسوا من التعليل لامتياز بردته على سائر شعره .

ولقد أردنا أن نكون منصفين ، فقرأنا ديوانه بيتا بيتا ، فرأينا أكثره من نسق واحد ، وهو الشعر المقبول الذى يسلم له فيه اللفظ ، وتستقرّ القافية ، ويسمو المعنى ، فلا يستطيع ناقد هذا الشعر إلا أن يعده من الشعر الجيد لشاعر فى عصر البوصيرى .

وماذا ننتظر من شاعر فى هذا العصر إلا أن يكون سليم القول مقبول المعنى .

على أن شعر البوصيرى له ميزة خاصة تكاد تجعله من نوع غير شعر زمانه ، فهو برىء من التكلف ، بل خال كلّ الخلوّ من التحسين المتعمد المستكره .

وما ندرى كيف نجا البوصيرى من هذه الشائبة التى لزمت كلّ الشعراء فى أيامه .

ولكى تؤمن بما آمنا به ننقل لك من شعره ما قاله فى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ترى نسجه القوىّ ، ومعناه الحسن المقبول .

قال يمدح أَيْدَمُر الأمير التركى ، وهو طويل النفس فى هذه القصيدة ، فقد بلغت ٣١٠ أبيات :

أَكرِمْ بأَيْدَمُرَ الشمسىِّ من بَطَلٍ ... بذكره فى الوغى الأبطالُ تفتخرُ
تخاف منـــه وترجوه كما فعلتْ ... فى قلب سامعها الآياتُ والســورُ
بَنانه : من يداه الغيثُ مُنسَكِبٌ ... وسيفُه : من سَطاه النارُ تستعرُ
نَهَتْهُ عن لذّة الدنيا نزاهتُــهُ ... وشرَّدَ النومَ عن أجفانه السهرُ
وليس يُضجره قولٌ ولا عمـــلٌ ... وكيف يُدْرِكُ من لا يَتْعَبُ الضَّجَرُ
يمسى ويصــبح فى تدبير مملكةٍ ... أعيا الخلائقَ فيها بعضُ ما يَزِرُ(١)
يكفيه حمل الأمانات التى عُرِضَتْ ... على الجبال فكادتْ منه تنفطر

وقال يمدح المَقَرَّ الصاحبى الزَّيْنِيَّ زين الدّين :

أهلُ التقى والعلمِ أهلُ السُّودَدِ ... وأخو الســيادة أحمدُ بن محمدِ
لا تُشْرِكَنَّ به امرأ فى وصفه ... فتكون قد خالفت كلّ مُوَحِّد
الشمسُ طالعةٌ فهل من مُبْصِرٍ ... والحقُّ مُتَّضحٌ فهل من مُهْتَدِ
إن الفتى من سوَّدته نفسُــه ... بالفضل لا مَنْ ساد غيرَ مُسَوَّد
والناسُ مختلفو المذاهب فى العلا ... والمذهبُ المختارُ مذهبُ أحمدِ
وفَّى عــلومَ الأوّلِينَ حقوقَها ... والآخرين وفاءَ من لم يَجْحَدِ
فكأنَّه فينا خليفـــةُ آدمٍ ... أو آدمٌ لو أنه لم يُـــولَدِ

(١) من وزر : بمعنى قام بالوزارة ، وهى معونة السلطان.

ويقول من قصيدة يمدح بها أستاذه أبا العباس المُرْسىّ ويعزيه عن شيخه أبى الحسن الشاذلىّ ، وعدد أبياتها ١١٨ بيتا :

كتب المشيبُ بأبيضٍ وبأسودِ ... بَغْضاءَ ما بينى وبين الخُرَّدِ
خَجِلَتْ عيونُ الحُورِ حين رَمَقْنَها ... وصف المشيب وقُلْن لى لا تَبْعَدِ
ولذاك أظهرت انكسارَ جفونها ... دَعْدٌ وأَذَّنَ خدُّها بتَوَرُّدِ
يا جِدَّةَ الشَّيْبِ التى ما غادَرَتْ ... لنفوسنا من لَذَّةٍ بمُجَدَّدِ
إن الفناء لكلّ حيّ غايةٌ ... محتومةٌ إن لم تكن فكأنْ قَدِ

ويقول فيها فى شأن الإمام الشاذلىّ :

إن الإمامَ الشاذلىَّ طريقُه ... فى الفضل واضحةٌ لغير المهتدِى
فانقُلْ ولو قدَمًا على آثاره ... فإذا فعلت فذاك آخذُ باليد
واسلُكْ طريق محمدىٍّ شرعةً ... وحقيقةً ومحمدىٍّ المحتدِ
من كلّ ناحيةٍ سَنَاهُ يلوح من ... مصباح نورِ نُبُوَّةٍ مُتَوَقِّدِ

وهاك فاسمع من سخافاته ما جنى عليه فى نظر الذين لم يستقروا شعره . قال يداعب بهاء الدين بن على ويشكو فقره وكثرة عياله :

يأيها المولى الوزير الذى ... أيامه طائعة أمرَهْ
ومن له منزلة فى العلا ... تَكِلُّ عن أوصافها الفِكْرَهْ
أخلاقُكَ الغُرُّ دعتنا إلى الـ ... إيلاء فى القول على غِرّه
ولم تزل تصّفح عمن جنى ... وتؤثر العفوَ مع القدره
إليك نشكو حالنا إننا ... عائلةٌ فى غاية الكثره
أُحدِّثُ المولى حديثاً جرى ... لى معهم بالخيط والإبره
صاموا مع الناس ولكنَّهُمْ ... كانوا لمن أبصرَهُمْ عِبْرَه
إن شربوا فالبئر زيرٌ لهمْ ... ما بَرِحَتْ والشَّرْبَةُ الجَرَّه

لهمْ من الخُبّيْزِ مَسْلُوقةٌ　　في كل يوم تُشْبِهِ النشره
أقول مهما اجتمعوا حولهـا　　تَنزَّهُوا في المـاء والخُضْره
وأقبلَ العيدُ ولا عندهمْ　　قمح ولا خبز ولا فُطْره
فارحمهمو إن أبصروا كعكة　　في يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها　　بشــــدة تتبعها زَفْره
فكم أقاسي منهمُ لوعةً　　وكم أقاسي منهمُ حَسْرَهْ

و بعد فالأمر يسير والتعليل لهذه الظاهرة حاضر مقبول . ذلك أن الرجل كان مطبوعًا على قول الشعر وللانطباع على الشعر أدلة : أولهـا الجمع بين الغث والسمين ، لأن الطبع لا يتكلف ، والنفس لا تكون بمثابة واحدة في كل حال . وثانيها بساطة القول وعدم الاحتفال بالزينة اللفظية وقد ذكرنا براءة شعر البوصيري من تكلف ذلك . وثالثها طول النفس وقد كان البوصيري نادرة عصره في هذا الشأن ، فإن له غير ما ذكرنا قصيدته الهمزية المسماة بأم القرى في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ٦٣٦ بيتاً وله « ذخر المعاد في وزن بانت سعاد » وهى ٢٠٦ أبيات ، وله البردة وهى ١٥٩ وله غير ذلك وقد يكون أطول ممـا ذكرنا

فهذا الانطباع هو الذى جعله يرسل نفسه على سجيتها فتجيء بمـا يكون منها لا بمـا يتكلفه القائل لإرضاء السامعين . على أن الشعر المرسل على السجية هو أليق ما يكون في مقاماته التي قيل فيها ، فهو في مقام المداعبة والهزل كلام نازل نزول موضوعه مُسِفٌّ إسفاف معانيه ، وفى الجِدِّ حكمة عالية وقول رصين . وقد يكون من مقتضيات الأحوال فى نظر المطبوع خطاب الناس على قدر ملكاتهم فى اللغة ، فللعامى مثل عاميته وللبليغ مثل بلاغته . وما يدرينا لعل إسفاف البوصيري قد أحاطت به كل هذه المناسبات فأخرجه هكذا عامدا ليكون كلامه خطاباً حقيقياً لمن يوجه إليه .

مدائحه لرسول الله

أكثر البوصيرى من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله فيه غير الهمزية المعروفة بأم القرى ، وغير ذخر المعاد ، وغير البردة قصائد كثيرة . فمنها قصيدته التى أولها :

أمدائحٌ لى فيك أم تسبيحُ　　لولاك ما غفرَ الذنوبَ مديحُ

ثم مِدْحة أخرى اعتذر فيها عن النار التى ظهرت بالحجاز ، والتى احترق منها الحرم الشريف وسماها : « تقديس الحرم ، من تدنيس الضَّرَم » ، وكناها بأم النارين ، وعدد أبياتها تسعة وتسعون ، وأولها :

إلٰهى على كل الأمور لك الحقُّ　　فليس لما أَوْلَيْتَ من نِعَمٍ عَدُّ

وسنحدثك عن بعض هذه المدائح .

الهمزية

فصّل فيها الشاعر حياة رسول الله منذ ولادته وذكر فيها معجزاته وكثيراً من غزواته فهى تاريخ للرسول عليه الصلاة والسلام منظوم . قال فى أولها :

كيف ترقى رقيَّكَ الأنبياء　　يا سماءً ما طاولتها سماء

لم يساوُوكَ فى عُلاك وقد حا　　ل سَناً منك دونَهُمْ وسَناء

إنما مَثَّلُوا صفاتك للنا　　س كما مثَّل النجومَ الماء

أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تصـ　　ـدُرُ إلا عن ضَوْئِكَ الأَضْواء

لك ذاتُ العلوم من عالم الغيـ　　ـب ومنها لآدم الأسماء

لم تزلْ فى ضمائرِ الكونِ تُختا ... رُ لك الأمهاتُ والآباءُ
ما مضتْ فترةٌ من الرسل إلا ... بشَّرتْ قومها بك الأنبياءُ
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياءُ بعدها علياءُ

ومنها فى إيذاء قريش له :

ويحَ قومٍ جفوْا نبيًّا بأرض ... أَلِفَتْهُ ضبابها والظِّباءُ
وسَلَوْهُ وحَنَّ جِذْعٌ إليه ... وقَلَوْهُ ووَدَّهُ الغُرباءُ
وكفَتْه بنسجها عنكبوتٌ ... ما كفَتْهُ الحمامةُ الحَصْداءُ
واختفى منهم على قرب مرآ ... هُ ومن شِدَّةِ الظُّهورِ الخفاءُ

ومنها فى بيان صفاته الكريمة عليه الصلاة والسلام :

سيِّد ضِحْكُه التبسمُ والمشـ ... ـىُ الهوينى ونومُه الإغفاءُ
ما سَوى خُلقِهِ النسيمُ ولا غيـ ... ـرَ محياه روضةٌ غنَّاءُ
رحمةٌ كله وحَزْمٌ وعزمٌ ... ووقارٌ وعصمةٌ وحَياءُ
كرمَتْ نفسه فما يخطُرُ السو ... ءُ على قَلْبِهِ ولا الفحشاءُ
جَهِلَتْ قومُه عليه فأغضى ... وأخو الحِلْمِ دأبُه الإغضاءُ

وللهمزية عشرة شروح بدار الكتب المصرية .

ذخر المعاد

عارض بها كعب بن زهير فى قصيدته التى أوّلها :

بانتْ سُعادُ فقلبى اليومَ مَتبُولُ ... مُتيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكبُولُ

وقد بلغت قصيدة البوصيرى ٢٠٦ أبيات كما قلنا ، فكانت أطول من قصيدة كعب ، ومنها :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كلّ ما قدَّمْتَ مسئولُ
فى كلّ يوم تُرَجِّى أن تتوب غداً وعَقْدُ عزمك بالتسويف محلول
أَمَا يُرَى لك فيما سُنَّ من عمل يومًا نشاطٌ وعما ساءَ تَنْكِيلُ
فجرِّد العَزْمَ إنّ الموتَ صارمُه مجرّدٌ بيد الآجالِ مسلولُ
واقطعْ حبالَ الأمانِيِّ التى اتصلَتْ فإنَّها حبلها بالزور موصول
أَنْفَقْتَ عمرك فى مال تحصِّله وما على غيرِ إثمٍ منه محصولُ
ورُحْتَ تَعْمُرُ داراً لا بقاء لها وأنت عنها وإن عُمِّرْتَ مَنْقولُ
جاء النذيرُ فشمِّرْ للمسير بلا مَهْلٍ فليس مع الإنذار تمهيلُ
وصُنْ مَشيبك عن فِعْلٍ تشانُ به فكلّ ذى صَبْوَةٍ بالشيب معذول
لاتُنْكِرَنْه وفى الفَوْدَيْنِ قد طلعت منه الثريا وفوق الرأس إكليلُ
فإنَّ أرواحَنا مثلُ النجومِ لها من المنيَّة تَسْيِيرٌ وترحيلُ
وإنّ طالعها منّا وغاربها جيلٌ يَمُرُّ ويأتى بعدَه جيلُ
حتى إذا بَعَثَ اللهُ العبادَ إلى يومٍ به الحُكْمُ بين الخلق مفصولُ
تَبيَّنَ الرِّبحُ والخُسْرانُ فى أممٍ تخالفَتْ بينها فيها الأقاويلُ

البردة

وتسمى البرءة أيضاً ، وقد بلغ من شهرتها أن خمست ٩٢ تخميساً وشرحت ٢١ شرحا كلها باسم « الكواكب الدرية ، فى مدح خير البرية » .

وقد ذكر البوصيرىّ سبب إنشائها فقال :

كنت نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه علىّ الصاحبُ زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى

فالجٌ أبطل نصفى ، ففكرتُ فى عمل قصيدتى هذه « البردة » . فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها و بكيت وتوسلت ونمت ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح على جنبى بيده الكريمة ، وألقى عَلَىَّ بردة ، فانتبهت فوجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ولم أكن أعلمت بذلك أحداً . فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أيها ؟ فقال التى أنشأتها فى مرضك وذكر أولها وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ، فرأيته يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة . قال البوصيرى : فأعطيته إياها وذكر الفقير ذلك وشاع المنام إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين وكان يحب سماعها هو وأهل بيته . ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقى رمد أشرف منه على العمى فرأى فى المنام قائلا يقول له : اذهب إلى الصاحب وخذ البردة واجعلها على عينيك فإنك تعافى بإذن الله عزّ وجلّ ، فأتى إلى الصاحب وذكر منامه فقال : ما أعرف عندى من أثر رسول الله بردة ، ثم فكر ساعة وقال : لعلّ المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى ، يا ياقوت : افتح الصندوق الذى فيه الآثار ، وأخرج القصيدة ، وأت بها ، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعوفى ! ومن ثم سميت البردة ، وأولها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بِدَمِ
أم هَبَّتِ الرّيحُ من تلقاء كاظمةٍ ... وأَوْمَضَ البرق فى الظلماء من إِضَمِ
فما لعينيك إن قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا ... وما لقلبك إن قلتَ استفق يَهِمِ
أيحسَبُ الصَّبُّ أن الحب منكتمٌ ... ما بين منسجمٍ منه ومُضْطَرِمِ
لولا الهوى لم تُرِقْ دمعا على طَلَلٍ ... ولا أَرِقْتَ لذكر البَانِ والعَلَمِ
فكيف تُنْكِرُ حُبًّا بعد ماشَهِدَتْ ... به عليك عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ
وأثبَتَ الوَجْدُ خَطَّىْ عَبْرَةٍ وضَنًى ... مثل البَهارِ على خَدَّيْك والعَنَمِ

نعم سَرَى طيفُ من أهوى فأرَّقنى ... والحبُّ يعترضُ اللذاتِ بالألَمِ
يالائمى فى الهوى العُذْرِىِّ معذرةً ... منى إليك ولو أنصفتَ لم تَلُمِ
عَدَتْكَ حالىَ لا سِرِّى بمُسْتَتِرٍ ... عن الوشاة ولا دائى بمُنْحَسِمِ
مَحضْتَنِى النُّصْحَ لكنْ لستُ أسْمَعُه ... إن المحبَّ عن العذال فى صَمَمِ
إنى اتَّهمْتُ نصيح الشيب فى عَذَلِى ... والشَّيْبُ أبعدُ فى نُصْحٍ من التُّهَمِ
فإنّ أمّارتِى بالسوء ما اتعظتْ ... من جهلها بنذير الشيب والهرَمِ
ولا أَعَدَّتْ من الفعل الجميل قِرى ... ضيفٍ ألَمَّ برأسى غَيْرِ محتشم

ومنها فى بيان فضل الرسول وانتفاع الأمة المحمدية به :

ومَنْ يَكُنْ برسول الله نُصْرَتُه ... إنْ تلْقَه الأُسْدُ فى آجامها تجِمِ
ولن ترى من وَلِىٍّ غيرِ مُنْتَصِرٍ ... به ولا من عَدُوٍّ غير منقصم
أحَلَّ أُمَّتَهُ فى حِرْزِ مِلَّتِهِ ... كالليث حَلَّ مع الأشبال فى الأَجَمِ
كفاكَ بالعلم فى الأُمِّىِّ معجزةً ... فى الجاهلية والتأديبِ فى اليُتَمِ

وكان من شهرة هذه القصيدة أن عورضت ، عارضها المرحوم محمود سامى باشا البارودى ، فقال :

يا رائد البرق يَمِّمْ دارةَ العَلَمِ ... واحْدُ الغمام إلى حَىٍّ بذِى سَلَمِ
وإنْ مَرَرْتَ على الرَّوْحاءِ فامْرِ لها ... أخلافَ ساريةٍ هَتَّانةِ الدِّيَمِ
من الغِزَارِ اللواتِى فى حَوالِبها ... رِىُّ النواهلِ من زَرْعٍ ومن نَعَمِ
إذا استهلتْ بأرض نَمْنَمَتْ يدُها ... بُرْدًا من النَّورِ يَكْسُو عارىَ الأَكَمِ
ترَى النباتَ بها خُضْرًا سنابِلُه ... يختالُ فى حُلَّةٍ مَوْشِيَّةِ العَلَمِ
أدعو إلى الدارِ بالسُّقْيا ولِى ظَمَأٌ ... أحقُّ بالرِّى لكنِّى أخو كرَمِ
منازلٌ لِهَوَاها بين جانحتِى ... وَدِيعَةٌ سِرُّها لَمْ يتَّصِلْ بفمِى

ومنها يقول :

محمدٌ خاتمُ الرُّسْلِ الذى خَضَعَتْ ... له البرّيةُ من عُرْب ومن عَجَمِ
سَميرُ وَحْيٍ ومَجْنَى حِكْمَةٍ ونَدَى ... سَماحةٍ وقِرَى عافٍ ورِىٌّ ظَمِ
قد أبْلَغَ الوحىُ عنه قبل مَبْعَثِهِ ... مسامعَ الرُّسْلِ قولا غيرَ مُنْكَتِمِ
فذاكَ دَعْوةُ إبراهيمَ خالِقَه ... وسِرُّ ما قاله عيسى من القِدَمِ

وعارضها كذلك المرحوم أحمد شوقى بك فى قصيدة سماها « نهج البردة » . قال فى أوّلها :

رَسْمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمِى فى الأشهر الحُرُمِ
رَمى القضاء بعينى جُؤْذُرٍ أسداً ... يا ساكنَ القاع أَدْرِكْ ساكن الأَجَمِ
لمّا رَنَا حدّثتنى النفسُ قائلةً ... يا وَيْح جنبك بالسهم المُصِيبِ رُمِى
جَحَدْتُها وكَتَمْتُ السِّرَّ فى كَبِدى ... جُرْحُ الأَحبةِ عندى غَيْرُ ذى أَلَمِ
ياناعسَ الطَّرْفِ لا ذُقْتَ الهوى أبداً ... أَسْهَرْتَ مُضْناكَ فى حِفظِ الهَوَى فَنَمِ

ومنها .

لَزِمْتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ ومَنْ ... يُمْسِكْ بمفتاحِ بابِ اللهِ يَغْتَنِمِ
فكلُّ فضلٍ و إحسانٍ وعارفةٍ ... ما بين مُسْتَلِمٍ منه ومُلْتَزِمِ
عَلَّقْتُ من مدحه حَبْلاً أَعِزُّ به ... فى يوم لا عِزَّ بالأنسابِ واللُّحَمِ

شعره فى الجدل

قد لا نرى فى الشعر العربى كله قصيدة جدلية عمد فيها الشاعر إلى القرع بالحجة ، والدمغ بالدليل ، وكان نَفَسُه فيها طويلا طولَ نفس البوصيرى فى قصيدته التى يقولها فى الرد على النصارى واليهود فى مزاعمهم الدينية ، وقد سماها « المخرج » ، أو «المردود، على النصارى واليهود » ، وقدم لها بقوله :

رأيت كتب النصارى واليهود مشحونة بما ينكرونه من بعث النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها القول بخلاف ما يدّعونه من ألوهية عيسى ، ومن صلبه ، و إثبات رسالته إلى اليهود والنصارى ، وقد تعرّضت فى هذه القصيدة إلى ما سهل نظمه من ذلك ، وأردت أن أورد تحت كلّ أبيات منها ما أشارت إليه من النصوص التى لايستطيع النظم ذكرها بلفظها وترتيبها ، فمن ذلك ما ورد فى كتبهم من أن المسيح عبد الله ، وواسطة بينه و بين الناس . قال فى إنجيل لوقا : إنه لم يقتل أحد من الأنبياء فى وطنه فكيف يقتلوننى . وقال فى إنجيل مرقص : إن رجلا أقبل عليه وقال : أيها المعلم الصالح ، أىّ خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال له المسيح : لم قلت لى الصالح ، إنما الصالح الله وحده . وقال فى إنجيل لوقا حين أحيا الميت إشفاقاً على أمه لشدّة حزنها قال الناس ؛ إن هذا نبىّ عظيم ، وهكذا . . .

وقد استغرقت القصيدة وشرحها من الديوان خمس عشرة ورقة بالخط الدّقيق مما يدلّ على واسع علم الرّجل ، وأول القصيدة :

جاء المسيحُ من الإله رسولا ... فأبى أقــلّ العالمين عقولا
قوماً رأوْا بَشَرًا كريماً فادَّعَوْا ... من جهلهم لله فيه حُلولا
وعصابةً ما صدَّقَتْه فأكثرت ... بالإفك والبُهْتَانِ فيه القِيلا
فأعجبْ لأمته التى قد صيَّرَتْ ... تنويهها بالإلهها التَّنْكِيلا
هم بَجَّلوه بباطلٍ فابْتزَّه ... أعـداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطَّعوا أمرَ العقائدِ بينهم ... زُمَرًا ألم تر عَقْدَها محْلولا
هو آدمٌ فى الفضل إلا أنه ... لم يُعْطَ حال النَّفْخَةِ التكميلا

وليست هذه القصيدة هى كلّ ما قاله فى جدال اليهود والنصارى ، بل له فيهم انتقاص وتجريح ، وكان كلما أغضب إحدى الطائفتين ، أرضاها بذمّ الأخرى ، فقد ذمّ النصارى فهددوه وألزموه ، فكتب :

ما للنصارى إلىّ ذنب   وإنما الذنب لليهود
وكيف فضلتهم وفيهم   سرّ الخنازير والقرود

الفكاهة فى شعر البوصيرى

لم يخل شعر البوصيرى من فكاهة ، وهى أدلّ دليل على إسماح النفس والرّضا بحكم الأيام ، وتلك أوفق الصفات لما كان عليه البوصيرى من توكل وقناعة واستعداد لما صار إليه من تصوّف فى آخر أيامه .

وقد مرّ بك مداعبته لبهاء الدّين وشكواه لفقره وسوء حال عياله فى العيد .

كذلك تقرأ له قصة حمارته التى أعجبت ناظر الشرقية ، فأخذها وجهّز له مائتى درهم ثمناً لها ، فكتب البوصيرى على لسانها إلى الناظر يقول :

يأيها السيد الذى شهدتْ   أخلاقُه لى بأنه فاضلْ
ما كان ظنى يبيعنى أحدٌ   قط ولكنْ صاحبى جاهلْ
لو جرّسوه علىّ من سَفَهٍ   لقلتُ غيظاً عليه يَسْتاهِل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى   أرعى بها فى جوانب الساحلْ
وبعد هذا فما يحِلُّ لَكُمْ   أخذى لأنى من سيدى حامل

القلقشندى

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبيد الله بن سليمان ابن إسمعيل القلقشندى الشهير بأبى غُدّة ، هكذا ورد التعريف به على ظهر كتابه : « نهاية الأرب ، فى معرفة أنساب العرب » ، وقد سماه صاحب : « شذرات الذهب »

« أحمد بن علىّ بن أحمد القلقشندى » ، وسماه السَّخاوىّ فى الضوء اللامع أحمد ابن علىّ بن أحمد بن عبد الله بن الشهاب بن الجمال بن أبى اليمن القَلْقَشَنْدِىّ .

فالاتفاق واقع على أن اسمه أحمد ، أما تكنيته بأبى العباس وتلقيبه بشهاب الدّين ، فذلك ما انفرد به صدر كتابه نهاية الأرب .

وليس على هذا الاختلاف تعويل ، إذ المعهود أن النساخ يكتبون أسماء المؤلفين من إملاء ذاكرتهم فيزيدون وينقصون .

أصل القلقشندى

وهو من أصل عربىّ صميم من بنى بَدْر بن فَزارة بن قَيْس عيلان ، وكان بنو فزَارة قد نزلوا مصر مع العرب الذين وردوها حين الفتح ، فاستقرّوا بإقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على جلّ بلاد الأقليم ، وصارت لهم فيه الرّياسة .

ويروى القلقشندى عن نسبه وشأن قبيلته فى صفحة ٣٤٥ من الجزء الأول من كتابه : « صبح الأعشى » ما يأتى : « ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر ؛ فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بدر بن عدىّ بن فزارة ، وفيهم كانت رياسة بنى فزارة فى الجاهلية يرأسون جميع غطَفان ، وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدىّ ، ومنهم كان حُذَيفة بن بدر صاحب الفرس المعروفة بالغبراء[1] . ومن بنى بدر هؤلاء ، وبنى عمهم بنى مازن جماعة بالقليوبية بالديار المصرية » .

---

(١) حرب داحس والغبراء سببها أن قيس بن زهير العبسى ، وحمل بن بدر الفزارى (فزارة من ذبيان) تراهنا على مائة بعير لمن يسبق فرسه . وكان داحس فرسا لزهير والغبراء حجرا لحمل ، فأكمن حمل فتيانا ردوا داحسا فلم يسبق فأبى قيس دفع السبق . ثم إن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكا إلى قيس يطلب السبق فقتله قيس . ثم إن حذيفة قتل مالك بن قيس فوقعت الحرب .

قال قلت : و بنو بدر هم قبيلتنا التى إليها نُعزى ، وفيها ننتسب ، وأهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بنى بدر ، ونصفهم من بنى مازن .

ووُلد أبو العباس بقلقشندة إحدى القرى القريبة من قليوب سنة ٧٥٦ هـ .

تعلمــــه

ذكروا أنه أقام بالإسكندرية مدّة ، فتعلم فيها ، وكان له بها أساتذة كثيرون ، ولم نعثر على أسباب رحلته إلى الإسكندرية . فإن كان رحل إليها فى طلب العلم ، فكيف عدل بها عن القاهرة ، وبها الأزهر مثابة كلّ طالب للعلم فى أيامه وقبلها وبعدها ، ولكن لعلّ طلبه للعلم بالإسكندرية كان تابعاً لضرورة الإقامة بها التى ربما استلزمتها حياة من يقوم بتربيته من أب أو غيره .

ولقد كان من أساتذته بالإسكندرية سِراج الدّين أبو حفص عمر بن أبى الحسن ، الشهير بابن الملقِّن . وقد حاز هذا الطالب المجدُّ المعروف بقوّة الحفظ والمثابرة على الدرس رضا أستاذه ، فأجازه فى سنة ٧٧٨ هـ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان إذ ذاك فى مُقْتَبَل العمر لم تزد سنه على إحدى وعشرين سنة . كذلك أجازه أستاذه برواية كلّ ماله من التآليف فى الفقه وغيره ، وخوّله أن يروى كلّ ما جازت له روايته بشروطه عند أهله ، كالكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعى ، ومسند أحمد وغيرها . وقد تولى كتابة هذه الإجازة موقع الأحكام بمدينة الإسكندرية القاضى تاج الدّين بن غنّوم .

وبهذه الإجازة صار له حقّ التدريس ، فاشتغل به ، وكان له تلاميذ نالوا إجازته فيما حفظوه ودرسوه من كتب الفقه وعلوم العربية وغيرها .

قوة حفظه

وقد كان يمتاز بقوّة الحفظ امتيازاً ظاهراً ، حتى يقال : إنه كان يستحضر كتابى جامع المختصرات والحاوى .

فأما جامع المختصرات ، فهو كتاب فى فقه الشافعية للشيخ كمال الدين أحمد ابن عمر المتوفى سنة ٧٥٧ ﻫ .

وأما الحاوى ، فهو المعروف بالحاوى الصغير ، وهو كتاب فى فقه الشافعية أيضاً ألفه العلامة نجم الدين بن عبد القادر بن عبد الكريم ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وعند الشافعية الحاوى الكبير فى الفروع للقاضى أبى الحسن علىّ بن محمد الماوردى البصرى الشافعى المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ ، وهو كما يقول صاحب كشف الظنون (كتاب عظيم فى عشر مجلدات وقيل فى ثلاثين لم يؤلف فى المذهب مثله) ، والمفهوم من كلام حاجي خليفة صاحب الكشف أنه سمع بالكتاب ولم يره ، ولكننا رأيناه بين مخطوطات دار الكتب المصرية فى أربعة وعشرين مجلداً ، ولعل اختلاف عدد المجلدات راجع إلى عمل النساخ ، ولا يصحّ أن يتبادر إلى الذهن من قولهم : إن القلقشندى كان يستحضر الحاوى إلا الحاوى الصغير ، لأن الكبير لاتتعلق همة بحفظه .

ويقال أيضاً : إن القلقشندى كان يستحضر أكثر ما أتى به فى كتابه صبح الأعشى ، وعلى ذلك يكون من نوادر رجال الحفظ فى الإسلام .

عمله بديوان الانشاء

فى سنة ٧٩١ هـ ، عمل فى ديوان الإنشاء بمصر أيام كان رئيسه بدر الدين ابن القاضى علاء الدين ابن القاضى محيي الدين بن فضل الله العُمَرىّ ، ويظهر أنه تأهل لهذا المنصب بتلك المقامة التى أنشأها فى تقريظ هذا الرئيس ، وسماها : « الكواكب الدرية ، فى المناقب البدرية » ، وقد ورد ذكرها فى الجزء الرابع عشر من كتاب «صبح الأعشى» ، و بناها على التعريف بكتابة الإنشاء وضمّنها كثيراً من أصول الصناعة ، ولكنها كانت موجزة فصارت نواة لكتاب صبح الأعشى الذى ألفه فيما بعد .

كتابته

إنك واجد أمثلة كثيرة من كتابة القَلْقَشَنْدِىّ فى نوعى الترسل والتأليف فى كتابه : « صبح الأعشى » الذى يجمع بين هذه الأمثلة ، لأن عبارة المؤلف ظاهرة فيه كل الظهور فى أبوابه التى يعقدها فى فضل الكتابة و بيان شروطها ، ووصف أحوالها فى مختلف عصورها . وأمانوع الترسل فظاهر لما يضربه من الأمثلة للأغراض التى يعرض لها من كتابه : فى تهنئة بمولود ، أو وصف انتصار لجيش ، أو غير ذلك . وسنذكر لك فيما بعد أمثلة من النوعين .

وكتابته فى هذين النوعين أمثل ماعرف لأهل زمانه ، فهى فى التأليف عبارة مرسلة فى غالب أمرها مؤدية للغرض ، أوفى أداء لايعتريه فيها وَهَن ولا ركّة .

وكتابته فى الترسل فيها طابع أهل زمانه من العناية بالبديع والحرص على أنواعه،

ولـكن يظهر أن لفطرة القَلْقَشَنْدِىّ العربية ، ولـكثرة محفوظه أثراً فى سلامة ملـكته ، فلم يُلحّ فى هذه الأنواع البديعية ولم يَبِنْ عليه فيها تكلفٌ ولا ثقل كما نرى فى كتابة غيره .

مؤلفاته

أشهر هذه المؤلفات وأكبرها حجماً هو : كتاب « صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا » ، وقد مرّ تفصيل الحديث عنه فى الكلام على مؤلفات هذا العصر .

وله أيضاً كتاب: «نهاية الأرب ، فى معرفة أنساب العرب» ، وهومطبوع ببغداد .

يقول فى مقدمته : كان العلم بقبائل العرب وأنسابهم على جلالة قدره ، وعلوّ مكانه ، ورفعة ذكره قد درس بترك مدارســة معالمه ، وانقرض بانقراض علمائه من العصر الأوّل مع مسيس الحاجة إليه فى كثير من المهمات ، ودعاء الضرورة إلى معرفته فى الجليل من الوقائع والملمات ، ثم يذكر أنه ألفه للعزيز الأشرف ، العالى المولوى ، الأمير الـكبير المنصورى الزعيمى النظامى المدبرى المشيرى الأصيلى الـكفيلى العزيزى أبى المحاسن يوسف الأموى عزيز المملكة المصرية وسفيرها ومدبر الممالك الإسلامية ومشيرها ، وأنه أحبّ أن يخدم خزانته العالية بتأليف كتابه فى معرفة قبائل العرب والعلم بأنسابها ، يجدّد بعد الدروس رسومها ، ويطلع بأفق الزمان بعد الأفول نجومها .

وقد رتبه على مقدمة ، ومقصود ، وخاتمة :

فالمقدّمة فى ذكر أمور يحتاج إليها فى علم الأنساب ومعرفة القبائل ، منها بيان فائدة علم الأنساب فى الاستدلال على صحة نسب خليفة المسلمين الذى حكى المـاوردى إجماع المسلمين على كونه قرشيًّا . قال الشافعية : فإذا لم يوجد قرشىّ اختير كنانيًّا ، فإن تعذر تخير من بنى إسمٰعيل ، فإن تعذر اختير من ولد إسحٰق ، فإن تعذر فمن جرهم

لشرفهم بصهر إسمٰعيل عليه السلام . وقد نصوا على أن الهاشمىّ أولى بالإمامة من غيره من قريش ، فلو فاتت معرفة الأنساب لتعذر التوفق إلى الخليفة الذى تصحّ خلافته ، ثم استمرّ يذكر الحاجة إلى معرفة الأنساب فى الكفاءة فى الزواج والرّق ، لأنه يجرى على العجم دون العرب فى أحد قولى الشافعى .

ثم بدأ المقصد ببيان عمود نسب رسول الله وما يتفرّع عنه من الأنساب .

ثم ذكر تفاصيل قبائل العرب مرتبة على حروف المعجم .

وكان ختام المقصد ذكر الياء مع القاف ، فقال :

« بنو يَقْطُن وهم بنو قحطان أبو القحطانية عرب اليمن ، ويقطن اسمه بالسريانية ، وهو فى التوراة كذلك فعربته العرب « قحطان » .

وبنو يَقَظة بطن من قريش البِطاح من العدنانية ، وهم بنو يقظة بن مرّة ابن كعب » .

وجعل الخاتمة فى ذكر أمور تتعلق بالعرب من دياناتهم قبل الإسلام ومفاخراتهم وأيامهم وأسواقهم ونيرانهم .

كتاب : « قلائد الجمان ، فى التعريف بقبائل عرب الزمان » . هذا الكتاب للقلقشندى أيضاً ، وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وقد ذكر فى المقدمة السبب الدافع إلى تأليفه بعد نهاية الأرب ، فقال : إنه لم يعن فى نهاية الأرب بذكر مصير القبائل فى أيامها الأخيرة ، فلم يكن له بدّ من ذكر القبائل التى تقيم بالقطر المصرى لحاجة كاتب الإنشاء إلى ذلك فيما يصدره من كتب إلى رؤساء قبائلها .

ثم يذكر أنه ألفه لرئيس ديوان الإنشاء فى أيامه ، وهو محمد الجُهَنىّ البارزى الشافعى ، وقد قدم له من الألقاب مثل ما قدمه لأبى المحاسن يوسف الأموى رئيس الديوان قبله الذى قدم له كتاب نهاية الأرب ، ويظهر أن هذه الألقاب هى ألقاب من يتولى رياسة الديوان فى هذه الأيام .

والعجب أن الكتاب قد بنى على مقدمة ومقصد وخاتمة كما بنى كتاب نهاية الأرب ، ولكن الذى نلاحظه من الفرق أن الثانى مختصر عن الأول وأن فيه تنصيصاً على مساكن القبائل النازلة بمصر . وهناك فرق آخر ، وهو أن الخاتمة فى نهاية الأرب ، فى ذكر أمور تتعلق بالعرب ، أما هنا فهى فى ذكر نسب رئيس الديوان الذى ألف له الكتاب . والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

حلية الفضل وزينة الكرم

فى المفاخرة بين السيف والقلم

هى رسالة أو مقامة فرض فيها القلقشندى السيف والقلم ، إنسانين يتكلمان ، فيبدأ القلم بذكر محاسنه وجليل أثره ، فيردّ عليه السيف بنقض هذه المحاسن ، وجعلها مساوئ ، ويثبت لنفسه فضلا يُزْهَى به على القلم ، فيعود القلم للكلام ، وهكذا . ثم انتهى الحال بينهما بعد أن طال جدالهما ، وتعداد كل لمحاسنه وإنكاره محاسن غيره ، أن حكّما بينهما المَقَرّ الزينى أبايزيد الدَّاوَدَار للسلطان الملك الظاهر بُرْقوق ، فكتب بينهما كتاب الصلح والمصافاة .

ويذكر القلقشندى أنه أنشأ هذه الرسالة سنة ٧٩٤ هـ ، تخليداً لذكر الأمير المذكور ، إذ كان من جودة الخط وتحرير قواعده فى الطبقة العليا ، ثم يذكر أنه قد ناله خير كثير من هذا الأمير حين قدمها إليه .

وهذه الرسالة مشهورة مضروب بها المثل فى الأنواع التى جدت من أغراض الكتابة وأساليبها فى هذه الأيام ، ومنشؤها الأول كان فى الأندلس كما عرفت ذلك فى الحديث عن الكتابة الأندلسية ، والرسالة مخطوطة على حدة بدار الكتب ضمن

مجموعة هناك ، وقد ذكرها القلقشندى فى الجزء الرابع عشر من كتابه : «صبح الأعشى» . ولا نرى بأساً من نقلها برُمّتها هنا ليعمّ الانتفاع بها ، وتكون قريبة المتناول .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعزّ السيف وشرّف القلم ، وأفردهما برتب العلياء ، فقرن لهما بين المجد والكرم ، وساوى بينهما فى القسمة ، فهذا للحُكْم وهذا للحِكَم . أحمده على أن جمع بخير أمير بعد التفرّق شَمْلهما ، ووصل بأعزّ مليك بعد التقاطع حبلهما . وأرغب إليه بشكر يكاثر النجوم فى عديدها ، ويكون للنعمة على ممرّ الزمان أبا يزيدها[(1)] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة يأتَمّ الإخلاص بمذهبها ، ولا ينجو من سيفها إلا من أجاب داعيها وأَقَرَّ بها ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى خُصّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر ، واستأثر بالسُّؤْدُدِ فى الدارين ، فحاز أفخر المعالى ، ونال أعلى المفاخر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام، فسمت بهم على سائر الدول ، وكرعت فى دماء الكفر سيوفهم ، فعادت بخَلُوق النصر لا بحمرة الخجل ، صلاةً ينقضى دون انقضائها تعاقبُ الأيام، وتَكِلُّ ألسنة الأقلام عن وصفها ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .

وبعد ، فإنه ما تقارب اثنان فى الرتبة إلا تحاسدا ، ولا اجتمعا فى مقام رفعة إلا ازدحما على المجد وتواردا ، ورام كل منهما أن يكون الفائز بالقدح المُعَلَّى وأن يكون مَفْرِقه هو المتوج وجيده هو المحلَّى ، وادّعى كل منهما أن جواده هو السابق فى حَلْبة

(١) معنى كون الشكر يصير للنعمة بمثابة أبى يزيد ، أنه يزيد فيها ويكثر منها كما يفعل أبو يزيد هذا . وفى هذا الكلام ما أسميه شبه تورية لأن المعنى القريب فيها الزيادة المفهومة من يزيد ، والمعنى البعيد هو ماذكرناه أوّلا .

السباق ، والفائز بقَصَب السَّبْق بالاتفاق . وأن نجمه هو الطالع الذى لا يأفِل ، وسُؤْدُده هو الحاكم الذى لا يعزل ، وأن المسك دون عَبِيره ، والبحر لا يجىء نُطْفة فى غديره ، والدُرّ لا يصلح صدَفا ، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفاً . وأن منابر المعالى موقوفة على قدمه ، ومجامر المفاخر فائحة بنَشْر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا فى المجد وتقاربا ، وأخذا بطرفى الشرف وتجاذبا ، إذ كانا قُطْبين تدور عليهما دوائر الكمال ، وسعدين مجتمعان فى دائرة الاعتدال ، ونجمين يهديان إلى المعالى ، ومصباحين يستضاء بهما فى حنادس الليالى ، وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما ، وشجرتين يجتنى العز من أغصانهما ، جرّ كلّ منهما ثوب الخيلاء فخراً ، فمشى وتبختر ، وأسبل رداء العجب تيهاً فما تخبّل ولا تعثّر ، واتسع له المجال فى الدعوى فجال ، وطاوعته يد المقال فقال وطال ، وتطرقت إليهما عقارب الشحناء ودبّتْ ، وتوقّدت بينهما نار المنافسة وشبت ، وأظهر كلّ منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى ، وباح مما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حُبْلى[(١)] .

وبدأ القلم فتكلم ، ومضى فى الكلام بصِدْق عزمٍ فما توقف ولا تلعثم . فقال :

باسم الله تعالى أستفتح ، وبحمده أتيمن وأستنجح ، إذ من شأنى الكتابة ومن فنى الخطابة ، وكلّ أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم ، وكلّ كلام لا يفتتح بحمده فأساسه غير محكم ، ورداؤه غير معلم ، والعاقل من أتى الأمر من فَصِّه ، وأخذ الحديث بنَصِّه ، والحقّ أحقّ أن يُتَّبَع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يُصْغى إليه ولا يُسْتَمَع ، إنى لأول مخلوق بالنصّ الثابت والحجة القاطعة ، والمستحقّ لفضل السَّبْق من غير منازعة ، أَقْسَمَ الله تعالى بى فى كتابه ، وشرّفنى بالذكر فى كلامه لرسوله وخطابه ، فقال جلّ من قائل : « نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

(١) لعل المعنى أنه لا يغضب فيمتلئ قلبه بالغضب حتى يصير كالمرأة الحبلى ، ويساعد على ذلك أن الحبل الغضب .

بِمَجْنُونٍ » ، وقال جلت قدرته : « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » ، فكان لى من الفضل وافر القِسْمة ، وخُصِصْتُ بكمال المعرفة ، فجمعت شوارد العلوم وكنت قَيِّمَ الحكمة .

فقال السيف: باسم الله والله أكبر، نصرٌ من الله وفتحٌ قريب . لكلّ باغٍ مصرع. وللصائل بالعدوان مَهْلَكٌ ، لا ينجو منه ولا يَنْجَع ، وفاتح باب الشرّ يُغْلَق به ، وقادح زَنْد الحرب يحرق بلهبه. أقول بموجب استدلالك وأوجب الاعتراض عليك فى مقالك : نعم أَقْسَمَ اللهُ تعالى بالقلم ولستَ بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المعنىّ بما هنالك ، إن ذلك لمعنى يَكِلُّ فهمُك عن إدراكه ، ويضلّ نجمك أن يَسْرِىَ فى أفلاكه ، وأنت وإن ذُكرت فى التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك فى قوله: « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ». بشبهة التفضيل ، فقد حرّم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحَرَمك من مَسِّ أنامله الشريفة ما يُؤْسَى على فوته ويُسَرّ بحصوله . لكنى قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد ، وحلاّنى من كفه شرفاً لايزول حليه أبداً ، وقمت بنصره فى كلّ معترك ، وسَلْ حُنَيْناً ، وَسَلْ بَدْراً ، وَسَلْ أُحُداً . ذكر الله تعالى فى القرآن جنسى الذى أنا نوعه الأكبر ، ونبه على ما فيه من المنافع التى هى من نفعك أعمّ وأشهر . وما اجتمع فيه من عظيمى الشدّة والباس ، فقال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » على أنك لو اعتبرت جنسى القصب والحديد ، وعرفت الكليل منهما والجليد . لتحققت تساط الحديد عليك قَطًّا وبَرْياً ، وتحكمه فيك أمراً ونهياً .

فقال القلم : فَرَرْتَ من الشريعة وعدلها ، وعوّلت على الطبيعة وجهلها ، فافتخرت بحيفك وعدوانك ، واعتمدت فى الفضل على تعديك وطغيانك . فملت إلى الظلم الذى هو إليك أقرب ، وغلب عليك طبعك فى الجور والطَّبْعُ أغلب ، فلا فتنة إلا وأنت

أسباسها ، ولا غارة إلا وأنت رأسها ، ولا شرّ إلا وأنت فاتح بابه ، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه ، تؤكّد مواقع الجفاء ، وتُكَدِّر أوقات الصفاء ، وتُؤْثِر القساوة ، وتؤثّر العداوة . أما أنا فالحقّ مذهبي، والصدق مركبي ، والعدل شيمتي ، وحلية الفضل زينتي، إن حكمت أقسطت ، وإن اسْتُحْفِظْتُ حَفِظْتُ ومافرّطت ، لا أُفشي سرًّا يريد صاحبه كتمه ، ولا أكتم علماً يبتغي متعلمه علمه . مع عموم الحاجة إليّ، والافتقار إلى علمي، والاكتساب مما لديّ. أدير في القرطاس كاسات خمري فأزرى بالمزامير وأهزأ بالمزاهر . وأَنْفِثُ فيه سحر بياني ، فألعب بالألباب ، وأستجلب الخواطر ، وأنفذ جيوش سطوري على بعد فأهْزِمُ العساكر ، فلكم يُفَلُّ الجيش وهوعرمرم ، والبِيضُ ماسُلَّتْ من الأغماد.

فقال السيف : أطلت الغيبة ، وجئت بالخيبة ، وسكت ألفا ، ونطقت خَلْفا :

السَّيْفُ أصدقُ أنباءً من الـكُتُبِ في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

إن نِجادي لِحَلْيَةٌ للعواتق ، ومصاحبتي أَمَنَةٌ من البوائق ، ما تقلّدني عاتق إلا بات عزيزاً ، ولا توسّدني ساعدٌ إلا كنت له حِرْزاً حريزاً . أمري المطاع، وقولي المستمَع ، ورأيي المصوَّب، وحكمي المتَّبَع ، لم أَزَلْ للنصر مفتاحاً ، وللظلام مِصْباحاً ، وللعزّ قائداً ، وللعُداة ذائداً . فأنّى لك بمساجلتي ، ومقاومتي في الفخر ومنافرتي ، مع عُرْي جسمك ونحافة بدنك ، وإسراع تَلَفِك وقِصَر زمنك ، وبَخْس أثمانك على بعد وطنك ، وما أنت عليه من جَرْي دمعك ، وضيق ذَرْعك ، وتفرُّق جمعك ، وقِصَر باعك ، وقلة أَتْباعِك .

فقال القلم : مهلا أيها المساجل ، وعلى رِسْلِك أيها المغالبُ والمناضلُ ، لقد أفحشتَ مقالا ، ونمَّقْتَ محالا ، فغادرَتْك سُبُل الإصابة وخَرَجْتَ عن جادَّةِ الإنابة ، وسُؤْتَ سَمْعاً فأسأت إجابة ، إني لمبارك الطلعة وَسِيمُها ، شريف النفس كريمها ، آخذٌ بالفضائل من جميع جهاتها ، مستوفٍ للمدائح بسائر صفاتها ، فطائري ميمون ، وغُولي مأمون ، وعطائي غير ممنون . أصل وتقطع ، وأعطي وتمنع ، وتفرِّق وأجمع ، وإن ازدراءك بي

من الـكبر المنهيّ عنه ، وغضّك منى من العُجْب المستعاذ منه . ومن حَقَر شيئاً قتله ، ومن استهان بفاضل فضله ، وإنى وإن صغر جرْمى فإنّى لـكبير الفعال ، وإن نحُفَ بدنى فإنِّى لشديدُ البأس عند النزال ، وإن عَرِى جسمى فكم كَسَوْتُ عاريا ، وإن جرى دمعى فكم أرويت ظامياً ، وإن ضاق ذَرْعى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُر باعى فكم أطلقتُ أسيراً وأنا فى سجن الدواة مأسور ، إذا امتطيت طِرْسى ، وتدرّعت نِقْسى ، وتقلَّدْتُ خَمْسى ، وجاشت على الأعداء نفسى :

رأيتَ جليلا شأنُه وهو مُرْهَفٌ ضَنًى وسَمِيناً خَطْبُه وهو ناحــــل

أنسيت إذ أنت فى المعدن ترابٌ تُداس بالأقدام ، وتَنْسِفُك الرياح وتزرى بك الأيام . ثم صِرْتَ إلى القين تَقْعُد لك السنادين بالمراصد ، وتَدْمَغك المقامع وتسطو بك المبارد . ثم لولا صقالك لأذهبك الجَرَب ، وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف: إنا لله ! لقداستأسدتِ الثعالب، واستنسرت البُغاث ، فعَدَّ العصفور نفسه من طير الواجب (١) ، وجاء الغُراب إلى البازى يهَدِّده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرِّده ، فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت فى السكينة طريق أبناء جنسك ، ووقفت عند ما حُدَّ لك ، وذكرت عجزك وكسلك ، لـكان أجدر بك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك . إن الملوك لَتُعِدُّنى لمهماتها وتستنجدنى فى ملماتها ، وتتعالى فى نسبى ، وتتغالى فى حسبى ، وتتنافس فى قُنْيَتِى وتتحاسد ، وتجعلنى عُرْضةً لأيمانها فتتعاقد بالحِلْف علىّ وتتعاهد ، وتدّخرنى فى خزائنها ادخار الأعلاق ، وتَعُدُّنى أنفس ذخائرها على الإطلاق . فتكللنى الجواهر وتحلينى النقود ، فأظهر فى أحسن المظاهر . أُبْرِزُ للشجعان خَدِّىَ الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوالف ، وأزهو بقَدِّى فأَسْلُبُهُمْ هَيَفَ القدود مع لين المعاطف، وأوهم الظمآن من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيل للمقرور أنى جذوة نار فيطلبنى

---

(١) سبق بيان طيور الواجب فى صفحة ٢٤٣ من هذا الجزء .

على المدى الطويل . ويخالنى متوقِّع الغيث برقا لامعاً ، ويظننى الجائز فى الشرق نجماً طالعاً ، فالشمس من شعاعى فى خجل ، والليل من ضوئى فى وجل . وما أسرعت فى طلب ثأر إلا قيل فات ما ذُبِح وسَبَقَ السيفُ العَذَل .

فقال القلم: بَرِّقْ لمن لاعرفك . وروِّج على غير الجوهرى صَدَفك . فما أنت من بَزِّى ولا عِطْرى . ولستُ بمساو حدَّك القاطع بقُلامة ظُفْرى ، إن برقك لخُلَّب ، وإن ريحك لأريب ، وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لخامد ، ومن ادعى ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشبّع بما لم يُعْط فهو كلابس ثوبى زور .

من قال إن النجم أَكْبَرُها سُها بغـــــير دليل كذبته ذُكاء

أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وعُذَيْقُها المُرَجَّب ، وكريمها المبجّل ، وعالمها المهذّب . يختلف حالى فى الأفعال السنية باختلاف الأعراض وأمشى مع المقاصد الشريفة بحسب الأغراض ، وأتزَيّا بكلّ زى جميل ، فأنزل فى كلّ حىّ وأسير فى كلّ قبيل . فتارةً أرى إماما عالما ، وتارة لدُرّ الكلام ناثراً وأخرى لعقود الشعر ناظماً ، وطوراً تُلْفِينى جواداً سابقاً ، ومرة تَجِدُنى رمحاً طاعنا وسهماً راشقاً ، وآونة تخالنى نجما مُشْرِقا ، وحينا تحسبنى أفعوانا مطرقا قد فقت الشَّبَّابة فى الطرب ، وبرّزْتُ عليها فى كل معنى وإن جمع بيننا جنس القَصَب . فكانتْ الأغانى وكنتُ المعانى وجاءت بغريب النغم ، وجئت ببديع الحكم . ولعبت بالأسماع طربا ، ووَلِعْتُ بالألباب فاتخذت لدهرها مما عراها عجبا .

فقال السيف : ذكرتنى الطعن وكنت ناسياً ، وطلبت التكثر فازددتَ قلةً وعُدْتَ خاسياً . فكنتَ كطالب الصيد فى عريسة الأسد إن لقيه أهلكه ، وخالفتَ النصَّ فألقيت بيدك إلى التهلكة . فاقنع من الغنيمة بالإياب ، وعُدَّ الهزيمة مع السلامة من أربح الأكساب ، فلست ممن يشقّ غُبارى ، ولا يقابل فى الهيجاء ضَرَمى ،

ولا يصطلى بنارى ، فكم من بطل أبطلتُ حَرَاكه ، وكم من شجاع عَجّلتُ هلاكه ، وكم من صنديدٍ أرقتُ دَمَه ، وكم ثابتِ الجأش زلزلتُ قدمه .

وأراد القلم أن يأخذ فى الكلام ويرجع إلى الجدال والخصام فغلب عليه رقة طبعه وحُسْن موارده ، وسلاسة قياده ، وجميلُ مقاصده . فمال إلى الصلح وجنح إلى السلم ، وأعرض عن الجهل وتمسك بالحلم . وأقبل على السيف بقلب صاف . ولسان رطب غير جاف ، فقال : قد طالت بيننا المجادلة وكثرت المراجعة والمقاولة . مع ما بيننا من قَرابة الشرف . وأخذ كلّ منا من الفضل بطَرَف . فنحن فى الكرم شقيقان ، وفى المجد رفيقان . لا يستقل أحدنا بنفسه . ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه . وقد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَه ، وعَلِمْتُ أصفاه وأَكْدرَه ، وقلّبته ظهراً وبطناً ، وجبت فَيَافِيهِ سهلاً وحزناً وإن معاداة الرفيق ، ومباينة الشقيق ، توجب شماتة العدوّ، وتَغُمّ الصديق . فهل لك أن تعقد للصلح عَقْداً لا يُتعدّى حدّه ، ولا يُحلّ على طول الزمان عَقْده لنكون أبداً متآلفَيْن، وعلى السرّاء والضرّاء متصاحبين ، حتى لايُضْرب بنديمى جَزِيمة مع اصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بإباء الخطل :

ولَسْتَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه عَلَى شَعَثٍ أىُّ الرجالِ المُهَذَّبُ

فقال السيف : لقد رأيت صوابًا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابًا ، وسريت أحسن مسرى ، وسِرْتَ أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح والصلح خير .

وَقَدْ يجمعُ اللهُ الشتيتين بعد ما يَظُنَّانِ كلَّ الظَّنِّ أن لاتلاقيا

ثم قالا : لابدّ من حَكَم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع فى ذلك إليه، لنحظى بزيادة الشرف . ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف. ولسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا ، إلا لدى السيد الأكمل ، والمالك الأفضل الماجد السَّرِىّ ، والبطل الكَمِىّ ، والبحر الخِضَمّ ، والغيث الأعم ، مولى المعالى ومولى النعم ، ومُمْتَطِى جواد العزّ ورافع أعلام الكرم . جامع أشتات الفضائل ومالك زِمامها ، وضابط أمر الدولة

الظاهرية وحافظ نظامها المقرّ الكريم، العالى المولوىّ الزينى أبى يزيد الدّاودار الظاهرى، ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة فى الدارين ليجمع له فى الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ، فهو قطب المملكة الذى عليه تدور ، وفارسها الأروع وأسدها الهصور ، و بطلها السَّمَيْدَع وليثها الشهير ، وأبو عُذْرتها حقًّا من غير نُكْر وابن بَجْدَتِها الساقطة منه على الخبير ، ومعقلها الأمنع ، وحِرْزها الحصين، وعِقْدها الأنفس، وجوهرها الثمين . وتِلادُها العليم بأحوالها ، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها ، وتَرْجُمانها المتكلم بلسانها ، وعالمها المتفنن فى أفنانها ، وطبيبها العارف بطبها، ومنجدها الكاشف لكَرْبها. هذا و إنه لمالك أمرنا ورافع قدرنا ، والصائل منا بالحدَّين ، والجامع منا بين الضدين ، فلو لقيه فارس عبس لولّى عابساً ، أو طرق حمى كليب لبات من حماه آيساً ، أو قارعه ربيعة بن مُكَدَّم لعلا بالسيف مَفْرِقه ، أو نازله بِسْطامٌ لبدد جمعه وفرقه ، كما أنه لو قُرِن خطه بنفيس الجواهر لغلاه قيمة ، أو قاسمه ابن مقلة فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فاخره ابن هلال لرأى أنه سبقه إلى كلّ كريمة . وبالجملة فعزه الظاهر وفضله الأكمل ، وسِماكه الرامح وسِماكُ غيره الأعزل ، فلا يسمح الزمان أن يأتى له بنظير ، ولا أراد مُدَّعٍ بلوغ شأوه إلا قيل اتئد فلقد حاولت الانتهاض بجناح كسير :

فَحَىَّ هَلاً بالمكرمات وبالعُلا   وحَىَّ هَلاً بالفضل والسُّؤْدُد المَحْضِ

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل ، وأحسن مقام وأجمل ، فهلمّ إليه يعقد بيننا عَقْد الصلح ، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنصح ، ثم لم يلبثا أن كتبا بينهما كتاب الصلح والمصافاة ، وتعاهدا على الودّ والموافاة . وأعلن بعقد الصلح مناديهما ، وحدا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما وراح يُنْشد :

حَسَمَ الصُّلحُ ما اشْتَهَتْه الأعادى   وأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ

وزالت عنهما الأحقاد والإحن ، وباتا فى أعزّ مكان وأشرف وطن ، وثُلِّث قرانهما فأسعد ، ثم قام منشدهما ، فأنشد :

لا تُنْكِرِ الصلحَ بين السيف والقَلَمِ فعاقدُ الصلح عالى القدر والهِمَمِ
أبو يَزِيد نظامُ الملك مالكُنا وواصلُ العلم فى علياه بالعَلَمَ
فهو المرادُ بما أبديه من مِدَحٍ وغايةُ القصد من ترتيب ذا الكلم
وإن جرى مدح سيف أو علا قلم فذاك وصف لما قد حاز من كرم

وفاة القلقشندى

وقد عاش رحمه الله موقراً جمّ التواضع حتى توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة ٨٢١ ﻫ عن خمس وستين سنة .

العصر العثمانى

٩٢٣ هـ — ١٢٢٠ هـ

لهذا العصر أسباب كوّنته ، وجعلت للآداب فيه والعلوم طابعاً غير طابعها فى العصر الذى سبقه ، والعصر الذى وليه .

والحادث العظيم الذى أثر هذا التأثير البالغ: هو أن السلطان فى البلاد الإسلامية ، والسيطرة على حياة العربية ورجالها صارا فى أغلب البقاع ، لتلك الدولة الجديدة « دولة الأتراك العثمانيين » ، وهؤلاء الأتراك هم شعب من تلك الشعوب التى انساحت من موطنها الأصلى فى شمال آسية إلى بلاد العراق من أقصاه إلى أدناه ، و بلاد آسية الصغرى والشام .

وكان الأتراك إلى عهد قريب قبل ظهورهم ، واشتهار أمرهم قبيلة صغيرة تقيم فى أرض آسية الصغرى ، وسموا بالعثمانيين نسبة إلى عثمان ملكهم الثانى بعد أبيه أرطغرل أوّل رئيس عرف لهذه القبيلة ، وقد استقلّ عثمان بإمارته التى منحه إياها علاء الدين ملك قونية[1] ، واهتمّ بتنظيم جيشه وحكومته ، فاعتبر المؤسس الأوّل لهذه الدولة .

وقد اتسعت رقعة تلك الدولة ، فشملت العراق والشام ومصر والمغرب ، وعمت آسية الصغرى ، ودخلت أوروبا من مضيق البوسفور حتى وصلت إلى فينا عاصمة النمسا .

---

(١) كان الأتراك قبيلة صغيرة من قبائل وسط آسية تجول بقيادة رئيسها أرطغرل بك ، فرأت جيشين يقتتلان، وقد ظهر ضعف أحدهما عن الآخر فنصرت الجيش الضعيف فكان هو جيش أقاربهم السلاجقة، وملكهم إذذاك علاء الدين صاحب قونية فأقطع أرطغرل بك إقطاعا صغيراً، ومات أرطغرل فخلفه عثمان الذى تسمت الدولة باسمه، وقد منحه علاء الدين استقلالا وضمن له جميع البلاد التى فتحها بشجاعته.

ولما سيطر العثمانيون على جمهور المسلمين فى العالم رأوا أن يجمعوا لأنفسهم بين السلطتين الدنيوية والدينيه ، فنقلوا إلى القسطنطينية خليفة المسلمين على أيامهم ، وهو المتوكل على الله بن المستمسك بالله سنة ٩٢٣ ﻫ ، وهى سنة فتحهم لمصر (١) ، وهناك نزل لهم عن حقه فيها ، فصاروا خلفاء المسلمين منذ ذلك الحين .

---

(١) فى سنة ٩٠٦ ﻫ تولى الملك الأشرف قانصوه الغورى . وفى سنة ٩١٧ ﻫ بدأت الحرب بينه وبين سليم العثمانى بمرج دابق بجهة حلب . ومات الغورى تحت سنابك الخيل سنة ٩٢٢ ﻫ تخلفه فى مصر طومان باى ، فساس الناس أحسن سياسة ، وكان نائبا عنه أيام تخلفه بالشام فاستتب الأمن ورضى الناس .

وفى آخر سنة ٩٢٢ ﻫ دخلت عساكر سليم مصر بعد أن تغلبوا على جند مصر . وبعد أن كانوا فى بأس شديد من مجالدة طومان باى لأنه صابرهم ، وصمد فى وجوههم حتى هم سليم بالعودة إلى القسطنطينية ، لولا وقوع التفرق فى صفوف المصريين فإن العرب خذلوا المماليك ، وقد لجأ طومان باى إلى شيخ العرب حسن مرعى . وكانت بينهما مودة سابقة ، ونعمة من طومان باى عليه إذا كان قد خلصه من سجن الغورى الذى لبث فيه مدة طويلة . ولكن شيخ العرب حسن مرعى دل الأتراك على طومان باى فأحضره السلطان سليم وما إن وقع بصره عليه حتى صاح ، ورفع صوته شاكراً لله ، وقال الآن فتحت مصر . وقد نوى استبقاءه تمجيدا لشجاعته ولكن من حوله احتالوا لقتل طومان باى بأن أمروا جماعة من الغوغاء أن ينادوا حين مرور السلطان سليم بهم (نصر الله السلطان طومان باى) فأوغر ذلك صدر سليم عليه وأمر به فشنق على باب زويلة .

الاستفتاء فى الاغارة على مصر

أراد السلطان سليم أن يجعل لمهاجمته لمصر مبررا من الشرع فاستفتى مفتيه على جمال الدين ، ووجه إليه هذه الأسئلة .

أولا : إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة الملحدين ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التى يبديها سلطان آخر من المسلمين فهل تبيح الشريعة للأول أن يستولى على ملك الثانى ؟ فكان الجواب نعم بالاستناد إلى الحديث الذى يقول «من نصر كافرا فهو كافر» .

ثانياً : إذا كانت أمة من الأمم تدين بالاسلام (يريد المصريين) تؤثر تزويج أبنائها من الكفار (يريد الشراكسة) بدلا من تزويجهم من المسلمات فهل يجوز مقاتلة هذه الامة ؟ فكان الجواب : لاشك فى ذلك .

ثالثاً : إذا كانت أمة تنافق فى احتجاجها برفع كلمة الإسلام فتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى بيوت الخلاء فكيف ينبغى أن تعامل هذه الأمة ؟ فكان الجواب : إذا رفضت هذه الأمة الاقلاع عن هذه العادة جازت محاربتها .

ومن ذلك العصر حرمت مصر والشام استقلالهما ، وصارتا إمارتين من الإمارات الكثيرة التابعة لتلك الدولة الواسعة الأطراف ، وكانتا كما علمت فى العصر الماضى أهمّ البلاد التى تحيا فيها العربية وآدابها .

وكانت سياسة الدولة أن تطالب الوالى بمال مفروض يرسله إليها كلّ عامٍ لا يهمها إلا الحصول عليه غير عابئة بما يكون فى سبيل جمعه من إرهاق وظلم .

ولقد انضمّ إلى ذلك أيضاً حاجة هذه الدولة الناشئة إلى تجميل عاصمتها الجديدة ، فاستولت على كلّ ما حسن فى نظرها مما رأته فى البلاد المفتوحة ، وكانت مصر آهل تلك البلاد بالمحاسن فجردتها منها .

أخذوا منها خزائن كتبها ، وقد كانت آهلة بها ، لأن عناية المماليك بالعلم ومعونتهم للعلماء وحرصهم على تصدير الكتب بأسمائهم ، قد خلف فى مصر ثروة هائلة من تلك الكتب ، فوضع العثمانيون أيديهم على هذه الذخيرة ، ونقلوها إلى عاصمتهم ، والحمد لله إذ كانوا غاصبين لا مبيدين كإخوانهم المُغْل الذين سبقوهم بالإغارة على الممالك الإسلامية .

ولم يكتفوا بالعلم حتى اختاروا أفاضل العلماء وكبارهم وذوى الشهرة الواسعة فيهم ، إلى القسطنطينية أيضاً يقصدون بذلك إبعادهم عن بلادهم ، والحيلولة بينهم و بين الشعب الذى يهتدى بآرائهم ، ويعول على مشورتهم ، حتى يأمنوا الثورة عليهم ، والقيام بالعصيان لحكامهم ، كما كانوا يقصدون بحشد هؤلاء العلماء فى عاصمتهم الانتفاع بهم فى تأثيل ملكهم الجديد ، و بنائه على قواعد ثابتة .

ولم يقف حرصهم على الانتفاع بمحاسن مصر عند هذا ، بل إنهم أخذوا من رجال كل صناعة أمهرهم ، فنقلوا منهم العدد الجمّ . قال ابن إياس فى تاريخه بعد أن سرد أسماء كثيرين من الأمراء والعلماء والأعيان الذين وجهوا بهم إلى عاصمتهم « وجماعة من السيوفية ، والصياقلة ، والسباكين ، والحدادين » ثم قال فى موضع آخر : « وتوجه إلى اسطنبول (القسطنطينية) من البنائين ، والنجارين ، والحدادين ،

والمرخمين ، والمبلّطين ، والخراطين ، والمهندسين ، والحجارين ، والفعلة ، جماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم » .

هذا إلى ما يلزم الفتح عادة من التخريب ، وقتل الأنفس ، والحرج الشديد بغلاء السعر ، ووقوع المكروه بالناس .

وقد قال ابن إياس فى الكلام عن سنة الفتح : « وكانت سنة صعبة شديدة على الناس كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لم تجر في سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك ، وقتل من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلماً ، ولعب السيف بأهل مصر سبعة أيام ، وخربت دور كثيرة ، ونهبت أموال ، ويُتِّمت أطفال ، وترملت نساء » .

⁂

وقد كان من آثار هذا الانقلاب الجديد أن فقدت العربية مظهراً من مظاهر العناية بها ، فقد كانت على عهد المماليك لسان الدولة الرسمى تجرى بها مراسلاتها ، وتكتب عهودها وتسجل أحكامها ، ويتمّ بها كلّ ما يكون من شئونها ، حتى الكتب إلى ملوك الإفرَنْجَة تكتب بالعربية ، وعلى المكتوب إليه أن يزوّد ديوان رسائله بالمترجمين، كما كان ديوان الرسائل بمصر يتخذ منهم فى كلّ لسان من يقوم بترجمة الوارد به من كتب .

ولا شكّ أن حرمان العربية من جعلها لسان الحكومة يستتبع بطلان الحرص على تحصيل ملكتها من فئة كثيرة كانت تجعل ذلك مرتزقها ومطمح آمالها ، وبخاصة لما كان لرئيس هذا الديوان ومقدمى عماله من منزلة سامية ، ومكانة فى النفوس عظيمة ، وشارة بين رجال الدولة محترمة .

وقد كان من الفروق بين حكم المماليك وحكم العثمانيين أن الأولين كانوا لطول

إقامتهم بالبلاد ، ولنشأة الناشئ منهم بين أهليها ، أصبح لسانهم هو لسان أهل مصر . فأما هؤلاء الأتراك فإنهم طرءوا على البلاد بلغتهم ، وهم جمهور كبير من الجيش ورجال الإدارة ، فكان للغتهم أثر فى لغة المصريين ، فما أسرع ما تفشى فى رتب الجيش وأسماء جهاته وأدواته ، ألفاظ : الجاويش ، والصول ، واليوزباشى ، والصاغقول آسى ، والياور ، والأورطة ، والبلك ، والقرقول ، والقيشلاق ، والقالشين ؛ وفى أسماء الأماكن : من أجزاخانه ، وعربخانه ، ويمكخانه ، وسلخانه ، وطبوخانه ، وشفاخانه ، وكتبخانه ، وترزيخانه ، وغير ذلك ؛ وفى أسماء العمال وأرباب الصناعات : من عربجى ، وحلوجى ، وقهوجى ، وطرشجى ، وجزمجى ، وبِرِنْجى ، وخمورجى ، ومكوجى ، ومطبعجى ؛ وفى أسماء الرؤساء : من باش جاويش ، وباش تمرجى ، وباشكاتب ، كما شاع فى الألقاب ألفاظ : سعادتلو ، وفضيلتلو ، وفخامتلو ، وفتوتلو ، وأبهتلو .

كما أنهم سمعوا ألفاظًا عربية ، فحرفوها بما يسهل عليهم النطق بها ، فصار هذا المحرف فيما بعد شركة بينهم وبين أبناء العربية مثل كلمة حوض التى جعلوها هويس ، وحوش التى نطقوا بها خوش ، كما اندست من لغتهم ألفاظ ، فتبعهم فيها المصريون من مثل : بوغاز ، وبَشَوْره ، وبسطرمه ، وبوغاشه ، وبولاق (عين الماء) وحرملة ، وصلاطة ، وقاورمه ، وطاقيه ، وكوبرى ، وهانم ، وياشمق .

ولا تزال العربية للآن تعانى من هذا الدخيل ما اختلط باللسان العربىّ ، وبقى بعد زوال السيطرة التى كانت لأهله ، وهكذا الأحداث التى تجرى على اللغة تقع بطيئة وتزول بطيئة .

ولولا غيرة منا على العربية ورغبة فى استقلالها بعد أن استقلّ أهلها بمصر عن سلطان الأتراك ، لبقيت الألقاب ومصطلحات النداء العسكرى كما كانا على عهد هؤلاء الحكام .

وإنه ليبكيك أن تسمع أو تقرأ صور البؤس التى صار إليها المصريون تحت

حكم الأتراك الذين لم يدعوا وسيلة للحصول على المال إلا اتبعوها ، ولا أسلوبًا فى تعذيب من لايقدر على أدائها إلا أقدموا عليه ، حتى ترك الزرّاع أرضيهم ، وأغلق التجار متاجرهم ، وقبض أصحاب الأموال أيديهم بها ، واجتهدوا فى مواراتها عن العيون بدفنها فى الحوائط وتحت بلاط الحجر ، فعمّ البلاء حتى بلغ حمل الدقيق أربعين ديناراً فى أوائل حكم هؤلاء الأتراك ؛ وكان من نتائج الفقر ، وسوء الحال ، وتوالى الإهمال من الحكام أن تفشت الأمراض ، وظهرت الأوبئة المجتاحة التى كادت تفنى الأمة .

فتصوّر حالة شعب يساق بسوط الإرهاب ، وتهدده المجاعات ، وتجتاحه الأوبئة ، كيف يكون لعلمائه نِتاج أو لأدبائه افتنان ؟ والأدب فنّ جميل لا تنمو زهرته إلا تحت شمس مشرقة ، وفوق أرض ندية .

لذلك نرى الأدب والعلم كانا فى هذا العهد فى سوء لم يعهد عليهما فى أىّ عصر مضى .

العلوم فى هذا العصر

لقد دلتك الحوادث فى كلّ العصور على أن العلوم لاتنتعش إلابالعناية توجه إليها ، والمبرّات يخصّ بها رجالها ، بعد الأمن المستتبّ والهدوء الشامل ، وقد حرمت البلاد العربية فى هذا العصر كلّ هذه المزايا ، ولم يكتف ولاة الأتراك بقبض أيديهم عن معونة العلم ، بل لقد تعدّوا على أوقافه ، وانتهبوا مخصصاته ، واستحلوا حقوق أهله مما حبسه عليهم قديمًا رؤساء المماليك الذين أثرت عنهم فى ذلك أعمال تسجل لهم الفخر وتَقْرِن تاريخهم بالحمد .

لذلك ترى أن أكثر المدارس فى عهد الأتراك قد تخرّبت و بطل العمل فيها ،

كما أن الأزهر قد توالت عليه المحن ، فتفرّق عنه طلابه حين لم يجدوا العيش فى جواره هنيئاً ميسوراً كما كان ذلك فى عهد المماليك .

ولقد كان من آثار ذلك التعدّى على العلم والإهمال لشأنه أن قلّ نِتاج العلماء ، وصار علمهم تافهاً ، فاقتصروا فى غالب أمرهم على شرح المختصرات ، وإيجاز المطوّلات ، ولم يفهموا أن كتب العلم للإيضاح والتبيين ، فجعلوها كثيرة الرّموز والإشارات ، ودسوا فى العلم ما لا يناسبه من مسائل غيره من العلوم حتى عميت المسالك على الطلاب ، وصاروا وهم فى بدء تعلم النحو قبل أن يسمعوا شيئاً عن علم المنطق ، مطالبين بتطبيق قواعده على تعريف المصطلح النحوى ، بل لقد ضلّ سعى المؤلفين فى مسائل العلم ذاته ، فلم يراعوا فيها الترتيب الواجب والتدرّج من البسيط إلى المركب ، والبدء بالسهل قبل الصعب ، بل صاروا يفاجئون الطالب فى أوّل عهده بالنحو بأوجه الإعراب للبسملة ، وفيها أمور متعلقة بالنعت وقطعه ، والجار والمجرور وحذف متعلقه ، مما لا يدركه الطالب إلا بعد سنين من دراسته لهذا العلم ، وما دعاهم إلى ذلك إلا أن الشارح لا بدّ أن يزيد على المصنف ، وصاحب الحاشية لا بدّ أن يغرب بجديد ، فلم يجدوا إلا المسائل العويصة يتعجلونها قبل أن يحين ميعادها ويستعدّ فهم الطالب لتلقيها .

وقد كان من أثر الجهل الفاشى بين القوم أن قلّ التحرّى من المؤلفين ، فشاعت فى كتبهم روايات غير مأثورة ، ومبالغات شديدة ، وخطأ كثير فى الشعر المروى ، وفى نسبته إلى قائليه .

وقد بدأ الضعف فى الملكات جليًّا فى عبارة الكتب المؤلفة فى هذا العصر ، فاستباح فيها أصحابها العامية لا يترفعون عنها ولا يأنفون ، وأكثر ما كان ذلك فى كتب التاريخ ، كتاريخ ابن إياس ، والجبرتى ، كما زادت الركة فى كتب الفقه الحنفى لتولى الأتراك التأليف فيها ، إذ كانت الدولة العثمانية حنفية المذهب ، فكثر اشتغال رجالها بهذا الفقه ، فكادت عباراته على أيامهم تكون تركية .

ولقد كان من آثار الجهل شيوع الخرافات ، وسقوط الأخلاق ، فكثر اعتقاد الناس فى تأثير السحر ، وتعدّدت المؤلفات فيه . وزاد التبجح بالفحشاء ، والإعلان للفسوق ، والانهماك فى الشهوات ، وظهرت كتب هى نِتاج لهذه الحال ، ككتاب رجوع الشيخ إلى صباه ، لابن كمال باشا وغيره .

ولم يقف التوقح وسوء الأدب عند هذه المؤلفات، بل تعدّاها إلى كتب العلم ، فإنك واجد فى كتاب الإسحاقى (أخبار الدول) كثيراً من العبارات البذيئة ، والألفاظ الجريئة التى لم نعهد مثلها جاريًا على ألسنة أهل العصور السابقة ، ولم تمنع هذه الحال العامة فى التأليف أن يظهر بين المؤلفين قوم لاتنطبق عليهم أحكام عصرهم ، ويكونون حسنة فى دهر كله مساوئ ، ونجوماً فى ليلة حالكة . ولنضرب لك مثلا ببعض هؤلاء :

ابن إياس

المتوفى سنة ٩٣٠ هـ

هو أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس من تلاميذ السيوطى ، وله :

١ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وهو تاريخ مصر إلى سنة ٩٢٨ هـ ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وفيه تفصيل كثير عن فتح العثمانيين لمصر ، لأن المؤلف راقب هذه الحوادث عن كثب .

طاش كبرِى زاده

المتوفى سنة ٩٦٨ هـ

هو أبو الخير أحمد بن مصلح ، ولد فى بروسة وتفقه بها و بأنقرة ثم بالآستانة وله :

١ — مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، وهو كتاب أحصى فيه علوم العربية ، فبلغ قدرها ثلثمائة ، وطريقته فيه أن يذكر العلم ويعرّفه ثم يسرد تاريخ نشأته وأشهر المؤلفات فيه ، وهو مطبوع بالهند من أمد بعيد .

المَقَّرِىّ

المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

هو أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى تعلم بفاس ومرّاكُش ، ثم نزل القاهرة ، وتزوّج بها ، وحجّ خمس مرات ، وأشهر مؤلفاته :

١ — نفح الطيب ، فى غصن أندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . وهو فى أربع مجلدات :

ففى الأول والثانى : وصف الأندلس ، وبين محاسنها ، وما امتاز به أهلها من توقد الذهن ، وحرص على العلوم ، ثم تناول فتح المسلمين لها ، وما تعاقب عليها من الدول، وذكر من رحل منها إلى المشرق ، ومن نزح إليها منه ، وفى الجزأين الثالث والرابع ، ترجم لسان الدين بن الخطيب ، وتوسع فى ذلك ماشاء ، فذكر آباءه وشيوخه ، وروى شعره ونثره وفصل تصرفه وما ختمت به حياته . وهى ترجمة مطوّلة لم يعهد فى العربية ترجمة مثلها فى الطول ، اللهم إلا ما كان من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا فى نظرنا إسراف من المقرى ، لأن الاعجاب بنبوغ ابن الخطيب لا يصل إلى هذا الحدّ من الإفراط والإسهاب .

حاجى خليفة

المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ

وهو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبى ، ولد بالآستانة ، وكان أبوه من رجال الجيش ، وقد حجّ فلقب بحاجى ، وله :

١ — كشف الظنون ، فى أسامى الكتب والفنون ، يشتمل على خمسة عشر ألف اسم لكتاب مع ذكر مؤلفيها ، وتاريخ وفاتهم ، أو تأليفهم لكتبهم ، وقد رتبه على المعجم فيذكر علم البديع مثلا فى باب الباء مع الدال ، والبيان فى هذا الباب مع الياء ، وهكذا .

يوسف البديعى

المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ

له الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام .

عبد القادر البغدادى

المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ

أصله من بغداد ، ولكنه درس بدمشق وتردّد على القاهرة ، وله :

١ — خزانة الأدب ، ولبّ لباب لسان العرب ، وهى شرح شواهد الكافية ، ويتخلل

الشرح تراجم الشعراء الذين استشهد بشعرهم من أهل الجاهلية والإسلام ، وهى فى أربع مجلدات ، وقد طبعت مراراً بمصر .

شهاب الدين الخفاجى

المتوفى سنة ١٠٩٦ ھ

مصرى ولد بسَرْياقوس من مديرية القليوبية قرب القاهرة ، وهو من تلاميذ الشيخ الشَّنَوانىّ . وقد رحل إلى الآستانة ، وتولى قضاء الروملى ، ثم سلانيك ، ثم استقرّ فى آخر حياته قاضياً بالقاهرة إلى أن توفى .

وكان رحمه الله إلى جانب فقهه أديباً لغويًّا خلف هذه الآثار .

١ — شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل . أتى فيه بمقدمة حسنة فى التعريب وشروطه ، ثم أورد الكلمات المعرّبة مرتبة على المعجم و بين أصلها فى لغاتها الأولى . وكان يأتى بين هذه الألفاظ بكثير من المحرّف والمولَّد مع الإشارة إلى أصلهما . والكتاب نافع عظيم الفائدة فى بابه ، وقد طبع بمصر وغيرها .

٢ — شرح درّة الغواص فى أوهام الخواص ، وهو نقد شديد للحريرى تعقبه فيه فى كلّ ما أورده ، وردّ عليه ما ادعاه بحجج وشواهد يأتى بها ، وسنطلعك على مثال منها .

وقد قال فى المقدمة :

« لما رأيت طعنه (الحريرى) على السلف ، وعرضه فى سوق الكساد درّة فى جوفها صدف ، وتذكرت قول الجاحظ : من عاجل الضرر وآجل الحرمان أن تغتر بما عندك ، فلا تستثمره بالزيادة ، فإن العلم قد يعرض له آفة النسيان ، دعانى الانتصار للسلف ، إلى تمييز الدرّ من الصدف ، فضممت إليها درراً تصيرها عقداً ، ونشرت

عليها من جُلِسْتان الآداب نوراً ووردا ، مما تَتَقَرْطَق به الآذان ، وتتوشح ببرده معاطف الزمان ، وهو وإن أفاد وجاد فليحمد المنصف مافى هذه المجلة من الانتقاد فإن الحسن يحسن فى كلّ لباس ، ولا يشكر الله إلا من يشكر الناس ،

ومن أمثلة ما جاء فى الكتاب :

قال الحريرى فى درّته :

ويقولون أزف وقت الصلاة ، إشارة إلى تضايقه ، ومشارفة تصرمه ، فيخرجونه عن موضعه ، ويعكسون حقيقة المعنى فى وضعه ؛ لأن العرب تقول : أزف الشيء بمعنى دنا واقترب ، لا بمعنى حضر ووقع . يدلّ على ذلك أن الله سبحانه وتعالى سمى الساعة آزفة وهى منتظرة لا حاضرة ، وقال عزّ وجلّ فيها : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » : أى دنا ميقاتها ، وقرب أوانها ، كما صرح جلّ اسمه بهذا المعنى فى قوله سبحانه وتعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » . ومما يدلّ أيضاً على أن أزف بمعنى قرب قول النابغة :

أَزِفَ الترحلُ غير أن رِكابَنَا لما تَزُلْ برحالنا وكأنْ قَدِ

فقال الخفاجى فى التعليق على ذلك :

«قال الراغب: أزفت الآزفة ، أى دنت القيامة ، وأزف وأفد يتقاربان ، لكن أزف يقال اعتباراً لضيق الوقت ، ويقال أزف الشخوص ، والأزف ضيق الوقت . الآزفة : الساعة لقرب وقتها اه .

وظاهره أنه حقيقة فى الضيق كالقرب ، وفى الأساس : أزف الرحيل دنا ومصدره الأزف ، ومن المجاز عيش أزف ، أى ضيق كما يقال أمر قريب ومقارب اه .

وظاهره أنه استعمل فى الضيق مجازاً ، وعلى كلّ حال يقتضى صحة ما ادعاه خطأ وباب التجوّز والتقدير واسع .

وهكذا يتعقب الشهاب الحريرىّ فى كلّ ما أتى به ويردّ عليه بمثل حججه من كتب اللغة وكلام العرب ، فالكتاب أقرب إلى النقد منه إلى الشرح ، وهو مطبوع بمطبعة الجوائب بالآستانة .

٣ — طراز المجالس : هو كتاب أدب ولغة بناه على خمسين مجلساً (درساً) بحث فيها أشياء ، كالحجابة للخلفاء والملوك ، و بيان أسبابها وشروطها ، و يتخلل مجالسه شعر وحكمة ولغة وهو أيضاً مطبوع .

٤ — ريحانة الألباء ، ونزهة الحياة الدنيا ؛ وقد بناه على التراجم ، ولكنه توسع فى تراجم الشعراء ، فشرح أقوالهم ، ونقد ما يستحق النقد منها ، وجعله ثلاثة أقسام :

الأول : فى محاسن أهل الشام وما حولها .

والثانى : فى محاسن المعاصرين من أهل المغرب ومكة واليمن .

والثالث : فى مصر وأحوالها ، وهو كتاب أدب ، وتاريخ جليل الفائدة ، وقد طبع بمصر مراراً .

وقد ذيله المُحِبِّى المتوفى سنة ١١١١ هـ ، وسمى التذليل : « نفحة الريحانة » .

٥ — خبايا الزوايا فى الرجال من البقايا ، وهو من كتب الأدب ، ولكنه متضمن تراجم من أهل عصره فيهم شيوخه وشيوخ ابنه ، وعددهم يزيد على سبعين ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

المحبى

المتوفى سنة ١١١١ هـ

محمد أمين بن فضل الله المحبى الشامى ، انتقل إلى القاهرة ، وتولى القضاء بها : وله

١ — خلاصة الأثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر ، يشتمل على ١٣٠٠ ترجمة ، وهو مطبوع بمصر فى أربع مجلدات .

٢ — نفحة الريحانة ، وقد سبق الكلام عنه .

السيد المرتضى الزبيدى

المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ

هو أبو الفيض محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزَّبِيدى، ولد سنة ١١٤٥ هـ، ونشأ بزبيد من بلاد اليمن ثم جاء إلى مصر سنة ١١٦٧ هـ .

كان عالمًا جليل القدر يعرف أربع لغات : العربية، والفارسية، والتركية، والكرمية، ويشارك فى علوم كثيرة، وقد تعلق به طلاب الأزهر النابهون، وكان يخالف علماء الأزهر فى زيه وطريقة إلقائه، فاشتدّ لذلك تعلق الأزهريين به، وكان لهم كما كان جمال الدين الأفغانى فيما بعد .

وكان أعظم عمل قام به الزَّبِيدى هو شرح القاموس المحيط عكف عليه عدّة سنين، ثم أخرجه فى أربعة عشر مجلداً، وسماه : « تاج العروس »، وقد تمم فيه نقص القاموس بإضافة زيادات عليه من لسان العرب وغيره من كتب اللغة وأبقى ترتيب المواد على أواخر الكلمات كما فعل صاحب القاموس، وصدّره بمقدمة فى عشرة مقاصد، وقد طبع كله بمصر فى عشر مجلدات .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبة جامعه القريب من الأزهر أوعز إليه بعض من عرفوا فضل الكتاب أن يقتنيه فى مكتبته، فاشتراه منه بمائة ألف درهم .

الصبان

المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ

هو أبو الوفا محمد بن علىّ الصبان المصرى، وله :

١ — حاشية على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك .

٢ — حاشية على شرح السلم .

٣ — حاشية على شرح السمرقندية .

٤ — حاشية على آداب البحث .

الكتابة الإنشائية

فى العصر العثمانى

لقد تجلّى لك فى المقدمة التى سقناها فى وصف حالة الآداب والعلوم فى هذا العصر، كيف اصطلحت أسباب النقص ، واجتمعت عوامل الضعف على اللغة العربية فى علومها وآدابها ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن أثر هذه العوامل كان أظهر فى الآداب من نثر وشعر . ذلك بأن العلم لا يقوم على أساس العناية من الملوك ، وبذل المال للعلماء فحسب ، بل إنه يعتمد كذلك على ما يستقرّ فى نفس العالم من أن خدمة العلم نوع من العبادة ، ووسيلة من وسائل القربى إلى الله لما فى نشره من الدعوة إلى الخير والهداية إلى الصراط المستقيم ، والعمل على حفظ الدين بحفظ لغته وعلومه ، كذلك يدفع العالم إلى الجدّ فى التحصيل ، والتحقيق ما يكتسبه من جراء ذلك من منزلة سامية بين عشرائه ، وإجلالٍ وتكريم من مقدرى فضله ، وقد يكون له من ذلك ما يُزْهَى به على الملوك أنفسهم ، ويعتد به لنفسه منزلة فى القلوب فوق منزلتهم . وهذا هو السرّ فى كوننا نرى العلماء غالباً لا يقفون بأبواب الملوك ، ولا يضرعون لهم ضراعة غيرهم من أهل الآداب ، فإذا فقد العلم معونة الملوك وجوائزهم ، فهو لم يفقد كل أسبابه ولم يحرم جميع وسائله .

فأما الآداب فلا سند لها إلا هذا التشجيع ، فإذا فقدته فقد حرمت كل عون ونصير ، وصارت إلى أسوإ حال .

وهذا الفرق قد تمثل فى العصر الذى نحدثك عنه ، فإن العلوم كانت أرفه حالاً وأكثر نشاطًا من الآداب التى نكصت عنها الجهود ، فخمدت كلّ خمود .

ولقد كان أعظم مؤثر فى حال الكتابة الإنشائية ما انقطع من أمل أصحابها فى وظائف ديوان الإنشاء بانقلاب الحال فيه ، وصيرورة لغته الرسمية هى اللغة التركية لغة حكام البلاد . فكيف يحرص الكاتب على تجويد كتابته والتماس الوسائل لترقية ملكته ما دام لايجد غاية مأمولة تبعث من عزمه ، ولم يُطْلَب هذا النوع من الكتابة يومًا ما إلاّ للانتفاع به فى وظائف ذلك الديوان ، فحين بطلت منه العربية انقطعت أسباب هؤلاء الكتاب وخمدت أذهانهم وتقصّفت أقلامهم ، وما زال إهمال الملكات يزداد ، والجهل بأصول الكتابة يتسع ، حتى صار من يحاول التعبير عن خلجات نفسه فى : شوق ، أو شكوى ، أو تهنئة ، أو تعزية ، لا يجد من نفسه قدرة على التعبير عن ذلك . فهو يقلب الدفاتر ، ويتصفح الكتب ليرى صورة التعبير التى قدر عليها غيره ، فيستعيرها ويستر بها جهله ؛ ولما شاع هذا التلصص وجد بعض النابهين من الكتاب فى هذه الحاجة من إخوانهم وسيلة إلى الكسب فألفوا نماذج إنشائية تصوّر الوجدانيات من : عتاب ، وشوق ، واستزارة ، ومقاطعة إلى غير ذلك ، فراجت بين الناس تلك الكتب كما راجت قبلها دواوين الخطب المنبرية بين جهلة الخطباء .

وقد وصل إلينا من ذلك النوع كتاب بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات للشيخ مَرْعى المتوفى سنة ١٠٣٠ ﻫ ، وكتاب إنشاء العطار للشيخ حسن العطار شيخ الإسلام المتوفى سنة ١٢٥٠ ﻫ .

ولا شكّ أن عصراً لايجد فيه أغلب كتابه وسيلة للتعبير عن مرادهم لا يزيد فيه شأن إخوانهم القادرين على ذلك عن التورّط فى الخطأ ، والتعثر فى الركاكة ، والحرص على المبالغة التى تستر فى نظر مرتكبها ذلك الضعف . فأما البديع والتلاعب

بأنواعه والتبارى فى صياغتها من : تورية ، واستخدام ، وجناس ، واقتباس ، فذلك ماعجزوا عنه ، لأنه وإن كان تكلفاً إلا أنه صنعة تحتاج إلى حِذْق ، وتستلزم فى محاولها قدرة على تنويع القول وغنى فى ألفاظ اللغة . وذلك كله شيء قد فات حرص هؤلاء الكتاب .

ومن أمثلة الكتابة الإنشائية فى هذا العصر قول الشيخ حسن العطار فى كتابه إنشاء العطار .

معاتبة صديق

ولستَ بمستبقٍ أخا لا تَلُمُّهُ   على شَعَثٍ أىُّ الرجال المذهبُ

غير خاف عن علم الأخ ، أخلص الله نيته ، وصفّى طويته ، وحسّن خليقته ، وأجزل عطيته ، أن الإنسان محل النسيان . وطريقة الإخوان ، التجاوز والغفران ، والمحبة تستر العيوب ، وليس فى الحب لمحبوب ذنوب . وبينى وبينك من خالص المحبة ، وصافى المودة ما لايبقى معه بيننا ذنب ، يستوجب عتب (كذا) . فإذا حصل بعض تقصير ، فلا تبادر بالنكير ، وافتح باب التأويل ، واصفح الصفح الجميل . إذ قلما صفا ودّ من كدر ، أو خلصت محبة من غِيَر . وإنى على صفاء باطنك ، ولطف شمائلك ، معوّل فى بقاء الوداد ، غير مبال بسعاية الحساد . فالأمر الذى فرط ، وقع عن غلط أوأوقعت زلّة القدم ، فى غاية التأسف والندم ، وهذا معظم أركان التوبة ، من الأمر الذى يمنع من الأوبة . فلا لوم ولا عتاب . فقد أغلقنا الباب ! ! .

ومنه أيضاً « تهنئة بشفاء من مرض »

المجدُ عُوفِىَ إذ عوفيتَ والكرمُ   وزال عنك إلى أعدائك الألمُ

أهلا بوافد سرور ورائد حبور . شرح الصدور ببشره ، وعطَّر الأندية بعبير نشره ، مخبْراً عن سلامة فريدِ عصره ، وزينةِ دهرِه ، تاج هام أمثاله ، وبدر هالة أفضاله ، السيد الأجلّ ، الأمثل الأفضل ، الأعز الأغر ، أشرق سعده ، وتأثل مجده ، وسعده وجده ، وكثر حمده ، و بلغه الله الأمل، وأتاح له كل ماطلب وسأل . وقد كان القلب فى قلق ، والطَّرْف فى أرق ، والوساوس قد ملأت الصدور ، وشياطين الأفكار تجول فيها وتدور ، مما دهمنا من استماع نبأ المرض ، الذى عرض . ثم أزيل والحمد لله ذلك العارض عن ذلك الجوهر وانتعش ، وأسفر عن صبح العافية ذلك الغبش ، وقد كان ذلك العارض أمطرنا أسى ، وبدل النعمة أبؤساً ، وسقانا من صاب ذلك المصاب أكؤساً ، واتخذ الحزن به فى القلب مَغَرِساً ، ثم انجاب سحابه ، وتقلص جلبابه ، وقدمت علينا بشائر ارتحاله ، وتقويض خيامه لانتقاله ، فلا زالت أخبار مسراتكم علينا ترد ، وعلى أسماع المحبين تفد ، وقد جهزنا لكم هذه المخاطبة ، وأوفدنا على أبوابكم هذه المكاتبة ، نائبة عنا فى المثول ، فنرجو أن يكون لها وقت الحصول قبول .

الشعر والشعراء

فى العصر العثمانى

الشعر قسيم الكتابة الإنشائية فى الحاجة إلى التشجيع ، وقد قالوا قديمًا : إنّ اللُّهَا تفتح اللَّهَا ، وقد كان الحال فى هذا العصر كالذى قبله ، بخل شديد على الشعراء حتى انصرفوا عن الأمراء إلا قليلا . ومن مدحهم لم يطمع فى أكثر من عطف الأمير عليه بقبوله فى مجالسه ، أو توجيه بعض مبراته الهينة إليه . فأما المال المرصود للشعراء ، وأما البِدَر تُثْقِل ظهورهم والكُسَا تنوء بها أكتافهم ، فقد بطل كل ذلك منذ عهد

بعيد حتى لقد طلب ابن نَباتة (وهو من شعراء العصر الماضى) الخبز من أحد الأمراء فى قوله :

لجأتُ إلى باب الأميرِ وظِــلّه وفارقت ذُلّى إذ وصلت إلى العز
وأصبحت من جند المحامد والغنى ولا بدّ للجندى من طلب الخُبْزِ

وهذا البخل من جانب الرؤساء هو الذى صرف الشعراء إلى مدح رسول الله وآله وكبار الأولياء ، وهو الذى وجه الشعر إلى أغراض لايقصد منها إلا محض التسلية كالألغاز ، أوتحقيق مثال لنوع بديعى ، ووصف الأمور الهينة الحقيرة ، كالمروحة والسُّبْحَة والمُصَلَّى (السجادة) وغير ذلك .

وفى هذا العصر (عصر العثمانيين) وقف الشعر عند هذه الأغراض ، واقتصر الشعراء على تقليد السابقين من إخوانهم أهل العصر الماضى ، حتى إنك إذا قرأت فى الـكتب التى عنيت بتراجم هؤلاء الشعراء وجدت مؤلفيها ينبهون على هذه السرقات، فلاترى شاعراً ترفع عنها ، وهم إذا سرقوا لم يدقوا ولم يتلطفوا ، بل صاروا إلى الاغتصاب والإغارة ، وفى كتاب : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، لشهاب الدّين الخفاجى كثير من ذلك .

وفى هذا العصر لم يكن للشعراء نفاذ فى الأنواع البديعية كإخوانهم فى العصر السابق وليس ذلك عن زهد فيها وترفع عنها ، ولـكنه كان عجزاً عن تحقيقها لضعفهم البالغ فى ملكاتهم .

ومع ذلك زادت الأنواع البديعية فى عصرهم ، فقد أثبت منها عبد الغنى النابلسى صاحب البديعية المسماة : نفحات الأزهار ، على نسمات الأسحار ، نوعاً جديداً أسماه « التاريخ » ، وقال فى هذا الشأن .

وهو نوع اخترعه المتأخرون ، ولهم فيه العجب العجاب ، وقد أدرجته فى سلك فنون البديع لعلوّ مرتبه ، وسموّ مناقبه ، ولطافة مسلكه ، وطلوع شمس البلاغة فى أوج

فلكه ، وهو عبارة عن أن يأتى الشاعر ، أو المتكلم بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التى يريدها المتكلم من تاريخ هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ويشترط فى التاريخ أن يتقدّم عليه لفظ أرّخ أو أرّخوا ، أو واحدة مما يشتقّ من التاريخ من غير فصل بينه وبين كلمات التاريخ ، بل تكون مقارنة لها .

قال : وقد نظمت عدّة تواريخ ، فمن ذلك قولى مؤرّخاً لقدوم المولى المرحوم أُنسى أفندى قاضياً إلى دمشق سنة ١٠٧٥ هـ .

فزاد منا الهنا أرخ (لأنا أزال الله وحشتنا بأنسى)
٨٢ ٣٩ ٦٦ ٢٦٥ ١٢٣

وقلت أيضاً فى هذه السنة :

ولك السعد أرّخوا (جَدّ لَمَّا مصطفى مذ أقام سنة جده)
٧ ٧١ ٢٢٩ ١٠٤ ١٤٢ ٥١٠ ١٢

وقلت أيضاً فى سنة ١٠٧٦ هـ .

وتهَنَّى فقـــد أتى أرخ (عرس عبد الباقى ببشرا كا)
٣٣٠ ٢٢٠ ٥٢٦

وقلت فى تعزية لوفاة العلامة محمد الأسطوانى رحمه الله سنة ١٠٧٢ هـ :

مات إمام العـــلوم طرا محمـــــد كعبة الوفود
الأسطوانى نســـل مجد دين تسامى بفرط جود
نضّر كلّ الأنام أرخ (ممـات علامة الوجود)
٤٨١ ٥٤١ ٥٠

ولقد كان لســـقوط الأخلاق الذى أشرنا إليه بوجه عام فى وصف الحالة العامة للحياة الاجتماعية فى هذا العصر صورة ظاهرة فى الشعر ، فقد امتلأ بالعهر ، والألفاظ الجارحة ، والتصريح بأسماء العورات مما لا يستبيح أديب أن يردّد صداه .

وفى هذا العصر ظهر لشعراء الشام فضل على شعراء مصر على حين كان هؤلاء فى عصور سابقة ، أســبقهم إلى الفضل وأجمع لمزايا الإجادة ، بل لقد كانوا قادتهم فى

المعانى ، وسادتهم فى سلامة الذوق وانسجام القول . وما ذلك إلا لأن شعراء الشام لم يكونوا يعتمدون إلا على ملكاتهم السليمة ، وفطرتهم العربية منذ قديم ، حتى لقد كانوا على أيام الثعالبى فى القرن الرابع والخامس خيراً من إخوانهم شعراء العراق لتلك الأسباب ذاتها ، وقد بقيت لهم هذه الميزة إلى عصرنا هذا العثمانى ، ولكنّ المصريين كانوا يفوقونهم بلطف الحسّ ، وسلامة الذوق ، ورقة الطبع ، وما انضمّ إلى ذلك من الملكة المكتسبة بالدراسة ، وحفظ كلام الفحول ، فظهرت ميزة المصريين على الشاميين فلما انحطت الملكة عند المصريين فى هذا العصر ، وقعدوا عن تقويتها بالاكتساب رجحت مزايا الشاميين عليهم .

ومن شعراء هذا العصر : عائشة البَاعُونيَّة ، وعبد الله الشَّبْراوى الأزهرى ، ويوسف الحنفى أبو المحاسن ، وابن سلامة الإدكاوى ، وابن النحاس ، ويحيي الأَصيلى ، وهؤلاء كلهم مصريون .

وشمس الدّين الهلالى ، وشهاب الدين العِنَاياتى ، وحسين بن الجَزَرىّ ، ومَنْجك باشا ، وابن الملا الجلبى الحَصْكَفى ، وأحمد بن حسين باشا الشهير بالكَيْوانى ، وأحمد بن إلياس الكردى الأصل الدمشقى المولد ، وهؤلاء كلهم من شعراء الشام ، ومن غيرهم ابن معتوق الموسوى من شعراء العراق .

أمثلة من شعرهم

قال يحيي الأَصيلى يرثى العلامة النحريرى البصير خاتمة المفسرين :

وبكى الأزهر المعمر بحـــراً كان فى الله رب دمع غزير
فمصابيحه بأحشـــائها النا ر عليه ولوعـــة التذكير
ومحاريبه لفرقة هــــذا الصـــدر أضحت مقوّسات الظهور

وقد أخذه من ابن نباتة فى قوله :

كأنّ المحاريب القيام بصدره بفرقة ذاك الصدر قد قوست ظهراً

وقال ابن معتوق يمدح السيد على خان ، وهى تقرأ طولاً وعرضاً وطرداً وعكساً :

فخـــر الورى حيدرى عمّ نائله فجر الهـدى ذو المعالى الباهرات على
نجــم السها فلـكيات مراتبه بادى السـنا نير يسمو على زحل
ليث الشرى قبس تهمى أنامله غيث الندى مورد أشهى من العسل
بدر البهـــا أفق تبدو كواكبه شمس الدنا صبح ليل الحادث الجلل

وقال مقتبساً :

قلت إذ غاب منيتى أين روحى فسمعت الخطاب من نحو قلبى
لن ترانى ولست تدرى مكانى إنما الروح أمرها عنـــد ربى

⁂

ولابن النَّحَّاس يمدح السيد أحمد البَدَوى وهو شعر ظاهر الركاكة :

يا أحمدُ البدوىُّ دعوة مشـــفق قلق الركاب شَجٍ قصيٍّ صادى
عَبِثَ الهـــوى بقناته فتأوّدتْ وعـــدا وزاد ففتَّ فى الأعضاد
فقد الحمى فَقْدَ الصـــديق فُجُهْدُهُ بالناس جُهْدُ الزَّنْد بالأَصـــفاد
والدهر نازعـــنى رداءَ شبيبتى وانتاشنى من طارفى وتلادى
وألفت كَتْمَ فصـــاحتى فكأنها بين الضـــلوع تميمةٌ لفؤادى
وإلى جوارِ حماك أَقْصَدْنا السُّرَى فنزلت ساحـــة كعبة القصاد
وعلمت إذ وافيتُ بابَك أنـــنى أنا والغِـــنَى كُنَّا على ميعاد

العصر الحاضر

يميل بعض مؤرخى الأدب إلى جعل الحملة الفرَنْسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ ، سنة ١٧٩٨ م ، هى مبدأ العصر الأدبى الحديث ، ذاهبين فى ذلك إلى أن الفرَنْسيين بحملتهم هذه كانوا أوّل من فتح عيون المصريين على شعاع العلم الحديث ، فعرفوهم أن فى الدنيا علومًا غير النحو والصرف والبيان والبديع إلى غير ذلك مما كان يدرس بالأزهر من علوم لغوية ودينية لاتمس الحياة العملية إلا من بعض نواحيها .

نعم ، كان الفرَنْسيون أوّل من جعل المصريين يؤمنون بأن فى الدنيا علومًا غير علومهم التى يتلقونها بين جدران الأزهر على عهدهم . فقد صحبت حملتهم العسكرية حملة علمية فيها المهندس ، والطبيب ، والمؤرخ ، والفلكى ، والرياضى ، والطبيعى ، والكيميائى ، وقد بدأ هؤلاء بعد استقرار الحال ، وانتهاء الفتح يعملون ، فاتخذوا دور الأمراء بالدرب الجديد بحىّ السيدة زينب معاهد لبحوثهم ، وأنشئوا بها مكتبة رتبوا فيها كتبهم بلغتهم ، وما وقع فى أيديهم من كتب عربية ، وأعدّوا فيها قاعة للمطالعة ، وجعلوا يستدرجون المصريين لحضورها ، ويطلعونهم على مابها من كتب بالفرَنْسية لا يفهمون شيئًا من لغتها ، ولا يعقلون معنى من معانيها ، ولكن ليتلهوا بصورها وأشكالها ، وكان بين الصور صورة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصور خلفائه رسموها من المُخَيِّلة بعد ماعرفوا أوصافهم . كذلك صوروا أيام إقامتهم بمصر أكابر علماء الأزهر الذين كوّنوا منهم الديوان الخصوصى الذى وكلوا إليه النظر فى أمر المصريين وأقضيتهم ، ومن هؤلاء المشايخ : خليل البكرى ، وعبد الله الشرقاوى ، ومحمد المهدى ، وسليمان الفيومى .

وقد وصف الجبرتى موضع مكتبة الفرَنْسيين بقوله :

« فيه جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خُزّان ومباشرون يحفظونها و يحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فَسَحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسىّ منصوبة موازية لتختات عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر » .

وما كان أشدّ دهشة المصريين حين يدخلون معامل الطبيعة والكيمياء ، فيرون فيها شبه السحر يجرى على أيدى هؤلاء العلماء . وقد وصف الجبرتى ما يجرونه من تجارب طبيعية وكيميائية بقوله : « ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصبّ منها شيئاً فى كأس ، ثم صبّ عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملوّن ، حتى انقطع وجفّ ما فى الكأس ، وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه .

ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلاً جدًّا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأدخلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى إحداهما . وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج مافيها من الهواء المحبوس . وفرقع بصوت هائل أيضاً » .

وقد أحضر الفرنسيون معهم المطبعة بحروف عربية وإفرنجية ، فكانوا يطبعون

الحوادث اليومية والأوامر الرسمية فى صحيفة عربية يوزعونها على المصريين ، فكانت تلك الصحيفة التى سموها « التنبيه » أول صحيفة عربية ظهرت فى العالم العربى . وقد صدرت سنة ١٧٩٩ م ، ووكلوا كتابتها إلى السيد إسمعيل بن سعد الخشاب ، ثم بطل صدورها بخروجهم من مصر سنة ١٢١٦ هـ ، سنة ١٨٠١ م ، فلم يظفر العالم العربى كله بصحيفة عربية إلا بعد ثمانية وعشرين عاما حين ظهرت « الوقائع المصرية » التى صدرت سنة ١٨٢٨ م ، وكان هؤلاء العلماء الذين أحضرهم نابليون وعددهم ٤٨ يؤلفون المجمع العلمى الذى أنشأه « لنشر العلم والمدنية بمصر والتنقيب عن الآثار ودرس الأخلاق وغيرها » كما ورد فى قانونه .

فلا شكّ أن إنشاء هذا المعهد كان حدثاً علميًّا كبيراً نبه الأذهان إلى قيمة العلم الحديث ودلّ المصريين على نقصهم فيه وحاجتهم إليه ، وإن كانوا قد ظلوا محرومين مما تطلعوا إليه حتى جاء محمد علىّ بالنور الساطع .

كذلك المطبعة العربية التى تركها الفرنسيون بمصر كانت نواة لتلك المطبعة الأميرية التى خدمت العلم بمصر فى عهد محمد علىّ أجلّ خدمة .

ذلك هو ما حمل بعض المؤرّخين للأدب أن يجعل الحملة الفرنسية فاتحة العصر الجديد ، ولكنا نرى أن المبدأ الحقيقى للعصر هو إعلان ولاية محمد علىّ ، على مصر سنة ١٢٢٠ هـ ، سنة ١٨٠٥ م ، فإنه منذ ذلك العهد اتصل العمل المنتج لخدمة العلم والأدب بالبلاد . وهذا لا يمنع فى نظرنا أن نجعل تلك الحملة إرهاصاً للمعجزة التى أتى بها ذلك الوالى الخطير .

فالحقّ أن العصر الحاضر للأدب والعلم قد بدأ يوم أراد محمد علىّ لمصر أن يكون من أبنائها أداة صالحة لإدارتها ، فحينذاك كانت البعوث ، وترجمت المؤلفات ، وطبعت الكتب وصار للتعليم فى جميع مراحله مدارس تتولى فيها الحكومة تعليم الأبناء ، وإيواءهم وكسوتهم ، ثم تبوّئهم بعد ذلك مناصبها العالية ، ورتبها السامية ، فيصير عما قليل ابن ذلك

الفلاح الجاهل الفقير قائداً فى الجيش ، أومديراً لإقليم ، أو ناظراً لمدرسة ، أومدرساً بها .

فهذا هو ما جعل الناس يسعون لتعليم أبنائهم بعد أن كانت الحكومة تنتزعهم انتزاعاً من بين أحضانهم القذرة ، و بيوتهم المظلمة ، وخبزهم القَفَار إلى حيث النظافة والنور والشِّبَع ، بل إلى أوروبا يرتشفون العلم من مناهله ، ويشافهون به أهله ، ثم يعودون أكرم عَوْد ، و يحلون أعلى مكان .

وليس بمنكور أن الأزهر كان ذلك القبس الذى أشعل منه محمد علىّ مصباحه ، فكشف غياهب الجهالة عن مصر ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، فمن الأزهر أخذ طلبة البعوث ، ومنه استمدّت مدرسة الطبّ فى أوّل نشأتها ، ومن شيوخه كان نظار المدارس الابتدائية ومعلموها ، ومحرّرو كتب العلم المترجمة من طبّ وغيره ، حتى امتلأت الأيدى من ذلك بما كانت منه صفراً إلى عهد قريب .

وكان من إسمٰعيل باشا فى خدمة الأدب والحدب عليه واحتضان رجاله ، ما يعيد إلى أذهاننا ذكرى خلفاء العباسيين ، فهو الذى آوى الفارّين من وجه الظلم بالشام ، وأوسع لهم فى حرّية الرأى ، فأنشئوا الصحف بمصر . وهو الذى رحب صدره للجاليات الأوروبية ، فأنشأت المدارس وأمدّها بما تطلب ومالاتطلب من وسائل المعونة ، حتى تكوّنت فى مصر ثقافة أوروبية جعلته يقول يوماً : «صارت مصر قطعة من أوروبا» . ولم يكن اتجاهه إلى العلوم الحديثة وحدها ، بل إنه منح الأزهر من عنايته ، فاختار من طلابه فئات خصهم بنوع من التعليم يتأهلون به لتدريس اللغة العربية فى المدارس المصرية ، كما نظم من شئونه ، فجعل للتحصيل به غايةً ينال فيها المجدّ إجازة تسمى « شهادة العالمية » ، فكان ذلك ــ ولا شكّ ــ محركا للهمم ، إذ قد عرفت لها غاية تطمئنّ إليها .

وكذلك عمل على تثقيف الشعب عامة ، فجمع الكتب المبعثرة فى كل ناحية والتى كانت نهبا مقسما بين الطامعين يتلقفونها من حراس خونة جهلة لا يعرفون لها قيمتها ،

فكان من ضم هذا الشعث وجمع ذلك التفرق ، أن أصبحت لمصر ثروة من الكتب في « كتبخاناتها » .

ومذ أدركت مصر قيمة العلم جدّت فيه ، وطالبت الحاكم المقصر بتكميل النقص وجعلت العلم والأدب جزءًا من كيانها الذى تدافع عنه ، فكم جادلت المحتلّ ، وزيفت تعليمه ، وخرجت على خططه ، فأنشأت الجامعة المصرية ، والمدارس الحرة ، وحَفَلَتْ بالعربية التى كان يريد القضاء عليها ، أو إخفات صوتها .

فهذا العمل الجادّ فى سبيل العلم والتشجيع المتوالى لرجاله بدّل مصرالجاهلة المستكينة المتهافتة التى انحط أدبها حتى صار لهواً بسخيف التعابير . وجمجمة لاتبين عن المراد ، فخلقها خلقاً جديداً عالمة نشيطة يسامى شعراؤها وأدباؤها اليوم رجال القرن الثالث الهجرى فصاحة وقوة بيان .

وسنخص كل مظهر من مظاهر الرقىّ الأدبى بحديث نبين فيه منشأه وتدرجه فى الكمال ، وما صار إليه اليوم فى عهد حفيد إسماعيل الملك الصالح «فاروق الأول» الذى يترسم خطا أبيه وجده ، ويزيد بما تعينه عليه ثروة البلاد ، وما صار للمدنية والعلوم من وسائل أقرب إلى النجاح من وسائل العهد الماضى .

١

الصحافة العربية عامة

وفى مصر والشام خاصة

يقسمون أدوار الصحافة العربية فى مصر من نشأتها إلى الآن أربعة أدوار ، وهذا التقسيم يتناول أحوالها فى العالم العربى جملة ، وبلاد الشام ومصر خاصة لتقارب الأسباب التى دعت إلى هذا التقسيم فى القطرين .

فالأول من حين ظهورها إلى تسنم الخديو إسماعيل باشا لعرش مصر ، ومدة هذا الدور من سنة ١٧٩٩ إلى سنة ١٨٦٣ م .

والثانى : من هذه السنة (١٨٦٣) إلى ١٨٧٩ م ، وهى سنة انتهاء حكم إسماعيل باشا .

والثالث : من ابتداء حكم توفيق باشا سنة ١٨٧٩ م إلى نهايته سنة ١٨٩٢ م .

والرابع : ما كان بعد ذلك وهو قابل للتقسيم ولكننا نترك ذلك خشية الإطالة .

الدور الأول

١٧٩٩ — ١٨٦٣م

يسمونه دور الولادة لأن العربية لم تعهد الصحافة إلا فيه ، وأول صحيفة عربية صدرت فى العالم العربى كله كانت بمصر ، وهى التى أصدرتها الحملة الفرنسية فى هذه البلاد سنة ١٧٩٩ لنشر أخبار مصر وإذاعة أوامر حكومة نابليون لهذه البلاد ، وقد عهد بكتابتها إلى أديب زمانه السيد إسماعيل بن سعد الخشاب ، ولم نقف على اسم هذه الصحيفة ، وإن كان يشم من كلام الجبرتى فى الحديث عنها أن اسمها : « الحوادث اليومية » ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن اسمها : « التنبيه » ، وكلّ هذا الحدس لأننا لم نعثر على نسخة منها ، أو وصف شامل لها .

ولما ولى المصلح الأكبر محمد على باشا أمر مصر اتجهت عزمته إلى الإصلاح الأدبى بعد الإصلاح المادى العمرانى . فاشترى من يوسف حنا مرسال المستشرق الفرَنْسى المطبعة العربية التى كان يشرف أيام الحملة الفرنسية عليها ، كما أنشأ المطبعة الأميرية ببلاق ، فكان أول أعمالها إصدار « الوقائع المصرية » سنة ١٨٢٨ م ، وهى التى لا تزال الحكومة المصرية تصدرها لنشر المراسيم الملكية وقوانين الدولة والأحكام القضائية ، والأوامر الإدارية .

ثم صدرت ببيروت سنة ١٨٥٨ م : « حديقة الأخبار » ، وكان يديرها ويكتب أبوابها الأديب خليل فوزى اللبنانى ، وكانت الحكومة العثمانية تنفق عليها كما كانت الحكومة المصرية تنفق على « الوقائع المصرية » ، فلا يصحّ اعتبارهما بحق صحفاً بالمعنى الذى ستخلقه الصحافة فيما بعد ، وهو التعبير عن رغبات الأمم ، ونقد أساليب الحكم ، والعمل على تثقيف الشعوب .

وقد صدر فى هذا العهد بتونس صحيفة « الرائد التونسى » ، وهى صحيفة حكومية أيضاً .

وكان أقدم صحيفة غير رسمية هى : « مرآة الأحوال » الصادرة بالآستانة سنة ١٨٥٥ م لصاحبها رزق حسون الحلبى ، ثم « الجوائب » الأسبوعية بالآستانة أيضاً للشيخ أحمد فارس الشدياق ، وكان صدروها سنة ١٨٦٠ هـ .

وقد اشتهرت الجوائب فى العالم العربى ، وقرأها ملوك الزمان وسلاطينه ، ومدوها بالأموال ، فكان السلطان عبد العزيز التركى ، والخديو إسمعيل باشا المصرى ، ومحمد الصادق باشا باى تونس ينفحها كلّ منهم بخمسمائة ليرة عثمانية كلّ عام .

فتكون مصر فى هذا العهد أسبق الدول العربية فى إيجاد الصحافة والدولة العثمانية أسبقها إلى تحقيق وجهتها السياسية .

وصحف هذا العهد كانت متهافتة العبارة ساقطة الأسلوب ليس لها من النشاط فى جمع الأنباء ، وتثقيف الأفكار ، وتهذيب النفوس كبير أثر ، فأغلبها كان حكوميًّا لنشر الأوامر الإدارية ، والإعلانات الحكومية .

الدور الثانى

١٨٦٣ — ١٨٧٩ م

عرف إسماعيل باشا برغبته فى التقدم وتوثبه لترقية مصر ودفعها فى طريق الكمال حتى تساوق أمم أوروبا ، كما اشتهر بالجود على الأدباء ، فكان لذلك أثر كبير فى نهضة ما يتعلق بالأدب من شعر وصحافة . وكانت حركة التقدّم الفكرى فى الشام قد نشطت بالمدارس التى أنشأها المرسلون الدينيون من أمريكان وغيرهم ، فنبغ من الكتاب والأدباء ، أمثال : سَليم البستانى ، وإبراهيم اليازجى ، وأديب إسحٰق ، ويعقوب صرّوف ، وخليل سركيس ، وفارس نمر .

فبعض هؤلاء ظلّ فى بلاده ، وبعض رغّبه فى مصر جود إسماعيل وإطلاقه الحرّية للصحافة ما لم تتعرّض لشخصه ، فنشطت الصحافة بالشام ومصر ، وكان الفضل الأكبر عليها فى القطرين لأدباء الشام .

وقد ظهر فى بيروت « الجِنان » و « الجنة » لسليم البستانى ، و « المقتطف » لصروف نمر ومكاريوس ، ثم انتقل بعد إلى مصر ، و « الطبيب » للدكتور بوسط ، و « النشرة » الأسبوعية للمرسلين الأمريكان ، و « البشير » لليسوعيين ، و « لسان الحال » لخليل سركيس ، و « ثمرات الفنون » لعبد القادر القبانى ، و « التقدّم » ليوسف شلفون وغيرها

وظهر بمصر صحيفة « وادى النيل » لعبد الله أبى السعود ، و « الكوكب الشرقى » للحموى ، و « الأهرام » لسليم وبشاره تقلا ، و « الوطن » لميخائيل عبد السيد ، و «مصر» لأديب إسحٰق ، و « اليعسوب » فى الطبّ لمحمد على باشا الحكيم رئيس الأطباء بمصر ، و «روضة المدارس» التى كان يصدرها ديوان المدارس

بمصر ، ويشرف عليها رفاعة بك رافع ناظر قلم الترجمة بالديوان . ويذكر لرياض باشا فضل مساعدة هذه النهضة بإطلاق الحرّية للصحافة ومدّها بالمعونات المالية .

ولغة الصحافة فى هـــذا الدور كانت خيراً منها فى سابقه لأثر التعليم الحديث فى شحذ الأفكار ، وتشذيب الأقلام ، ولما اتفق من وجود رجال أحرار الفكر ، أشداء الشكيمة فى ملكة النقد خلعوا عن أنفسهم نير القيود القديمة فى التعبير من سجع وغيره، وقد حملوا تلاميذهم ومريديهم على ترك ذلك والزراية عليه كما فعل السيد جمال الدّين الأفغانى ، فتبعه الشيخ محمد عبده ، وجرى على نهجهما كل من استطاع الفهم عنهما .

ومن سُبَّاق حلبة الكتاب فى هذا العهد أديب إسحٰق صاحب صحيفة « مصر » ، فقد كان نابغة فى متانة أسلوبه ، وطلاوة عبارته .

الدور الثالث

١٨٧٩ — ١٨٩٢ م

أظلّ الناس عهد توفيق باشا والآداب متقدّمة ، والأفكار الحرّة تملأ الرءوس والعالم العربى قد شعر بضعفه أمام فظاعة الاستعمار الأوربى ، وللصحافة الأثر الأكبر فى كلّ ذلك ، واتفق أن رأى الناس بمصر من توفيق باشا لين جانب ، وسلامة طوية ، فاندفعوا فى حرّيتهم ، واشتدّ ثوران الأفكار ، واجترأت الصحافة على ما لم تكن تجرؤ عليه أيام إسمٰعيل باشا لشدّة سطوته ، فظهرت صحف شـــديدة اللذع والتجريح ، كـ« التنكيت » و « الطائف » و « المفيد » ، فاضطرّت الحكومة المصرية إلى سنّ قانون يقيد الصحافة ، فكان قانون سنة ١٨٨١ م ، فلم يجد ذلك نفعاً ، وحدثت الثورة العرابية التى انتهت باحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ م . وبحدوث الاحتلال بدأت الفكرة السياسية ، والنُّعَرة الوطنية تظهر لتشعب اتجاهات الصحف بعد ذلك

الحين : فمنها صحف تناصر الاحتلال وتستمدّ منه المعونة ، وأخرى مصرية تدافع عن مصر ، ومنها صحف تدعو لفرنسا وترغب فى سياستها ؛ فكان ذلك أوّل مظاهر النشاط الفكرى فى الصحف والمدافعة العنيفة فى نصرة المبدأ ، وتحبيـــذ الخطة التى تدين بها الصحيفة ، أو الحزب الذى تعبر عن رأيه .

وأشهر هذه الصحف « المقطم » ، وقد أسس سنة ١٨٨٨ م ، و « المؤيد » سنة ١٨٨٩ م أنشأه الشيخان : أحمد ماضى ، وعلى يوسف ، ثم استقل به ثانيهما وقام بالكتابة فيه ، وكان ظهور المؤيد سدّا لثلمة بادية فى صحافة مصر ؛ إذ لم يكن بها إلى حين ظهوره صحيفة تدفع عن مصر ، وتعرب عن الأمانى القومية ، فكان من « المؤيد » سيف مشهور على الاحتلال لايفتأ يندد بأعمال الانجليز فى مصر ، ويذيع فظائعهم فى الهند . وكان يمتاز كذلك بالدعوة الدينية والإشادة بمزايا الإسلام وله فى كل ذلك العبارة الطلية والأسلوب الفائق ، وقد كتب فيه من يوم ظهوره أفاضل الكتاب أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وصاحبه الشيخ على يوسف .

وقد تعددت أغراض الصحف إذ ذاك ، فكان منها السياسى كـ « الأهرام » و « المقطم » ، و « المؤيد » ، و « النيل » ، و « والوطن » ، وغيرها . والعلمى الأدبى كـ « الآداب » ، و « الأزهر » ، و « الإصلاح » . و « الفتى » ، و « الفرائد » ، و « البستان » . و « المقتطف » ، و « الهلال » . والطبى كـ « الشفاء » ، و « الفوائد الصحية » . والقانونى كـ « الحقوق » ، و « المحاكم » . والزراعى كـ « مجلة الزراعة » .

ولم تقتصر الصحف على الظهور بالعاصمة ، بل كانت تصدر بالإسكندرية ، وطنطا ، وأسيوط وغيرها ، وكذلك الحال فى الشام ، وعمّ ظهورها جميع العالم العربى من العراق والهند والمغرب ، بل لقد نشأت صحف عربية بالممالك الأوربية وأمريكا .

الدور الرابع

من سنة ١٨٩٢ م إلى الآن

فى هذا العصر انتعشت الصحافة بمصر أتم انتعاش لأنها بقيت حرة كما كانت من قبل على حين انحطت صحافة الشام لما عانت من شدة ، وتقييد على عهد السلطان عبد الحميد الذى كان عدوها اللدود . لذلك صارت مصر موئل حملة الأقلام ، وقادة الأفكار ، وعشاق الحرية من سائر الأقطار .

وقد عادت إلى الظهور صحف كانت قد احتجبت كجريدة « الوطن » القبطية ، وصدرت صحف كثيرة غيرها .

وفى هذا الدور أطلق سراح المطبوعات ، فصار الكاتب لا يسأل عما يكتب ، ولا يحتاج فى إصدار صحيفة إلى تقديم ضمان ، أو التقيد بأىّ شرط، فزادت الصحف فى مصر زيادة عظيمة ، وصار منها بالقاهرة وحدها ٧٩ ، وبالاسكندرية ٣٥ على حين كان فى بيروت أربعة فقط ، وفى لبنان اثنتان .

وبلغت الحرية فى القول مبلغاً لم يعهد من قبل ، فبعد أن كان طلب الجلاء التماساً وتذكيراً بالوعود ، صار إلحاحاً ، واحتجاجاً تؤيده المظاهرات . ويسايره استنجاد الدول على الدولة المحتلة ، والفضل فى ذلك المرحوم مصطفى كامل باشا الذى بدأ عهد هذه الحرية بإظهار صحيفة اللواء ، فقد استطاع أن يجعل لمصر صوتاً مسموعاً فى أوروبا ، ومن أشهر ما أثاره من المسائل ، محاكمة أهل دنشواى فقد كتب فيها كثيراً ، وقدم الاحتجاج عليها ممضى من اثنى عشر ألف مصرى وخمسمائة .

ولا نستطيع تتبع حالة الصحافة إلى ساعتنا هذه ، فإن أحوالها الأخيرة ، ودرجة انتشارها ، ومقدار تنوعها ، وتفرع بحوثها تعرفه من مزاولتك لقراءتها .

وقد طلبنا من إدارة المطبوعات بيان الصحف التى تصدر بمصر بالعربية فوافتنا بهذا البيان فى عام سنة ١٩٣٤ م :

نوع الصحف	القاهرة	إسكندرية	طنطا	الزقازيق	الجيزة	الفيوم	أسيوط	مدن القطر	المجموع
جرائد يومية سياسية	٣٢	٥	١						٣٨
مجلات علمية مصورة	١١								١١
« مدرسية «	٧	١		١	٢	١	١		١٣
« فنية «	٥								٥
صحف رياضية «	١١	٤							١٥
« أدبية «	٢٧								٢٧
« قضائية «	١١	٢							١٣
مجلات طبية	٤	١							٥
صحف تجارية	٥								٥
صحف زراعية	٥								٥
مجلات صناعية	١								١
« نسوية	٥								٥
« دينية	٣٠	٣					٢		٣٥
« سياسية مصورة	٢١	١							٢٢
صحف سياسية أخبارية	٣٣	٤	١٤	١	١	٣	٢	٢١	٧٩
المجمـــوع	٢٠٨	٢١	١٥	٢	٣	٤	٥	٢١	٢٧٩

وقد سألنا هذه الإدارة فى ١٠ مارس سنة ١٩٣٨ م عن حال الصحافة فى مصر الآن ، فوافتنا بالبيان المجمل الآتى :

٤١ جرائد عربية يومية

٤ « ومجلات عربية تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع .

٣٣ « « « نصف أسبوعية .

٢٠٥ « « « أسبوعية .

٤ « « « نصف شهرية .

٤٩ « « « شهرية .

١٦ « « « مدرسية .

٣٤٢

وبقياس هذا البيان إلى سابقه نرى أن الصحافة العربية قد ربحت فى أربع سنوات ٦٢ ما بين جريدة وصحيفة ومجلة .

[ملاحظة] : اصطلحت إدارة المطبوعات بمصر على تسمية ما يصدر من الصحف يوميًّا باسم جريدة ، وما كان غير يومى باسم صحيفة ، أما المجلة فهى ما كان على شكل كتاب .

مثالان للصحافة العربية

صحيفتان مصريتان

— ١ —

الوقائع المصرية

كان أوّل صدور هــذه الصحيفة يوم ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ ، ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ م .

ولم تكن منتظمة الصــدور ، فقد تصدر مرّتين أو أربعاً أو ثمانياً فى الشهر ، وظلت تصدر حيناً بالتركية ، وإلى جانبها ترجمتها العربية ، ثم حيناً بالتركية وحدها ، أو تظهر منها طبعتان : إحداهما بالتركية ، والأخرى بالعربية ، وذلك سنة ١٢٩١ هـ الموافق سنة ١٨٧٤ م .

وظلت من أيام محمد على باشا إلى سنة ١٨٦٥ م « فى حكم إسمٰعيل باشا » ، وليس بمصر صحيفة غيرها كما ظلت قبل ذلك إلى سنة ١٨٥٨ م ، وليس فى العالَم العربى كله سواها .

وكانت أثناء المدّة السابقة لعهد إسمٰعيل باشا لا تعنى بشىء من الآداب ولا العلوم ،

ولا تشتمل على غير أوامر الحكومة ومراسيمها وأخبارها الإدارية ، فلم تكن تؤدى عمل الصحف الذى خلقت له ، وهو تثقيف الأفكار ونشر العلوم .

وفى عهد شريف باشا وزير إسمٰعيل ، وجهت إلى تلك الصحيفة عناية فانتظم صدورها فى كل أسبوع مرّة ، واشتملت على نصيب من الثقافة العلمية والأدبية ، فنشرت بها بحوث كثيرة ، وشعر فى تهنئة الخديو فى المواسم وغير ذلك ، وفى العدد رقم ٣٠٢ « ١٠ يناير سنة ١٨٦٩ م » تجد مقالة لرفاعة رافع بك عن كتاب التنوير « شرح سقط الزند » .

وفى العدد رقم ٤٠٠ « ٢٣ مارس سنة ١٨٧١ م » تجد قصائد لرفاعة بك ، وصالح مجدى بك تهنئة للخديو إسمٰعيل بالعيد .

ونشطت حيناً ، فكانت تصدر يوميا ، وذلك بين سنة ١٢٩٧ هـ سنة ١٨٨٠ م و ١٣٠٢ هـ ، ١٨٨٤ م .

ومنذ أول يناير سنة ١٨٨٥ م عادت سيرتها الأولى من الاختصاص بالأوامر الإدارية ، وظلت كذلك إلى الآن ، وكانت منذ هذا التاريخ إلى سنة ١٩١٥ تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع « السبت . الاثنين . الأربعاء » . وبعد ذلك صار صدورها مرتين فى الأسبوع «الاثنين والخميس» .

وقد شارك فى إصدارها الشيخ حسن العطار الذى تولى مشيخة الإسلام فى عهد محمد على باشا ، وكذلك تلميذه رفاعة بك بعد عودته من أوربا ، ثم عين فى سنة ١٨٦٩م الشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى رئيساً لتحريرها يساعده أخوه محمد ، وبقى الشيخ أحمد يعمل بها إلى سنة ١٨٨٠ ، فخلفه الشيخ محمد عبده ، وكان يكتب فيها على أيامه أيضاً الشيخ عبد الكريم سلمان من علماء الأزهر ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين وغيرهم.

— ٢ —

روضة المدارس

مجلة حافلة بأنواع العلوم والمعارف صدرت بأمر ناظر ديوان المدارس «على مبارك باشا» وجعل الإشراف على إدارتها ، والنظر فى شئونها إلى رفاعة بك رافع ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس إذ ذاك .

ووكل الإشراف على إصدارها إلى على فهمى بك مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن .

فهى إذاً مجلة رسمية يصدر بإنشائها قرار وزارى ، ويوكل أمرها إلى موظفين بديوان المدارس .

وقد جعل صدورها كل خمسة عشر يوماً ، وظلت تصدر ثمانى سنوات ، وأول عدد منها كان تاريخه المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وإبريل سنة ١٨٧٠ م .

وفى مقدمتها التى صدر بها العدد الأول منها : أنها صادرة بإرادة الخديو إسمٰعيل باشا رغبة فى تعميم العلوم ، وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون ، وإكثار اللطائف ، وأنها علمية أدبية لاصلة لها بالسياسة ، وقد أحيلت موادها على جلة العلماء فى هذا العصر ، وبلغ من اهتمام أولى الأمر بها أن كان لناظر ديوان المدارس إذ ذاك «على مبارك باشا» نصيب فى موادها فوالى فيها نشر كتابه : « حقائق الأخبار ، فى أوصاف البحار » ، وإليك توزيع بقية المواد :

أحيل على عبد الله فكرى بك : العلوم العربية وروائع نثر العرب ونظمهم .

أحيل على جناب الماهر بروكش « ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم » ما يتعلق بالتاريخ القديم .

أحيل على إسمعيل الفلكى بك : تأليف كتاب فى الميقات وكل ما يتعلق بالفلك .

أحيل على محمد قدرى افندى : الكلام فى الجغرافيا والأخلاق والعادات .

أحيل على محمد بدر افندى : تأليف رسالة خاصة بعلم الأبدان .

أحيل على أحمد ندا افندى : الكلام فى النبات الأهلى وغيره وذكر منافعه ومضاره .

أحيل على عثمان ممدوح افندى : غرائب النوادر والفكاهات والألغاز والأحاجى والنكات .

أحيل على على فهمى بك : (مباشر تحرير المجلة) الكلام على القاهرة وأخطاطها وشوارعها ومتنزهاتها ومقابلة القديم منها بالجديد .

أما العلوم الرياضية فقد طولب (الخوجات) مدرسو المدارس بالكتابة فيها وما يرد من أحدهم يذيل باسم صاحبه .

ولم ينته أعضاء المجلة عند هذا الحد ، بل فتح الباب لمن ينضم إليهم من أفاضل القوم فانضم إليهم من هؤلاء السيد صالح مجدى بك وغيره .

وفتح الباب لتلامذة المدارس ينشر لهم فى المجلة مايجود من كتاباتهم و بحوثهم وشعرهم ليكون فى ذلك تحريك لهممهم فكان لهم فيها جهد مشكور .

ومن الكتب التى نشرت تباعًا فى المجلة :

كتاب « حقائق الأخبار ، فى أوصاف البحار » لسعادة على مبارك باشا مدير ديوان عموم المدارس .

كتاب آثار الأفكار ، ومنثور الأزهار لحضرة عبد الله فكرى بك .

كتاب الصحة التامة ، والمنحة العامة ، لحضرة محمد بدر أفندى .

كتاب المباحث البينات ، فيما يتعلق بالنبات لحضرة أحمد ندا أفندى .

كتاب بهجة المطالب ، فى علم الكواكب لسعادة إسمعيل مصطفى بك ناظر المهندسخانة والرصدخانة الخديوية .

كتاب القول السديد ، فى الاجتهاد والتجديد ، لسعادة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة وروضة المدارس .

كتاب النكات وباب التياترات ، لحضرة محمد عثمان أفنـــدى ، المترجم بديوان الجهادية .

كتاب فكاهة الجليس ، ونزاهة الأنيس ، للشيخ محمد قناوى ، مدرّس اللغة العربية بمدرستى العمليات « الصناعة » ، واللسان المصرى القديم . وكتب أخرى غير هذه لانطيل بذكرها .

فهـــذه المجلة قد تضافرت عليها همم القوم ، وظهر فيها مقدار رغبتهم فى تثقيف الشعب ، ونشر العلوم والآداب بين عامة قرائه .

وأنت ترى أنها لم تترك موضوعاً من العلوم ولا فنًّا من الفنون لم تضرب فيه بسهم فهى مجلة واحدة تشمل جميع مانراه اليوم موزعاً فى المجلات التى تصدر فى أيامنا هذه ، فالآداب والعلوم على اختلاف مناحيها حتى التمثيل والقصة والفكاهة والرّياضة البدنية لم تحرم حظها فى تلك الصحيفة ، ومازالت الأيام تعمل فى ترقيتها حتى رأيناها فى سنيها الأخيرة مصوّرة تشرح النظريات الفلكية والطبيعية والكيمياء فيها بالرسم ، وهذا رقىّ كثير على عمل كان لايزال فى المهد . ولكنها الهمة العالية ، والنية الخالصة فى الخدمة ، والتوثب للمجد ، والقدوة الصالحة من أمير لم ينس ساعة واحدة من حياته التفكير فى حياة شعبه .

البعوث

صادف محمد على باشا بلاد مصر قفرة مجدبة فى كل شىء تحتاج إلى الأيدى العاملة والرءوس المفكرة ، فاستعان بالأجانب حينا وكان يستطيع أن يجد منهم المدد

الكافى لإصلاح البلاد والسير بإدارتها ، ولكنّ الرجل كان بعيد النظر رأى أنه لا يخلص له الاستقلال بحكم البلاد إذا هو لم يجعل أعوانه على الحكم من أهلها . فنشأت عنده فكرة إرسال بعوث من المصريين لتلقى العلم بأوربا فإذا عادوا إلى مصر انتفعت إدارة البلاد بمواهبهم وعلومهم التى حصلوها .

وقد كان البعث العلمى الأول إلى فرنسا خرج أفراده من مصر فى ١٦ مارس سنة ١٨٢٦ ، وكان مؤلفاً من ٤٤ شابا منهم ٣٩ من غير المصريين ما بين جراكسة ، وأتراك ، ويونان ، وغيرهم ، والخمسة الباقون مصريون هم رفاعة رافع ، ومصطفى مختار ، والشيخ أحمد العطار ، والشيخ علاوة ، ومحمد بيومى افندى ، وقد عاد هذا البعث سنة ١٨٣٤ م .

ثم تلاحقت بعوثه إلى مختلف بلاد أوربا ، ولكن فرنسا هى التى ظفرت بعدد كبير من هؤلاء .

وكانت أغراض تلك البعوث تختلف على حسب حاجة البلاد ، فبعوث صناعية صرفة كالبعث الثامن الذى أرسل إلى انجلترا لتعلم التجارة ، وبعوث هندسية ، وأخرى طبية ، وثالثة قانونية . وأهم بعث كان فى أيام محمد على وحكم إبراهيم هو المسمى (بعث الأنجال) لأنه كان فيه من الأمراء كثير : منهم حليم ، وحسن ، وأحمد ، وإسمعيل (الخديو فيما بعد) وكان معهم من غيرهم على مبارك ، وعلى إبراهيم البقلى ، ومحمد عارف ، وأحمد راسخ ، وبلغ عدد هذا البعث ٧٢ طالباً .

وبلغ مجموع من أرسلهم محمد على باشا فى بعوثه ٣٠٩ طالباً كانوا هم أداة الإصلاح الذى أراده هذا الوالى العظيم لمصر ثم تناقص عدد المرسلين إلى أوروبا فكانوا فى عهد عباس الأول ١٩ وفى عهد سعيد ١٤ ، ثم ارتقى عددهم فى عهد إسمعيل إلى ١٧٢ .

وهانحن أولاء نرى هذه السنة لا تزال متبعة بمصر ، وقد اتسع نطاقها فى العهد

الأخير حتى إن لهـا بوزارة المعارف إدارة تسمى إدارة «البعثات» تنتخب من يرسلون إلى أوربا وتختار لهم المدارس ، وتراقب سيرهم بها ، وتتولى الانفاق عليهم ماداموا مجدّين فى التحصيل معتدلين مرضيي السيرة .

كما أن الرغبة فى العلم والتوسع فى تحصيله جعلت كثيرين يتلقون العلم فى جامعات أوربا بنفقاتهم الخاصة . فلم يبق علم تقريباً فى مناحى العالم الغربى لم يطلبه المصريون ، بل لقد فاتوا زملاءهم من أهل البلاد التى يتلقون علومهم بها ولا تكاد تخلو صحيفة يومية من خبر نجاح طالب مصرى وحيازته خطر السبق من بين أقرانه العديدين فى جامعته . ولقد كان من آثار ذلك أن ظهر بمصر علماء عرفت لهم نظريات حديثة وابتكارات فى علومهم لا تقل عما لنظرائهم من علماء أروبا مع أن مصر تعد إلى الآن فى بدء نهضتها العلمية .

المـــدارس

لقد دخل الفرنسيون مصر وخرجوا منها ، ولم يكن فى جميع نواحيها إلا مدرسة واحدة هى الأزهر يتلقى فيه الطلاب علوم العربية والدين وحدهما . وكانت آثار الظلم وانحطاط الإدارة والفقر الذى عانته مصر أيام حكم العثمانيين قد بدت فى الأزهر ورجاله طلاباً وأساتذة . وكان إلى جانب الأزهر عدد من الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم يجرى على القائمين بأمرها ريع أوقاف حبسها أهل الخير .

والحق أن محمد على باشا لمـا اتجه إلى إصلاح الحياة الأدبية ، واحتاج إلى شبان متعلمين ليتولوا إدارة البلاد وقيادة الجيش لم يفكر فى غير أبناء المماليك ، ولم يتجه إلى غير لغته التركية ، فأنشأ مدرسة بالقلعة لتعليم هؤلاء القرآن الكريم ، واللغة التركية ، وفنون الفروسية ، ثم مالبث أن صار له فى سنة ١٨٢٥ هـ مدرستان لإعداد ضباط

الجيش الذى يعمل على تكوينه على النظام الأوربى إحداهما بمصر العليا ، والثانية بالقصر العينى بالقاهرة لتكون بمثابة التمهيد للأولى . وقد كان طلاب مدرسة القصر العينى خمسمائة من الشراكسة ، والكرج ، والأتراك ، والأكراد ، والأرمن ، واليونان ؛ ليس بينهم مصرى واحد ، وكانت لغة التعليم فى المدرستين هى التركية .

لكن مطامع محمد على باشا لا تكفيها هذه الشرذمة القليلة فى البلاد فعوّل على إنشاء مدرسة للطب جعل طلابها من المصريين ، ولا سيما النابهون من طلبة الأزهر ، وما لبث أن أنشأ المجلس الأعلى للمعارف ، وجعل رئيسه مصطفى مختار بك ، فكان أول وزير للمعارف ظفرت به مصر منذ عهدها بالعلم ، وما لبث هذا المجلس أن جعل العربية هى لغة التعليم فى المدارس التى أكثر منها ، وجعل عنصرها الأكبر من أبناء المصريين .

وكان محمد على باشا قد رأى بثاقب فكره أن يعمل على تشييد دولة عربية يكون هو وأسرته رافعى أعلامها يحتضنون فيها شعوباً إسلامية كاد يقضى عليها حكم الأتراك وغيرهم .

فبهذا الأمل بدأت العربية تحيا على يد هذا المصلح الكبير ، ولم يمض قليل حتى كانت المدارس الابتدائية والثانوية منبثة فى طول البلاد وعرضها يملؤها أبناء المصريين من الفلاحين وغيرهم ، ويتلقون علومهم بالعربية وإن كانوا إلى جانبها يتعلمون التركية وغيرها ، لغات ثانوية ، فصار بمصر من المدارس الابتدائية ٤٦ مدرسةً أنشئ جلها سنة ١٨٣٧ م .

أما المدارس الثانوية والعالية والخصوصية ، فقد تعدّدت وتنوّعت حتى لم يبق نوع من العلم ليس له مدرسة بمصر، فالطبّ البشرى ، والبيطرى ، والصيدلة ، والهندسة ، والحربية ، والبحرية ، والصناعات ، والمحاسبة ، واللغات ، كان لها مدارس إذ ذاك ، بل الموسيقى كان لها عدّة مدارس : مدرسة الموسيقى بالخانقاه ، ومدرسة الطبول

والأصوات بالقاهرة ، ومدرسة الآلاتية بها أيضاً ، ومدرسة العزف ، بالنخيلة .

هذا هو التقدّم السريع الذى لايصدر إلا عن مثل همة محمد على باشا ، وأعظم ما فيه من دلائل الهمة أن يجعله ذلك المصلح على نفقة الحكومة ، وكله على نظام « الداخلية » بل يزيد عليه أن كسوة هؤلاء المتعلمين على نفقة الحكومة أيضاً ، وهذا سخاء لم يعهد أنه فى عصرمن العصور شمل جميع أنواع التعليم وجميع المتعلمين فى قطرما .

وقد بلغ عدد طلاب المدارس فى أيام محمد على باشا عشرين ألفاً .

ثم اعترت البلاد فترة أغلق فيها كثير من المدارس ، وانحطّ شأن التعليم إلا العسكرى منه أيام عباس الأوّل وسعيد ، ولكن ذلك إنما كان بمثابة التراجع للوثبة . فقد وثب التعليم فى عهد إسمٰعيل باشا بعدهما وثبة عالية حتى حلق فى السماء ، وجعل لمصر منزلة بين كواكبها .

كانت طفرة إسمٰعيل باشا بالتعليم عالية ، شأنه فى كلّ ما أراده لمصر من خير . فقد كثرت المدارس فى أيامه ، وتعدّدت أنواعها وأغراضها ، وكان منها الحكومى والأهلى والأجنبى المِلِّىّ وغير الملىّ ، وكلّ هذا ينال من رعاية إسمٰعيل باشا وعطفه ومعونته .

والعجيب أنه لم يهمل طائفة تحتاج إلى العلم وتصلح له إلا حاول تهذيبها وترقية أفكارها ، لأن الشعب فى نظره جسم واحد يعتلّ باعتلال عضو منه . لذلك تراه أنشأ مدرستين للعُمْيان يتعلمون فيهما على الطريقة الأوروبية ، ويقرءون ويكتبون بالحروف البارزة كذلك أنشأ مدارس لتعليم البنات ، فكان منها مدرسة للتدبير المنزلى، وأخرى لتخريج الخادمات ، وثالثة لبنات الأشراف ، هذا غير مدرسة القابلات التى كانت منذ أيام محمد على باشا للحاجة إلى المتعلمات بها فى التوليد ، ولكنها فى عهد إسمٰعيل شملتها نهضته ، ووصلت إليها آثار همته ، فقد فتحها محمد على باشا بعشر جوار حبشيات من خدم قصره ، أما فى عهد إسمٰعيل فقد كانت طالباتها خمساً وخمسين .

وفى أيامه زادت مدارس التعليم العالى ، فكان منها مدرسة « الإدارة » التى سميت بعد مدرسة الحقوق ، ومدرستا المعلمين : دار العلوم ، والنورمال .

ويكفى أن نقول : إن نسبة المتعلمين فى أيام إسمٰعيل باشا كانت ٤ فى المائة على حين كانت بالروسيا ٢ فى المائة ، ولم تزد فى أرقى البلاد الأوروبية على ١٥ فى المائة .

دار العلوم

من آثار إسمٰعيل الحسان وأياديه المشكورة على العربية إنشاء مدرسة دار العلوم التى خدمت الفصحى وجعلت لدراستها بالمدارس المصرية شأناً غير شأنها الأول ، فقد كان المتعلمون لا يفهمون من الاشتغال بالعربية إلا إتقان النحو والصرف حفظاً للمتون ومناقشة للتعاريف لا يتعدون ذلك إلى تعويد اللسان النطق الصحيح ، وأخذ الأقلام بالإنشاء الفصيح ، واستثارة دقائق الأدب العربى والاطلاع على نثره ونظمه فى عصوره المتقدمة .

فعلى يد الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة نشطت العربية ، وأثيرت دفائنها ، وانطلقت ألسنة الطلاب فى المدارس بالقول المستقيم والإنشاء البليغ ، وجرى التدريس لهذه اللغة على خير الأساليب حتى رأينا للناشئة على أيدى هؤلاء بياناً بَيِّناً ، وعناية بهذه اللغة الشريفة واعتداداً بفضائلها .

ولقد كان الباعث لإنشاء هذه المدرسة هو القلق على مصير العربية فى أيدى معلمين لا يعدون لمهنتهم ، ولا يتخصصون للعربية فى دراستهم ، فقد كانوا من طلاب الأزهر الذين يجمعون فى التحصيل بين مختلف العلوم ، ولم يكن يعنى من العربية إلى ذلك الحين بغير النحو والصرف على النمط الذى أشرنا إليه . فكانت مدرسة دار العلوم هى العلاج الشافى لداء العربية .

اتخذت دار مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز مستقرًّا لديوان المدارس ودار الكتب « الكتبخانة » ، و بعض المدارس العالية كمدرسة الإدارة وغيرها ، و بقيت من حجر الدار حجرة فسيحة جدًّا كانت تجعل فى آخر كلّ عام قاعدة للامتحان الشفوى الذى يعقد لطلبة جميع المدارس ، ويحضره فى حفل حافل كبار رجال الدولة .

ولقد عزّ على ناظر ديوان المدارس إذ ذاك « على مبارك باشا » أن تخلو هذه الحجرة طول العام انتظاراً لهذا الامتحان ، فرأى أن يشغلها بدروس عامة تلقى على كلّ من يحضرها من متخرجى المدارس وطلبتها توسعاً فى المعلومات ، واستفاضة فى البحث ، وسمى هذه القاعة « دار العلوم » ، وقد قلنا إننا نكون غير منصفين إذا لم ننسب لإسمٰعيل باشا ورجال دولته أنهم أوّل المفكرين فى إنشاء الجامعة المصرية ، لأن هذا الأسلوب من التعليم هو الدراسة الجامعية . ولم يكن لمصر عهد بها فى غير الأزهر ، وكان البدء فى إلقاء هذه الدروس بتلك القاعة فى صفر سنة ١٢٨٨ هـ ، مارس سنة ١٨٧١ م .

ثم اتجهت النية إلى جعل الدراسة بها مستقرّة ، فاختير لها عشرة من طلاب الأزهر ، وجرى العمل على ذلك بقية هذا العام ، ثم اتجهت الفكرة إلى تخصيص هذه المدرسة بتخريج معلمين لتدريس اللغة العربية بالمدارس المصرية ، لأن الشكوى من معلمى هذه المدارس كانت قد شغلت أذهان القائمين بأمر التعليم فى مصر .

فصدرت الإرادة السنية من الخديو إسمٰعيل باشا بأن يجعل طلبة المدرسة خمسين ، وأن يختاروا من متقدمى طلاب الأزهر ، وأن يكونوا بين العشرين والثلاثين من عمرهم ، مع منح كل منهم مائة قرش فى الشهر مدّة طلبه للعلم بالمدرسة ، وقد بدئ بتنفيذ هذه الإرادة من سنة ١٢٨٩ هـ ، سنة ١٨٧٢ م . فهذا هو التاريخ الحقّ لإنشاء دار العلوم الحالية ، و إن كان اسم المدرسة قد سبق وجودها .

اختير من طلاب الأزهر فى هذا العام اثنان وثلاثون طالباً ، ووكل تعليمهم إلى خمسة معلمين منهم ثلاثة من أجلاء مشيخة الأزهر ، وهم المرحومون : الشيخ محمد المرصفى ، والشيخ أحمد شرف الدين ، والشيخ سليم عمر ، الذى خلفه فى سنة ١٨٧٦ م فضيلة المرحوم الشيخ حسونة النواوى. وأما الاثنان من غير شيوخ الأزهر، فهما المرحومان: يعقوب صبرى بك لتدريس الحساب والجغرافية ، ومحمد جعفر بك لتدريس الخط .

وكان منهاج الدراسة أوّلا يشتمل على تفسير القرآن والحديث واللغة العربية والمنطق والجغرافية والحساب والخط ، ثم مازال يتسع وتضاف إليه مواد جديدة ، كعلم التربية ، والهيئة ، والطبيعة ، والكيمياء ، واللغة التركية حيناً ، ثم الإنجليزية إلزامًا مرّة واختياراً أخرى .

وظلت المدرسة تنمو ، فتنتقل بين أجنحة الدار التى نشأت بها حتى رؤى نقلها سنة ١٨٩٧ م إلى جانب مدرسة الناصرية حيث مكان المدرسة السنية الآن ، وسميت حين ذاك « مدرسة المعلمين الناصرية » . وزوّدت هناك بمعمل كيميائى وأدوات طبيعية ، ومنذ سنة ١٩٠٠ م ، انتقلت إلى مكانها الحالى الذى أنشئ على نمط المدارس خاصًّا بها بحىّ المنيرة ، وما زالت حيناً تسمى « المعلمين الناصرية » ، حتى عاد إليها اسمها الأول « دار العلوم العليا » ، ونص على كونها عليا مع أنها من يوم أنشئت معدودة فى المدارس العليا ، ولكن جحد ذلك حيناً حتى أقرّ الحق فى نصابه .

وكان ممن تولى نظارتها من كبار الرجال المرحومان : على بك رفاعة بن رفاعة بك رافع ، وإبراهيم بك مصطفى ، وأمين سامى باشا ، والمرحوم عبد الرحيم بك أحمد أحد المتخرجين فيها ولم يخلفه فى نظارتها من أبنائها إلا المرحوم الشيخ محمد شريف سليم .

أما المتخرجون فى هذه المدرسة ، فقد برهنوا على صواب الفكرة فى انتخابهم وتخصيصهم بهذه الدراسة التى قوامها العربية وعلومها مضافاً إليها من العلوم الكونية والعقلية ما يحتاج إليه كل مثقف .

ولقد عرف فضلها حكيم المصريين الأستاذ الشيخ محمد عبده يوم وكل إليه امتحان طلبتها سنة ١٩٠٤ م ، فسجل فى تاريخ هذه المدرسة شهادة تعتز بها بقدر ما لمصدرها من مكانة بين علماء الإسلام ، وعظماء الرجال . قال رحمه الله :

(إنى أنتهز هذه الفرصة للتصريح بمكان هذه المدرسة فى نفسى ، وما أعتقده من منزلتها فى البلاد المصرية ، ومن اللغة العربية إن الناس لا يزالون يذكرون العربية ، وإهمال أهلها فى تقويمها ، ويوجهون اللوم إلى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ، ولا يذكرونها من حسنات الحكومة ، فإن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان ووجدها تحيا فى هذا المكان ، وإن أول فضل فى تقدم العربية بتسهيل طرق تناولها ، وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين فى المدارس الابتدائية كان للمتخرجين فيها ، ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية ، ولا يشك عاقل فى أن تلاميذ تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمط أقوم مما كان يكتب عليه أساتذتهم من قبل) اهـ .

الجامعة المصرية

رأى المفكرون ما حل بالتعليم الحكومى من الانحطاط وصيرورته باللغة الإنجليزية فى جميع المواد ، فالحساب والتاريخ الإسلامى وغيرهما من مواد الدراسة فى المدارس الثانوية تدرس بالانجليزية ، وإن مجال التعليم صار ضيقاً ، واقتصر الطلاب على الحفظ دون الفهم توصلا لأداء الامتحان . فراعت هذه الحال كل ذى غيرة على مصير أمته وجالت فيها أقلام الكتاب بالصحف ، فاقترح الشيخ على يوسف فى الجمعية العمومية ، وكان من أعضائها أن يكون تدريس مواد العلوم فى مدارس الحكومة باللغة العربية ، وهَمَّ سعد باشا حين كان ناظراً للمعارف بتنفيذ بعض ذلك ، ثم كان الفضل الأكبر فيه لأحمد حشمت باشا الذى جعل تدريس جميع المواد بالعربية ، فعاد النشاط إلى تلك

اللغة ، ودأب المعلمون على البحث عن مصطلحات فى العربية يوفقون بينها و بين ما يقابلها من ألفاظ اللغات الأخرى ، وكانت نهضة تشبه نهضة محمد على و إسماعيل ، ولا ندرى ما مبلغ التقدم الذى كانت تصل إليه لغة العلم لو استمرّت خطة محمد على باشا و إسمٰعيل باشا ، ولم يصدّ تيارها ، و يعفِّ آثارها ذلك الاحتلال الانجليزى .

كان من آثار ما فعل الإنجليز أن فكر كل غيور من المصريين على وطنه ولغته فى الخلاص من هذا المصير ، فرأوا أن يعملوا على ترقية التعليم بإنشاء جامعة مصرية لا دخل للحكومة فى إدارتها ، ولا سلطان لها على ما يدرس بها من مواد ، وفاجأ القوم حضرة مصطفى كامل الغمراوى بك من أعيان بنى سويف بخطاب أرسله إلى الصحف المصرية جميعاً يقترح فيه إنشاء جامعة مصرية ذكر فيه أنه يفتتح الاكتتاب لها بخمسمائة جنيه ، فكان من آثار هذه المفاجأة الجميلة الجريئة أن اجتمع بضعة وعشرون رجلا من المصريين فى منزل سعد زغلول بك (إذ ذاك) وانتخبوا لجنة تحضيرية أجّل اختيار رئيسها إلى جلسة ثانية ، فكانت مكوّنة من :

سعد زغلول بك وكيلا .

قاسم أمين بك كاتب السرّ .

حسن سعيد باشا أمين الصندوق .

وحضرات البكوات : محمد عثمان ، ومحمد راسم ، وحسن جمجوم ،ومحمود الشيشينى، ومصطفى كامل الغمراوى ، وحسين السيوفى باشا ، وأخنوخ فانوس أفندى ، وزكريا نامق أفندى ، أعضاء .

فاكتتب الحاضرون فى هذا الاجتماع بما وصل مجموعه إلى ٤٥٨٠ جنيهاً .

ثم تشرّفت الجامعة برياسة الأمير العالم : أحمد فؤاد بن إسماعيل ، فجلالة المرحوم الملك فؤاد الذى ترعرعت الجامعة فى كنفه ، هو الذى تعهدها فى المهد وليدة تتنسم أوّل نسمات الحياة .

ثم توالت على الجامعة التبرّعات ، فكان أهمها ما تفضلت به الأميرة فاطمة هانم أخت جلالة المرحوم الملك فؤاد ، إذ وقفت على الجامعة ٦٧٤ فداناً بالدقهلية ، ووهبت لها قطعة أرض بالجيزة مساحتها ٦ فدادين ليكون عليها بناء الجامعة ، وقدمت لنفقات البناء جواهر كريمة قدرت بثمانية عشر ألف جنيه، متعهدة أن تقوم ببقية نفقات البناء ، إذا لم يكف ما بذلته لذلك . كما بذلت لها وزارتا الأوقاف والمعارف أمداداً سنوية .

وفى يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ م احتفل بافتتاح الجامعة المصرية بجمع حاشد فى قاعة مجلس شورى القوانين ، وقد خطب فيه رئيس الجامعة والخديو عباس حلمى .

وفى سنة ١٩٢٥ م بعد نيل البلاد استقلالها ، انضمت الجامعة إلى الحكومة حين لا يخشى عدوانها على التعليم ، فهى الآن تتمتع بقسط وافر من ميزانية الدولة ، ويخول أساتذتها كلّ مايعينهم على متاعبهم الجمة فى سبيل التحقيق العلمى فلهم الكرامة الموفورة ، والرواتب العالية ، و بين أيديهم مكتبتها الحافلة .

وتقوم جامعتنا على سبع كليات هى : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، والتجارة ، والهندسة ، والزراعة ، وقد آتت ثمارها ، فحصل كثير من شباب مصر وشوابها على إجازاتها المختلفة ، وكانت أول فتاة نالت إجازتها فى الحقوق هى : «الآنسة نعيمة إلياس الأيوبى» ، كريمة المؤرّخ الجليل المرحوم إلياس الأيوبى ، صاحب المؤلفات التاريخية التى يتوجها كتاب تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا .

كما كانت أول فتاة نالت إجازتها فى الآداب هى : « الآنسة سهير القلماوى » التى تقوم الآن بالتدريس فى كلية الآداب بالجامعة .

الأزهر الشريف

لقد كان للأزهر الفضل العظيم فى هذه النهضة الأخيرة فإن محمد على باشا صادف

مصر وقد مات بها التعليم ، وقضى الظلم على جميع دوره إلا الأزهر لما له من المنزلة العالمية والسمعة الدينية ، ومع ذلك فقد ظهر فيه أثر انحطاط الدولة ، فخبت جذوته ، وضعفت همة طلابه ومشيخته . ورغم هذا وجد منه محمد على مددا أىّ مدد ، وجد من طلابه من كوّن منهم مدرسة الطبّ التى أنشأها فى مقدمة ما أحدثه من المدارس ، كما وجد منهم أعضاء بعوثه الذين شاد على كواهلهم إصلاحه ، كما وجد من علمائه مدرسين للمدارس الابتدائية ونظاراً ومعلمين للعربية بمدارسه العليا ، وقد كانت العربية من مواد دراستها ، وكما استعان بهم فى إصلاح الترجمة لما كان يحتاج إليه من كتب العلم .

وقد عرف إسماعيل باشا للأزهر فضله ، فعنى بإصلاح شئونه ، وكان طلب العلم فيه غير مقيد بشروط ، فلجأ إليه كل فارّ من الجندية يتظاهر بطلب العلم ليأمن التجنيد فكان يشاهد به فى عداد الطلاب من تربو سنه على الستين ، وكان يندسّ فى زمرة علمائه من لا يعرفون من العلم إلا أسماء العلوم ، فرأى الشيخ محمد العباسى شيخ الجامع فى عهد إسمٰعيل وجوب وقاية العلم من هذا البلاء ، فرفع إلى نظر الخديو إسمٰعيل قانوناً صدرت به إرادة سنية بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ ، ٣ فبراير سنة ١٨٧٢ م .

وكان هذا النظام يقضى بأن يكون نيل العالمية بالامتحان على يد لجنة من العلماء يختارهم شيخ الجامع وأن تكون العلوم التى يمتحن فيها الطلاب هى :

الفقه ــ أصوله ــ التوحيد ــ الحديث ــ التفسير ــ النحو ــ الصرف ــ المعانى ــ البيان ــ البديع ــ المنطق . فصار لا يدرس بالأزهر غير هذه العلوم الإحدى عشرة . فما كانوا يتلقون شيئاً من التاريخ ، ولا حكمة التشريع ، ولا مصطلح الحديث ، ولا يتعلمون الخط ، ولا الإملاء ، ولا الإنشاء ، ولا الهيئة ، ولا الميقات ، ولا آداب البحث ، ولا اللغة مما هو ضرورى لطالب العلم الدينى ، وجرى الأزهريون على ذلك ، وتعصبوا لهذه العلوم حتى عدوا ما عداها علوماً حديثة ، وسموا محاولة إدخالها فى الأزهر تهجماً على الدين .

وكان الشيخ محمد عبده قد تنبه إلى نقص علوم الأزهر ، ونادى بوجوب التوسع فيها حتى يتكوّن العالم الأزهرى تكونا صحيحاً يليق بحمل اسم الدين ، فكان من نتيجة دعوته إلى ذلك أن ثار فى وجهه ضعاف العقول من الأزهريين، واتهموه بإفساد الأزهر ، ولكن الرجل لم يُعِرْ تهممهم اهتماماً، وظل يجاهد ويجالد حتى صدر فى عام سنة ١٣١٤ هـ ، سنة ١٨٩٦ م ، قانون قضى بأن تقسم العلوم فى الأزهر قسمين : مقاصد ، ووسائل .

فالأولى هى : الكلام ، الأخلاق الدينية ، الفقه ، أصوله ، التفسير ، الحديث .

والثانية : النحو ، الصرف ، علوم البلاغة ، المنطق ، مصطلح الحديث ، الحساب ، الجبر ، العروض والقافية .

وشجع الطلبة « بالمكافأة والتفضيل » على تحصيل تاريخ الإسلام ، والإنشاء ، قولا وكتابة ، واللغة متناً ، ومبادئ الهندسة ، وتقويم البلدان .

وحظر هذا القانون على الطلبة الاشتغال بالمقاصد إلا بعد الحصول على وسائلها ومنع قراءة الحواشى فى السنوات الأربع الأولى .

وجعل الامتحان على نوعين : أولهما لنيل شهادة الأهلية ، ويكون بعد مضىّ ثمان سنوات على طلب العلم على الأقل ، وثانيهما : لنيل العالمية ، ويكون بعد اثنتى عشرة سنة ، وتؤهل الشهادة الأولى صاحبها لوظائف الإمامة والخطابة والوعظ فى المساجد والتعليم بالمدارس الابتدائية ، وأما الثانية فصاحبها يتولى التدريس بالأزهر ويتمتع بمزايا العلماء .

وفى ٨ صفر سنة ١٣٢٦ هـ ، الموافق ١١ مارس سنة ١٩٠٨ م ، صدر قانون جعل للأزهر مجلساً عالياً يشرف على الجامع الأزهر وما شاكله من المدارس الدينية الإسلامية وجعل التعليم بالأزهر ثلاث مراحل : أوّلى وثانوى وعال ، وحدد لكلّ مرحلة أربع سنوات ، وجعل الانتقال من مرحلة إلى التى تليها بامتحان .

وفى رمضان سنة ١٣٢٨ هـ ، الموافق سبتمبر سنة ١٩١٠ م ، ألفت لجنة من

أحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية ، وعبد الخالق ثروت باشا النائب العام ، و إسماعيل صدقى باشا وكيل الداخلية ، فزادت على قانون سنة ١٣١٤ هـ ما يأتى :

علوم دينية

تجويد القرآن ـ السيرة النبوية ـ حكمة التشريع ـ التوثيقات الشرعية ـ الاجراءات القضائية .

علوم لغوية

آداب اللغة العربية ـ الوضع ـ الإنشاء والمحفوظات ـ الخط ـ الإملاء ـ المطالعة.

علوم رياضية وعقلية

آداب البحث ـ التاريخ ـ تقويم البلدان ـ الهندسة ـ الرسم ـ الهيئة ـ الميقات ـ الأشياء ـ خواص الأجسام ـ قوانين الصحة ـ نظام القضاء والإدارة والأوقاف والمجالس الحسبية ـ التربية العلمية والعملية ؛ وقد ورد فى تقرير اللجنة مايأتى :

« وسبب هذه الزيادة تحقيق تهيئة المتخرجين من الجامع الأزهر وملحقاته للقيام بالمقاصد التى تطلب منهم ، لأن من لوازم الفقيه والمفسر والمحدث والكلامى أن يجيد حفظ القرآن ويحسن تلاوته ، وأن يكون عارفاً بالتوثيقات التى يرتبط الناس بعضهم ببعض بسببها ، وبالطرق المشروعة للتقاضى ونيل الحق إذا هضم .

ومن تمام علم الأخلاق معرفة سيرة صاحب الشريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وفائدة الذى يتلقى علوم العربية أن يجيد استعمالها ، وإنما يكمل له ذلك بالإنشاء ، وكثرة المحفوظات ، وإجادة الإملاء ، وينفعه كذلك حفظ القرآن الكريم ، ومعرفة السيرة النبوية ليكون واعظًا مؤثراً وخطيباً مقنعاً .

وفائدة الجميع أن يكون كلّ واحد منهم عالمًا بالحساب والجبر وأصول الهندسة ، ونظم البلد الذى يعيش فيه ، والمصالح التى تقوم بخدمة الأمة والدين ، وهكذا . . .

على أن اللجنة لم تقرر من الزيادة إلا مالا بدّ من معرفته لكلّ إنسان عامل فى أمته ومقتضى مهنته أيا كانت ، سواء فى ذلك الفقيه ، والتاجر ، والمحدث ، والزارع واللغوى ، والصانع ، وهكذا .

ولا يزال هناك محل لتقرير علوم أخر ، كالكيمياء ، والموسيقى ، والتصوّف وغيرها مما عرفه الأزهر وتلقاه الأزهريون فيه آنا فآنا ، وإنما تركنا هذه العلوم وأمثالها الآن عملاً بسنة الرقى التدريجى حتى لا يشحن منهاج الدروس دفعة واحدة . وأبقينا الباب مفتوحًا لمجلس الأزهر الأعلى ليقرّر عند الاقتضاء من العلوم مايرى نفعاً من زيادته » .

ثم صدر قانون رقم ٣٣ سنة ١٩٢٣ م ، بإنشاء أقسام التخصص بعد نيل شهادة العالمية .

وفى سنة ١٩٣٠ م ، بعناية المرحوم جلالة الملك فؤاد جرى الأزهر على نظام الجامعات الكبرى ، وصار يشتمل بعد التعليم الثانوى على كليات يليها تخصص فى المهنة أو المادة مما هو ماثل أمامنا الآن ، فلا نطيل بتفصيل القول فيه .

ومنذ ارتقى الملك الصالح « فاروق الأول » عرش مصر ، وتولى سلطته الدستورية فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٣٧م ، وهو يولى الأزهر عطفه الكريم بما شب عليه جلالته من

يقين بأن الدين مصدر كل خير . فبحق نقول إن الأزهر سيظفر فى أيام جلالته المديدة وحكمه السعيد بما لم يظفر به فى يوم من أيام القرون العشرة التى مرت به .

الترجمة والمترجمون

رأى محمد على باشا حاجة مصر إلى الإصلاح فى جميع مناحي الحياة بها ، وكانت إذ ذاك مقفرة من الرجال ، فاستعان بالأوروبيين من طليان وفرنسيين و إنجليز وغيرهم ، ولـكنه لم يكن يستطيع أن يستمرّ على هذه الحاجة ، فأرسل المصريين إلى أوربا ليتعلموا فيستغنى بهم عن الأجانب ، فكانوا إذا عادوا قاموا بتعليم المصريين فى المدارس التى أنشأها محمد على . وكان لا بدّ للتعليم من نقل تلك العلوم التى حذِقها هؤلاء فى أوروبا ليدرسها أبناء البلاد .

فمن أجل ذلك أحل محمد على الترجمة محلا لائقاً من اهتمامه حتى إنه لما عاد أول بعث إلى مصر لم ينصرفوا من حضرته إلا وقد سلم كل واحد منهم كتابا من الـكتب وطالبه بترجمته إلى اللغة التركية ، وكانت لا تزال إلى الآن اللغة الرسمية للبلاد ، وأمر فأغلقت عليهم أبواب القلعة لا يبرحونها حتى ينتهوا من تلك التراجم ، فلما فرغوا منها سلمت إلى المطبعة الأميرية ، فكانت بعد قليل كتباً بأيدى طلبة المدارس .

و بلغ من اهتمامه أن أنشأ مدرسة الألسن يتهيأ فيها الطلبة لترجمة ما تحتاج إليه المدارس من كتب العلم .

وقد اتبع فى أمر الترجمة طريقة سريعة ولـكنها مع ذلك قريبة من التمحيص والجودة ، فكان يأمر مدرسى المدارس أن يترجموا الـكتب المتصلة بعلومهم ، ثم يتسلمها بعد ذلك قوم ليسوا من أهل تلك العلوم ، ولـكنهم بصيرون بالأساليب العربية ليبرزوها فى ثوب من العربية الصحيحة جُهْد طاقتهم ، وعلى مقدار ما كان يسمح

زمانهم ، وكانوا يجتهدون فى التوفيق بين المصطلحات الإفرنجية ، والألفاظ العربية التى يوقعونها عليها بعد بحث فى كتب اللغة ، ونظر فى كتب العلم العربى القديم ، وكان من أشهر هؤلاء فى أيام محمد على باشا محمد عمر التُّونسى ، وقد كان من نتيجة عمله فى تصحيح كتب الطب وبحثه عن مصطلحاتها أن أخرج كتاب (الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية) قال فى مقدمته :

فأوعز إلى ناظر المدرسة (مدرسة الطب) أن آخذ كل لفظ يدل على مرض ، أو عرض ، أو نبات ، أو معدن ، أو حيوان ، أو غير ذلك من الاصطلاحات ، وأن أستخرج مافى القواميس من التعاريف ، وماجاء فى تذكرة داود ، وما فى فقه اللغة وغيره من المعاجم أو كتب اللغة ، ففعلت ذلك ، وأضفت إليـــه أسماء العقاقير ، وأسماء الأطباء المشهورين .

ولما صار الأمر فيما بعد إلى إسمٰعيل باشا أعاد مدرسة الألسن ، وكانت قد أغلقت بعد عهد محمد علىّ ، وزاد اهتمامه بشأن الترجمة ، فأنشأ لهـا بديوان المدارس قلما يقوم بها ويشرف على ما يكون من عمل مدرسى المدارس فيها ، كذلك نراه قد جعل دراسة العربية متصلة فى المدارس العليا ، كالهندسة ، والطبّ ، والإدارة ، رغبة منه فى تمكين الطلاب من تلك اللغة حتى يستطيعوا أن ينهضوا بنقل علومهم إليها .

وقد ظهر فى عهد إسمٰعيل معجم المصطلحات العلمية فى الفنون والصناعات ، وضعه مدير مدرسة الصناعة إذ ذاك ، وهو الأستاذ الواجى جون ، وشمل هذا المعجم المصطلح بلفظه الفرنسى والإنجليزى والعربى الذى اختير له حين ذاك ، فدلّ وضع هذا المعجم على مقدار عنايتهم بالترجمة ، وحاجتهم إلى تطبيق اللفظ العربى على مدلولات تلك المصطلحات ، وفى ذلك خدمة للعربية جليلة .

أما المترجمون من عهد محمد على باشا إلى عهد إسمٰعيل باشا ، فقد كانوا كثيرين حتى إنك تكاد تعدّ كلّ ذى شأن من المتعلمين فى ذلك العصر مؤلفاً ومترجماً ، لأن

حاجة البلاد إلى العلم ، واحتثاث هذين الواليين للهمم لم يترك لإنسان حيلة فى التقصير غير أنه تكثر الترجمة في أوائل هذا العهد والتأليف فى آخره .

ومن المترجمين من الأطباء : إبراهيم النبراوى من رجال البعث الأوّل الذى صار يوماما كبير أطباء مدرسة الطبّ ، واختاره محمد على طبيباً خاصًّا ، وله كتاب: «الأربطة الجراحية» ، ونبذة فى التشريح ، ونبذة فى أصول الفلسفة الطبيعية « كلها عن الفرنسية» .

ومنهم : أحمد حسن الرشيدى من رجال البعث الأول اشتغل بتدريس الطبيعة فى مدرسة الطب ، وألف فى الطب والطبيعيات والأقرباذينيات ، وله : «ضياء النيرين فى مداواة العينين » ، و « الدراسة الأوّلية ، فى الجغرافية الطبيعية » ، و « طالع السعادة والإقبال ، فى علم الولادة وأمراض النساء والأطفال » ، وكلها كذلك عن الفرنسية .

ومنهم محمد بك الشافعى ، وهو من رجال البعث الأوّل ، وقد تولى نظارة مدرسة الطبّ ، وله كتاب : « أمراض الأطفال » ألفـه كلوت بك ، وترجمه الشافعى ، وصححه التونسى .

ومن المترجمين فى العلوم الرّياضية : محمد بيومى من البعث الأوّل ، وكان مدرساً بمدرسة « المهندسخانة » ، وله : « ثمرة الاكتساب ، فى علم الحساب» ، و « جامع الثمرات ، فى حساب المثلثات » [عن الفرنسية] .

ومنهم : أحمد فايد بك ، وهو من كبار أساتذة « المهندسخانة » ، وقد صار يوماً وكيلها ، ومن ترجماته : « الأقوال المرضية ، فى علم بنية الكرة الأرضية » .

ومنهم : محمود الفلكى باشا الذى تولى يوماً نظارة الأشغال ، فالمعارف ، وكان يؤلف بالفرنسية والعربية ، ويترجم من الأولى إلى الثانية ،ومن أشهرمؤلفاته : «التقاويم

العربية قبل الإسلام » ، بحث فيه عن ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثبت أنه كان فى تاسع ربيع الأوّل الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م .

⁂

هذا هو حديث الترجمة فى أوائل عهد هذه النهضة الحديثة ، أما فيما بعد ذلك فقد تقدّمت تقدّماً عظيماً ، واستقلّ العلماء بإبراز كتبهم لا يحتاجون إلى معونة المحررين ، كما كان إخوانهم فى العهد السابق .

ويلاحظ أن الترجمة إلى عهد إسماعيل باشا كانت خاصة بكتب العلم ، فلم تر بينها كتاباً أدبياً ، من نحو قصة أو شعر أو وصف للشعوب ، أو نحو ذلك ، لأن نقل مثل هذه الآداب يحتاج إلى مقدرة على التعبير ، واستطاعة للتصوير ؛ فأما نقل العلم فإن أبسط العبارات يكفى فى نقل المعنى لا يحتاج إلى زخرف ، أو تطلية ، وإنما صعوبته فى التوفق إلى ترجمة المصطلح ، فإذا تغلب عليها المترجم ، فليس بعد ذلك من عسر ، على أن الحاجة أوّل ما تبدو إنما تكون للعلوم ، ثم تكون الآداب بعدها نافلة .

وفى عهدنا الأخير شاعت الترجمة ، وكثر النقل من اللغتين الإنجليزية والفرَنسية ؛ لأن التعليم فى مصر كان إلى عهد قريب ذا نزعتين ، إحداهما إنجليزية فى مدارس الحكومة ، والثانية فرنسية فى مدارس الجاليات الأجنبية يضاف إليهم من يقدم إلى مصر من أدباء السوريين الذين تغلب عليهم النزعة الفرنسية .

وممن يذكرون بالإعجاب ممن نقلوا علوم أهل الغرب وآدابهم إلى أدبنا الحديث : المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية ، كان رحمه الله على كثرة أعباء وظيفته لا يزال يختلس السويعات من وقته يخدم فيها الأدب العربى والثقافة المصرية ينقل محاسن ما كتب الفرَنْسيون فى الاجتماع ، ومن ترجمته : « سرّ تقدّم الإنجليز السكسونيين » ، وكتاب : « روح الاجتماع » ، وسرّ تطوّر الأمم » ، و « جوامع الكلم » ، وكلها عن الفرنسية لمؤلف واحد اسمه جوستاف لوبون .

كذلك المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى من أدباء الأزهر ولاه سعد زغلول باشا تحرير لغة الكتابة الديوانية بالمعارف ، ثم الحقانية ، ثم كان فى آخر أيامه من كتاب مجلس الشيوخ المصرى ، وفى الحقّ أنه لا يعدّ فى المترجمين لأنه لم يكن يعرف اللغة التى يترجم عنها والأولى به أن يعد فى المحررين ، لأنه كان يستعين بإخوانه ممن يعرف لغة أجنبية ، فيستوحيه معانى القصة ، فإذا ما استقرّت فى نفسه صاغها بعبارته الساحرة وزانها بقالبه الجميل ، وله من ذلك روايات : « ماجدولين » ، و « الشاعر » ، و « فى سبيل التاج » ؛ ومنهم ممن نقل عن الإنجليزية : المرحوم محمد السباعى من أفاضل المدرسين رغب عن التدريس ، وأقبل على الأدب يستجلى محاسنه ويستسيغ حلاوته ، وقد حصل منه كثيراً حتى كان يستحضر الكامل للمبرّد ، وقد أغرم بشعر ابن الرومى ، واستنسخ الكراسات من ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية ، وربما كان أول من نبه الناس فى أيامنا إلى فضل هذا الشاعر حتى رأينا من عنى بنشر شعره وشرحه ، وقد خدم رحمه الله الأدب فى مجلة البيان للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى ، وكان يكثر إمدادها حتى كاد يستقل بانشائها . وقد توفى رحمه الله فى ٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ ، الموافق ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٣١ م .

ومن ترجماته : « الأبطال » ، و « رباعيات الخيام » ، و « قصة المدينتين » ، وكلها عن الإنجليزية إلى كثير مما لا نحصيه ، لأنه قصر الشطر الأخير من حياته على ذلك ، فكان نتاجه كثيراً ، وذاعت له شهرة بين المتأدبين الذين أعجبوا بعبارته الجزلة التى يستمدها من محفوظ كثير وملكة صناع .

المجامع اللغوية

إن فكرة إنشاء مجمع لغوى كانت فى كلّ العصور تابعة للترجمة وما يصادفه المترجمون من عقبات فى التوفيق بين العربية وغيرها من اللغات التى ينقل عنها ، لأن المترجم حين

يعرض له مصطلح من المصطلحات لا يستطيع الاستقلال باختيار اللفظ العربى له لعدم توفقه إلى ذلك غالباً ، ولأن ذلك يحتاج إلي مُواضعة وهى لا تكون إلا من جمع من أهل اللغة يوثق برأيهم حتى يكون وضعهم مأمون الدَخَل ، فيقبل عليه الناس مطمئنين .

بدت هذه الفكرة عند ما اشتدت حركة الترجمة أيام المأمون العباسى ، فإنه جعل يوماً فى الأسبوع يلتقى فيه علماء اللغة بالمترجمين ، فيعرض هؤلاء على أولئك عملهم وتجرى المناقشة فيه ، ثم يقر الرأى على ما يقتنع به الجمع ، فعمل المأمون لا يحتمل الشكّ فى أنه أول من فكر من أهل العربية فيما نسميه الآن مجمعاً لغويًّا ، وكان من آثار ذلك فى زمنه أن ظهرت معاجم عربية يونانية ، وأخرى عربية ، لا تينية ليحذق بها أبناء العربية لغة العلوم عند هاتين الأمتين .

ولا نعلم أن هذه الفكرة عادت إلى الظهور بعد عصر المأمون إلى أيامنا هذه ، وذلك ظاهر التعليل لما قدمنا من أن فكرة المجمع الأولى هى الحاجة إلى المصطلحات .

كان جديراً أن تنشأ هذه الفكرة أيام محمد على باشا حين كثرت الحاجة إلى علوم أروبا ، وذاعت الترجمة عن كتبها ، ولكنّ عدم نشوء الفكرة لم يمنع أن تتمّ نتائجها ، فإن المترجمين فى علم من العلوم كانوا لا بدّ راجعين إلى رأى يتفقون عليه فيما بينهم ، وقد عرفت من حديث الترجمة والمترجمين أن أساتذة الطب مثلا كانوا يترجمون كتبه تحت إشراف من يحذق العربية للرجوع إلى رأيه فيما يعملونه ، وكذا غيرهم فى مدرسة الهندسة والصناعات ،وقد حدثت فى عهد إسماعيل باشا ظاهرة كانت فى عهد المأمون وهى ظهور معجم بالمصطلحات فرنسية و إنجليزية وعربية .

ولعلّ الجد والسرعة اللذين كانا شعار عصر محمد على و إسمٰعيل هما اللذان حالا دون انتظار عمل المجمع الذى قد تدور بحوثه فى شىء غير ما يشغل بال المترجم إذ ذاك ، فأما أن يترجم المترجم و يراقب اللغوى ، فذلك ما كان فى عهد المأمون ، وعهد محمد على و إسمٰعيل .

٭٭٭

وكان العصر كلما تقدم بالقوم زاد طلبهم للكمال اللغوى ، وأنفوا من استعمال الكلمات العامية ، وحاولوا لها بديلا من الفصيح كما كان سيل الأعجمى يزداد طُمُوًّا فى المخترعات ، وأسماء الأدوات ، وكلّ ما دخلت به المدنية إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى التى فتحت بابها على مصراعيه لكل مظاهر المدنية .

لذلك بدت الحاجة واضحة فى الاستعانة برجال اللغة ، واستطلاع رأيهم فى جميع ذلك ، وكثرت الدعوة إلى مجمع لغوى تعقد به كل هذه الآمال .

فكان أول مجمع لغوى بمصر هو الذى اجتمع سنة ١٨٩٧ م ، وكان مقرّه دار آل البكرى ، وتولى رياسته السيد محمد توفيق البكرى ، وأسندت وكالته إلى الشيخ محمد عبده ، وكان من أعضائه المرحومون البكوات : حفنى ناصف ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان بك ، ومحمد دياب بك ، ومصطفى نجيب ، والشيخ محمد بن محمود التلاميدى التركزى الشنقيطى ، وإسمٰعيل صبرى باشا .

وقد كان من عمل هذا المجمع وضعُ ألفاظ لمخترعات حديثة كالمسرة بدل « التليفون » والبرق بدل « التلغراف » ، وسيارة بدل « الأتوموبيل » و « الدراجة » بدل « البسيكليت » وكانوا قد اختلفوا فى الأتومبيل ، فرأى محمد دياب بك أن يسمى المُخَوِّدة ، ورأى الأمير شكيب أرسلان ، ولم يكن من أعضاء المجمع أن يسمى فرّارة ، وكان رأى أحمد زكى باشا أن يسمى سيّارة ، فكان لوضعه الغلب ، وذاعت الكلمة مع ما يلاحظ عليها من أنها لا تدل إلا على تتابع السير مع أن أظهر ما فى الأتومبيل هو السرعة ، فكانت كلمة شكيب أرسلان أولى وأقوم ، لولا أن للذوق حكما يتغلب دائما ، وكان من عمل هذا المجمع أيضاً ، وضع بهو بدل « صالون » وبطاقة بدل « كرت » ومِعْطف بدل « بلطو » وهذه جرى فيها نقاش ، فإن محمد دياب بك رأى

أن مدلول المعطف فى اللغة ينطبق على البرنس أو الشال الكشميرى ، أما الكلمة التى ينطبق مدلولها على البلطو ، فهى المِيثَرة إذ هى الثوب الذى يلبس فوق الثياب .

كما وضع من أسماء المعانى كلمة مرحى بدل « برافو » وكلمة عم صباحا ، وعم مساء بدل بنجور و بنسوار .

ثم فتر العمل فى هذا المجمع ، وانتهى أمره إلى السكوت فالموت ، ولكن الحاجة ما زالت ملحة والإباء اللغوى زاد بما أصبح للعربية من مكانة فى النفوس ، وما شعرت به مصر من زعامة فى هذه اللغة حملها لواءها جميعُ أمم اللسان العربى فى العالم ، فكان من كل ذلك أن تألف فى عام سنة ١٩١٧ م ، مجمع لغوى جديد لا تختلف وجهته عن سابقه .

وقد تولى المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الإسلام إذ ذاك رياسة المجمع ، وأسندت وكالته إلى المرحوم الشيخ محمد بخيت ، وكان كاتب سره أحمد لطفى السيد باشا ، ومن أعضائه المرحومون : أحمد زكى باشا ، ومحمد عاطف بركات باشا ، و إسمعيل رأفت بك ، والدكتور يعقوب صروف ، والشيخ محمد شريف سليم ، وحفنى ناصف بك ،ومن غيرهؤلاء المشايخ : أحمد إبراهيم بك ، والمرحوم أحمد الإسكندرى ، ومصطفى العنانى بك.

وكان المرحوم الشيخ حمزة فتح الله لا يزال فى الأحياء ، ولكنه اعتذر عن العمل فى هذا المجمع بنزول القديح ببصره « كاترا كتا » وهو صاحب هذا المصطلح ، وقد ذكره فى كتابه المواهب الفتحية .

وقد بحث هذا المجمع طريقة وضع معجم لغوى مهذب سهل التناول يشتمل على ألفاظ عربية ، أو معربة لكل دخيل ، أو عامى يهاجم الفصيح .

وكان مما بحثه المجمع ، واستقرّ عليه رأيه ، كلمات الخز بدل «الصوف على حرير» والمِرْكن بدل « طشت الغسيل » والكَرّاءة بدل « الكراكة » والمُوم بدل

« المكوك » والأُثر أو الخَلاص بدل « المُوْتة » والماصر[1] بدل « الجمرك » .

وما لبثت ثورة سنة ١٩١٩ أن فرقت شمل هؤلاء ولكن الغيرة على اللغة لم تزل دافعة لأهلها على الذود عن حقيقتها ، فاجتمع نفر من أفاضل العلماء فى بيت إدريس راغب بك وتوالت اجتماعاتهم مدة ، ولكن مجمعهم لم يثمر شيئاً بل قضوا نحو عامين فى عمل غير جوهرى ، ثم لحق سابقيه ، وكان من أعضائه عبد الفتاح صبرى باشا ، وخليل مطران بك ، والأستاذ أنطون الجميل بك ، والمرحومان : الشيخ محمد الخضرى بك ، وأمين واصف بك وغيرهم من أعضاء المجمعين السابقين .

ولعلّ هذه التجارب المخفقة نبهت ذوى الشأن إلى أنه لابقاء لمجمع لا تشمله الحكومة برعايتها ، ولا تشد أزره بمادتها ، والحق أن نجاح المجمع فى عمله يحتاج إلى المال فى إبراز المعجم إن تهيأ للأعضاء النهوض به كما يحتاج فى إعلان جهوده إلى مجلة تتطلب المال فى ظهورها ، وانتظام حركتها .

كما أنّ ضن كثير من المستطيعين للعمل بجهودهم وطلبهم أجراً عليها يعوز المجمع إلى المال لإشباع رغبة هؤلاء منه .

كل ذلك جعل جلالة الملك الراحل إلى جوار ربه أحمد فؤاد الأول ذى الأيادى البيضاء على العلم فى جميع مناحيه، يتفضل بتوجيه نصيب من عنايته إلى المجمع اللغوى الذى هو أمل أهل العربية وحاجتها الماثلة ، فأمر جزاه الله الخير أن يكون للعربية بمصر مجمع يشفى داءها ، ويكشف عن كنوزها ، فصدر المرسوم الملكى بإنشائه فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م ، وبتعيين أعضائه فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣ م ، وهؤلاء الأعضاء ، وفيهم الرئيس عشرون اختيروا من العلماء اللغويين المعروفين بالحدب على اللغة وحسن البلاء فى خدمتها من رجال مصر والأقطار العربية ، ومن المستعربين من علماء أوروبا ، وكان أوّل اجتماع لهم فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ م .

---

(١) الماصر : الحاجز بين الأرضين .

ولم يمض على وجود المجمع ما يجعلنا نجتني ثماره ، ولعلها دانية إن شاء الله .

ورئيس هذا المجمع اليوم هو حضرة صاحب المعالى محمد توفيق رفعت باشا وأعضاؤهم : حايم نحوم أفندى ، الدكتور فارس نمر ، الدكتور منصور فهمى بك، الشيخ إبراهيم حمروش، الشيخ محمد الخضر حسين ، أحمد العوامرى بك ، على الجارم بك ، الأستاذ ه . ا . ر . جب بمدرسة لندن للدراسات الشرقية ، والأستاذ ا . بجامعة فيشر ليبزج ، والأستاذ ا . نللينو بجامعة روما والأستاذ . ا . ج فنسنك بجامعة ليون ، محمد كرد على ، الأب انستاس مارى الكرملى ، عيسى إسكندر المعلوف أفندى ، الشيخ عبد القادر المغربى السيد عبد الوهاب أفندى .

وقد كان من بينهم المرحومان الشيخان : حسين والى ، وأحمد الإسكندرى .

وقد تألف فى دمشق مجمع سمى « المجمع العلمى العربى بدمشق » فى إبريل سنة ١٩١٩ م من ثمانية أعضاء ورئيس .

وقد جاء فى المنشور الذى أصدر للمجلات والمجامع الأخرى : أنه قد وكل إليه النظر فى اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها ، و إحياء مخطوطاتها ، وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون من اللغات الأوربية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع .

وكان رئيسه من يوم تأليفه محمد كرد على ، وقد خلفه فى هذا العام سنة ١٩٣٤ م عبد القادر المغربى ، وكلاهما عضو بالمجمع اللغوى الملكى المصرى .

ومن جهود هذا المجمع ما كان ينشره من آن لآخر فى مجلته وفى الصحف العربية بعنوان : « عثرات الأقلام » ينتقد فيه أساليب يستعملها الكتاب ، و يرشد إلى الصواب فيها . ومن ذلك ماورد فى الجزء السادس من السنة الأولى من عثرات الأقلام .

قولهم : « تأكد القوم حصول كذا » ، وفعل تأكد لازم لا مفعول له ، قال فى لسان العرب تأكد الأمر وتوكد بمعنى واحد .

وقولهم : « لبثوا هناك برهة من الزمن » يعنون وقتاً قصيراً مع أن البرهة هى

الوقت الطويل ، قال فى الصحاح : بره أتت عليه برهة من الدهر : أى مدّة طويلة من الزمن ، أما الهنيهة فهى الوقت القصير .

وقولهم : « يواصلون السعى بهمة لا تعرف الكلل » وصوابه الكلال ، قال فى الصحاح : كللت من الشىء أكلّ كلالا وكلالة أعييت .

وقولهم : « البضائع المتأخرة فى العنابر » ، وصوابه الأنابر جمع أنبار ، وقلب الهمزة عيناً خطأ .

وقولهم : « يجتهدون فى عمار البلاد » وصوابه عمران أو عمارة بالتاء .

دار الكتب المصرية

لعلنا نكون أقرب إلى إنصاف الحقيقة إذا قلنا إن التفكير فى تكوين دار الكتب بمصر يرجع عهده إلى أيام رأس هذه الأسرة الكريمة المصلح الأكبر محمد على باشا .

ذلك أنه لما أراد الله عصمة مصر من أسباب الفوضى ، فتولى أمرها محمد على باشا كان من بين إصلاحه المتشعب المناحي أن أنشأ « كتبخانة » فى سنة ١٢٣٥ هـ ، وقد عثر على رسم المكان الذى كان مخصصاً لها بالقلعة ، وقد حفظت فيها كتبه الخاصة وضمت إليها فيما بعد مجموعة مما وجد فى خزائن الأمتعة للمماليك ، من كتب عربية ، وفارسية ، وأوربية ، ثم كلف المرحوم رفاعة بك شراء ما يلزم شراؤه من المطبوعات الأوربية ، فكان يوالى شراءها .

وكان ديوان الأوقاف قد حصر فى سنة ١٢٦٧ هـ مكتبات الجوامع وعين لها أمناء لم يكونوا أمناء على ما بها ، فتبدّد كثير منها ، وتسرّب إلى البلاد الأجنبية ، فهال هذا الأمر أهل الغيرة على هذا التراث الجليل ، فتقدّم المرحوم على مبارك باشا وأفضى إلى خديو مصر إسمعيل باشا بجلية الأمر ، فأصدر إرادة سنية فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٨٦ هـ ، الموافق ٢٣ مارس سنة ١٨٧٠ م بتأسيس « الكتبخانة الخديوية المصرية »

فجمعت لها الكتب المفرّقة فى الجوامع وخزائن الأوقاف ، فكان نواة هذه الدار ، و بلغ ذلك إذ ذاك زهاء عشرين ألف مجلد .

أما كتب الأزهر التى كانت متفرقة فى أروقته فقد جمعت كلها فى مكان واحد بالجامع ، فتكونت منها مكتبته الكبيرة العظيمة القيمة ، وضمت إليها مجموعات أخرى أوقفها أهل البر والعلم ، ومن أنفعها مجموعة المرحوم سليمان باشا أباظه .

كان أول مكان استقرّت به الكتبخانة الخديوية هو الطابق الأرضى بدار المرحوم مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز حيث تجتمع بعض المدارس المصرية ، وديوان المعارف إذ ذاك .

وقد فتحت « الكتبخانة الخديوية » وأبيحت المطالعة بها للجمهور فى رجب سنة ١٢٨٧ ﻫ . ولزيادة النفع خصص بها مكان للتدريس العام يفتح فى أوقات معينة أطلق عليه اسم «دار العلوم» يقبل عليه كل من أراد التحصيل من مهندسين وموظفين وأساتذة وطلبة ، وكان هؤلاء هم المقصودون بالذات ليفهموا القواعد العملية التى يتلقون نظرياتها فى مدارسهم .

وهذا الوصف الذى ذكروه لهذه الدار «دار العلوم » هو نوع من العمل الذى تقوم به الجامعات فى أوربا وغيرها .

فيكون عهد إسمٰعيل باشا هو أول عهد عرفت فيه مصر هذا النوع من التعليم الجامعى على النظام الأوروبى الحديث .

وما زالت مجموعة الكتب التى فى « الكتبخانة » تنمو بما يضم إليها بالشراء والهبة والوقف حتى صار مجموعها سنة ١٩٢٧ م ١٣٢٥١٩ مجلداً ما بين عربى وغير عربى . منها ٦١٠٤٨ باللغة العربية ، واللغات الشرقية ، والباقى وهو ٧١٤٧١ باللغات الإفرنجية ، وقد صار هـذا المجموع سنة ١٩٣١ م ١٧٠٥٠١ منها ٧٨٤٨٠ باللغات الإفرنجية و٩٢٠٢١ بالعربية ، وهذا خلاف ما ضم إليها من مكتبة أحمد طلعت باشا

وتقدر بزهاء ٣٢ ألف مجلد ، ومكتبة أحمد تيمور باشا ، وتقدر بزهاء ١٨ ألف مجلد ، فمجموع ذلك الآن يقدر بربع مليون. حفظ الله هذه الدار من أيدي الغير وزاد فى مادتها.

وكان أهم ما انضم إليها قديماً مجموعة كتب المرحوم مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسمٰعيل ، فإنه لما توفى بالآستانة سنة ١٨٦٧ م صدر أمر الخديو إسمٰعيل بشراء مجموعته التى لا نظير لها بمبلغ ١٣ ألف جنيه عثمانى دفعها من ماله الخاص ، ثم أهداها إلى الكتبخانة ، وكانت ٣٤٥٨ مجلداً .

كذلك ضم إليها ٧٥٤ كتاباً وقفها المرحوم الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى ، وهى هناك باسمه .

وفى سنة ١٩٠٤ م نقلت الكتبخانة إلى مكانها الحالى بباب الخلق الذى وضع أساسه باسمها فى سنة ١٨٩٩ م .

وفى سنة ١٩١٠ م صدر أمر عال بإصلاح دار الكتب الخديوية ، وقد قضى الأمر بأن تكون ماليتها تابعة لوزارة المالية وإدارتها للمجلس الأعلى الذى يرأسه وزير المعارف ، وقد أصبح من حق هذا المجلس الإشراف على مشروع إحياء الآداب العربية الذى كان مجلس الوزراء قد قرره فى سنة ١٣٢٨ هـ ، سنة ١٩١٠ م .

وفى سنة ١٩٢١ م نقل القسم الأدبى ومطبعته من المطبعة الأميرية ، وجعل تابعاً لدار الكتب للقيام بنشر مطبوعاتها التى يقر المجلس نشرها .

وفى سنة ١٩٢٦ م بمجهود المرحوم عبد الحميد أبى هيف بك مدير الدار إذ ذاك أنشئ فرع فيها سمى « مكتبة التلميذ » لفائدة طلاب المدارس الابتدائية ، ومن فى طبقتهم .

وبالدار الآن من المخطوطات زهاء «١٩٠٠٠» تسعة عشر ألف كتاب ، منها ١٨٩ مصحفاً عشرون منها بالخط الكوفى ، ولا يدخل فى هذا الحساب ما تشتمل عليه مكتبتا طلعت باشا ، وتيمور باشا إذ أن تفاصيل ما فيها لم تعرف بعد ، وأقدم مخطوط فى

القسم العربى هو رسالة الإمام الشافعى بخطّ تلميذه الرّبيع المرادى كتبها سنة ٢٦٤ ﻫ .

وأقدم ورقة بَرْدىّ كتبت سنة ٨٧ ﻫ ، وأقدم صحيفة عربية هى الوقائع المصرية سنة ١٢٦٣ ﻫ الموافق سنة ١٨٤٧ م أى بعد ظهور هذه الصحيفة بثمانية عشر سنة.

الخطابة

من عهد محمد على إلى الآن

ظلت الخطابة على مثل حالها فى العصر السابق والذى قبله ركيكة مسجوعة مقروءة فى الأوراق ، أو دواوين الخطب مقصورة على المراسم الدينية من جمعة وعيدين وغيرها .

واستمرّ هذا شأنها مدّة محمد على باشا لم يجدّ لها موقف رسمى أو غير رسمى يستدعى العناية بشأنها ، واحتفال الأمير أو رجال دولته بها ، لأن الدولة كما علمت كانت تركية فى نشأتها ، فلما تحوّلت عربية لم تَعُدْ تأليف كتب العلم ، حتى إن التدريس نفسه الذى ربما عدّ من مظاهر الخطابة لما فيه من المواجهة بالقول ومحاولة الإفهام والتأثير ، كان على عهد محمد على موقفاً ملفقاً ، فالمعلم أجنبىّ يلقى المعلومات بلغته و إلى جانبه مساعد يفهم عنه ويدلى إلى الطلبة بالمعنى ، وجهد هذا المساعد أن يكون أميناً فى النقل لايعنى بطريق الأداء .

والخطابة كما تعلم إنما تعتمد الملكة القوية ، والمحصول الوافر من الأساليب ، ولم يكن شىء من ذلك فى أوائل هذا العهد ، والجيش الذى هو مجال الخطابة وموطن التأثير بها ، والذى كان فى القديم مدرسة حركت ألسنة الخطباء ، وكشفت عن مزايا ملكاتهم ، صار على عهد محمد علىّ يقوده ويقوم بالتعليم فيه ضباط من الطليان أو غيرهم ، وكان

تلامذة المدارس الحربية إذ ذاك من أبناء المماليك ، ثم بقيت روحه تركية إلى عهد قريب حين أعلن استقلال مصر .

هذا هو شأن الخطابة إلى مبدإ عهد إسمٰعيل ، وفيه أظلت الناس حرّية مطلقة ، وكثرت الصحف ، فتنبهت الأفكار ، وتعلمت الشعوب المطالبة بحقوقها ، وكانت العلوم التى راجت عند المصريين وغيرهم من أمم الشرق خصوصاً أهل الشام قد أنارت البصائر وأشعرت الناس بكرامتهم ، وعرّفتهم معنى الوطن والذياد عنه ، ومناهضة المستبدّ بشئونه ، فقامت من جراء ذلك ثورة الشام التى أعلن فيها أهلها السخط على عسف الحكومة العثمانية ، واتفق لجوء هؤلاء الفارّين من وجه الظلم إلى مصر ، وفيها إسمٰعيل باشا مانح الحرّيات ومطلق الألسنة بما تريد من قول ، وانضمّ إلى ذلك نزول ضيف كريم بمصر هو السيد جمال الدّين الأفغانى ، فاجتمع لمصر من كلّ ذلك أسباب لنهوض الخطابة من عثارها الذى طال عليه الأمد ، وامتدّت به الأيام ، وكان من أمر جمال الدّين أن جمع حوله كلّ شابّ ناهض ممتلئ بالآمال من طلاب الأزهر وغيرهم ، فجعل جمال الدّين يوقفهم على أسرار الحياة ، ويبثّ فيهم معنى الوطنية ، وينبههم إلى تربص الغرب بالشرق ووجوب التحرّز من ذلك ، وينتقد لهم أساليب التعليم بالأزهر وغيره ، ويعيب على المنشئين طرقهم اللفظية الجوفاء الخالية من الروح الممثلة فى السجع والمحسنات ، ثم أخذ يدربهم على ارتجال القول ، ويعوّدهم النقاش فى الأمور الاجتماعية الكبرى ، حتى تتفتق أذهانهم ، وتلين بالقول الصحيح ألسنتهم ، فأغرم هؤلاء الشباب بجمال الدّين ، واشتدّ تعلقهم به وولعهم بأفكاره ، وجاوزوا القول فى أمور الاجتماع والأخلاق إلى السياسة ، فانعقدت لذلك جمعية سرّية بحلوان ، ولكن حكومة إسمٰعيل ، وهى مانحة الحرّية رأت أن القوم جاوزوا فيها الحدّ ، فكبحت جماحهم ، وبعد أن كانت مرحبة بجمال الدّين تجرى عليه كلّ شهر عشرة جنيهات معونة وتقديراً

لفضله غلت يدها عنه ، ونفته إلى خارج القطر المصرى ، ولـكن جذوته التى أشعلها صارت لهيباً مندلعاً .

فاستمر المصريون يجتمعون ويخطبون فى الأمور العلمية والأخلاقية ، وألفوا الجمعيات الـكثيرة لذلك ، و بعض هذه الجمعيات قامت على أسس متينة و بأغراض محدودة عمل أعضاؤها على تنفيذها كالجمعية الخيرية الإسـلامية التى أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ م ، فإنها جعلت غرضها فتح المدارس لتعليم البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم .

وكان من خطبائها : السيد عبد الله نديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحٰق ، وإبراهيم اللّقانى ، وغيرهم .

ثم أقبل عصر توفيق باشا ، فكان جانبه اللين وخلقه الواسع مرتعاً خصيباً لاشتداد الحركة الفكرية ، لأن إسمٰعيل باشا كان مع إطلاقه الحرية مخوف الجانب شديد البطش ، فكان الحذر يساور النفوس منه .

فأما فى عهد توفيق ، فلم تزل النار تشتعل وأُوارها يشتد حتى نجمت عنها الثورة العرابية . وأنت خبير بما تحتاج إليه الثورات من مقدمات لإيغار الصدور ، وشحذ العزائم ، والحمل على التضحية .

وهكذا كان كلّ ذلك قبل الثورة حتى بعثوها عمياء هوجاء ، وكان من خطبائها المشهورين السيد عبد الله نديم الذى عرف بقوة البديهة وذلاقة اللسان . وقد جاءت هذه الثورة لمصر بالويل فى الاحتلال الذى ضرب بجِرانه فى البلاد ، فما زال يتحيّف الحريات ويحوّل مجرى التعليم ليجعله أداة حكومية لا سبيلاً للثقافة والكمال ، ولـكن الله هيأ لمصر فى شدة أزمتها رجالاً ما كانوا يبالون بمصلتة سيوفه ولا بمشرعة رماحه ، بل كانوا يقاومون ذلك و يتعرّضون للنَّكال إثارة للحمية فى النفوس ، و إشعالاً لنار الوطنية بين الجوانب . وخير مذكور فى هذا المقام هو معلم المصريين الحرية والتضحية

الذى بذل نفسه ونفيسه فى سبيل ذلك المرحوم مصطفى كامل باشا صاحب اللواء والعلم وغيرهما من الصحف .

وحين ذاك كانت الصحف قد اشتدّت لهجتها ، والتعليم قد آتى ثماره من تكوين رجال ذوى كفايات يعرفون حقوق وطنهم وأغراض الأجنبى فيهم . وكان الاتصال بالمغرب وقراءة كتبه خصوصاً ما يتعلق منها بالثورات ونجاح شعوبه فى قلب الحكومات قد ملأ الأذهان بقيمة الحرية ، فما كانت شدة الاحتلال إلا حاملة على العنف فى المقاومة .

وكان مظهر الخطابة فى هذه الأيام يتمثل فى صور شتى : فخطب سياسية شديدة اللهجة ، وأندية علمية يحاضر فيها الناس بمسائل العلم والأدب ، فكثر المران على القول ، حتى صار لمصر خطباء مصاقع غَزُرَتْ معانيهم وجادت عباراتهم وأحكموا أساليب التأثير .

ويصح أن نضيف إلى مظاهر الخطابة ما نشأ من تنظيم التقاضى ، وقيام المحامين بالدفاع عن المتهمين ، ويقابل ذلك من جانب الحكومة النيابة العامة التى تقيم الدعوى على المتهم ، مشترطاً فى كلّ ذلك أن يكون بالعربية فى المحاكم الأهلية والشرعية والمجالس الحسبية .

ومظهر آخر : كان فى المجالس النيابية التى عرفتها مصر قبل عهد الدستور من مجلس شورى القوانين ، والجمعية التشريعية ، فقد كان لأفاضل المتعلمين فى هذه المجالس مواقف مشهورة ، وآخر عهدنا بها موقف المرحوم سعد زغلول باشا فى الجمعية التشريعية فى موضوع الوكيلين ، وهو مناقشة صارت حول من ينوب عن الرئيس عند غيابه آلوكيل المعين أم المنتخب ؟ وكان سعد باشا وكيل الجمعية المنتخب ، فصال وجال فى هذا المقام ، وتناقلت الصحف خطبه الرنانة فيه .

كذلك من مظاهر الخطابة ما جدّ فى الشام منذ سنة ١٨٤٨ م ، وفى مصر

منذ سنة ١٨٧٦ م ، من التمثيل الذى له من الخطابة الموقف ومحاولة التأثير ، وإن كان الممثل غير مرتجل لما يقول لأنه إما حافظ له أو سامعه من ملقن يوحى إليه بالعبارة التى تجرى على لسانه لفظاً لفظاً .

كذلك رقى التعليم جعل المعلم فى جميع المواد التى تدرس بالعربية مطالباً بالفصحى آخذاً تلامذته بها .

فهذه ــ لاشكّ ــ مواقف للخطابة جعلت لها شأناً غير مالها فى القديم المتصل بهذا العصر ، فصار الناشئ يأخذ نفسه بهذا الموقف ومعلمه يُعدّه له ليكون يومًا ما محامياً ، أو نائباً عامًّا ، أو قائداً من قادة الرأى ، وهؤلاء جميعاً لهم بين القوم منزلتهم السامية .

ثم كان فى سنة ١٩١٤ م أن قامت الحرب الكبرى ، فاشتعلت نارها بكل مكان ، والبلاد التى لم تكن ميدان قتال أعلنت فيها الأحكام العرفية وأصلتت السيوف فوق الرقاب وأُشْرِعت الأسنة نحو النحور ، فخفتت الألسنة وانحلّ ما كان معقوداً من الجمعيات الخطابية إلا قليلاً ، وما بقى منها أحيط بسياج من المراقبة واتهم فى كل ما يأتى وما يذر .

عقدت الألسنة فى مصر إلا قليلاً فى مدّة الحرب الكبرى ، وكانت أربع سنوات شداد ، ولكن عوامل الخطابة وبواعثها ظلت مكبوتة فى النفوس حتى انفجرت جملة يوم قامت حرب الثورة وهَبَّ المصريون للمطالبة باستقلالهم .

قامت الثورة فما هو إلا أن رأينا الخطابة فى كلّ مكان ، فهى فى الجامع الأزهر الذى أصبح منبره وكراسى أساتذته مراقى لها ، يقوم فيها كلّ مفوّه ويحتشد له من لا يحصى من السامعين . وربما قامت الخطابة حين يحمى الوطيس ، ويشتدّ الهياج فى الميادين العامة فيقف الخطيب على شرف من الأرض ، أو على ظهر عربة ، أو نضد

مقهى، فإذا صوته يدوّى فى الفضاء ، و إذا زئيره يعلو ، وشقاشقه تَهْدِرُ ، و إذا السامعون يؤمنون على ندائه ، و يرددون قوله فتخرق أصواتهم أجوازالفضاء حامية ملتهبة .

هذا إلىخطب تعدُّ لهـا العُدَّة ، ويهيأ لهـا المكان ، فما هو إلا أن يحل الميعاد حتى ترى الناس وقد تدفقت سيولهم لسماع الخطيب ، فيقف فيهم بين التصفيق الحادّ والهُتاف العالى بحياته ، حتى إذا هدأت العاصفة أبتدأ الخطيب يهزّ الشعور فى الرأى الذى اجتمع له الناس من جمع للـكلمة فى أمر يخشى فيه الفشل ، أو تحذير من خطة سيؤخذ بها القوم على غرة ، أو تفسير لسياسة ظاهرها حسن و باطنها خشن ، أو دعوة للالتفاف حول زعيم ، أو ردّ على من اتهم موثوقاً به ، أو تأييد وزارة أو خذلانها ، أو غير ذلك من الأغراض التى كانت تجدّ يومًا فيومًا ، أو تلمع خواطرها فى النفوس فتهتبل الخطابة فيها ساعة فساعة .

فى هذه الفترة رأينا من الخطباء مالم يُرْوَ لنا مثله إلا حديثاً عن أفراد أفذاذ تفرّقوا فى العصور الأولى ، ولم تقع عين الناس فى زمن واحد على اثنين منهم مجتمعين . أما نحن فقد رأينا وسمعنا عشرات الخطباء الذين يخطب أحدهم الساعات يهدر هديراً ، لا تفتر له شِقْشِقة ، ولا ينبو له خاطر ، ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يمسح عُثْنُو نَه ، ولا يَفْتِل أصابعه ، بل ينطق بالقول الصحيح ، واللفظ الفصيح ، والمعنى الدقيق ، والحجة البالغة .

رأينا من هؤلاء من يخطب فى التضحية ووجوبها فى جانب الوطن ، فلا تنجلى خطبته إلا عن اصطدام السامعين بالقوة المسلحة . فإذا ما انجلت الموقعة عن قتيل ، فقد اتفق للخطابة موقف من أعظم مواقفها . فاستمع للخطباء : التمجيد لمصرعه ، والإطراء لشجاعته ، والاعتزاز بتضحيته ، والتفخيم لاستشهاده ، ووصف مقامه بين الشهداء والصدّيقين ، إلى مثل ذلك مما يُرْخِص النفوس عند أصحابها . بل ربما حسد المقيمُ الظاعنَ ، لما سُجِّل له من فخر، وما أحيط به من تجلّة .

وحين هدأت الثورة ، واستقرّ النظام بمصر ، ورفعت الحماية وحلّ محلها الاستقلال ، جدّت للخطابة مواقف أخرى هى النضال الانتخابى بين مرشحين عن دائرة واحدة ، فإذ ذاك يحتشد حول كلّ مرشح رجال حزبه ، فما يزالون فى تعلية لقدر صاحبهم، ونقص لقدر منازله ، وتسجيل لمفاخر هذا ، وإشاعة لمساوئ ذاك . لا يتركون أديمًا لصاحبهم إلا سدوا ثُلَمه، وصقلوا جانبه ، وَوَشَّوْه بما استطاعوا من قوّة البيان ، ومداخل الحجة ، كما لايتركون لقرنه أديمًا صحيحاً إلا مزّقوه ، وشوّهوا وجهه ، وربما أثاروا فى ذلك الماضى البعيد ، وأعادوا عهد الطفولة ، وتناولوا البيوت والأصول ، وكل ذلك التماساً لنجاح مرشحهم ، وربما اشتبك الفريقان ، وتلاحم الخصوم فسالت الدماء .

فإذا ما انتهى موقف الانتخاب ، انتقلت الخطابة إلى منبر مجلس النواب والشيوخ ، وتراشق الخصوم بتبادل القول ، وتعاقب الخطباء يؤيدون فكرة ، وكل له منهج فى الاستدلال وطريقة فى الإقناع ، وصيغة فى التعبير ، يأنف فيها من التقليد ، ويحرص على الاستقلال ، ثم يتسع المجال لخصوم الفكرة فيناضلون أنصارها ويحاجّونهم حتى تعجب من فضل الجميع كيف وجدوا كلّ هذه المعانى والألفاظ فى مسألة واحدة . هذا ينقضها حتى يسويها بالأرض ، وذلك يُؤَثِّل ويَشِيد حتى لا تقبل فكرته الزحزحة من موضعها .

وليس لكلّ هؤلاء الخطباء السياسيين اعتماد على ورقة أو رجوع إلى مكتوب ، فإنهم أدركوا ما فى ذلك من ضياع التأثير ، وهم إنما يعولون عليه لاكتساب القلوب . لذلك تراهم جميعاً عدلوا عن الاعتماد على الأوراق إلا أن يقيد فيها الخطيب أهمّ عناصر خطابته فى كلمات مفردة يرجع إليها حتى يأمن تشعب القول عليه ، وتزاحم الخواطر فى ذهنه .

ولو ذهبنا نحصر أسماء هؤلاء الخطباء الذين عرف الناس أيام الثورة قدرهم،

وسجّلت مضابط المجلسين خطبهم لفاتنا حصرهم . لذلك لا نذكر منهم إلا واحداً تُوِّجَتْ باسمه أسماؤهم ، وعَنَى له فى البلاغة زعماؤهم ، واعترفوا فى نجاحهم بفضله ، وشربوا جميعاً بسَجْله، وشَرُفوا بالتلمذة له ، وهو سعد زغلول باشا خطيب الثورة ، وخطيب الانتخابات ، وخطيب المجالس النيابية .

و بعد فإننا لا نكون مبعدين إذا قلنا إنه لم يمرّ على العربية عهد نشطت فيه الخطابة ، واشتدّ حرص الناس عليها ، وعظم بلاؤهم فيها كهذا العصر الأخير الذى وصفناه ، اللهم إلا ما كان بين علىّ ومعاوية من خلاف ، وما امتدّ بينهما و بين أنصارهما من جدل . و إذا ثبت أن لعلىّ هذا القدر من الخطب المجموع فى نهج البلاغة ، فإن لمعاوية نصفه أو ربعه ولأنصارهما قريب من ذلك ، فهذان العصران هما اللذان يتشابهان ، فأما ما عداهما فإننا لم نجد للخطابة دولة كدولتها فيهما لا فى جاهلية ولا إسلام .

خطبة لسعد زغلول باشا

خطبها بمجلس النوّاب فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٢٤ م يعرض فيها على النوّاب استقالة الوزارة « وهو رئيسها » احتجاجاً على تصريح الحكومة الإنجليزية بأنها لن تترك السودان أبداً .

قال سعد باشا من هذه الخطبة : إنى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضرتكم الموقرة ، أصرح بأن الأُمة المصرية لاتتنازل عن السودان ماحَيِيَتْ وعاشت « استحسان و تصفيق طويل » .

فهى تسعى للتمسك بحقها ضد كلّ غاصب ، وضدّ كلّ معتد ، وتتمسك بهذا الحقّ فى كلّ فرصة ، وفى كلّ زمان ، تسعى بكلّ طريق مشروع سلكه كلّ مهضوم

الحق لأجل أن تحفظ هذا الحقّ ، وتصل إلى التمتع به ، وإن كنّا فى حياتنا لا نصل إلى أن نتمتع بحقنا ، فإننا نوصى أبناءنا وذريتنا أن يتمسكوا به ، ولا يُفرّطوا فيه قِيد شعرة . وهكذا يوصون أبناءهم ، وأبناء أبنائهم ، ولا بدّ أن يأتى يوم يفوز فيه حقنا على باطل غيرنا « تصفيق » .

إن حقوق الأمم لا تضيع ولا تتأثر بمجرد أن يقول الغاصب : إنى أريد أن أتمتع بها دون أصحابها . كلا ! ليست هذه طبيعة الوجود ، بل كلّ حقّ يبقى حيًّا ولا يموت ، مادام وراءه مطالب ، ونحن مادمنا مطالبين بهذا الحقّ ، وما دمنا نوصى أبناءنا بالتمسك به ، وما دام أبناؤنا يقتفون خطواتنا ، فلا بدّ أن نتمتع به نحن أو هم إن شاء الله تعالى « تصفيق » .

نعم ، أيها السادة ، لا يمكننا مطلقاً أن نتنازل عن السودان ، لا لأنه مستعمر ، بل لأنه جزء من كياننا ، بل لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه لا يمكن مصر أن تعيش بدون السودان « تصفيق » .

نعم ، إننا كنّا أجبرنا بالقوّة والقهر على أن نتنازل عن قسم منه ، فانسحبنا منه كَرْها وبالرغم منا ، ولكن استعدناه بعد ذلك بالنفيس من أموالنا ، والعزيز من دماء أبنائنا ، وبعد أن استعدناه صرفنا عليه مبالغ طائلة ، ولا نزال نصرف عليه ، ولا تزال قوة منا مؤلفة من عدد عديد من أبنائنا ، ترابط فيه لحفظه وحمايته « تصفيق » .

فلا يمكننا مطلقاً ، وهذه حالتنا بالنسبة للسودان : أموال بذلناها ، ودماء سفكناها ، ومتاعب تحملناها ، وتحملها مِنْ قبلنا آباؤنا ، وحياة نستمدّها من ذلك النهر الذى يتدفق من أعالى السودان ، لا يمكننا بحال من الأحوال إلا إذا كنّا قومًا أمواتاً ، لا يمكننا أن نترك ذرّة من السودان لغيرنا « تصفيق مستمرّ واستحسان » .

نعم ، إننا ضعاف ، ولا تجريدة عندنا ، ولا أسطول لنا . أقول هذا لأنه حقّ ، ولأنه غير خاف . نعم ، إننا ضعاف ، ولكننا أقوياء بضعفنا ، أقوياء بحقنا ، إن الضعف سلاح قوىّ إذا كان معه الحقّ ، فنحن وإن كنا ضعافاً فإن الحقّ معنا ، والحق تخضع له كلّ قوّة مهما كانت جبارة قاهرة « تصفيق » .

وهى طويلة اكتفينا منها بهذا .

خطبة أخرى

خطبها بالإسكندرية بعد قطع المفاوضات مع رئيس الوزارة الإنجليزية فى شأن المعاهدة المصرية الإنجليزية :

نعم ، لم تتحقق أمانى البلاد فى هذه المرّة ، ولكن ما شعرتُ به من اتحادكم ، وما أحسسته من حرارة حماستكم ، وما علمت به من تصميمكم على أن تصلوا إلى حقكم ، يشجعنى على أن أسير معكم إلى النهاية « هتاف شديد متوال » .

ومن ذا الذى لا يتشجع بهذه العزائم المنعقدة ؟ بهذه الأصوات المرتفعة من أعماق القلوب ؟ بهذه الحماسة المتأججة فى الصدور ؟ لما سميتموه سعياً كريماً ، ذلك السعى الذى لم يتكلل بالنجاح ، نعم ، عزائم تحملنى على أن أستميت فى الحصول على استقلالنا .

ومنها : قطعت المحادثات وعدت إليكم حافظاً كلّ حقوقنا ، فاستقبلتمونى هذا الاستقبال الباهر ، إننا لم نخسر شيئاً ، بل كسبنا أن واجهناهم بحقوقنا وأدلّتنا عليها ، وإنهم يأبونها علينا بغير حجة ولا دليل ، وأننا لا نعتمد إلا على أنفسنا . فالواجب علينا مضاعفة جهودنا ، وتمتين اتحادنا ، وأن نتشدّد فى التمسك بحقوقنا ، وألا ندع فرصة تمرّ إلا طالبنا فيها بحقوقنا ، فما مات حقّ وراءه مطالب .

⁂

خطبة أخرى له فى بيت الأمة على ملأ من طلبة الأزهر عند ابتداء دراستهم فى أول سبتمبر سنة ١٩٢١ م .

أبنائى البررة :

أشكركم والحزن يملأ قلبى على وجود القوّة العسكرية التى جاءت لتطاردكم وهى مؤلفة من أبنائنا ، الذين أعددناهم للدفاع ضدّ أعدائنا ، فاستعملتهم الوزارة للحيلولة بيننا و بين إخواننا ، وللضغط على الأمانى التى تدور فى صدوركم ، والشعور الذى يملأ قلوبكم نحو استقلالكم ، ولكن هذه الأعمال التي تقوم بها الوزارة لإطفاء تلك الروح فى نفوسكم ، لا يمكن أن تزيدها إلا قوّة ونماء . إنهم يرتكبون كلّ هذه الأعمال و ينكرونها . ولقد طلبت من ضابط تلك القوة التى جاءت لتطاردكم كتابة تدلّ على حضورهم لمنزلى ، ومنعكم من الوصول إلىّ ، فلم يستطع أن يجيب هذا الطلب ، لأنهم يقترفون الآثام ، و يحبون أن تبقى مستورة زماناً طويلاً ، فسوف يأتى يوم يحاسبون على ارتكابها حساباً عظيما .

إنهم يوجهون كلّ مساعيهم ليحملوا الناس على سحب الثقة منا ، ولكنها أعمال أطفال لا تؤثر شيئاً . و إنى واثق كلّ الثقة بأن الذين يمضون بسحب هذه الثقة قلوبهم مملوءة بالإخلاص لنا ، والثقة بنا ، وسيأتى يوم يظهر فيه هذا الإخلاص فى أكبر مظاهره ، و يكون أصحاب الإمضاءات شهوداً على أولئك الضالين .

إننا لا نتعاقد باسم الأمة على هبة أو رهن أو بيع ، ولكننا نصيح باستقلالكم ، ونسعى إليه جهدنا ، ونطالب به فى كلّ موطن ، فلا يمكن سحب الثقة منّا إلا فى إحدى حالين : فى حالة ما إذا عدلت الأمة عن استقلالها ، ورغبت فى تأييد الحماية عليها ، وهذا ما أعيذ الأمة أن تفعله أو تميل إليه مهما تقلبت الأحوال

وتغيرت الظروف . وحالة ما إذا قصرت أنا وإخوانى فى السعى لهذا الاستقلال ، ورغبت عنه إلى الحماية . هنالك لايحق للأمة أن تسحب منى ثقتها ، بل يحقّ لها أن تقضى علىّ بالإعدام ، ويكون قضاؤها عادلا .

الخطب الانتخابية

وهذا مثال من أمثلة الخطب الانتخابية ألقاه حضرة صاحب السعادة «محمود فهمى النقراشى باشا » بالإسكندرية تأييداً للأستاذ ممدوح رياض مرشح « الهيئة السعدية » فى دائرة المنشية يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٣٨ م . وهو مع وجازته يمثل ما يكون فى هذه الخطب عادة من أساليب التأثير .

إخوانى : يروى أن رئيساً للوزارة الإنجليزية فى أواخر القرن الماضى — وكان من اللوردات الذين لم يكثروا من الاختلاط بالشعب عقد مجلس وزرائه مرة من المرات ليبحث فى موقف وزارته ، وقد هبت على الوزارة رياح شديدة ، فقال له أكبر زملائه: « إن جميع البلاد تعرف أن الوزارة مستقيلة ما عدا رئيسها » ، ففى الحال قدم الوزير استقالته .

أما مصطفى النحاس باشا — أيها السادة — فإنه لما ساءت سيرته فى الحكم ، وصار يزجّ بوزارته من أزمة إلى أزمة ، اقتنع كلّ عامل فى البلد أنه لا يمكن أن يتصوّر أن النحاس باشا يستمرّ باقياً فى الحكم . ولكن لاهو أحسّ بذلك ، ولا أكبر وزرائه أحسّ بذلك ، بل كان يروى عنه أنه لن يستقيل ، وإذا أقيل فإنه لايقبل الإقالة ... « سخرية واستهزاء » .

وقد أقيل فعلا وقابل الناس خروجه من الحكم بارتياح ، وجاءت الانتخابات ، وظهر الرأى العام واضحاً جليًّا ، فجاء إلينا فى الإسكندرية ، جاءها أمس يقول لنا : إن

البلاد وخصوصاً الإسكندرية مازالت تؤيده «أصوات : كذب ، كذب، كذب وافتراء».

يقول هذا فى وقت تعرفون حضراتكم ويعرف حضرات الناخبين أصحاب الشأن ، بل يعرف مرشحو النحاس باشا أنفسهم أنه لن ينجح نحاسى فى الإسكندرية « هتاف : يحيا النقراشى باشا ، تحيا الهيئة السعدية ، يحيا مرشحو الهيئة السعدية فى البرلمان » .

أقول لكم يا إخوانى وأكرّر القول بحسب ما رأيت فى جميع دوائر الإسكندرية ، نعم بحسب ما رأيته فيها ، وأنا أتكلم عن خبرة وعن علم بالإسكندرية وأهلها ، وبناء على الوقائع التى لمستها : إن جميع مرشحى النحاس باشا فى الإسكندرية ساقطون ، ساقطون إن شاء الله .

والغريب يا إخوانى فى أمر الانتخابات فى هذه المرّة حسب مشاهدتى السابقة فى الإسكندرية وما أراه فيها اليوم أن فرقاً كبيراً ظاهراً محسوسًا بينها وبين الانتخابات الماضية ، فقد كنا نرى فى الماضى خلال الحفلات الانتخابية أن الحديث فيها يتناول المرشح والمنافس ، ولعلّ هذا هو أهمّ العوامل التى تدعو إلى إقامة هذه الحفلات ، فهل تستطيعون أن تفسروا لى معنى عدم ذكر اسم المنافس لا على لسان خطيب ولا على لسان هاتف ، حتى كأن ليس فى الدائرة منافس آخر ، ما سرّ ذلك ؟ « أصوات : لأنه نكرة ، لا يستحقّ الذكر ، الضرب فى الميت حرام يا باشا » .

اجتماع كبير فى وسط المدينة والمرشح له منافس هو رجل كان نائباً مرتين عن الإسكندرية هذه ، ومع ذلك لم يحاول أحد الخطباء أن يتناوله لأنه أحسّ أنه فى غير حاجة لأن يتناوله بأىّ كلمة ؛ لم نحسّ بأن له نصيراً لأنه من النواب الذين اكتفوا بأن يكونوا مخلصين للزعامة المقدسة ، ولكن الزعامة المقدسة أفلست فأصبحوا هم مفلسين أيضاً « هتاف ، لا قيامة لهم بعد اليوم » .

كنا ننتظر من النحاس باشا وقد جاء الإسكندرية بعد غيبة طويلة ، وقد مضى

على إقصائه عن الحكم نحو ثلاثة أشهر أن يحدثنا عن أثر أعمال وزارته فى نفسه ، كنا نودّ أن يقول لنا ما رأيه فى الأقمصة الزرق ، هل زادته قوّة أو زادت نكبته ؟ كنا ننتظر أن يفسر وجه المصلحة العامة فى التعديلات التى أدخلها على قوانين الامتحانات فى الجامعة وبدون أخذ رأى مجلس الجامعة .

كنا نودّ أن نعرف كيف ساغ له أن يمتنع عن مصارحة مجلس الوزراء عند ماعرض عليه مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان بأن أحد الوزيرين اللذين قدما للمجلس مذكرة باعطاء المشروع إلى شركة إنجليزية ـ كان يتقاضى مالا وإتعاباً من هذه الشركة .

لم يتناول النحاس باشا شيئاً من هذا ياسادة . واكتفى بوصف الحفلة التى أقيمت له والتفاف الناس حوله .

ونحن لا نناقشه قوله الآن فيوم الفصل ليس ببعيد . أربعة أيام فقط ثم يتلقى منكم الرد البليغ .

الواقع يا إخوانى أن البلاد ليست فى حاجة إلى وزراء تقاس قوّتهم بعدد المصابيح التى تحطم . ولا وزراء تقاس قوتهم بمقدار ما يحدثه صبية الشوارع من الشغب ، وإذا كنتم أنتم ترون أنكم فى حاجة إلى وزراء من هؤلاء فعندكم الأستاذ الطويل .

إنما حاجة البلاد إلى وزراء يتفرغون لأعمال الدولة ويقدمون المصلحة العامة ، فأنتم بإسقاطكم مرشحى النحاس باشا تعطون درساً لكلّ من يتولى الحكم بأن يكون دائما فى جانب الحقّ والعدل وإلا أسقطتموه .

لن أتكلم كثيراً أيها السادة عن ممدوح بك ، فإنكم تعرفون عنه الشىء الكثير ، وهو غنىّ بماضيه المجيد ، غنىّ بوطنيته الفياضة ، غنىّ بنشاطه الدائب المستمرّ ، غنىّ بأعمال أسرته الكريمة ، غنىّ بتربيته العالية وثقافته الممتازة ، غنىّ بكلّ الصفات

التى تشرّف الرجل ، ولـكن عند ما يكتب لهذه الحركة الفتية الفوز وتثمر لخير البلاد تعرفون أن ممدوح بك كان أقوى دعائم الحركة الإصلاحية .

كان دائمـا قوىّ الإيمـان بانتصار الحقّ ، دائب العمل وكنا نطمئن إلي حكمه وتقديره ، وستعرفون إن شاء الله مقدار الجهد العظيم الذى يبذله فى تدعيم هذه الحركة الإصلاحية الرشيدة التى ترجو البلاد منها كلّ خير .

سادتى : إننا عاجزون عن شكركم ، مقدرون كريم شعوركم ، وكلما ازددتم تأييداً لنا ، شعرنا بعظم المسئولية التى تلقونها على أعناقنا ، وليس لنا إلا أن نسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه رضاكم ومصلحة البلاد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الـكتابة فى العصر الحاضر

يشمل كلامنا عن الـكتابة فى هذا العصر أقساماً ثلاثة هى كتابة الدواوين وكتابة الرسائل وكتابة التأليف ، وذلك شأنها فى كل العصور ، ولـكل كتابة مميزات وصفات تختلف عن قسيميها .

كتابة الدواوين

كانت لغة الدواوين فى العصر المـاضى ، وأوائل هذا العصر هى التركية فى مصر والشام والقسطنطينية عاصمة الحـكومة التركية العثمانية ، وهى أوالفارسية فى أغلب ممـالك الإسلام .

وقد ظلت كما كانت فى كل هذه البلاد إلا فى مصر ، فإنها بعد قليل من حكم محمد علىّ باشا صارت العربية هى اللغة الرسمية للحكومة. لـكن العربية التى استعان بها القوم

فى كتابة الدواوين كانت عربية سقيمة واهنة ركيكة ، بل أنت حقيق أن تقول إنها لاتمتُّ إلى العربية بنسب إلا فى ألفاظها وصور حروفها ، فأما الأسلوب ودلالة التراكيب ، فذلك مالاصلة له بالعربية ، وهانحن أولاء نردّد الطرف فى بعض أوامر الحكومة ومنشورات مصالحها نحاول أن نفهم منها مراداً ، أو نضع أيدينا على قصد ، فلا نستطيع ذلك . وكأنما نقرأ لغة فارسية أو تركية كتبت بحروف عربية ، ولسنا ندرى كيف اعتاد أهل هذا الجيل فهم هذا القول ولا على أى قاعدة كانوا يخرجون تلك التراكيب !! ولكن النقص شمل الجميع ، فحفظوا صوراً ، وتواضعوا على مدلولاتها ثم جعلوا يرددونها فى كل مايكتبون فتؤدى إليهم ما اصطلحوا عليه مما لايرجع إلى أصل فى دلالات اللغة الصحيحة .

وكم يلذّ للمستطلع أن يقرأ فى لغة الدواوين إذ ذاك !! ليطول عجبه من تنكر اللغة لأهلها ، وتوغلها فى الإبهام ، على كلّ سليم الفطرة فيها . وياليتهم كتبوا بالعامية وهى القدر المشترك بين الجهلاء والعلماء ، واللكن والفصحاء ، إذاً لأبانوا عن الغرض وأدّوا المراد . ولكنهم أبوا إلا أن يعربوا فأعجموا وأَنِفُوا أن يكونوا مفصحين فى العامية فصاروا معجمين فى العربية .

ولقد ظلت هذه الحال أمداً طويلا غير متأثرة بما جرى فى لغة الأدب والعلم من تقدم ، ذلك لأن المتعلمين لقلتهم كان يضن بهم على العمل فى الدواوين ، وعمال الدواوين يصيرون إليها بغير مؤهلات إلا تلمذتهم لمتقدمى الكتاب فيها ، حتى إذا شذا الصبىُّ منهم صار له فى كتابة الديوان عمل .

وقد ظلت أعمال الدواوين حيناً طويلا من الدهر فى أيدى الأقباط يتوارثونها ، والغالب عليهم أن ينشأ الولد فى عمل أبيه فيقرّ عليه بعده .

لذلك نرى أنه قد تنبهت الأفكار ، ورَهُفَتْ الأقلام ، وفَصُحَت الألسن ، وحرِّرت الصحف اليومية والمجلات الأدبية ، وكتابة الدواوين لم تتزحزح عما كانت

عليه فى أوائل العصر ، لأنه لم يكن قدخلق الله بعدُ من يتولى من الأدباء عمل الديوان ، فيزيح كابوس هذه العجمة . حتى شاء الله فى أيام إسماعيل باشا أن يتقلب أديب معروف ، وشاعر فحل من أهل هذا العصر فى أعمال تلك الدواوين ، وهو المرحوم عبد الله فكرى باشا ، فانتبه إلى عيبها ، وأصلح ماقدر عليه من ركاكتها ، ولكن عمله لم يظهر لكثرة الفساد ، ولعدم استعداد العمال بالدواوين إلى فهم مايوحى به إليهم ، فظلوا على الأمة التى وجدوا عليها آباءهم .

ومازال العصر يتقدّم والتعليم يكثر حتى توافر من حملة الشهادات من زاد على حاجة الأعمال الفنية ، واتسعت الأعمال الكتابية فى الدواوين ، فصار إليها هؤلاء . فأوّل مابدا من التقدّم ، وظهر من الفرق بين القديم والحديث هو الخط ، فإنه فى أقلام هؤلاء الأحداث يجرى على قاعدة الرقعة المتقنة المهذبة ، وبقيت الغلبة للأساليب الركيكة حتى كثر حلول هؤلاء محل الطبقة القديمة ، وكان منهم رؤساء يستطيعون أن يحملوا مرءوسيهم على إرادتهم ، ثم كانت محاولات أخرى تعمد فيها نظار الدواوين أن يؤثروا تأثيراً حسناً فى لغتها ، كما فعل المرحوم سعد زغلول باشا حين ولى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الإشراف على لغة الكتبة بنظارة المعارف يوم كان ناظراً عليها ، فلما انتقل إلى الحقانية استصحبه معه لمثل هذا العمل ، فكان لذلك أثر عظيم فى تقدم لغة الكتابة بهاتين النظارتين قبل غيرهما .

وقد أعان على ذلك تعلقهما بأرقى طبقات المتعلمين ذوى الاتصال بالآداب من معلمين وقضاة ، فكان للغة هؤلاء عدوى تسرى إلى الكتبة فشاع التهذيب فيهما .

وكان آخر مصالح الحكومة قبولاً لأثر العصر فى رقىّ لغة الكتابة مصلحتا السكة الحديدية والبريد ووزارة المالية لما يغلب فيها من العنصر القبطى ، وهو بلا شكّ أقلّ استعداداً لقبول ملكة البلاغة من المسلمين الذين تلين ألسنتهم ، وتتربى ملكاتهم بحفظ القرآن ، والنشأة العربية فى الأزهر ومايجرى مجراه .

وممن يذكرون بالشكر فى هذا المقام لظهور حدبه على العربية ورغبته فى إنعاشها واطراد تقدمها حضرة صاحب المعالى المرحوم أحمد عبدالوهاب باشا وزير المالية، فإنه منذ كان وكيلا لهـا ، واتفق أن زاد عدد المتخرجين فى دار العلوم على حاجة التعليم ، عمل حفظه الله بمـا فيه من حمية للغة وإعزاز لجانبها على الإكثار من هذا العنصر بين كتبة وزارته وغيرها ، راجياً من وراء ذلك أن يقضى على الركة والعجمة التى كانت لاتزال عالقة بكتابتها ، فجزاه الله عن العربية خير الجزاء .

كذلك الأستاذ الفاضل ، والأديب البارع ، الشيخ عبد الله عفيفى بك قد ارتقى بالأسلوب العربى فيما يصدر عن ديوان جلالة مليكنا المعظم ، منذ عين المحرّر العربىّ للديوان ، ولا ننسى تلك القطع الأدبية العالية التى كان يطالعنا بها يومًا فيومًا فى وصف رحلة جلالة المرحوم الملك فؤاد بالصعيد فإنها كانت كقطع الرياض يتلقفها الأدباء ، كما كان القدماء يتلقفون توقيعات يحيى وجعفر البرمكيين فى صدر الدولة العباسية .

أما رسوم البدء والختام ، وما كان يراعى فى الكتابة من براعة الاستهلال والسجع، وتعمد الطول أو القصر ، وفروق الألقاب وتعدّدها ، فقد هجر كل ذلك حتى لاترى منه فى كتابة دواويننا عينا ولا أثراً ، بل لاتجد من كتّابها من يحاول ذلك أو يعرف شيئاً من تفصيله .

والوصف العام الذى صارت إليه كتابة دواويننا هو إهمال السجع ، وكل محسن لفظى ، واعتماد المساواة بين الغرض واللفظ ، لايسمح فى العبارة بترادف ولا تكرار ، بل إن الإيجاز هو المعوّل عليه ، فلا يمهد للردّ بذكر معنى الرسالة المجاب عنها ، بل يكتفى بالإشارة إلى رقمها وتاريخها اجتناباً للطول ، ولجوءًا إلى القصد ، وهم لذلك يبدءون بالغرض ينصبّ عليه الكاتب انصباباً بعد كتابة اسم المرسل إليه ، أو وصف منصبه كمدير مصلحة كذا ، أو ناظر مدرسة كذا مسبوقاً بلقبه الرسمى ، وهو فى غاية الاختصار ، وهذه صور الألقاب :

حضرة صاحب الجلالة الملك	لمليك البلاد
« « السمو الملكى الأمير	لولىّ عهد الدولة المصرية
« « «	لأمراء البيت المالك
« « المجد	لنبلاء « «
« « المقام الرفيع	لمن يحمل قلادة فؤاد الأول
« « الدولة	لرئيس الوزارة
« « المعالى	للوزير إن كان حائزاً لرتبة المتمايز مع لقب باشا .
« « السعادة	للباشا
« « العزّة	للبك
« المحترم	لمن دون ذلك مع لقب افندى إن كان لابس طربوش، ولقب شيخ للابس العمامة .
« صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	لشيخ الجامع الأزهر والمعاهد الدينية .
« « «	للعالم الدينى

وللألقاب بقية على هذا النحو لانطيل بذكرها ، والفضل فى وضع أغلبها راجع إلى المرحوم أحمد زكى باشا ، فإنه حين كان أمين سرّ لمجلس الوزراء وخرجت مصر من التبعية التركية وكل إليه تعريب تلك الألقاب .

وفى الختام يقال : وتفضلوا بقبول الاحترام ، وقد اتبعت إدارة المعاهد الدينية أن تكتب فى الختام : والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، إحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبه .

نماذج من كتابة الدواوين

ندع التمثيل بلغة كتاب المالية ، والسكة الحديدية ، والبريد ، فإنها فى العهد القديم لا سبيل إلى فهمها ، بل ليس من العائشين بيننا اليوم من يفسر لنا مراميها . ونكتفى بإيراد أمثلة مما صدر بعابدين أيام الخديو توفيق ، ولا شكّ أن لغة هذا الديوان لغة منتقاة ، وكتابها هم خيار كتاب الحكومة ، ولكنها مع ذلك ظاهرة الركاكة ، كثيرة الخطأ على قرب أيامها منّا ، فمن ذلك :

١ — أمر كريم صادر بتاريخ ٢٩ جمادى سنة ١٢٩٧ هـ ، الموافق ٧ يونيه سنة ١٨٨٠ م ، وهذا نصه :

قد علم لدينا من الإنهى الذى تقدّم لطرفنا من عبد الله سليمان ، ومن مكاتبتكم الواردة لمعيتنا أن الشخص المذكور كان مستخدمًا من ضمن أسطوات الجبه خانة الترك ، وفى أثنى خدامته تعين لتوصيل مركب البارود خانة بالبارود مشحونها إلى جبه خانة العدوية ، وعند الوصول إليها خرج من المركب وتركها ، فأصابها الحريق بمشحونها ، وقد نسب له الإهمال والتساهل فى ذلك ، وحكم عليه فى مجلس عسكرى بطرده من الخدامات بموجب مضبطة رقم ١٤ ش سنة ١٢٨٩ هـ نمرة ١٣ وصدر عليها أمر التنفيذ ولمضىّ مدّة سنين عليه وهو محرومًا (كذا) من الخدامة يسترحم العفو عنه ، وحيث إن هذا الالتماس قورن بمساعدتنا ، فاقتضت إرادتنا العفو عن عبد الله سليمان المذكور ، وأصدرنا أمرنا هذا لكم بذلك لإجرى إيجابه .

٢ — وهذه صورة لأمر كريم بتبليغ الأقطار السودانية تولية الخديو توفيق باشا عرش مصر ، وهذا النوع هو الذى كان يسمى قديمًا كتابة الإنشاء التى كان يتولاّها فحول الكتاب ، فانظر كيف تبدّل بها الحال ، وهذه صورة الأمر الكريم ، وقد صدر فى إبريل سنة ١٨٨٠ هـ .

من خديو الأقطار المصرية ، وما والاها من الأقاليم السودانية ، والدار فورية ، ومدينة هرر وزيلع و بر بره و بلحار وتجره والسومال و إيحالا وما يتبع ذلك من سواحل إفريقية الغربية ، إلى الجناب المعظم المبجل ، والملك الأفضل الأعدل ، الإمام الهمام ، والمحفوف بعناية الملك العلام ، الإمام أحمد ملك الأقاليم « وللو » حرسه الله ، وزاد مجده وعلاه .

أما بعد ، فإن الله جلت قدرته أراد ، ولا مانع لما أعطى ولا راد ، أن تكون حكومة مصر بملحقاتها المعلومة فىّ وفى نسلى ، وهذا من فضل ربى ، لا من فضلى ، فأعتقد أن العدل بين الناس ، هو لمبانى الحكم خيرأساس . فلذا التزمت الرفق والعدل ، والإحسان وحسن المعاملة ، مع الجميع باللطف والمجاملة ، فنسأل الله أن يرزقنا الفلاح ، ويوفقنا لما فيه الخير والإصلاح .

ومن حيث المعلوم لجنابكم السامى ، ومقامكم الرفيع النامى ، أن حكومتنا الخديوية ، وحكومتكم البهية، تجمعنا جميعاً كلمة التوحيد ، فلهذا يكون الأمر السديد ، ازدياد حسن العلاقة والوداد ، و إحكام الألفة والاتحاد ، سيما وحضرتكم الجار الأكرم ، فالأولى أن يكون لنا من ودكم النصيب الأعظم ، إذ جلّ مقصودنا استمرار هذه العلاقة على أحسن أسلوب ، فوق المأمول والمطلوب ، بحيث لا يعتريها نقص ولا إخلال ، بحال من الأحوال .

⁂

ولغة هذا الديوان هى التى صارت فى العهد الأخير بعناية جلالة المرحوم الملك « أحمد فؤاد » ، وفى ظل وريثه الملك الشاب الصالح « فاروق الأول » الذى ملأ الله جوانحه غيرة على الدّين ولغته ، قشيبة الثوب ، نقية الديباجة .

كتب الأستاذ عبد الله عفيفى بك يسجل فرح الأمة المحتشدة لرؤية المرحوم

جلالة الملك « أحمد فؤاد » أثناء رحلته فى الصعيد إلى خزان نجع حمادى ، يوم الخميس ١٨ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ ، ٩ فبراير سنة ١٩٢٨ م :

« أسفر صبح ذلك اليوم عن وجه مشرق الطلعة وضاح الجبين ، وألقت الشمس على قسمات الكون ديباجة من الحسن يأخذ سناها بالأبصار ، وتمشّى الزَّهْو فى كلّ ناجم من الزهر ، وساجع من الطير ، وخفّاق من الهواء ، ورقراق من الماء ، فلا ترى بين السماء والأرض إلا زاهياً بسّاما ، والأرض مما يلى القاهرة إلى ضاحية القناطر الحمادية تختال فى حلى وأوضاح ، ومعالم أفراح . وما رأى الدهر منذ الأزل زينة موصولة الحلقات ، يأخذ بعضها بحجزات بعض ، إلى مدى سبعين وخمسمائة كيلومتر ، فلا يهن لها عَقْد ، ولا ينفصم لها إيصال ، فى بسائط الأرض ومشارفها ، وفوق وجوه الديار ومعاطفها ، و بين مظاهر الطريق ومكامنه ، وعلى حِفافى النيل وسفائنه ، عقود مفصلة بكلّ سمات الجمال ، وآيات الاستقبال .

أما الرعية المتأججة بنار الشوق إلى نور المليك ، فإذا رأيتها صُرِفْتَ عن الطبيعة ونشوتها ، والزّينة وجلوتها ، هنالك البحر المزبد المتدفع على جنبات الطريق ، وكلّ شارفة تطلّ عليه ، أو ثنية تفضى إليه .

فمنذ انبثاق الفجر كنت ترى عُدْوتى الوادى تتدفقان بالخلائق نساء ورجالا ، وتترامیان بالحمائل أرسالا وأرتالا ، فلم تبق مدينة ، ولا قرية ، ولا نجع ، ولا مُنْيــة إلا دفعت بأفلاذها إلى طريق الرّكاب ليجتلوا نور الوطن من وجه المليك » .

كتابة التأليف

كانت لغة التأليف مظهراً صادقاً لانحطاط اللغة فى أوائل هذا العصر ، فقد رأينا الجبرتى وهو معدود من جلة العلماء ، لا يتحرج أن يكتب فى تاريخه بالعامية

أو مايدانيها ؛ كذلك كانت الكتب المترجمة ركيكة العبارة لا تستقل بإظهارها يد واحدة ، فالعالم يترجم وعبارته غير صالحة للفهم مالم يتناولها المحرّر بالصقل . ثم هى بعد هذا الصقل واهنة ضعيفة ، وقد احتاج أصحابها إلى عهد إسمعيل باشا أن يخفوا نقصها بالسجع ، فكنت تراه فى عناوين الكتب مثل : « حقائق الأخبار ، فى أوصاف البحار » ، لعلى مبارك باشا ، و « بهجة المطالب فى علم الكواكب» لإسمعيل مصطفى بك ناظر المهندسخانة ، و « الصحة التامة ، والمنحة العامة » لمحمد بدر افندى ، وهكذا كما تراه منبثًّا فى عبارات تلك الكتب المحتملة للسجع مثل التاريخ والجغرافية ونحوهما .

وكان هذا السجع أثراً باقياً من تراث الماضى ، لم يترفع عنه أحد حتى أظهرت المطابع تلك الكتب الأدبية مثل : الأغانى ، والعقد الفريد ، والكامل للمبرّد ، وأمالى القالىّ ، ومقامات البديع ، والحريرى ، وتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلدون ومقدمته ، ونَفْح الطيب ، وكثير من دواوين الشعراء ، ورأوا أن تأثير الأساوب فى أكثرها لا يرجع إلى السجع ، ولا إلى المحسن البديعى ، فقرَّ فى نفوسهم أن الكمال الحق ، فى التركيب ، وحسن السبك ، وارتباط أجزاء الكلام ، كما اتفق أن قيّض الله للعربية نقّاداً عابوا على الناس ماهم متورّطون فيه من السجع ، وكشفوا لهم عن وجوه البلاغة الحقة ، وحملوهم على تتبع أساليب القدماء ، فكان لنقدهم أثر جميل فى نزوع أهل العصر عن تلك اللازمة التى قيدت الكتابة العربية حيناً طويلاً ، وغَضَّتْ من جمالها .

وأول هؤلاء النقاد السيد جمال الدين الأفغانى ، ثم روّج رأيه كثير من الذين آمنوا به كالشيخ محمد عبده ، فكان للاطلاع على أساليب العظماء المتقدمين ، والزراية على السجع من هؤلاء النقاد أثر عظيم فى انطلاق الكتابة من قيودها ، وتعويل الكتاب على القصد إلى المعنى ، وتأديته بأيسر لفظ وأبسطه .

وكان العصر كلما تقدم بالناس رأينا التهذيب يصير إلى لغة المؤلفين من مناح شتى ، فالصحف التى يطالعونها ، والأدب الذى تيسرت لهم كتبه ، وإرشاد المعلمين بالمدارس إلى مواطن الزلل فى الأساليب ، واشتراط وزارة المعارف صحة التعبير ، ورقيه فى كل كتاب يقرر تدريسه بمدارسها ، كل هذه الأسباب أوجبت على المؤلفين أن يكونوا أدباء قبل أن يكونوا مؤلفين ، فظهرت كتب علمية تعد عبارتها نموذجاً حسناً للإنشاء البليغ ، خصوصاً ما كان قريباً إلى الأدب مثل التاريخ ، والجغرافية ، لما فيهما من قَصّ ووصف . أما صحة العبارة ، وخلوها من العامى والدخيل ، وحسن الموافقة قدر المستطاع بين اللفظ العربى ، والمصطلح الأفرنجى ، فذلك شرط أوّل فى قبول الكتاب .

ولقد ارتقت لغة التأليف فى عهدنا الأخير برقىّ اللغة عامة ، فرأينا من نابهى المؤلفين التماساً للفظ الأجزل ، وحرصاً على الأسلوب الأشرف وتأنقا فى الصوغ ، ومراعاة لارتباط المعانى وتلاحم الجمل ، حتى خفى على المتعنت موضع النقد فى كثير من هذه الكتب مهما تجنى . والأمثلة كثيرة : ككتاب حماة الإسلام لمصطفى نجيب بك ، وكالمرأة العربية للشيخ عبد الله عفيفى بك ، وكتاب الجغرافيا الاقتصادية لمحمد حمدى بك عميد كلية التجارة العليا ، وكتب التاريخ التى اشترك فيها أو استقل بها الأستاذ محمد رفعت المراقب المساعد لتعليم البنات بوزارة المعارف ، وكتب الدكتور محمد عبد الحميد بك رئيس مستشفى الملك ، وظاهرتها البينة حسن تهدّى مؤلفها المصطلح العربى الموافق لنظيره الأفرنجى ، وكتب المرحوم الدكتور عبد الحميد أبى هيف بك ناظر مدرسة الحقوق يومًا ما ، ومدير دار الكتب فى آخر حياته ، وغير ذلك كثير لا نطيل بذكره .

نماذج من كتابة التأليف

من كتاب حماة الإسلام تحت عنوان :

تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم

قال فى بيان حالة الأمم قبل الإسلام :

لا يكذب القائل إذا قال : إن الفوضى فى العقول ، والشرائع ، والعوائد ، وكلّ شىء تستقيم به التكاليف قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانت عامة ، وقد وصل الغالون من كل أمة فى أنواع الظلم إلى حدّ قليل أن يسمى بالشقاء والفساد ، واستولى الاضطراب على المدارك ، وثارت الشبهات على العقائد ، فقلبت وضعها ، وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة فى عبادة الأوثان والحجارة ، والمنافسة فى الموءودة ، والسائبة، والتفاخر فى إراقة الدماء ، وتقطيع الأرحام . ودولة الفرس والرومان كانتا متظاهرتين بكل مافيه نَهْك القوى ، وهلاك الأموال ، وظلم الأمم المجاورة ، فضلا عن الترف والسرف الذى بلغ مبلغه ، ووصل أقصى درجات الإفراط . فمهما نظرت رأيت بغياً وحسداً ، وقطعاً للأرحام ، وتنافساً فى الرّدىء ، وإعراضاً عن ذكر الله ، وسلطان القوىّ منحصر فى سلب مابيد الضعفاء ، حتى ضاعت عقيدة الأمن على الأموال والأعراض ، وأصبحت الكرة الأرضية كأنها دار حرب ، والنفوس كلها مشرئبة إلى الأذى والضرر ، فلا تستأنس رشداً ولا خيراً أبداً « نَسُوا ٱللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

⁂

من كتاب المرأة العربية للشيخ عبد الله عفيفى بك تحت عنوان :

حقوق المرأة فى الإسلام

المرأة بين يدى الإسلام قسيمة الرجل ، لها من الحقّ ماله ، وعليها ما عليه ، ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوّة الجلد ، و بسط اليد ، واتساع الحيلة ، فيلى رياستها ، فهو بذلك وليها يحوطها بقوّته ، ويذود عنها بدمه ، و ينفق عليها من كسب يده . فأمّا ماسوى ذلك ، فهما فى السرّاء والبأساء على سواء .

ذلك ما أجمله الله ، وضمّ أطرافه ، وجمع حواشيه بقوله تباركت آيته : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » تلك هى درجة الرّعاية ، والحضانة ، لا يتجاوزها إلى قهر النفس ، وجحود الحقّ ، وفى سبيل تلك التسوية الشاملة ، جعل الله الخبيثات أكفاء للخبيثين ، والطيبات أكفاء للطيبين ، فإذا تمّ للناس أن يكونوا كذلك ، فلا نزاع بين زوجين ، لأن شرّ الخبيثين يدفع بعضه بعضاً ، و يطمس بعضه آثار بعض ، فيكون كلّ على حذر من صاحبه :

فإنى رأيتُ الشرَّ للشرِّ ماحيًا كما خُطَّ فى القرطاس سَطْرٌ على سَطْرِ

قراءة الخرائط

من كتاب حضرة صاحب العزّة محمد حمدى بك عميد كلية التجارة العليا فى كتابه : « الجغرافية التجارية الاقتصادية » .

. . . . فإذا نَظَرْنا صَوْبَ كندا فى خريطة حِرَف العالم المذكورة ، رأينا

أطرافها الشمالية خالية من كلّ الحرف والأعمال بسبب ما يكتنف هذه البقاع من الثلوج المجتمعة ، والجليد الصَّلْد الذى لا تعمل فيه المعاول ، و بسبب إفراط الهواء فى برده بما لايحتمله إنسان ، ولا حيوان ، ولا نبات ، فلا الأرض بمجْدِيَة خيراً ، ولا السماء مؤذنة بالحياة والبقاء ، فإذا نظرنا جنو باً ، وجدنا رمز المصايد من الفلوات الشاسعات التى تكسوها الثلوج أيضاً ، إلا أن جوّها أخفّ وطأة يسيح فيه الثلج ، فى فترات قصيرة جدًّا من السنة يسمح لبعض العشب أن يظهر متناثراً قليلا قليلا ، فيرعاه حيوان الجهات القطبية المدعو بالوَعْل ، و يرتحل من أجله قطعاناً ، قاطعة المسافات الطوال . وللبدو هناك منافع جمة من هذا الحيوان يتخذون منه غذاءهم وكساءهم ، ومعظم حاجاتهم ، فهو لهم كالإبل للعرب .

الكتابة الفنية

الكتابة الفنية التى تمثل فى تصوير العواطف من تهنئة ، أو تعزية ، أو شكر ، أو عتاب أو نحو ذلك ، تكاد تكون معدومة فى أوائل هذا العصر ، إذ كان الناس قد أقفلوا باب الاجتهاد فى التعبير عن تلك المنازع ، وا كتفوا برسائل مرعى ، والعطار .

ونرى أن اللغة العربية كانت تحتضر فى أوائل هذا العهد بمصر ، والشام ، وغيرهما من البلاد الإسلامية التى تتكلم بالعربية ، فهى غير مستطيعة النهوض بسبب من أسباب الإبانة ، ولكن محمد على باشا ، وكان جبّار الإرادة حَمَّلها ما لاتطيق من النهوض بالترجمة والتأليف ، فكان منها ما وصفناه فى حديثنا عن الترجمة والتأليف ، ولم يكن من أَرَبه أن يريدها على تصوير العواطف ، إذ أن هذا من ترف الحياة ، وهو مشغول عنه بسدّ الحاجة ، وتلافى النقص .

نعم ، فى عهد إسمٰعيل فى مصر ، وقبل ذلك بمدّة فى الشام ، بدأت الكتابة

الأدبية الفنية تحيا ، وكان الشام أسبق من مصر لسبقه إياها بالتعليم ، فإن الجاليات الأوربية ، والأمريكية ، نشرت ثقافتها فيه قبل نشرها بمصر ؛ لذلك رأينا الشام يجود علينا بالكتّاب الذين ينشئون عندنا الصحف ، ويذيعون فيها أدبهم ، قبل أن يكون بمصر كثير ممن يقدرون على ذلك ، ولكن قُدِّر لمصر أن تسير قُدُما فى تلك السبيل ، على حين تراجعت الشام ؛ لأن هذه الجاليات كانت تجعل للعربية النصيب الأول فى التعليم ، فتدرس بها جميع مواد العلم : ثم حادت عن ذلك ، وجعلت دراسة العلوم باللغات الأجنبية ، فانحطت العربية فى تلك المدارس ، وهى جلّ ما بالبلاد من معاهد التعليم .

٭٭٭

لما قرأ المصريون التآليف القديمة التى أخرجتها لهم المطابع تكوّنت لهم ملكات، وظهرت فيهم ثقافات ، لأنهم حين أخرجوا هذه الكتب لم يأتوا بها من طراز واحد ، أو نزعة متقاربة ، بل جمعوا بين غالٍ فى القدم بدوىّ العبارة ، وبين حديث لين سهل ، فانطبع فى كلّ ملكة ما تيسر لها من ذلك . فكنت ترى فى الكُتّاب البدوىّ فى شملته ، والعباسى فى انسجامه ورقته ، وبعض التزم السجع مقلداً بديع الزمان ، والحريرى ، وآخرون ارتضوا ترسل ابن خلدون فى مقدمته ، وظهر فى المقتصرين على الأدب العربى لوازمه من الترادف ، والميل إلى التحسين ، وسار على نهج الأوربيين فى التعويل على جانب المعنى ، وإهمال العناية باللفظ مَنْ أكثر النظر فى كتبهم ، وتربى على طريقتهم .

وقد تمثل ذلك فى كتابة الصحف التى ازدحمت فيها الأقلام ، وكانت مظهراً للملكات، فالمويلحيان بديعيّا النزعة ، ومحمد عبده وعلى يوسف خلدونيّا الطريقة ، ومصطفى كامل وأصحاب المقطم أوربيو النمط ، ولا شكّ أن الصحافة كانت مجتلى الكتابة الأدبية

فى كلّ حين ، فإن ما يكتب فيها أحق بوصف الأدب منه بالعلم إذ هو إنشاء فى حثّ على الفضيلة ، أو مقت للرذيلة ، أو دعوة إلى إصلاح ، أو وصف لحادث ، أو شكاية من مظلمة ، وكلّ هذه الخوالج النفسية هى موضوع الكتابة الفنية ، وإذا كانت الملكات الإنشائية إنما تحصل من النظر فى كلام البلغاء ، فقد تمّ فى أيامنا هذه أسباب تلك الملكات لكلّ قارئ فى العربية ، لأنّ ما تخرجه المطابع كلّ يوم من عشرات الصحف ، والمجلات ، وما تنشره على الناس من نفائس الأدب القديم مع تسهيل تناوله بالشرح والضبط ، وما كان من عدوى الغرب لنا فى الغرام بالقصص « الروايات » كل ذلك مع الرخص ، وإمكان الحصول ، جعل نسبة القادرين على الإنشاء كبيرة ، لم يظفر بها عصر من العصور السابقة . كما أن الحرص على الوقت ، وضرورة الإنتاج السريع فى عمل الصحف ، جعل من أدبائنا أمثلة نادرة فى موافاة الملكة ، وكثرة المحصول من الكتابة الفنية . وإنّ أحدهم ليوافينا فى كلّ يوم بالمقال الممتع ، الجزل العبارة ، المتين الأسلوب ، لا يفترّ عن ذلك يوماً فى الأسبوع ، بل فى الشهر ، بل فى العام ، بل فى عهده كله بالعمل فى الصحف ، وقد يكون له فى أيام مقالان أو أكثر إذا تقيد بالكتابة فى صحف أسبوعية ، إلى جانب عمله الأصيل فى صحيفة يومية .

فأين من هذا إنتاج القدماء فى رسائلهم ، ومقاماتهم ، وإن أحد كتابنا اليوم ليجمع مقالاته التى فرّقها فى الصحف فى فترة قصيرة من حياته الكتابية ، فتكون كتاباً ضخماً لو رأيناه فى آثار القدماء لعددنا صاحبه من المكثرين المطبوعين على القول ، وإذا كان مؤرخو الأدب قد عدوا الرسائل القصيرة كتباً ، فاستساغوا أن يقولوا لفلان : مائة كتاب ، وللآخر مائتان ، ولثالث خمسمائة ، فإنا نستطيع أن نثبت لبعض كتّابنا آلاف الكتب على هذا القياس ، ولا أمثل الفرق بين سرعتنا وسرعتهم فى الإنتاج الأدبى إلا بالفرق بين سرعة وسائل نقلهم ونقلنا ، فإذا كانت لهم الناقة المِرْقال ، فإن لنا الطيارة الزّفزافة .

ولسنا نتحدّث إلا عن الكتاب الفحول الذين تدخل آثارهم فى عداد الإنتاج الأدبي وهم كثير . فأما من عداهم ممن كانت هذه السرعة سبباً لهلهلة كلامهم ، والعدول عن التخير لألفاظهم وأساليبهم ، فهم غير داخلين فى حسابنا ، على أن بقاء الأصلح وكثرة التزاحم على العمل فى الصحف ، جعل كتّابها اليوم خياراً من خيار ، فلا نكاد نقع إلا على كل أسلوب تأنّق فيه صاحبه وأفرغ جهده ليرضى قراءه .

وأظهر مثال نذكره لوفرة الإنتاج مع الجزالة فى الزمن المتطاول هو ما يجود به قلم الكاتب الفذّ الأستاذ عباس محمود العقاد ، فإن له من ذلك ما ليس لمعاصر ، على كثرة إنتاج المعاصرين ،وجودةماينتجون .

نماذج من الكتابة الفنية

— ١ —

كتب المرحوم حافظ إبراهيم بك إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يهدى إليه كتاب « البؤساء » :

إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس . وهذا الكتاب ـ أيدك الله ـ قد ألمّ بعيش البائسين ، وحياة اليائسين ، وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه : كتاب «البؤساء» ، وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة:[الرحمةفوق العدل].

وقد عنيتُ بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك (البؤساء) من صلة النسب ، وتصرّفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أزفه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولها التيمن باسمك، والتشرّف بالانتماء إليك ، وثانيها : ارتياح النفس وسرور اليراع ، برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مَهْر الكلام ، ومقدار كدّ الأفهام ، وثالثها : امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية ، بإهداء ماوضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق .

فليتقدّم سيدى إلى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين .

— ٢ —

فردّ عليه الأستاذ الإمام بما يلى :

لو كان بى أن أشكرك لِفَنّ بالغت فى تحسينه ، أو أحمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه ، لكان لقلمى مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، و بسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا .

زففت إلى أهل العربية عَذْراءَ من بنات الحكمة الغربية، سَحَرَتْ قومها، وملكتْ فيهم يومها ، ولا تزال تنبه منهم خامداً وتَهُزُّ فيهم جامداً ، بل لاتنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوِّم من نفوسهم ما أَعْذَرَتْ فيه الأسوة . كلمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى إلى التقاطها رجلا منا فجرّدها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاّها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها ، وزان من معارفها ، حتى ظهرت مُحَبَّبَة إلى القلوب ، رشيقة فى مؤانسة البصائر ، تَهَشُّ للفهم ، وتَبَشُّ للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام ، فما أعجز قلمى عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء ؛

— ٣ —

من كلام جمال الدين الحسينى الأفغانى ، أرسله إلى محمد المويلحى بك ، بمناسبة ظهور كتابه : « حديث عيسى بن هشام » :

حبيبى الفاضل :

تقلبك فى شئون الكمال ، يشرح الصدور الحرجة من حسراتها ، وخوضك فى فنون الآداب ، يريح قلوبًا عَلَّقَتْ بك آمالها ، وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز ، ولك يومئذ التحدِّى ، ولقد تمثلت اللطيفة المُوسَوِيّة فى مصر كرة أخرى . وهذا توفيق

من الله تعالى حتى تكون كلمة الحقّ هى العليا . ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعاً ، ويُصْلحون أمراً ، وكن عوناً للحقّ ولو على نفسك ، ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عُجْبك ، لا نهاية للفضيلة ، ولا حدّ للكمال ، ولا مواقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام .

— ٤ —

من حديث عيسى بن هشام فى وصف زحام الناس بدار المحكمة الشرعية :

« ثم صعدنا فى السلم ، فوجدناه مزدحماً بجملة أناس ، مختلفى الأشكال والأجناس ، يتسابون و يتشاتمون ، و يتلاكمون و يتلاطمون ، ويُبْرقون ويُرْعدون ، وأكثرهم آخذ بعضهم بتلابيب بعض ، يتصادمون بالحيطان ، و يتساقطون على الأرض ، ومازلنا نزاحم على الصعود فى الدَّرَج ، والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج ، حتى منّ الله علينا بالفرج ، و يسّر لنا المخرج ، فى وسط هذا الجمع المتلاصق ، والمأزق المتضايق ، ووصلنا إلى القاعة السفلى ، فوجدنا عندها امرأة حبلى ، تتقلب على الأرض كالثعبان ، وتستشهد بالأهل والجيران ، أن بعلها أنكر حملها ، وحاولنا أن نخطو خطوة إلى الأمام ، فلم نستطع من شدّة الزّحام ، وكيف بالتقدّم فى عباب موج ملتطم ، ومنحدر سيل مرتطم ، من نساء صائحات مولولات ، كأنهنّ قائمات ، فى مأتم على مدافن الأموات ، تقرحت فيه العيون و بحت الأصوات .

— ٥ —

كتب المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، على لسان شخص يعتذر إلى شخص و يستعطفه :

سيدى :

إن فطام الطفل إذا شبّ على الرضاع غاية لا تحتمل ، والسخط على من تعوّد الرضا أنكى من وقوع الأَسَل .

وهأنذا قد تربيت فى مهد جنابكم ، ودَرَجْتُ فى بحبوحة حنانكم ، لم أر منكم إلا قلباً أحنى علىّ من حنايا الضلوع ، وجنباً إن استصرخت لا يطمئن للهجوع ، وعيناً أبصر بحاجتى من زرقاء اليمامة ، وكفاً أجود بالخير من كعب بن مَامة ، ولساناً إذا ذكرتنى كان رَطْباً ، وعزماً إذا جُرِّدَ دونى كان سيفاً عضباً ، وصدراً أرحب من ساحتك الواسعة ، ورحمة إن أسأت كانت إليك شافعة ، وإنى أعيذ السيد من أن يقصد إلى قطع صلتى ، أو يكلفنى احتمال الصبر على خُفْف عِدَتى ، إذ لم أعوَّد قبل ذلك أن أجفى وأبعد ، « وصعب على الإنسان مالم يعود » .

على أنى لا أعلم لى ذنباً سوى أنى مَظْهَرُ إحسانك ، وآية آلائك . إذا تحركتُ فما أنا إلا لسان يتحرك بإطرائك ، وإن نهضتُ فما ينهضنى إلا شكرك ، أو تثاقلت فما يثقلنى إلا برك ، ما لبست ثيابى إلا على نعمة لك مجسمة ، ولا أدرك بصرى إلا مكارم تلك المرحمة ، فلتقبل شفاعة أريحتك ، ولتجب داعى مروءتك ، واجعل من بسطة نفسك بسطة لكفك ، واتخذ من نفسك شفيعاً إليك .

— ٦ —

تهنئـــــة بالعام الجديد

من كلام إبراهيم المويلحى بك ، صدّر به عدد صحيفته مصباح الشرق فى يوم ٦ من المحرّم سنة ١٣١٦ ﻫ يهنئ السلطان عبد الحميد :

عام	يفى	بالفخر	للإسلام
١١١	١٠٠	٩١٣	١٩٢

١٣١٦

هَلَّ العام الجديد ونون النصر فى جبينه ، والراية العثمانية فى يمينه ، فطلع الهلال على فَرُوق وفروق أسعد منازل الهلال ، وأشرف مطالع الأبهة والجلال ، والخليفة أيده الله فى مواكبها ، أبهى كواكبها ، شمس قدسية الإشراق على الآفاق، تنبعث منها حياة الإسلام ، انبعاث الأشعة على الأعلام .

ولما انصرف العام إلى إخوانه من أعوام الهجرة المحمدية ، وتلا عليها ماجرى من الحسنات ، وبدائع المحسنات ، أضيف إلى صفّ أعوام الخلفاء ذوى الهمم العلية ، والأيادى البيضاء ، ثم حلّ أخوه العام الجديد ، مشرق الطلعة ، مبارك النقيبة على جلالة أمير المؤمنين ، وسلطان العثمانيين جعله الله عليه عاماً سعيد الليالى والأيام ، وقفاه بأمثاله من الأعوام ، لسعادة الإسلام .

الشعر فى العصر الحديث

من سنة ١٢٢٠ هـ إلى الآن

قطع الشعر فى هذه المدّة التى هى زهاء قرن ، ثلاث مراحل تباينت فيها مظاهره ، وما عهدنا مثل ذلك فيما مرّ من تاريخ الأدب العربى ، فإنك لا تكاد تستخلص طوراً للنثر أو الشعر إلا فى ضِعْف هذه المدّة أو ثلاثة أمثالها .

فأما السرّ فى سرعة التتابع فى صور شعرنا الحديث ، فهو أن العصر صادف الشعر لَقًى لاحياة به وجماداً لا روح فيه ثم نفخ فيه بسرعة «شأنه فى كلّ شىء » لأنه عصر البخار والكَهْرَباء والطيران ، فما هو إلا أن صار الشعر قولا مفهوماً بأغراض نبيلة يقبل عليه الناس وينتحله أشرافهم ، ثم إذا به بعد ذلك لسان العصر المسجل لآثاره ، الناقل لحكمته ، النافض غبار القدم ، لينطلق فى أزيائه الحديثة ويحكى محاسن مدنيته الباهرة .

فعلى حين لا نكاد نعثر فى أوائل العصر بشاعر ، لما وقر فى النفوس من أن الشعر

منقصة تغُضّ من شأن الشريف ، وتَصْرِف عن الجدّ فى الأمور ، وتقدح فى تزمّت المتزمت وتشين سمعته ، نراه اليوم بغية كلّ طالب ومرتقى أمل الآمل ، لأن الشاعر قد صار فى أوروبا التى نسير على نهجها قائد الشعور فى الشعوب ، وباعث الرّحمة فى القلوب ، ورسول الحكمة ، وعلاج المادية التى طمّ سيلها وطغى تيارها ، كما صار مجال الخيال الذى يستريح إليه الناس من جدّ الحياة وعناء العمل ، وفيه يجد العاشق تمثال حبيبه فيستريح إليه ، ويلمع برقُ الأمل لمن انقطع به طريقه فيسرى عليه ، وقد احتاجت الأمم أن تتغنى بمجدها ، وترسم للأبناء طريق الفوز فى الحياة بأغانىّ تكون أنشودة الفتى والفتاة ومترنم الشيخ والعجوز ، وصوت الشعب فى أعياده ومجتمعاته ، فكان الشعر كفيل هذه الغاية ، وتبارى الشعراء فى الأناشيد التى تجمع كلّ هذه الأغراض .

⁂

كان الشعراء فى العصر العثمانى على ما وصفنا قد قطعوا الآمال من أمراء الزمان ، ويئسوا من عطائهم ، فلم يكن لهم اتصال بهم إلا قليلا ، لأن الأمراء لايفهمون قول الشعراء ، وهؤلاء يمقتونهم لظلمهم وعدوانهم ، فكانوا فى مصرهم علماء الأزهر الذين حَنَتْ عليهم أركانه وضمتهم جدرانه ، يقولون الشعر لأنفسهم ، أو ينظمون به متونهم ، وإذا مدحوا فلرسول الله ولآل بيته مدائحهم ، وقد توغلوا فى ذلك حتى كان لبعضهم دواوين لاتجمع إلا مدح رسول الله أو آل بيته .

فلما حدث الانقلاب الاجتماعى الأخير بمصر ، وبدأ بدخول الفرَنْسيين كان للأزهر اتصال بالحياة العامة ، وعلاقة بأمر الاجتماع ، فإن نابليون حين ألف الديوان الخصوصى للنظر فى شئون المصريين جعل أعضاءه من أهل الأزهر ، وهل كان يجد إذ ذاك متعلماً من غير الأزهر .

كذلك محمد على باشا كان الأزهر مادته فيما أراد من إصلاح ، فخرج الأزهر عن انقباضه ، واتصل برجال العصر وأمرائه ، فرأينا من شعرائه من مدح محمد علىّ ، وخلد بسالة إبراهيم ، حتى لقد رأينا من إلْف الأمراء للشعر أن اتخذ عباس باشا الأول شاعراً له خاصًّا هو السيد على الدرويش ، وهـذا لاشكّ تقليد لمظهر من مظاهر الأبهة والجلال للحكام ، وإلا فإن عباساً لم يكن بحيث يبعث الشعر أريحيته ، أو يحرك عطفيه ، لأن التركية لسان أدبه ، وليس له من العربية إلا عامية خطابه للمصريين .

لم يفترق الشعر فى هذه المدة « من عهد محمد على إلى مبدأ حكم إسمٰعيل » عنه فى العصر السابق إلا بهذه الظاهرة ، وهى اتصال الشعراء بالحياة ، وقولهم فيما كان الشعر يقال فيه قديمـا من مدح للأمراء ، وتهنئتهم بانتصار ، أوحجّ ، أو زواج ، أو غيرذلك فأما أسلوبه ، وأما وزن معانيه ، وأما أخيلته فلم يتقدم بها العصر ، لأن ما جرى من الإصلاح لم يكن فى قصر مدته ، وانحصار شيوعه يسمح بتغير طريقة التفكير ، أو بالعدول عن أسلوب تأليف الكلام .

بقى للشعر ما كان متورطاً فيه من البديع والصناعيات ، وقد فشا القول فى هذا النوع البديعى الذى قلنا إنه اخترع فى العصر الماضى وهو التاريخ : فشا فيه القول حتى لانرى قصيدة لم تختم به ، وبعض القصائد يكون كلّ بيت منها أو شطرٍ تاريخاً . وقد كثرت العناية به ، ولعلّ لرغبة الأمراء فى تسجيل أعمالهم وضبطها بسنى حدوثها أثراً فى إكثار الشعراء من ذلك . فقد رأينا التواريخ تكتب بالشعر على القبور ، والمنشآت من منازل وسفن ، ويسجل بها ما يكون من قِران أو ختان ، حتى طبع الكتب كان يؤرخ أيضاً .

ومن أمثلة التواريخ ما كتب على قبر إبراهيم باشا : « زينت للقدوم جنة عدن » ١٢٦٤ هـ ، وما سجلت به ولاية عباس الأول : « مصر ازدهت بعزيزها عباس »

١٢٦٥ هـ ، وما قيل فى طبع مقدمة ابن خلدون : « سهم ابن خَلدون بالطبع المنيف علا » ١٢٧٤ هـ ، وهكذا . . . .

وكان أشدّ شعراء هذه الفترة كلفاً بالبديع هو السيد الدرويش ، فإنه يعقد فى ديوانه باباً خاصًّا يسميه باب الصناعيات . وقد جمع فى بيتين يمدح بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية وعشرين تاريخاً لسنة ١٢٤٤ هـ ، والبيتان هما :

خـــير البرايا أحمدُ سَمَالَهُ بيت رُقِيٍّ فى المعالى مَــوْرِدُ

أتـــقى نبيٍّ نُورُ طُهْرٍ عاصم هو خيرأىِّ الرسل بل هوأحمد

وليس الدرويش مع كونه شاعرالأمير بأرقى شعراء عصره ، بل ربما كان أقلهم جودة لشدّة هذا الكلف منه بالصناعيات ، وخيرمنه السيد الخشاب ، والشيخ شهاب الدّين، وصالح مجدى بك ، وقد عرف الخشاب بغزله فى الفرَنْسيين ، وجاد للشيخ شهاب شعره الصوفى ، وامتاز صالح مجدى بوطنياته ، حتى إن له منها ثلاث عشرة قصيدة ، فيحقّ لنا أن نعدّه أسبق من فكر فى الأناشيد الوطنية بين شعراء العربية .

⁂

يجيء عصر إسمٰعيل فنرى للشعر نشاطاً غير نشاطه السابق ، نراه وقد كثر قائلوه ، والتفوا حول صاحب الأريكة العلوية وحاشيته ، وهم مابين مصريين تعلموا فى الأزهر أو نشئوا فى المدارس ، وسوريين لجئوا إلى مصر فراراً من ظلم يقع عليهم فى بلادهم ، وجدب يعانيه الأدب هناك ، إلى تلك الظلال الوريفة من الحرّية ، والمال الكثير الذى يجود به إسمٰعيل .

كان إسمٰعيل يريد الخير لمصر ، فاستهان بالمال فى سبيل ذلك ، ولم يقف به عند وجه من الوجوه ، فكان للأدب منه نصيب ، حتى أعاد للناس سيرة العباسيين فى كرمهم

وكثرة جدواهم على الأدباء . فقد ذكروا أنه أعطى بطرس البستانى ألفاً وخمسمائة جنيه معونة على طبع دائرة المعارف ، وأجرى على السيد جمال الدّين الأفغانى عشرة جنيهات شهريًّا من مال الدولة تقديراً لفضله ، وعوّض على إبراهيم المويلحى خسارته التى خسرها فى التجارة . ولقد دلّ على حبه للأدب باصطفائه شاعرين لخاصته هما : الشيخ على الليثى ، والشيخ على أبو النصر المنفلوطى ، وبعهده بتربية أبنائه إلى الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، وبضمه المغنى المشهور عبده الحمولى إلى حاشيته .

وما كان ذلك من إسمٰعيل محض مظاهرة للأدب ، بل إنه كان على الحقيقة أديباً يفهم العربية تمام الفهم ، ويدرك نادرتها «نكتتها» وإشاراتها ، فهو من أجل ذلك إذا نصر الأدب كان من أسباب نصرته التذاذه وتغذية روحه به .

نشط الأدب فى أيام إسمٰعيل بما اجتمع له من اتساع التعليم ، ونشوء الصحافة ، ونشاط المطابع فى إخراج الكتب المؤلفة والمترجمة ، وإحياء القديم من الآداب العربية وما تمّ من تكوين دار الكتب وإباحتها للناس ، إلى غير ذلك مما لا نستطيع إجماله فى هذا المقام .

كثر الشعر والشعراء فى أيام إسمٰعيل باشا الذى رأى كما رأى خلفاء العباسيين من قبله أن تمام عظمتهم أن يمدحوا بالشعر ، وتسجل مفاخرهم فيه ، ومَن أولى من إسمٰعيل بتسجيل المفاخر وتخليد الآثار ؟ فتسابق الشعراء فى مدحه من جميع الطبقات ، حتى طلبة المدارس كانت المجلات والصحف تنشر لهم محاسن قولهم فى الخديو . وصحيفة الوقائع المصرية نفسها وهى رسمية لنشر الأوامر والمراسيم ، طغى عليها الأدب ، فامتلأت فى الأعياد وغيرها من المناسبات بالشعر الموجه إلى حاكم البلاد الذى تنعقد به الآمال .

ولكن الشعر فى هذا العصر لم يتغير فى معانيه ، ولم يربأ عما كان متورطاً فيه من البديع والصناعة اللفظية ، فلا تزال للتاريخ أهميته فى القصائد .

ومن شعراء عصر إسمٰعيل شاعراه الليثى وأبو النصر ، وعبد الله فكرى باشا ، وعثمان جلال باشا .

⁂

وجاء توفيق بعد إسمٰعيل فكان للأدب منه نصرة وعناية . ولقد تجلى ذلك فى غرامه بالشعر أكثر مما تجلى فى المكافأة عليه ، فقد ذكر عبد الله فكرى باشا أنه جمع للخديو توفيق بأمره أبياتا من الحكم والأمثال وجوامع الكلم لتكون له زينة فى المسامرة ، وعوناً على المطارحة والمحاضرة ، ومرشداً لمحاسن السجايا الفاخرة . وتوفيق هو الذى استنزله الشعر عن غضبه على من حاولوا قلب حكومته ، وما أشدّ الحنق فى هذا الحال . استعطفه عبد الله فكرى بقصيدته التى يقول فى أولها :

كتابى تَوَجَّهْ وِجْهَةَ الساحةِ الكُبْرَى ... وكَبِّرْ إذا وافيتَ واجتنب الكِبْرا

وقف خاشعاً واستوهِبِ الإذنَ والتمس ... قَبولاً وقبِّلْ سُدَّةَ الباب لى عَشْرَا

و بلِّغْ لدى الباب الخديوىّ حاجة ... لذى أمل يرجو له البِشْر والبُشْرى

فما لبث أن صفح عنه وردّ إليه معاشه الذى كان قد قطع عنه . كذلك كانت سيرته مع عبد الله النديم ، فإنه بعد أن جعل لمن يدلّ عليه ألف جنيه عفا عنه لما مثل بين يديه ورأى من أدبه ما يشفع له .

ومن حديث المرحوم أحمد شوقى بك أنه بلغ من عطف توفيق عليه أن أمره ألا يطالب والده بشىء من حاجاته ، وأن يتوجه بها جميعاً إليه . وليس بعد اشتراك مصر فى مؤتمر المستشرقين باستكهلم ، وندب الخديو توفيق عبد الله فكرى باشا لحضوره وإنشاد شعره فيه ، دليل على عناية هذا الخديو بالأدب عامة والشعر خاصة .

وفى عهده وقد نضجت الحياة العلمية ، وآتت المدارس والصحف والمطابع ثمارها ، جرت الحادثة السياسية الكبرى ، وهى الثورة العرابية ، فكانت نتيجة لهذا الانقلاب الفكرى ، والشعور بالكرامة ، والحقوق الوطنية . وقد اندفع فيها المصريون يطالبون بالعدالة ، لأنهم رأوا الأجنبىّ يستبدّ بخيرات البلاد ، ويرتقى فى مناصب الحكم ، ويرأس المصرى الذى هو خير منه كفاية واضطلاعًا بالعبء .

فلما فَشِلت هذه الثورة ، وجرت على البلاد الاحتلال الإنجليزى ، بقى الشعور متأججاً ، كمن يغلب مرة فى صراع ، فهو يتأهب لاشتباك آخر آملا أن يقدَّر له الفوز . وكأن المصريين يرون أنهم لم يخطئوا إلا فى تعجلهم بهذه الثورة قبل استكمال أهبتها ، لذلك جَدُّوا فى حياتهم وأساءوا الظن بالمحتل فراقبوا حركاته ، وعدوا عليه قوله وعمله ، وصار من الوطنية أن يطلب المصرى العِلْم ليصير فى نظر الشعوب المنصفة أهلاً لجلائه والخلاص منه ، وكثرت الرحلة إلى أوروبا لطلب العلوم بها والتحدّث إلى ساستها فى أمر الاحتلال ، ومنذ ذلك الحين كثرت الخلطة بالأوربيين ، والاطلاع على أفكارهم ، وما تكتبه عن مصر صحفهم ، وكان العصر نفسه قد ساعد أيضاً على ذلك لتقدّم وسائل الانتقال ، فبعد أن كانت مصر قبل الثورة فى شبه عزلة عن أوروبا ، وكان أكثر المقروء من كتبها عربيًّا أصلاً أو مترجماً عن اللغات الإفرنجية ، صار المتداول من هذه الكتب فى لغاتها الأصلية أكثر ، لزيادة عدد المتعلمين على الأساليب الحديثة ، ولما اتفق من جعل لغة التعليم هى الإنجليزية فى مدارس الحكومة .

فهذه حالة جديدة جاءت عقيب الثورة تابعة لها من ناحية ، وملابسة من ناحية أخرى ، فاتسعت دائرة الخيال ، وانطلق الفكر من قيوده ، وصارت السياسة غرضاً جديداً من أغراض الشعر .

وكيف لا تكون وقد صارت إذ ذاك موضوع الصحافة ومجال أقلام الكتاب ، لذلك رأينا المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك ، وهو أحد الفحول فى بدء هذا الانقلاب الحديث ،

ولم تكن تقيد حريته وظيفة حكومية ، ولا اتصال بأمير البلاد ، قد صار شاعر الحزب الوطنى ينوح على قتلى دنشواى ، ويندّد بأعمال العميد ، ويصف الظلم على يد الإنجليز الذين يدّعون الإصلاح ، فيقول :

لقد كان فينا الظلمُ فَوْضَى فهذِّبَتْ   حواشيه حتى صار ظُلْماً مُنَظَّمَا

إلى غير ذلك ممـا امتلأ به ديوانه فى جزأيه المطبوعين على نفقة وزارة المعارف أخيراً .

وكان من آثار السياسة مجتمعة إلى التعليم ذلك الاعتزاز بالآثار القديمة واتخاذها برهاناً على مدنية مصر فى قديم عهدها ومثلاً مضروبا للأبناء حتى يجدُّوا فى سبيل المجد ، ويستعيدوا صولة قدمائهم ومكانة أسلافهم ، فكثر من الشعراء القول فى هذا ، وتنبه إلى هذا الغرض أوّلاً المرحوم محمودسامى البارودى باشا ، وزاد فيه المرحوم إسمٰعيل باشا صبرى حتى صار المرحوم أحمد شوقى بك بعد الحرب الكبرى شاعر الأمة ، بل العربية كلها ، فحمل الراية فيه وفى غيره من الأغراض .

وإذا جعلنا الحوادث الكبرى من الثورة العرابية ، ثم الحرب الكبرى مجازاً انتقل عليه الشعر من حال إلى حال ، فإننا لاننسى أن من تلك الحوادث ظهور البارودى ، فإنه قد طفر بالشعر من حضيضه الراكد الآسن إلى ثَبَج بحر خِضَمٍّ تتلاطم أمواجه ، ويَعُبُّ عُبابه ، فرأينا فى شعره جلجلة كلام الأقدمين وقوّة روحهم وأسمعنا على بعد العهد جزالة أبى تمـام ، وصفاء البحترى ، ووصف المتنبى للحروب بل أرانا صورة مجتمعة من قوّة اللفظ ، ووضوح النهج ، وجلال المعانى ممـا عرفه الناس بعد البارودى لفحول الشعراء العباسيين ، فهو — لاريب — حين نشر للناس مطارف شعره ، فخلبهم بهذه المحاسن المجتمعة ، وروى ظمأهم من تلك الجزالة التى تشتاق إليها النفوس فى جدّها ، وتحتاج إليها النهضات فى أوائلها ، دلّ الناس على أسباب ذلك الفضل الذى جمعه لنفسه ، فعرفوا أنها شعر القدماء والإقبال على حفظه ، والعمل على شاكلته ، وساروا فى النهج الذى اختطه البارودى لنفسه ، إذ كان كاشف طريق

الأدب إلى دنياه الجـــديدة ، كما كان « خريستوف كلب » أوّل مهتد إلى قارّة أمريكا .

اجتمعت للنهضة الشعرية إذ ذاك كلّ أسباب الكمال ، فهذه طريقة الملكة العربية قد عبدها البارودى ، وذلك بحر المعانى الخضمّ قد أساله علينا الغرب فى كتبه وصحفه ومعاشرة أبنائه ، وتتبع خياله فى القصص « الروايات » ، ودور الخيالة « السينما » . ولقد شعر شوقى بك بأثر ذلك كما شعرنا به حين رأينا علوّ شعره بعد الحرب الكبرى ، فقد قال : إن مداومتى أثناء اعتقالى بإسبانيا لشهود الخيالة كان لها أثر عظيم فى تقوية خيالى .

وقد صدق فى ذلك أتمّ صدق ، فليس الخيال ما انتقل إلى الشاعر من طريق الشعر فحسب ، ولكن كلّ صورة تحصل فى ذهنه ، فهى مادّة له وثروة فيه ، وما أكثر ما تتتابع تلك الصور فى أشرطة الخيالة مع كونها خيالات شعرية راقية مركبة من ذات نفسها لا تحتاج من الشاعر إلا إلى إنطاقها وإخراجها عن صمتها . على أنها قد نطقت أخـــيراً وأعربت فهى أولى مظاهر مدنيتنا بأن تسمى (مدرسة الشعراء) .

معانى الشعر

إن لكلّ شىء جانبى خير وشرّ ، وطريقى نفع وضرّ ، وهكذا آثار الغرب عندنا : كانت طريق خير بما وسعت من خيالنا ، وأطلقت من أسر تقليدنا ، وما وجهت من أغراض شعرنا ، فجعلته للمعانى السامية : من إكبار الوطن ، والاعتناء بالآثار ، وتمجيد الفضيلة ، وتكريم النبوغ ، والإشادة بعمل الزعماء ، ونقد المجتمع ، وحمل الأغنياء على معونة البائسين ، بتغذية عقولهم بالتعليم ، وإيواء عجزتهم فى الملاجئ

وتطبيب مرضاهم فى المستشفيات ، ثم ما كان من مسهم للشعور بإثارة الغضب على الظالمين ، والدلالة على مقدار جشعهم ، وتصوير أثرهم ، وتمثيل فظاعتهم ، وضرب المثل بمصارع أمثالهم فى قديم التاريخ وحديثه .

فإذا انتقلوا بنا إلى الروض أرونا مقدار حدبهم على ضعيف الزهر ، وعنايتهم بناشىء نجمه ، وصوّروا فى ألوانه معانى العواطف ، ونزعات النفوس ، فهذه زهرة الابتئاس ، وتلك للإيناس ، وهذه مظهر التهريج والفرح ، وتلك للكآبة والترح .

فكان جانب النفع من هذه المعانى أن تناول شعراؤنا كلّ جليل منها ، فصاغوه فى شعرهم غذاء للعقول ، وعلاجًا للنفوس ، ولكن منا من بالغوا فأحالوا فى كثير من قولهم ، وركبوا صوراً لا تتلاءم ، فرأينا من عناوينهم : أحلام الموتى ، ليتنى كنت إلٰهًا ، اللهفة الخالدة ، البسمة الحزينة ، والطفلة الكبيرة ، شدو الآمن الخائف ، الخرافة الصادقة . كما رأينا من أسماء دواوينهم ، وراء الغمام ، الألحان الضائعة ، أنفاس محترقة ، الأعشاب ، الملاح التائه .

لفظ الشعر

أما لفظ الشعر ، فقد جاد وحسن صقله بما كان لإحياء الآداب العربية ، وامتلاء الناس بالمحفوظات من جيد القول ، واحتفال مدرسى المدارس بدروس المطالعة ، وبما وقر فى النفوس من أنه لا سبيل إلى تمام الملكة إلا بحفظ كلام الفحول مما دلهم عليه دراسة تاريخ الأدب العربى ، وما ورد فيه من أن أبا تمام مثلاً كان يحفظ أربعة عشر ألف قصيدة سوى المقطعات ، وما قرءوه فى مقدمة ابن خَلْدون من أن الملكة العربية لا تتمّ لصاحبها بالاطلاع على كلام العرب وحفظه ، وكان فى مختارات البارودى ذات الأجزاء الأربعة الضخام التى جمع فيها محاسن ما قاله ثلاثون شاعراً

من شعراء العصر العباسى الحافل بالجزالة والمعانى ، دلالة على نوع ما ينبغى حفظه ، فأقبل الناس على الأدب يدرسونه ويحفظونه ، ورأوا من آثار ذلك مثلاً حيًّا بعد البارودى ، وهو المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك ، فإنه لم يؤهله للشاعرية إلا كثرة محفوظه.

ورأينا بعد ذلك شعراء فحولاً استعملوا الأساليب القوية ، وعوّلوا على الألفاظ الجزلة ، مما كان يستعمله شعراء العصر الأول العباسى ، حتى لقد رأينا من بالغ فى ذلك ، فتعدّى هذا العصر إلى الجاهلى وقلد فأحكم التقليد لشعرائه ، وذلك هو المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب .

كما كان إلى جانب ذلك شعراء تعجلوا هذه النزلة ، فحاولوا الشعر ، وهم طلاب بالمدارس الابتدائية ، أو فى حكمهم ، ومع أنهم اختاروا الانقطاع إلى الشعر لم يكن منهم سير فى طريق الكمال فيه ، بل وقفوا حيث ابتدءوا ، وعاشوا شعراء ضعافاً فى اللفظ ، فقراء فى الخيال ، واكتفوا من الشعر بأن يناديهم باسمه متملقوهم ، أو الساخرون منهم . وليست هذه الظاهرة غريبة ، فقد كانت فى كلّ عصر من العصور ، كما أنها فى كل نوع من أنواع المحاولات ، فأهل العلوم والفنون والصناعات قدمُنُوا من قديم الزمان بأن يندس بينهم من يدعيها ولا يحسن شيئاً منها .

وهذه المدنية الأوربية هى التى تغذى العقول ، وتمدّ الخيال فى جميع بلاد الدنيا من شرق وغرب وشمال وجنوب ، فهى فى بلاد المغرب وفى مصر والشام والعراق والهند وجميع مناحى الدنيا ، جداول من نهر واحد تتشابه مياهها ويتحد مذاقها ، على اختلاف بين هذه الأقطار فى سرعة القبول لتلك المدنية ودرجة التأثر بها ، لذلك رأينا منحى الشعر وصور الخيال واحدة فى جميع الأقطار التى تنطق العربية ، وإنما تختلف فى ذلك كمًّا لا كيْفاً ، على أن اتصال هذه الأقطار بعضها ببعض ، وتبادل أفكارها ممثلة فى الصحف والكتب ، جعل هؤلاء الذين تباينت دورهم قد تطابقت آراؤهم ، واتَّحَدَتْ تصوراتهم .

ولـكن بقيت لمصر الزعامة على كلّ هذه الأقطار لسبقها إلى تلك المدنية ، ولما تيسر لها من اشتمال مكاتبها على ذخائر الأدب العربى ، ولما مكنتها مقدرتها المالية من استخدام المطابع الـكبرى لنشر مطوى الأدب القديم ، ثمّ هى بعد ذلك كله قطر صانه الله من استبداد الأجنبى ، فلم تمتحن باستعمار أو وصاية ، وإنما الذى جرى عليها احتلال عرفتْ كيف تقاومه ، فصار منذ بعيد لا شأن له بالعلم والتعليم .

هذا هو الذى ضمن لمصر تلك السيادة مضافاً إليه ما امتاز به أهلها من تمام الذوق ، ورَهَافة الحِس ، ولطف الإدراك ، وملكات سليمة فى العربية أغنتهم طويلاً عن علوم البلاغة التى التمسها العراقيون وغيرهم قديمًا ليعالجوا بها نقص الملـكة .

وقد دلّ العالم العربى على رضاه بزعامة مصر حين قدمت وفوده فى سنة ١٩٢٦ م لتعقد لأحمد شوقى بك شاعر مصر لواء الشعر العربى كله فى هذا القرن ، فكان ذلك إجماعًا على الإنصاف وشهادة لا تلفيق فيها على فضل الرجل أولاً وفضل مصر ثانياً ، لأن مثل هذا الإجماع هو الذى لا يستطاع فيه الإغراء ولا يمكن التمويه ، وإلا فما الذى يحمل هؤلاء النازحى الأقطار أن يتكلفوا الحضور إلى مصر لِيَعْنُوا لعظمة هذا الرجل ويُقِرُّوا له بالزعامة . لا شكّ أن الحقيقة التى امتلأت بها نفوسهم على تباين مساكنهم هى التى سهلت عليهم ذلك ، فلم يكن إغراءٌ ولا تدليسٌ ولا توريطٌ كما يحدث عادة فى صور الإجماع فى هذا الزمان .

وإن الآمال لمعقودة بأن تظلّ مصر زعيمة الأمم العربية فى ظلّ جلالة الملك الصالح « فاروق الأوّل » الذى يعمل لخير مصر ، مخلصاً كل الإخلاص لشعبه الذى دلّ على عظيم ما يكنه لجلالته من الحبّ الصادق ، وفداء عرشه بالأرواح .

محاولات التجديد فى الشعر الحديث

امتلأت الحياة بكلّ حديث ، وزخرت بالمخترعات فى كلّ ناحية من نواحيها ، وارتقى النقد ، فتناول كلّ ما يتناوله الناس فى أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم ، فكان لابدّ أن يصيب الشعرَ من ذلك شيء ، فنشأ فيه مذهب التجديد .

وأكثر الكتاب من تناوله ، ولكنهم لم يحدُّوا موضوع نقدهم ، ولم يضربوا الأمثلة للصور التى يريدونها ، فكنت تقرأ المقال الضافى الذيل وفيه الإنحاء باللوم على القديم والمستمسكين به ، ووجوب الانتباه من النومة التى طال عليها العهد إلى غير ذلك، ثم لا تجد فى قول الكاتب غرضاً ظاهراً ، ولا طريقاً مَهْيعاً مما يريد حمل الناس عليه ولكنها طَنْطنة وجَعْجعة لا طائل تحتها — وقد يصوّر لك بعضهم ما يريد ويرسم لك شبح القصيدة التى يجعلها نموذج الحداثة والجمال العصرى ، فإذا بها طِبٌّ وهندسة وفلسفة عميقة الغور ، وإذا به لا يريد فيها الأساليب النقية والكلام المأثور عن فحول العربية ، وإنما يريد كلامه الحديث الذى هو أشبه بمضغ الماء ولوك العِلْك، لاطعم له ولا لذة فيه إلا تعب الأسنان وخيبة الحلاقيم .

وكانت أشدُّ حملاتهم على ارتباط أجزاء القصيدة وتسلسل أبياتها واطراد معانيها ، وذهبوا يرمون الشعر القديم بالتفكك والشرود ، وفاتهم أن الشعر خيال ، وتصوير ، ومعان نفسية لاضابط لها ، وأن الشاعر وجلّ قصده مخاطبة الشعور ومس الإحساس ، يجب ألا يتقيد فى كلامه تقيد العلماء، ولا يجمع أفكاره فى سلسلة متصلة الحلقات ، وأنه يجب وقد طار فى جوّ الخيال ودخل رياض معانيه أن يكون كالنحلة التى تتنقل فى كل ناحية وتقع على كل زهرة ، وتعود إلى ما بدأت ، وتنثنى عما قصدت . وعجيب أن يشبهوا الشاعر بالطائر الغرد ، ثم يريدون أن يحبسوه فى قفص ! ! وهم يعلمون من

طبع الطائر أن القفص لا يحبس جسمه ولا يطوى أجنحته ، وإنما يحبس قبل ذلك صوته و يقضى على لحنه .

على أن الشعر العربى قد عرف هذه الحقائق الجافة والاتصال المحكم ، فبلغ فيها حد الإعجاز فى متون النحو ، والصرف ، والفقه ، والمنطق ، والطبّ ، والقراءات ، والتجويد ، وما شئت من علم خلقه الله وعرفه العرب فى إبان مدنيتهم ، ولكنّ النقد الصحيح زيّف ذلك ، ونفاه من أبواب الشعر وسماه نظماً ، وعدّه النقدة سخفاً وجناية على الأدب .

أما التفكك الذى اتهموا به الشعر القديم ، فقولهم فيه غير مقبول ، لأنك تجد الكتلة من المعانى متناسقة فيما بينها ، ثم يخرج الشاعر إلى جملة أخرى منها فيتنقل بين أجزائها ، وهكذا ، ولم يرض المتقدّمون عن الشرود رضا مطلقاً ، بل عابوه وسموا الانتقال بلا مناسبة من الغزل إلى المدح اقتضاباً ، وقد كان هذان الغرضان أهمّ عناصر القصيدة ، فدلت عنايتهم بالانتقال فيهما على أنهم لا يقرّون الاضطراب ، ولايمتدحون الوثوب الذى عابهم به المحدَثون . ويكفى أن تنظر إلى ما عقدوا من الصلات بين الجمل فى باب الفصل والوصل من علم المعانى حتى تعلم أنهم كانوا فى مراعاة التناسب أدقّ من الصانع الماهر الذى يجعلك تعتقد أنه صبّ مصنوعه صبًّا أو نحته نحتاً ، ولم يُرَكِّب أجزاءه تركيباً .

كذلك تجدهم فى تجديدهم حاولوا الثورة على الوزن والقافية حين لم يقووا كما قوى السابقون على التزامهما ، وقد تذرّعوا إلى محاولتهم هذه بدعوى أن الوزن الواحد فى جميع أبيات القصيدة ، والتزام قافية واحدة يحولان دون الإطالة و يعوقان عما يصبون إليه من إحداث الملاحم فى الشعر العربى وقد حرمها منذ القدم .

وقد سموا القصيدة التى تجمع أوزانا شتى « مجمع البحور » ، والتى لا تلتزم فيها

قافية واحدة « الشعر المرسل » ، وذهبوا يحتجون بوجود ذلك فى الشعر القديم ، ونقلوا عن الموشّح للمَرْزُبانىّ ص ٢٠ قوله :

أنشد أبو عبيدة لابنة أبى مُسافع ، وقد قتل أبوها يوم بدر :

فما ليث عرين ذو أظافير وأقـــدام
كحـــىٍّ إذ تلاقوا و وجوه القدم أقرانُ[1]
وأنت الطاعن النجلا ء منهـــا مُزْبِدٌ آنِ
وبالـكف حسام صا رمٌ أبيضُ خَـــذَّامُ
وقد نرحـــل بالركب وما نحن بصُحْبَانِ

واجترأ كثير من محدثينا فنظموا على هذا النحو ، ولـكن قد تنبأ لهم كلّ منصف بفشل هذه المحاولة كما فشلت فى القديم .

وتعليل ذلك أن الشعر ماطلب إلا لـكونه موسيقى الكلام ، فإذا فاته اتحاد النهايات فاتت النغمة التى هى شرط فيه .

وما كان أجدرَ مُحْدَثينا أن يقفوا عند ما ارتضاه المُحْدَثون قبلهم فى العصر العباسى من الأنواع التى استراحوا فيها من التزام القافية ، كالمُسَمَّط والموَشَّح والمُزْدَوَج ، ذلك أولى بهم لو أرادوا الإصـــلاح ، ولـكنها الثورة لاتعرف صواباً ، ولا تبقى على قديم مهما حسن .

ومما أحدثوه من مجمع البحور قول إيليا أبى ماضى فيما سماه قصيدة بعنوان : « الشاعر والسلطان الجائر » .

---

(١) الرواية التى رواها الدمامينى ، فى شرحه للرامزة ، فيها أسنان بدل أقدام ، وكأنّ البيتان فى روايته هكذا :

وما ليث عرين ذو أظافير وأســنان
أبو شبلين وثاب شديد البطش غرثان

بسكون القافية وقال إن الأخفش أثبت للهزج ضرباً ثالثاً مقصوراً . قالوا والخليل يأبى ذلك وينشد البيتين على الإطلاق والإقواء .

جاء فيها :

أمر السلطان بالشاعر يوماً فأتاه ، فى كساء حائل الصِّبغة واه جانباه
وحذاء أوشكت تفلت منه أخمصاه

ثم يقول فيها :

القصر يُنْبى عن مهارة شاعر　　لَبِقٍ ويخبر بعده عنكا
هو للألى يدرون كنه جماله　　فإذا مضوا فكأنه دُكَّا

ثم يقول :

والروض إن الروض صنعة شاعر　　سمح طروب رائق جزل
وشَّى حواشيه وزَيَّن أرضه　　بروائع الألوان والظِّلِّ

وهكذا . . .

وكذلك من الشعر المرسل قصيدة بعنوان : « مناجاة غدير » ، لحضرة محمود الخفيف ، منها :

شاق نفسى الجلوس فوق غدير　　من نسيج الرّبيع ينطق حسنا
كنت قبل الشروق عند غدير　　يملأ النفس من أغانيه لحنا
كلّ مافى الوجود منه جميل　　يبعث البشر فى الفؤاد نديا
ونسيم الصباح عذب بليل　　باعث فى الرّبوع نشراً ذكيا
ساد حولى السكون لولا غدير　　عبقرىّ الخيال سامى البيان
ثائر هادئ مُغَنًّ صبور　　رائق الحسن مستفيض المعانى

وهكذا . . .

وفى نظرى أن جرأتهم فى الشعر المرسل دونها فى مجمع البحور الذى أعتقد أنه من نوع الفَرَاش الذى ينشأ فى الماء الراكد ، فينشط ساعة أو ساعتين ثم يموت لوقته ، فإن فيه فقدان النمط ، وانعدام وحدة النغمة بالانتقال من الطويل إلى البسيط إلى

الخفيف ، وفى ذلك اضطراب لا حدّ له ، وهو أشبه بما يخرج جاهل بالموسيقى إذا ضرب على إحدى آلاتها ، فإنه يخرج صوتاً لايستريح إليه السليم الذوق ، بل يفضل عليه قصف الرعد ونهيق الحمار ، وعندى أن السجع أو الازدواج ، بل الإرسال خير منه ألف مرّة .

وقد أراد أصحاب هذا المذهب أن يبرروا رأيهم ، ويحملوا الناس على ارتضائه ، فذكروا أن المرحوم شوقى بك فى رواياته التى خدم بها الشعر العربى ، وزاد فى أغراضه قد ارتضى الجمع بين الأوزان ، فكان ينتقل من بحر إلى بحر ، ولكن فاتهم أن هذا يبرره عند شوقى اختلاف القائل للشعر ، فإذا أنشد بطل من الخفيف ردّ عليه آخر من الطويل ، ودخل بينهما ثالث بوزن المنسرح ، وهكذا . . ولست أرى فى هذا عيباً، فإن شوقى لم يفرّ من القافية أو الوزن ، وهو أقدر عليهما فى أطول من رواياته ، ولكنه ذكر أن هذه الروايات للتمثيل الغنائى ، وأن اتحاد النغمة فى جميع فصول الرواية يملّ حتماً للسامع ، كما رجا من وراء تنوّع الوزن المعونة على تأدية المعانى المختلفة .

⁂

والرأى الذى نراه صالحاً للقبول ومحققاً لما يريد المحدثون من استطاعة نظم الملاحم والقصص الطويل هو أن يجعل الشاعر ملحمته أو قصته فصولاً وأبواباً ، ويختار لكلّ فصل أو باب الوزن والقافية المناسبين له ، وبذلك يجمع بين صيانة القصيد العربى وبين ما يريد من طول النفس ، ويكون كلّ فصل من قصته قصيدة واحدة بوزنها ، هذا ما يحسن عمله لو أرادوا إصلاحاً .

وعلى ذكر روايات شوقى التمثيلية نذكر أن أول من حاول جعل الرواية العربية كلها شعراً هو المرحوم الشيخ خليل اليازجى فى رواية : « المروءة والوفاء » ، وقد مثلت فى الشام ، ويذكر المرحوم جورجى زيدان أنه شاهدها فى بيروت سنة ١٨٧٨ م ،

ويظهر أنه لم يأت بعد اليازجى من استطاع سلوك نهجه حتى اتجهت نية أحمد شوقى بك رحمه الله إلى سدّ هذا النقص فى العربية ، فأمد المسرح بروايات ستة : عنترة ، وقمبيز، وكليوباطره ، وعلى بك الكبير ، ومجنون ليلى ، وغانية الأندلس ، فجزاه الله عن العربية خير الجزاء .

حياة البارودى

نسبه

هو من نسل هؤلاء الجراكسة الذين كان منهم المماليك حكام مصر قبل العهد التركى ، وثبوت النسب لواحد من هؤلاء أمر عسير لأن العادة أن هؤلاء المماليك يؤتى بهم من بلادهم أفراداً مختطفين من أحضان آبائهم وأمهاتهم ، فإذا نشأ أحدهم فإنه يعرف باسم مولاه الذى دخل فى حيازته وصار له ولاؤه ، لذلك كان من الصعب أن تعرف سلسلة النسب لأحد هؤلاء ، أو الأسرة الذى نشأ منها ، ولكنّ البارودى رحمه الله تعلق بأن يعرف أوائل آبائه بمصر ، واجتهد فى ذلك ، والتمس كلّ وسيلة ، فبذل المال ، وسأل أهل العلم والسن ، ويقال إنه أنفق ثلاثة آلاف جنيه حتى عرف أنه ينتسب إلى نوروز الأتابكى الملكى الأشرفى ، ويفهم من ذلك أنه كان مولى للأشرف قايتباى المحمودى المتوفى سنة ٩٠١ هـ .

أما نسبه القريب ، فهو ابن حسن حسنى بك من أمراء المدفعية فى الجيش المصرى ابن عبد الله بك الجركسى من الكُشَّاف فى أوائل عهد محمد علىّ ، والكاشف عندهم بمثابة مأمور المركز اليوم .

وسبب نسبته « البارودى » أن إيتاى البارود من مديرية البحيرة كانت من التزام أحد أجداده قديمًا .

مـــولده

ولد البارودى عام ١٢٥٥ هـ سنة ١٨٤٠ م بقصر أسرته بباب الخلق ، وهو ذلك القصر الفخم الذى يكون على يمين الداخل فى شارع غيط العدّة من جهة باب الخلق ، وقد كان إلى عهد قريب قبل أن يتخرب داراً لصحيفة « الجريدة » التى كان يصدرها الأستاذ لطفى السيد بك ، وهو الآن حضرة صاحب المعالى وزير الداخلية أحمد لطفى السيد باشا .

وإن من رأى هذا القصر قبل تخربه ليستدلّ منه وحده على مقام هذه الأسرة ، وعظيم شأنها ، ووافر جاهها ، فيكون شاعرنا قد نشأ فى عزّ وسيادة ضمنا له هذا الشمم الذى يتجلى فى شعره ، كما حققا له ما صبت إليه نفسه من أنواع العلوم ورفيع الدرجات .

مات أبوه وتركه فى السابعة من عمره ، ومثل البارودى فى غنى أسرته ، وعظيم مقامها ، لا يؤثر فيه اليتم ، ولا يُسْلِمه للضَّياع ، فإن الغنى كفيل أن يبدله بأبيه آباء يتعهدونه حتى ينشأ أحسن نشأة ، وقد كان ذلك فإنه لم يستكمل الحادية عشرة حتى كان قد استعدّ لدخول المدرسة الحربية ، فدخلها ولبث فيها أربع سنوات أتمّ فيها علومها ، فخرج منها سنة ١٨٥٥ م ، وعمره خمسة عشر عامًا وهى سنّ صغيرة لضابط يستعدّ لخوض المعارك ، واقتحام الخطوب ، ولا ريب أن هذا لم يكن شأن بقية طلاب تلك المدرسة ، فإن الجيش لا يحتمل أن يكون كل ضباطه أطفالاً ، أو مراهقين كمحمود سامى البارودى ، فيكون ذكاء البارودى قد مكنه من تحصيل العلوم التى هيأته لهذا النجاح ، كما أن قوّة جنانه قد صيرته فى نظر الرؤساء أهلاً لأن يعدّ فى صفوف الرجال ، بل الفرسان والقوّاد .

تصرّفه وتقلبه فى الأعمال

لولا أن كلّ شيء يجرى فى حياة الشاعر له أثره فى شعره وقيمته فى تكوين وجدانه وخياله لتركنا تفصيل حياة شاعرنا ، ولكننا سنذكر ما استطعنا ذكره من تلك الحياة ، فهو ضرورى فى فهمنا لمناحي شعره ، إذ كان البارودى من هؤلاء الشعراء الذين جعلوا شعرهم سجلّ حياتهم .

⁂

بعد أن تخرج البارودى فى المدرسة الحربية ، وكان ذلك فى أوائل عهد سعيد باشا ، لم تقف همته عند طلب الوظائف فى مصر ، بل نظر إلى الآستانة مثابة آمال المصريين ، ومتعلق هممهم حكامًا ومحكومين ، إذ كانت مصر لا تزال ولاية تابعة لها مع امتياز خاصّ فى توارث تلك الولاية ، ولا شكّ أن كلّ ما كان بمصر من الأعمال والوظائف ، فخير منه نظيره فى بلاد الخلافة الإسلامية والعظمة السياسية ، ومثل البارودى يعدّ نفسه تركيًّا قبل أن يكون مصريًّا ، فهو من أصل كما علمت جركسى ، ثم هو يجيد اللغة التركية ، بل لا يخاطب أفراد أسرته إلا بها ، فليس طلبه للوظيفة فى الآستانة إلا تعلقاً منه بالأشرف ومحاولة للأسمى ، وقد بقى بالآستانة كاتباً للسرّ بوزارة الخارجية حتى اتفق أن رآه الخديو إسمٰعيل سنة ١٨٦٣ م بها على أثر ارتقائه للخديوية بمصر ، فأعجب به وضمه إلى بطانته ، فرجع معه ودخل فى الخدمة العسكرية . وفى سنة واحدة رقى إلى رتبة البا كباشى ، ثم ندب مع نفر من الضباط لمشاهدة نظام الجندية بفرنسا وإرلندا ، ولما عاد سنة ١٨٦٥ م ، رقاه إسمٰعيل باشا إلى رتبة قائمقام فأميرألاى ، وفى سنة ١٨٦٨ م ذهب فى ضمن الحملة التى ساعدت مصر بها الدولة العلية فى إخماد ثورة إقريطش « كريد » .

ولما عاد منها انضمّ إلى حرس الخديو إسمٰعيل ، فرأى نبوغه عن كثب ، فزادت منزلته لديه وعينه كاتب سرّه الخاصّ ، وبعد سنتين عاد إلى سلك الجندية ، وظل إسمٰعيل باشا يقدر نبوغه وعبقريته ، فينذبه لمهامّ سياسية فى الآستانة .

وفى سنة ١٨٧٧ م حين نشبت الحرب بين الدولة العلية والروس خرجت من مصر حملة لمساعدة الدولة ، فكان البارودى من عناصرها ، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة لواء ، وفى سنة ١٨٧٩ م ترك العسكرية إلى الأعمال الإدارية ، فعين مديراً للشرقية ، وكانت هذه الأيام أيام اضطراب وقلق ، وثوران فى الخواطر ، ومطامع جاشت فى نفوس الأمراء ، وتدخل من الدول الأوربية فى شئون مصر الإدارية ، وكلّ هذا قد أحاط بإقالة إسمٰعيل باشا ، فكان البارودى الرجل الموثوق بحزمه وإحكام إدارته ، فندب لتولى الضبطية « المحافظة » ، فاستطاع أن يحفظ الأمن ، ويمنع الهياج ، ويُقِرَّ الأمور فى نُصُبِها حتى تمرّ تلك الزوبعة .

وفى أيام الخديو توفيق باشا تولى نظارة الأوقاف ، فأصلح من شأنها ، وكان بحكم كونه من النظار يستطيع أن يخدم العرابيين الذين يحنو كثيراً على مطالبهم ، ويعتقد عدالتها ، ثم هو من ذوى المطامع الكبيرة ، يريد أن يهيئ لنفسه مكانة عند هؤلاء الثوّار ، حتى إذا كانت لهم دولة عرفوا له معونته لقضيتهم .

فكانت خدمته للعرابيين أن ينقل إليهم ما يدور فى مجلس النظار من خطط تدبر ضدّهم حتى يكونوا على أهبة لمقاومتها .

وقد نجح البارودى فيما أراد ، وتحققت مطامعه ، فإنه برأى عرابى وأصحابه عين البارودى ناظراً للحربية ورئيساً للنظار ، ثم استعفى لما وجد الأمور تسير على غير مايريد ، ومالبثت الثورة أن فارت فورتها ، ثم انجلت سريعاً عن فشل عرابى وأصحابه فكان البارودى من المتهمين بإشعال نارها ، فنفى إلى سَرَنْديب « سيلان » ، وظلّ

فيها سبعة عشر عاماً ، ثم عاد فى أيام الخديو عباس فى جملة المعفوّ عنهم ، وقد اختصه بردّ حقوقه إليه من ثروة ورتبة ، وأقام بمصر موفور الكرامة حتى مات سنة ١٣٢٢ ﻫ سنة ١٩٠٤ م ، وقد كفّ بصره فى آخر أيامه .

الملكة اللغوية عند البارودى

كان البارودى يعرف التركية لغة خطاب لأن الأسر الكريمة بمصر كان شعارها فى التخاطب تلك اللغة ، كذلك كان للعربية نصيب فى لسانه لأنها اللغة التى يخاطب بها المصريين ، ثم هى لغة تعلمه بالمدارس التى تنقل فيها .

لم يكتف البارودى بأن تصير اللغة التركية لغة خطابه حتى عمل على أن تكون لغة أدبه فى المدة التى أقامها بالآستانة فى أوّل عهده بالعمل ، وقد نبغ فيها حتى طالع بها أدب الأتراك ونظم شعرهم .

وكانت الفارسية تشارك التركية فى احتفال الأتراك بها ، حتى إنك لترى أن أغلب أدباء الترك يعرفونها ، وينظمون الشعر بها ، كما ينظمونه بالتركية ، فعائشة التيمورية نظمت بالتركية والفارسية قبل العربية ، وكان أبوها يجيد اللغتين . وهكذا كلّ من نعرف من مشهورى الأتراك يعنون بالفارسية عنايتهم بلغتهم ، فلم يكن للبارودى وهو التركى النسب والنشأة إلا أن يعرف الفارسية ويجيدها ويبرع فى آدابها ، وينظم بها الشعر كما نظم بالتركية . وقد اعتنى المصريون باللغة الفارسية ، فكانت إحدى اللغات التى تدرس بالمدارس إلى جانب اللغة العربية ، ولما كان الغرام اللغوى لا يقف عند حدّ ، فإن البارودى قد مال إلى العربية منذ حداثته ، ويحدثنا أستاذه الشيخ حسين المرصفى أنه تعلمها على غير النظام المألوف فى عهده ، فقد كان باب العربية فى نظر ذلك العصر هو النحو والصرف . وكثيراً ما كان طالب العربية يخطئ التقدير ، فيتوسع

فى الوسائل حتى ينتهى العمر قبل بلوغ الغاية فهو يقبل على النحو والصرف وغيرهما من علوم اللسان ووسائل البيان ، وما يزال يتوسع فيها ويمعن فى مطوّلاتها حتى ينسى غايته التى من أجلها طلب تلك العلوم .

ولكن البارودى وقد أراد له الله نجاح المقصد فى الطلب لم يسلك طريق قومه ، بل بدأ يقرأ دواوين الشعر وكتب الأدب ، ويرى جمال العربية ، وهى تختال فى أبرادها القشيبة على عهد العباسيين الأوائل فى شعر شعرائها ، ونثر كتابها ، بل إنه لم يترك بلاغة عرفها واهتدى إلى نحولها ، إلا عكف على دراسة أقوالهم ، وتفهم أساليبهم ، فقرأ للجاهليين والإسلاميين . وكان من صفاء الذهن ، وقوّة الملكة اللغوية بحيث يعى تلك الأساليب البليغة ، وتنطبع فى ذهنه صورها ، ويحفظ أغلب ما يقرأ بأيسر محاولة ، فملك بذلك زمام البلاغة ، واستطاع أن يقلد هؤلاء القدماء ، بل إنه لقوّة ذهنه استطاع أن يعرف لكلّ شاعر خصائصه فى قوله ، فإذا عمد إلى تقليده أسمعك رنين ألفاظه ، وأبرز لك صور تعبيره ، فتكاد تكذب الواقع فى أن البارودى هو الذى ينظم أو ينشد .

ومما يدلّ على قوّة ملكته اللغوية ، ودقة إحساسها أنه لم يحتج فى تقويم لسانه بالصواب ، وصحة الإعراب إلا إلى القليل من الإرشاد فى بدء تعلمه ، ثم انطلق يقرأ ، فلا تتعلق عليه بغلطة ، وينظم فإذا شعره شعر الفحول السابقين فى صحة التعبير وقوّة الأداء .

وليس عجباً نبوغ البارودى بعد ما وصفنا من قوّة ملكته اللغوية التى يسرت له النظم فى ثلاث لغات ، ولكن العجب أن يوفق من تلقاء نفسه إلى اختيار تلك الطريقة القويمة فى طلب العربية ، وليس من شكّ فى أنه تهدى إليها بمحض اختياره إذ أن أساتذته لم يسلك أحد منهم تلك الطريقة فى تعلمه ، فهو أجدر ألا يرشد غيره إليها . والواقع الذى أثبته التاريخ أن البارودى لم يتلق نصحاً فى اختيار هذه السبيل

الناجحة ، ولم يتبع فى سلوكها إلا هداية قلبه وتوفيق الله له ، فهذا سرّ فى نجاحه يجعلنا نقول إنه كان ملهماً فى تعلمه العربية .

وهاك شهادة أستاذه المرصفى قال :

« محمود سامى البارودى لم يقرأ كتاباً فى فنّ من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يسمعه من بعض من له دراية ، أو يقرأ بحضرته بعضاً من دواوين الشعر ، حتى تصوّر فى برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ، وصار يقرأ أوّلاً ، ولا يكاد يلحن ، ثم استقلّ بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة » .

زعامة البارودى

للشعر الحديث

لعلك على ذُكْر لما بيناه فى موضوع الشعر فى العصر الحاضر من العوامل التى ارتقت بالشعر بعد الفترة الأولى من هـــذا العصر ، حتى صار شيئاً آخر لاصلة له بسابقه فى شىء من مظاهر الشعر فى لفظه ومعناه وغرضه ، وإذا ذهبنا نلتمس أوّل شاعر ظهرت على يده هذه المعجزة الحديثة ، وكان رسول الانتقال من عهد إلى عهد لانرى غير البارودى ، فهو شيخ الشــعراء المحدثين وهاديهم إلى السبيل التى سلكها هذا الشعر الحديث ، ولا يقف فضله عند حدّ السبق والهداية ، ولــكن له إلى جانب ذلك فضل الانتقال السريع من الحضيض إلى القمة ، ومن الضعف إلى القوّة ، بطفرة لم تعهد فى العصور السابقة للأدب ، فقد عهدنا الأطوار للغة تحتاج إلى الأجيال لتتماز ، ويظهر فيها الاختلاف بين ماض وحاضر ، ولــكن البارودى جعلنا من

غير توطئة ولا تمهيد نرى صورة الشعر فى العصور الراقية تعود جَذَعة فتية تنفض عنها غبار السنين التى عفّت آثارها وطمست معالمها .

فلما فتح الشعراء المحدثون أعينهم رأوا صحيفة السيد الدرويش، وعلى الليثى وغيرهم قد طويت بما عليها من تكلف وما فيها من اضطراب ، وظهرت صورة نقية قوية فيها كلّ معانى الحياة ، وفيها شباب العربية يترقرق ، وعذوبتها تتدفق ، فحسنت لديهم القدوة ، وصاروا لا يفهمون عن الشعر إلا أنه الخيال البارع ، والمعنى السامى ، واللفظ الجزل ، وكان شعر البارودى مثلهم الأعلى الذى يحتذونه

تقليد البارودى للسابقين

ليس التقليد فى ذاته عيباً ، لأن الرقىّ فى الحياة ليس مبنيًّا إلا على المحاكاة والمنافسة ، فإذا صحب التقليد أن يكون التماساً للمثل الأعلى ، ومحاولة للكمالات فهو خير كله ، كذلك كان تقليد البارودى ، فإننا رأيناه قد ارتقت به همته إلى تقليد العباسيين الأوائل ، بل الفحول من الجاهليين ، ثم هو مع ذلك واقع قريباً منهم معدود فى نظر الناقدين من زمرتهم .

فانظر إليه حين قلد النابغة الذبيانى فى داليته :

أمِنَ آل ميـــة رائحٌ أو مغتدى ... عجلانَ ذا زادٍ وغـــيرَ مُزَوَّد

« وهى معروفة لك » ، فقال :

ظن الظُّنونَ فبات غير مُوَسَّـــدِ ... حـــيرانَ يَكْلأُ مستنير الفرقد

قالوا غـــدًا يومُ الرحيل ومن لهم ... خوفَ التفرقِ أَنْ أَعيشَ إلى غدِ

هِىَ مُهْجَةٌ ذهب الهوى بشَـغَافها ... معمودةٌ إن لم تمت فكأنْ قَـــدِ

وفيها يقول :

ولقـــد شهدتُ الحربَ فى إبانها ... ولبئسَ راعى الحَىِّ إنْ لَمْ أَشْهَدِ

تتقصّفُ المُرّانُ فى حُـــجُراتها ويعـــود فيها السيف مثل الأدْرَدِ
عصفت لهـا ريح الردى فتـــدفقت بدم الفوارس كالأتىّ المُـــزْبِدِ
ما زلت أطعن بينها حتى انثنت عن مثل حاشيةِ الرداءِ المُجْسَدِ

وإذا قال الشريف الرضىّ :

لغير العلا منى القِلَى والتجنبُ ولولا العلا ما كنتُ فى الحب أرغبُ
إذا الله لم يعْذِرْك فيما ترومـــه فمـا الناس إلا عاذلٌ ومُـــؤَنِّبُ
ملكتُ بحلمى فُرْصةً ما استرقها من الدهر مفتولُ الذراعين أغلبُ
فإنْ تكُ سِـــنِّى ما تطاولَ بَاعُها فلى من وراء المجد قلبٌ مُدَرَّبُ
فحسبى أنى فى الأعادى مُبَغَّضٌ وأنى إلي غُرّ المـــعالى مُحَبَّبٌ
وللحـــلم أوقاتٌ وللجهلِ مِثْلُها ولــكنّ أوقاتى إلى الحلِم أقربُ

قال البارودى :

سِـــوَاىَ بتحنانِ الأغاريد يَطْرَبُ وغـــيرى باللذات يلهو ويلعبُ
وما أنا ممن تأسِرُ الخمر لُبَّهُ ويملك سمعيـــه اليَرَاعُ المثقب
ولــكن أخوهمٍّ إذا ما ترجّحتْ به ســـورةٌ نحو العلا راح يَدْأَبُ
نَفَى النوم عن عينيه نفسٌ أبيّةٌ لها بين أطرافِ الأســـنةِ مَطْلَبُ
بعيد مَناطِ الْهَمِّ فالغربُ مَشْرِقٌ إذا ما رمى عينيه والشرقُ مَغْرِبُ
همامةُ نفسٍ أصــغرتْ كلَّ مأربِ فــكَلَّفَتِ الأيامَ ما ليس يُوهَبُ
ومن تــكن العلياءُ همـــةَ نفسه فــكلُّ الذى يلقاه فيها مُحَبَّبُ
إذا أنا لم أُعْطِ المكارمَ حَقَّهـــا فلا عَزَّنِى خالٌ ولا ضَمَّـــنِى أبُ
ولا حَمَلَتْ دِرْعِى كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ولا دار فى كفى سِـــنَانٌ مُذَرَّبُ
أســـيرُ على نَهْجٍ يرى الناس غيره لــكل امرئٍ فيما يحاول مَذْهَبُ

وانظر إليه يتخذ طريق الشريف فى الوزن والقافية ونوع المعنى قال الشريف :

أَلْهـــاكِ عنا ربَّةَ البُرْقُع   مَرُّ الثلاثـــين إلى الأربعِ
أنت أَعَنْتِ الشيبَ فى مَـــفْرِقِى   مع الليالى فَصِـــلى أَوْ دَعِى
يا حاجـــةَ القلبِ أَلَمْ تَرْحَمِى   جنـــايةَ الدمعِ على مَدْمَعِى
لولا ضـــلالاتُ الهوى لم يكن   عِنـــانُ قلبى لَكِ بالأَطْوعِ
كان يرى ناظره سُـــبَّة   إنْ مر بالحى ولم يَدْمَـــعِ
يا حبـــذا مِنْكِ خيالٌ سَرَى   فدلَّهُ الشوقُ على مَضْـــجَعِى

فيقول البارودى :

هل مِنْ فَتًى يَنْشُدُ قَلْبِى معى   بين خـــدود العِينِ بالأَجْرَعِ
كان معى ثم دعاه الهوى   فمرّ بالحى ولم يَرْجِـع
فهل إذا ناديتـــه باسمه   يُفيقُ من سَكْرَتِه أو يَعِى
صـــبابةٌ أغرتْ علىّ الأسَى   ودلّتِ السُّهْدَ على مَضْـــجَعِى

وهو لم يترك جاهليًّا ولا إسلاميًّا أو عباسيًّا إلا قلده .

فقد قلد غير من ذكرنا أبا نواس والطُّغْرائى والبوصيرى ، وقد مرّ بك ما عارض به البردة : ذكرناه معها فى ترجمة البوصيرى .

ولقد كان أكثر معارضته لأبى فراس الحمدانى ، ولعل لتشابه حياة الرجلين أثراً فى إكثار البارودى من تلك المعارضة ، فقد كان كلاهما شجاعًا كريم الحسب ، عالى النسب ، أصابته نكبات الزمان بسبب همته العالية ، وشيمته الكريمة ، فأبو فراس ظلّ فى أسر الروم أربع سنوات ، والبارودى طوّح به النفى فى سَرَنْديب « سيلان » سبعة عشر عامًا ، لذلك شكا البارودى و بكى كما شكا أبو فراس و بكى ، وافتخر كما افتخر ، وافتقد الصديق كما افتقده أبو فراس . قال أبو فراس يفتخر :

إنّا إذا اشْـــتَدَّ الزَّمَا   نُ وناب خطبٌ وادْلَهَمّ

أُلفيتَ حَــــوْلَ بُيُوتِنَا　　عُــدَدَ الشجاعةِ والْـكَرَمْ
للقا العدا بيضُ الســيو　　ف وللنَّدَى حُمْرُ النَّعَمْ
هــذا وهــذا دأبُنَا　　يُودَى دمٌ ويُرَاقُ دَمْ

فقال البارودى كذلك :

أنا فارسٌ أنا شاعرٌ　　فى كل مَلْحَــمَةٍ ونادِ
فإذا رَكِبْتُ فإنــنى　　زيدُ الفوارس فى الجِلادِ
و إذا نطقتُ فإنــنى　　قُسُّ بنُ ساعِــدَةَ الإيادِى
هــــذا وذلك ديدنى　　فى كل معضــــلة نآدِ

و إذا قال أبو فراس :

أراكَ عَصِىَّ الدمعِ شيمتُك الصَّبْرُ　　أما للهوَى نَهْىٌ عليك ولا أَمْرُ

« وهى مشهورة » .

قال البارودى :

وإنى امرؤ لولا العوائقُ أَذْعَنَتْ　　لســلطانه البدوُ المُغيرةُ والحضْرُ
من النَّفَرِ الغُرِّ الذين سُــيُوفُهُمْ　　لها فى حواشى كل داجيــة فجرُ
إذا استلَّ منهم ســيدٌ غَرْبَ سيفه　　تفزَّعَتِ الأفلاكُ والتفت الدهرُ
لهم عُمُدٌ مرفوعــة ومعاقلٌ　　وألويةٌ حُمْرٌ وأَفْنيــةٌ خُضْرُ
ونارٌ لهـا فى كل شرق ومغربٍ　　لمُدَّرِعِ الظلماءِ ألســنةٌ حُمْرُ
أقامــوا زمانا ثم بَدَّدَ شَمْلَهُمْ　　أخو فتكاتٍ بالـكرام اسمُه الدهرُ
فلم يُبْقِ منهم غَــيْرَ آثار نعْمَةٍ　　تَضُوعُ بِرَيَّاهَا الأحاديثُ والذِّكْرُ
وقد تنطق الآثارُ وهى صــوامتٌ　　ويُثْنِى بِرَيَّاهُ على الوابل الزَّهْرُ

آثار البارودى

بين أيدينا ديوانه الكبير الذى شرحه أحد علماء الأزهر شرحاً خرج به عن الجادّة فإنه توسع فيه بالمادة اللغوية تاركا الإشارة إلى الأسرار البلاغية التى يحتويها الكلام ، أو الدلالات التاريخية ، إن كانت من الشاعر إشارة إليها ، لذلك جاء الشرح مُمِلاً صارفاً للقارئ عن تتبعه .

وللبارودى كتاب مختارات جمع فيه ما راقه من شعر ثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسى من بشار بن برد إلى ابن عُنَيْنٍ ، ورتبه على سبعة أبواب ، هى : الأدبِ ، والمديح ، والرثاء ، والصفات ، والنسيب ، والهجاء ، والزهد ؛ مرتباً أقوال الشعراء فى كلّ باب على ترتيب وجودهم ، وقد وَشّى رحمه الله هذه المختارات بتعليق لطيف نراه كافياً بعض الكفاية لشُداةِ الأدب إذا هم أرادوا قراءة المختارات ، فأما المبتدئون فإنهم كانوا يحتاجون إلى توسعة فى الشرح و بيان لمرامى القول حتى تسهل عليهم الاستفادة منها .

مختار من الشعر الحديث

شعر هذا العصر كثير ، وهو منك بمتناول اليد فى الصحف ودواوين الشعراء ، ولذلك لا نزيد هنا على إيراد أمثلة منه للحفظ .

فمن ذلك قول البارودى فى الغزل على طريقة القدماء :

— ١ —

قالتْ وقد سمعتْ شعرى فأعجبها   إنى أخاف على هذا الغلام أبى

أراه يَهْتِفُ باسمى غــير مُكترثٍ ولو كَنَى لم يَدَعْ للظنِّ من سَبَبِ
فـكيف أصنع إنْ ذاعَتْ مقالتُـــه ما بين قومى وُهمْ من سادة العَرَبِ
فنازعتْها فتاةٌ من صواحـــبها قـــولا يؤلف بين المـاء واللَّهَبِ
قالت دعيه يَصُوغُ القول فى جُمَــلٍ من الهَوَى فهْىَ آياتٌ من الأدب
وما عليكِ ، وفى الأسماء مُشْــتَرَكٌ إنْ قال فى الشعر يا لَيْلَى ولم يَعِب
وحَسْــبُه منــك داءٌ لو تَضَمَّنَه قلبُ الحمامة ما غَنَّتْ على عَــذَب
فاستأنستْ ثم قالتْ وهْى باسمةٌ إنْ كان ما قُلْتِ حقا فهو فى تَعَبِ

— ٣ —

ومن وصفه لحرب الروس سنة ١٢٩٤ هـ :

أَدورُ بعينى لا أرى غيرَ أُمَّـــةٍ من الروم بالبَلْقَانِ يُخطِئُها العَدُّ
جَــواثٍ على هام الجبال لغارةٍ يَطير بها ضَوْءُ الصَّباح إذا يَبْدُو (١)
إذَا نحن سِرْنا صَرَّح الشرُّ باسمه وصاح القنا بالموت واستقْتَلَ الجندُ
فَأَنْتَ ترى بين الفريقين كَبَّةً يحدث فيها نفسُــه البطلُ الجَعْدُ (٢)
على الأرض منها بالدماء جداولٌ وفوق سَرَاةِ النجم من وَقْعِها لِبْدُ (٣)
إذا اشتبكوا أوراجعوا الزَّحْفَ خِلْتَهُمْ بُحوراً تَوَالَى بينها الجزرُ والمـــدُّ
نَشُلُّهمُ شَــلَّ العطاشِ وَنَتْ بها مراغمـــةُ السُّقيا ومَاطَلَها الوِرْدُ (٤)

---

(١) يريد أنها تبدأ عند ظهور ضوء الصبح .

(٢) الكبة ، ويضم الدفعة فى القتال . الجعد الكريم . والكرم من أوصاف الشجاع لأنه لايكون شجاعا حتى يكون جائداً بنفسه على الموت .

(٣) سراة الدابة ظهرها . اللبد بالكسر كل شعر أو صوف متلبد داخل بعضه فى بعض .

(٤) الشل الطرد . المراغمة الهجران والتباعد . والمعنى أنهم طردوا الأعداء أمامهم ، كما تطرد الأبل العطاش التى طال عهدها بالماء فهى تساق أعنف السوق لتصل إلى حيث تشرب .

فهمْ بين مقتولٍ طريحٍ ، وهاربٍ طَلِيــحٍ ، ومأسورٍ يجاذبه القِدُّ[١]

— ٣ —

وقال يصف البحر :

وذى حَدَبٍ يلتجُّ بالسُّفْنِ كُلَّما زَفَتْهُ نَئُوجٌ فهْوَ يعــلُو ويَسْفُلُ[٢]
كأنَّ اطِّرادَ الموجِ فوق سَرَاتِهِ نعــائمُ فى عُرْضِ السَّماوَةِ جُفَّلُ[٣]
إذا شــاغَبَتْهُ الريحُ جاشَ عُبابه وظَلَّ أعالى مَوْجِــهِ يتجَفَّلُ
يَهِيــجُ فيرغو أو يَعِجُّ كأنما تَخَبَّطَه من أَوْلَقِ الضِّغْنِ أَرْفَلُ[٤]
تَقَسَّمه خُلْقان : لينٌ وشــدةٌ بعَصْــفَةِ رِيحٍ فهْوَ داهٍ وأَرْفَلُ[٥]
علونا مَطَاه وهو ساجٍ فما انبرتْ له الريحُ حتى ظَلَّ يَهْفُو وَيَرْفُلُ[٦]
كأنَّا على أُرجوحــةٍ كلما وَنَتْ أحال عليهـــا قائمٌ ليس يَغْفُلُ[٧]

— ٤ —

وقال فى هرمى الجيزة :

سَلِ الجيزةَ الفيحاءَ عن هَرَمَىْ مِصْرِ لعلك تَدْرِى بعضَ مالم تكن تَدْرِى
بناءان ردَّا صَــوْلَةَ الدهرِ عنهما ومِنْ عجَبٍ أَنْ يَغْلِبا صَوْلَةَ الدهرِ
أقاما على رَغْــمِ الخطوب ليشْهَدَا لبانيهما بين البريةِ بالفخــــر

(١) الطليح : التعب المعيي . القد بالكسر : السير يقد من جلد غير مدبوغ والمراد به هنا القيد .
(٢) زفت الريح السحاب زفيا : طردته والنئوج : الريح ونأجت تحركت (كمنع) .
(٣) السراة : الظهر . نعائم : جمع أنعام وهذه جمع نعم وهى الإبل والشاء أو الإبل خاصة . والمراد هنا الإبل . جفل : جمع جافلة بمعنى مسرعة .
(٤) الأولق : الجنون أو شبهه . الأرفل : الغضب والحدة .
(٥) الداهى : ذو الدهاء والمكر . الأرفل : الأحمق الأخرق .
(٦) المطا : الظهر . الساجى : الساكن ، يهفو : يضطرب . يرفل : يحمق
(٧) أحال عليه بالسوط : أقبل .

فكم أممٍ فى الدهر بادَتْ وأعصُرٍ ... خَلَتْ وهما أعجوبةُ العين والفِكْر
تَلوحُ لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تَنفَكُّ تُتْلَى إلى الحَشْر
رموزٌ لو استطلعت مَكْنُونَ سرِّها ... لأبصرتَ مجموع الخلائق فى سَطْرِ
فما مِنْ بناء كان أو هُوَ كائنٌ ... يدانيهما عند التأمُّل والخُبْرِ
يقصِّرُ حُسْناً عنهما صَرْحُ بابلٍ ... ويعترف الإيوانُ بالعجز والبُهْرِ
فلو أنَّ هاروتَ انتحى مَرْصَدَيهما ... لألقى مقاليدَ الكهانةِ والسحر
كأنهما ثَدْيان فاضا بدِرَّةٍ ... من النيل تَرْوِى غُلَّة الأَرْضِ إذ تَجْرِى
وبينهما بَلْهِيبُ فى زِىِّ رابضٍ ... أَكَبَّ على الكفين منه إلى الصَّدْرِ
يقلِّبُ نحو الشرقِ نَظْرَةَ وامقٍ ... كأنَّ له شَوْقاً إلى مَطْلَعِ الفجر
مصانعُ فيها للعلوم غَوَامِضٌ ... تَدُلُّ على أن ابنَ آدمَ ذو قَدْرِ
رسا أصلُها وامتدَّ فى الجَوِّ فَرْعُها ... فأصبح وَكْرًا للسِّماكين والنَّسْرِ

— ٥ —

وقال المرحوم إسمعيل صبرى باشا المتوفى سنة ١٩٢٣ م :

يصف ساعة التوديع

أَتُرَى أنت خاذلى ساعةَ التو ... ديع يا قلبُ فى غَدٍ أم نَصِيرِى
وَيْكَ قُلْ لى متى أَرَاكَ بجنبى ... راضياً عن مكانك المهجورِ
لستَ بعضَ الحُدَاةِ بل أنت بعضى ... قِفْ قليلاً فلستَ بالمأجورِ
ساعةَ البَيْنِ قطعةٌ أنتِ قُدَّتْ ... للمحبِّين من عذاب السَّعيرِ
لا تجيئى، روحى الفداءُ لما حيك غداً من صحيفة المقدورِ

— ٦ —

وقال فى الترحيب بالموت :

إنْ سئمْتَ الحياةَ فارجعْ إلى الأر ... ضِ تَنَمْ آمنا من الأوْصابِ
تلك أمٌّ أحْــنَى عليك من الأُ ... مِّ التى خلَّفتْــك للأوْصاب
لا تخَفْ فالمماتُ ليس بماحٍ ... منك إلا ما تَشْتَكِى من عذَاب
كلُّ ميْتٍ باقٍ وإنْ خالفَ العنــوانُ ما نُصَّ فى غُضُونِ الكتاب
وَحَيَاةُ المرْءِ اغْتِرَاب فإن ما ... ت فقد عاد سالِمًا للتراب

— ٧ —

وقال المرحوم أحمد شوقى بك المتوفى سنة ١٩٣٣ م يصف الربيع :

آذارُ أَقبلَ قمْ بنا يا صــاحِ ... حَيِّ الربيعَ حديقةَ الأَرْواحِ
واجمعْ نَدَامى الظَّرْفِ تحتَ لوائه ... وانْشُرْ بساحتِهِ بساطَ الرَّاحِ
صَفْوٌ أُتيحَ فَخُذْ لنفسِكَ قِسْطَهَا ... فالصَّــفْوُ ليس على المَدَى بمُتَاحِ
واجلسْ بِضاحِكةِ الرياض مُصَفِّقًا ... لتَجَاوُبِ الأَوتَارِ وَالأَقْدَاحِ
واستأنِسَنَّ من السُّـــقاةِ بِرُفْقَةٍ ... غُرٍّ كأمثالِ النُّجُومِ صِـباحِ
رَقَّتْ كَنُدْمانِ الملوكِ خِــلاَلُهُمْ ... وتجمَّــــلوا بمُروءةٍ وسَمَاحِ
واجعل صَبُوحَك فى البُكُورِ سَليلَةً ... للمُنْجِبَيْنِ الكَرْمِ والتُّفَّاحِ
مهما فَضَضْتَ دِنانَها فاستضحكتْ ... مُلِئَ المكانُ سَــنًى وطيبَ نِفَاحِ
تَطْغَى فإنْ ذَكَرَتْ كريمَ أُصولِهَا ... خَلَعَتْ على النَّشْوَانِ حِلْيَةَ صَاحِ
فِرْعَوْنُ خَـــبَّأَها ليوم فُتُوحِه ... وأعَـــدَّ منها قُرْبَةً (لِفتاحِ)
ما بين شَادٍ فى المجالس أَيْكُه ... ومُحَجَّبَاتِ الأَيْكِ فى الأَدْواحِ
غَرِدٍ عَـــلَى أوتارِهِ يُوحِى إلى ... غَرِدٍ على أغصانه صَــــدَّاحِ

بِيضُ الْقَلانِسِ فى سَــوَادِ جلابِبٍ ... حُلِّـــين بالأَطواقِ فى الأَوْضَاحِ
رَتَّلْن فى أوراقهن مــــلاحِناً ... كالراهباتِ صَــبِيحَةَ الإفْصَاحِ
يَخْطِرْنَ بين أرائكٍ ومنابرٍ ... فى هَيْكَلٍ من سُــنْدُسٍ فيَّاحِ

☆

مَلِكَ النــباتُ فــكُلُّ أرضٍ دارُه ... تَلْقاهُ بالأَعْراسِ والأَفراحِ
منشورةً أعــــــلامُه من أحمرٍ ... قانٍ وأبيضَ فى الرُّبَا لَمَّاحِ
لَبِسَتْ لِمَقْدَمِـــــه الخمائلُ وَشْيَها ... ومَرِحْنَ فى كَنَفٍ له وجَنَاحِ
يَغْشى المنازلَ من لواحظ نَرْجِسٍ ... آناً وآناً من ثغـــــور أقاحِ
ورءوسِ منثــــورٍ خَفَضْنَ لعزِّه ... تِيجانَهُمْ وعــواطرِ الأَرْواحِ
والوردُ فى سُرُرِ الغُصُــونِ مُفَتَّحٌ ... متقابِـــــلٌ يُثْنى على الفتَّاحِ
ضاحِى المواكِبِ فى الرِّياضِ مُمَيَّزٌ ... دُونَ الزُّهُورِ بشَوْكَةٍ وسِلاحِ
مَرَّ النسيمُ بصفحتيه مُقَبِّـــــلاً ... مَرَّ الشِّفاهِ على خُدُودِ مِلاحِ
هَتَكَ الرَّدَى من حُسْنه وبَهائِه ... بالليلِ مَا نَسَجَتْ يدُ الإصْباحِ
يُنْبيكَ مَصْرَعُــــــه وكلٌّ زائلٌ ... أَنَّ الحياة كغُـــدْوةٍ ورَوَاحِ
وشقائقُ النِّسْرِينِ فى أغصانهـــــا ... كالدُّرِّ رُكِّبَ فى صُدُورِ رماحِ
واليَاسَمِينُ لطيــــــفُه ونَقِيُّهُ ... كَسَرِيرَةِ الْمُتَـــنَزِّهِ المِسْماحِ
متألقٌ خَلَلَ الغُصُـــــونِ كأَنَّهُ ... فى بَلْجَــةِ الأفْنَانِ ضَوْءُ صَبَاحِ
والجُلَّنارُ دَمٌ على أوراقِـــــهِ ... قانِى الحُرُوفِ كخَــاتَمِ السَّفَّاحِ
وكأَنَّ محزونَ البَنفْسَــجِ ثاكلٌ ... تَلْقَى القَضَاءَ بخَشْـــيَةٍ وصَلاحِ
وعلى الخواطرِ رقــــةٌ وكآبةٌ ... كخَــواطرِ الشعراءِ فى الأَتْرَاحِ
والسَّرْوُ فى الحِبَرِ السَّوَابغِ كاشفٌ ... عن ساقِه كمليحــــةٍ مِفْرَاحِ
والنخلُ ممشـــوقُ القُدودِ معَصَّبٌ ... مُتَزَيِّنٌ بمناطقٍ ووِشـــــاحِ

كبنات فرعونٍ شَهِدْنَ مواكباً ... تحت المَـــراوِح فى نَهارٍ ضَاحِ
وترى الفَضَـــاء كحائطٍ من مَرْمَرٍ ... نُضِدَتْ عليـــه بدائعُ الألواحِ
الغيمُ فيه كالنَّعامِ بَدِينـــــةٌ ... بَرَكَتْ وأخـــرى حَلَّقتْ بجَنَاحِ
والشمسُ أَبْهَى من عَرُوسٍ بُرْقِعَتْ ... يومَ الزِّفَافِ بعَسْجَـــدٍ وَضَّاحِ
والماءُ بالوادى يُخَـــالُ مساربًا ... من زِئْبَقٍ أو مُلْقَيَـــاتِ صِفاحِ
بعثتْ له شمسُ النهار أشعـــــةً ... كانت حِـــلَى النَّيْلُوفَرِ السَّبَّاحِ
يَزْهُو على وَرَقِ الغُصُون ، نَثِيرُها ... زُهْرُ الجـــواهر فى بُطون الرَّاحِ
وجَرَتْ سَواقٍ كالنوادبِ ، بالقُرَى ... رُعْنَ الشَّجِىَّ بأَنَّـــةٍ ونُوَاحِ
الشاكياتُ وما عرفن صَـــبَابَةً ... الباكياتُ بمَدْمَعٍ سَـــحَّاحِ
من كل باديةِ الضُّـلوعِ عَليلةٍ ... والماءُ فى أحشـــائِها ، مِلْوَاحِ
تبكى إذا وَنِيَتْ وتضحك إن هَفَتْ ... كالعِيس بين تَنَشُّطٍ ورَزَاحِ
هى فى السلاسل والغلول وجارها ... أعمى يَنُوء بنِـــيره الفَدَّاحِ
إنى لأَذْكُرُ بالربيع وحسنـــه ... عهدَ الشباب وطِرْفِهِ المِمْرَاحِ
هل كان إلاَّ زَهْرَةً من زَهْرِهِ ... عَجِلَ الفَناءُ لَهَا بغير جُـــناحِ

— ٨ —

وقال فى إصلاح الأزهر الذى بدئ به سنة ١٩٢٤ م :

قمْ فى فم الدنيا وحَىِّ الأَزْهرَا ... وانثُر على سَمْعِ الزمانِ الجوهرا
واجعلْ مكان الدُّرِّ إن فصَّلْتَهُ ... فى مدحـــه خَرَزَ السماءِ النَّيِّرا
واذكُرْه بين المسجدَيْن مُعَظِّماً ... لمساجـــد الله الثلاثةِ مُكْبِرا
واخشعْ مَلِيًّا واقْضِ حق أئمةٍ ... طَلَعوا به زُهْراً وماجوا أَبْحُرَا
كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً ... وأعـــزَّ سلطاناً وأفخمَ مَظْهَرَا

زمنُ المخاوفِ كان فيه جنَابُهُمْ ... حَرَمَ الأَمانِ وكَانَ ظِلُّهُمُ الذُّرا
من كل بحرٍ فى الشَّرِيعةِ زاخرٍ ... ويُرِيكَهُ الخُلُقُ العظيمُ غضَنْفَرَا

⁂

يا معهدًا أفنى القرونَ جِــدَارُه ... وطَوَى الليالِى ركنُه والأَعْصُرَا
ومَشَى على يَبَسِ المشارقِ نورُه ... وأضاء أبيضَ لُجِّهــا والأحْمَرَا
وأتى الزمانُ عليه يحْمِى سُــنَّةً ... وَيَذُودُ عن نُسُكٍ وَيَحْمِى مَشْعَرَا
فى الفاطميين انتمى يُنْبُوعُــــهُ ... عَذْبَ الأُصولِ كجَدِّهم متفجرا
عينٌ من الفرقان فاضَ نَمِيرُها ... وَحْيًا من الفُصْحَى جرَى وَتَحَدَّرَا
ما ضَرَّنِى أَنْ لَيسَ أُفقُك مَطْلَعِى ... وعلى كَوَاكِبِه تَعَلَّمْتُ السُّرَى
لا والذى وكَلَ البيانَ إليك لم ... أكُ دون غايات البيان مُقصِّرَا
لما جرى الإصلاحُ قمت مُهَنِّئًا ... باسم الحَنيفــــة بالمَزِيد مُبَشِّرَا
نبأٌ سرى فكسا المنارةَ حَبْرَةً ... وزَهَا المُصَلَّى وَاستَخَفَّ المِنْبَرَا
وسما بأروقــــة الهُدَى فأَحَلَّها ... فَرْعَ الثُّرَيَّا وهْىَ فى أصل الثرى
ومَشَى إلى الحَلَقاتِ فانفجرتْ له ... حَلَقًا كهالات السماء مُنَوَّرا
حــتى ظَنَنَّا الشافعىَّ ومالكًا ... وأبا حنيفة وابن حَــنْبَل حُضَّرَا
إن الذى جعل العتيقَ مــثابةً ... جــعل الكِنَانىَّ المبارك كَوْثرا
العــــلمُ فيه مناهلاً ومجانياً ... يأتى له النُّزَّاعُ يبغُونَ القِرَى

— ٩ —

وقال فى وصف النحلة وشرح طبيعتها بما لم يترك قولا لعالم يحصى شئون هذه المملكة وأعمال أفرادها . وذلك من الأغراض التى زادها شوقى فى الشعر الحديث .

مملكةٌ مُدَبَّرَهْ ... بامرأة مُؤَمَّرَهْ

تحمل فى العمال والصـــناع عِبء السَّيْطَره
فاعجَبْ لعمالٍ يولُـــون عليهـم قَيْصَره
تَحْكمُهُمْ راهبـة زَكَّارةٌ مُغَـبِّرَهْ[1]
عاقــدةٌ زُنَّارَها عن ساقها مُشمِّرَهْ
تلثَّمَتْ بالأُرْجُــوا ن وارتدته مِئْزَرَه
وارتفعتْ كأنها شَرَارةٌ مُطَــيَّرَهْ
وَوَقَعَتْ لم تختلجْ كأنها مُسَــمَّرَهْ[2]
مخلوقـــةٌ ضـعيفة من خُلُقٍ مُصَوَّرَهْ
يا ما أقلَّ مُلْكَها وما أَجَــلَّ خطَره
قِفْ سائِلِ النحلَ به بأىِّ عَقْلٍ دَبَّرَهْ
تُجِبْكَ بالأخلاق وَهْــى كالعقول جَوْهَرَهْ
تُغْنِى قُوَى الأخلاق ما تُغْنِى القُوَى المفكِّره
ويرفـــعُ الله بها ما شاء حتى الحَشَرَه
أليس فى مملـــكة النــنحل لقــوم تَبْصِرَه
مُلْكٌ بناهُ أهــلُه بِهِمَّةٍ ومَجْــدَرَه[3]
لو التمستَ فيـــه بَطـــطال اليــدين لم تَرَهْ
تُقْتَلُ أو تُنْفى الكسا لى فيه غَــيْرَ مُنْذَرَه
تَحْكُمُ فيه قَيْصَرَه فى قومها مُــوَقَّرَه
مِن الرجال وقيو د حكمهم مُحَــرَّره

---

(١) التغبير : ترديد الصوت بالقراءة .

(٢) الاختلاج : الاضطراب .

(٣) المراد بالمجدرة الجدارة .

لا تُورِثُ القــومَ ولو　　　كانوا البنين الـبَرَرَه
المُلْكُ للإناثِ فى الد　　　دستور لا للذِّكَرَه[1]
نَيِّرَةٌ تـــنزل عن　　　هالَتِها لنَـــيِّره
فهل ترى تَخْشَى الطَّمَا　　　عَ فى الرجال والشَّرَه
أُنثى ولكنْ فى جَنا　　　حَيْها اللَّباةُ مُخْـــدِرَه[2]
ذائدةٌ عن حوضها　　　طاردةٌ من كَدَّرَهْ
تقـــلَّدتْ إِرثَهَا　　　وادَّرَعَتْ بالخِـبَرَه
كأنهـــا تُرْكِيَّةٌ　　　قــد رابطت بأنقِرَه
كأنَّهـــا جانْدَرْكُ فى　　　كتيبةٍ مُعَسْـــكِرَه
تلقى المُغـــيرَ بالجنو　　　د الخُشُنِ المُنَمَّرَه
الســـابغين شِكَّةً　　　البالغين جَسَرَه

— ١٠ —

وقال عند ما عثر المنقبون بالأقصر على آثار الملك (توت عنخ أمون) .

قِفِى يا أختَ يُوشَعَ خَـــبِّرِينَا　　　أحاديثَ القرونِ الغابرينا[3]
وقُصِّى من مَصَارِعِهِمْ علينا　　　ومِنْ دَوْلاتِهم ما تَعْلَمِينا[4]

---

(١) الذكرة كعنبة : جمع ذكر .
(٢) اللباة لغة فى اللبوة أنثى الأسد . مخدرة : مقيمة فى خدرها .
(٣) أخت يوشع : هى الشمس ، ويوشع هو ابن نون ، فتى موسى عليهما السلام . ويروى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما دنت الشمس للمغيب خاف أن يعوقه ذلك عن قتالهم فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ منه . وقد أشار إلى ذلك أبو تمام حين قال متغزلا :
فوالله ما أدرى أأحلام نائم　　　ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع
(٤) يضبط شارح الديوان كلمة دولاتهم بالضم فالفتح ويفسرها بالدواهى وهى كذلك فى كتب اللغة . ولكن ليس ذلك الضبط ولا هذا الشرح بلازمين بل الأولى أن تكون جمع دولة بالفتح ، أو الضم مع سكون ثانيهما بمعنى انقلاب الزمان . والمعنى أنه يطلب من الشمس إخباره بتقلب دول

فمثلكِ من روَى الأخبارَ طُرًّا وَمَنْ نَسَبَ القبائلَ أجمعينا
نَرَى لكِ في السَّماءِ خَضِيبَ قَرْنٍ ولا نحْصى على الأرض الطعينا
مَشَيْتِ على الشَّبابِ شُوَاظُ نَارٍ ودُرْتِ على المَشيبِ رَحًى طَحُونا
تُعِينينَ الموالدَ والمَنَايَا وتَبنينَ الحياةَ وتَهْدِمينا
فيالكِ هِرَّةً أكلَتْ بنيها وما وَلَدُوا وتَنْتَظِرُ الجنينا

⁂

أَأُمَّ المالكينَ بنى أُمُونٍ لِيَهْنِكِ أنَّهُمْ نَزَعُوا أَمُونا[1]
ولدتِ له المآمينَ الدَّواهِي ولم تَلِدِي له قَطُّ الأمينا
فكانوا الشُّهْبَ حين الأرضُ ليلٌ وحينَ الناسُ جِدُّ مُضَلَّلينا
مَشَتْ بمنارِهم في الأرضِ رُوما ومن أنْوَارِهِمْ قَبَسَتْ أَثِينا
ملوكُ الدهرِ بالوادى أقاموا على وادي الملوكِ مُحجَّبينا[2]
فرُبَّ مُصَفَّدٍ منهم وكانت تُسَاقُ له الملوكُ مُصَفَّدِينا
تَقَيَّدَ في التُّرابِ بغيرِ قَيْدٍ وحَلَّ على جَوَانِبِه رَهينا
تعالى اللهُ كان السِّحْرُ فيهم أليْسُوا للحجارةِ مُنْطِقينَا
غَدَوْا يبْنُونَ ما يَبْقَى وراحُوا وَرَاءَ الآبِداتِ مُخَلَّدِينَا
إذا عَمَدُوا لمأثرة أعَدُّوا لها الإتقانَ والخُلُقَ المَتِينا
وليس الخُلْد مرتبةً تُلَقَّى وتُؤْخَذُ من شِفاهِ الجاهلينا

القدماء وما كان من حياتهم ومدتهم، فالمطلوب أمر عام وتخصيصه بحديث المصائب لا معنى له. ويشهد لمرادنا البيت الثاني « فمثلك من روى الأخبار طراً ».

(١) يقال ليهنك الأمر أى اهنأ به وتمتع. نزع الولد أباه: أشبهه، المآمين: جمع مأمون يريد تشبيه بنى أمون بالمأمون بن الرشيد العباسى، وإنما خصه بالذكر لما اشتهر به من الحزم، والعلم، والمراد أنها أنجبت بولادة ملوك خلفوا آثاراً حسنة ولم تعقب ضعافا أضاعوا الملك كالأمين.

(٢) وادى الملوك هو الوادى الذى يقع على مسيرة نصف ساعة، من مدينة الأقصر إلى الشاطئ الغربى للنيل.

ولـكن منتهى هِمَمٍ كِبَارٍ ... إذا ذَهبَتْ مصادِرُها بَقِينا
وسِرُّ العبقريةِ حين يَسْرِى ... فينْتَظِمُ الصــنائعَ والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تَناهَتْ ... إلى التاريخ خيرِ الحا كمينا
وأَخْذُكَ من فم الدنيا ثناءً ... وتَرْكُك فى مسامعها طَنِينا

ومنها :

١ خليلَيَّ اهبطا الوادى وميلاَ ... إلى غُرُفِ الشموس الغَارِبينا
٢ وسيرَا فى محاجِرِهِمْ رُوَيْدًا ... وطُوفا بالمضاجع خاشــعينا
وخُصَّا بالعَمَارِ وبالتَّـحايا ... رُفاتَ المجد من (تُوتَنْخَمينا)
وقبراً كاد من حسن وطيبٍ ... يُضِىءُ حجارةً ويَضُوع طِيناَ
يُخالُ لروعــةِ التاريخ قُدَّتْ ... جنادلُه العلا مِنْ طُورِ سينا
وكان نَزِيلُه بالمَلْكِ يُدْعى ... فصار يُلَقَّبُ الكَنْزَ الثَّمينا
وقُوما هاتِفَيْن به ولٰكِنْ ... كما كان الأوائل يَهْتِفُونا
٣ فثَمَّ جَــلالةٌ قَرَّتْ ورامَتْ ... على مَرِّ القرونِ الأرْبَعِينا
٤ جــلالُ الملك أيامٌ وتَمْضِى ... ولا يَمْضِى جــلال الخَالِدِينا

ومنها يخاطب توت عنخ آمون :

٥ تعالَ اليومَ خــبِّرْنا أ كانت ... نَوَاكَ سِناَتِ نَوْمٍ أم سِنِيــناَ
٦ وما ذا جُبْتَ فى ظُلُماتِ لَيْــلٍ ... بَعِيــدِ الصُّبْحِ يُنْضِى المُدْلِجِينا
٧ وهل تَبْقَى النفوس إذَا أقامتْ ... هيا كلُها وتَبْــلَى إنْ بَلِينا
٨ وما تلك القِبابُ وأين كانتْ ... وكَيْف أَضَــلَّ حافرُها القُرُونا
٩ مُمَرَّدَةُ البِنــاءِ تُخالُ بُرْجاً ... بِبَطْنِ الأَرْضِ مَحْطُوطاً دَفِينا
١٠ تَغَطَّى بالأَثاثِ فكانَ قَصْراً ... وبالصُّوَرِ العِتاقِ فكانَ زُونا(١)

---

(١) الزون : الصنم وما يعبد .

حَمَلْتَ العرشَ فيـه فَهَلْ تُرَجِّى   وتأمُلُ دولةً فى الغابرينـــا
وهل تَلْقَى المهيمنَ فوق عرش   ويلقاه المــــلا مُتَرَجِّلينا
وما بال الطعام يكاد يَقْدَى(١)   كما تركته أيدى الصانعينا
ولم تك أمس تصبر عنه يوماً   فكيف صبرت أعقابا مئينا

— ١١ —

وقال المرحوم محمد حافظ إبرهيم بك رحمه الله يردّ على المحتلين دعواهم إصلاح البلاد، وتوفير رخائها :

لقد كان فينا الظلمُ فَوْضَى فهُذِّبَتْ   حواشيه حتى صار ظُلْماً منظما
تمُنُّ علينا اليومَ أن أَخْصَبَ الثَّرَى   وأن أصبح المصريُّ حراً مُنَعَّمَا
أَعِدْ عهد إسمٰعيل جَلْداً وسُخْرَةً   فإنى رأيت المَنَّ أَنْكَى وآلما
عَمِلْتُمْ على عزِّ الجمادِ وذُلِّنـا   فأغليتمو طِيناً وأرخصتمو دَمَا
إذا أخصبتْ أرض وأجدبَ أهلُها   فلا أطلعت نَبْتاً ولا جَادَها السما
فلا تَحْسَبُوا فى وَفْرة المال لم تُفِدْ   مَتاعا ولم تَعْصِم من الفقر مغنما
فإنَّ كثيرَ المال والخَفْضُ وارفٌ   ذليلٌ إذا حل الغـلاء وخَيَّمَا

— ١٢ —

وقال فى شكوى الزمان وهي من المعانى التى أكثر منها واشتهر بها :

سعيتُ إلى أن كِدْت أنتعلُ الدِّما   وعُدْتُ وما أُعْقِبْتُ إلاّ التندما
لَحَى الله عَهْدَ القاسطين الذى به   تَهَدَّمَ من بنيانِنـا ما تهدما
إذا شئتَ أَنْ تلقى السَّعَادَةَ بينهم   فلا تَكُ مصريًّا ولا تَكُ مُسْلِما
سلامٌ على الدنيا سلامَ مُوَدِّعٍ   رأى فى ظلام القبر أُنْسًا ومَغْنَمَا

(١) قدى الطعام : طاب وفاحت رائحته .

أضرّتْ به الأُولى فهَام بأختها وإن ساءتِ الأُخرى فوَيْلاه منهما

فهُبّى رياحَ الموتِ نَكْباءَ واطفِئى سِراجَ حياتى قبل أن يتحطّما

فما عَصَمَتْنِى فى زمانى فضائلى ولكنْ رأيتُ الموتَ للحُرِّ أعصما

ومن شعره السياسى قوله فى حادثة دنشواى(١) :

أيها القائمون بالأمر فينـــا هَـلْ نَسِيتُمْ ولاءَنا والودادا

خَفِّضُوا جيشَكم وناموا هنيئا وابتَغُوا صَيْدَكم وجُوبُوا البلادا

وإذا أعوزتكمو ذاتُ طَوْقٍ بين تلك الرُّبا فصيدُوا العبادا

---

(١) وقعت هذه الحادثة المشئومة فى ١٣ يونيه سنة ١٩٠٦ وذلك أن خمسة من ضباط القوة الإنجليزية المعسكرة على ضفة الباجورية بجهة كمشوش من بلاد المنوفية خرجوا قاصدين دنشواى وهى قرية تبعد عن معسكرهم بنحو سبعة آلاف متر لصيد الحمام ، فبقى ثلاثة منهم على شريط السكة الحديدية يصطادون الحمام الواقع على الشجر خارج القرية ودخل اثنان بين البيوت وأطلقوا بنادقهم فأصيبت امرأة ، واحترق جرنها برشاش بنادقهما فتجمهر الأهالى لمنع هذا العدوان ، وجرى مايكون فى مثل هذا المقام بين قوم لايتفاهمون فأصيب الضابط « بول » بإصابات أودت بحياته وساعد على هلاكه جريه من مكان الحادث إلى قريب من المعسكر ، وأصيب الضابط « بين كوفين » بكسر ذراعه وغيره بإصابات مختلفة . وقد عقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمة الأهالى الذين اتهموا بالعدوان على هؤلاء ، وعددهم ٥٩ منهم ثمانية هربوا ولم يعثر عليهم ، وقد نصب ابراهيم الهلباوى بك مدعيا عاما فى تلك المحكمة وتولى الدفاع عن المتهمين أحمد لطفى السيد بك ، ومحمد يوسف بك ، وشقيقه عثمان يوسف بك . وقد وقف النائب العام فاستفظع الحادث وهوّل فى جرائره على مصر والمصريين وطالب بأقصى العقوبة للمجرمين ، ودافع المحامون مااستطاعوا عن هؤلاء المتهمين ، وهوّنوا من أمر الحادث بقدر ما أملاه عليهم اعتقادهم وأمانتهم فى تصوير الحقيقة . فحكمت المحكمة حكما لايقبل الطعن بإعدام أربعة شنقا بقرية دنشواى على مرأى من أهل القرية وقرابة المشنوقين وحكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين منهم ، وبها مدة ١٥ سنة على واحد ، وبها مدة ٧ سنوات على ستة . وبالحبس مع الشغل سنة وخمسين جلدة على ثلاثة ، وبخمسين جلدة على خمسة مع اشتراط تنفيذ الجلد على المجلودين بالقرية على مرأى من الأهالى . وقد تجلت فظاعة الاحتلال فى هذه المحاكمة واستغلها الوطنيون فى إيغار الصدور على الانجليز واكتساب عطف الأمم على القضية المصرية .

إنما نحن والحمامُ سواءٌ لم تُفارِقْ أطواقُنا الأجيادا
لا تظنُّوا بنا العقوقَ ولكنْ أرشِدُونا إذا ضَلَلْنا الرَّشادا
لا تقيدُوا من أمَّةٍ بقتيلٍ صادتِ الشمسُ نفسَه حينَ صادا
جاء جهَّالُنا بأمرٍ وجئتُمْ ضِعْفَ ضِعْفَيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتلَ إن ضَنِنْتُم بعفوٍ أنفوساً أصبتمو أم جَمَادا
ليت شِعْرِي أتلك محكمةُ التفتيشِ عادتْ أم عهدُ نِيرُونَ عادا
كيف يَحْلُو من القويِّ التشفِّي في ضعيفٍ أَلْقَى إليه القيادَا
إنها مُثْلَةٌ تَشِفُّ عن الغَيْظِ ولَسْنَا لغيظِكُمْ أَنْدَادَا
أكرمونا بأرضنا حيثُ كُنْتُمْ إنما يُكْرِمُ الجوادُ الجوادَا
إن عشرينَ حِجَّةً بعد خَمْسٍ علَّمَتْنا السُّكونَ مهما تمادى
أمةُ النيلِ أكبرتْ أن تُعادِي من رَماها وأشفقتْ أنْ تُعادَى
ليس فيها إلَّا كلامٌ وإلَّا حسرةٌ بعد حسرةٍ تتهادى

— ١٤ —

ومن شعره السياسي قوله في تحية العام الهجري سنة ١٣٢٧ هـ بعد أن ذكر ما تم في العام الماضي من خبر الأمم الشرقية :

رجالَ الغدِ المأمولِ إنَّا بحاجة إلى قادةٍ تَبْنِي وشَعْبٍ يُعَمِّرُ
» » » » » إلى عالم يدعو وداعٍ يُذَكِّرُ
» » » » » إلى عالم يدعو وعلمٍ يُقَرِّرُ
» » » » » إلى ظلمةٍ تُجْلَى وكَفٍّ تُحَرِّرُ
» » » » » إليكم فسُدُّوا النقصَ فينا وشَمِّرُوا
» » » لا تتركوا غداً يَمُرُّ مرورَ الأمسِ والعيشُ أغبرُ

رجال الغد المأمول إن بلادكم   تناشدكم بالله أن تتذكَّروا
عليكم حقوقٌ للبـــلاد أجلُّها   تعهُّدُ روضِ العلم فالروضُ مُقفِرِ
فكونوا رجالا عاملين أعــزَّة   وصونوا حِمَى أوطانكم وتحرَّروا
ويا طالبي الدّستورِ لا تسكنوا ولا   تبيتوا على يأس ولا تتضجَّروا
فما ضاع حقٌّ لم ينمْ عنه أهلُه   ولا ناله فى العـــالَمين مُقصِّر

— ١٥ —

وقال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب يذكر موقف وداع ، ويصف القطار البخارى :

فياقاتل اللهُ البُخارَ كَم ِاعتدى   على شَمْلِ قومٍ جامع فتقطَّعا
إذا ماشكا قَبْلى من العيش مُوجَعٌ   شكوتُ قطار البَرِّ أَدْهَمَ أسفعا
فمن سائرٍ ينقضُّ فى البِيد زائراً   فتحسَبُه طَيْفاً من الجنِّ مُفْزِعا
تراه إذا أرســلتَه فى مَفازةٍ   إلى قَطْعِها من خاطِرِ النفسِ أَسْرَعا
وينقضُّ فى البيداء يعلو عَجاجُه   كما عَصَفَتْ ريحٌ من الغَرْبِ زَعْزَعا
كأنَّ نجومَ الليل حال ادّلاجه   من الوَحْشِ سِرْبٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ معا

— ١٦ —

ومن علويته يصف الطيارة :

أَصْـــغَرَ الأرضَ وما فيها مُقاما   فاعتلى يضرب فى السُّحْب الخِياما
حسدَ الطيرَ على الجوِّ فسَرْ   عانَ ما حلّق فى الجو وحاما
يَزْجُر الريح فتَجْرِى تحتــه   أينما ولّى بها تَـــلْوِى الزِّماما
سابحاً فوق ابنة النار على   مَسْرحِ النَّجْمِ جنوبا وَشآما
فإذا شاء أسفَّتْ فى الثرى   وإذا شاء بها شقَّ الغماما

أحوذياتٌ إذا ما هَزَمَتْ تملأ الأُفْقَ رُغاءً واهتزاما
سُفُنٌ فى الجـــــو إلاّ أنّهَا فى السُّرَى تطويه كالطيف لِمَاما
ليت شعْرِى أين يَبْغِى بعد ما غَلَب النَّسْرَ عليهـــا والحماما
يا خليــــلىّ احْمِلانِى فوقها عَلّنى ألقى على السُّحْب الإماما

وهو تخلص حسن جدًّا يجب أن يعدّ من الأمثلة النادرة للتخلص الحسن .

— ١٧ —

وقال الأستاذ على الجارم بك المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف ، وعضو المجمع اللغوى المصرى يذكر فضل اللغة العربية :

يابنة السابقين من قَحْطان وتُراثَ الأمجـــاد من عَدْنان
أنت علّمتِنى البيـــانَ فمالى كلما لُحْتِ حار فيك بيانى
ربَّ حسنٍ يَعُوق عن وصف حسن وجمال ينسى جمال المعانى
كنت أشْدُو بين الطيور بذِكرا كِ فتعـــلو ألحانُهَا ألحانى
وأصوغ الشعر الذى يَفْرَع النجـــمَ وتُصْغى لجرســـه الشِّعْرَيان
يابنةَ الضادِ أنت سِرٌّ من الحســــن تجلّى على بنى الإنســـان
كنتِ فى القَفْر جَنَّةً ظَلّلَتْها حاليات من الغُصُونِ دَوَانِى
لغةَ الفَنِّ أنت والسحرُ والشــعرُ ونورُ الحجـــا ووحى الجَنَانِ
ربِّ جيشٍ من الحديد تَوَلَّى واجفَ القلب من حديد اللسان
وبيان بنى لصاحبـــــه المَجْــدَ مُطِلاًّ من قِمَّـــة الأزمان
وقصـــيدٍ قد خَفَّ حتى عَجِبْنَا كيف نالتْــهُ كِفَّةُ الأوزان

— ١٨ —

وللأستاذ عبد الله عفيفى بك إمام جلالة الملك وشاعره ، فى العيد الخامس عشر لميلاد أمير الصعيد « جلالة الملك الصالح فاروق الأول المتبوئ عرش الملك والقلوب الآن »

عاش للحيّ شِبْلُه سيدُ الغابِ والأَجَمْ
كوكبُ الرأى والحجا صارمُ العزم والهمم
حوله فتيةُ الحِمَى عُدَّةُ الخطب إن أَلَمّْ
كلُّ شِبْلٍ تخالُه لَمْحَةَ البرقِ إن عَزَمْ
بين جنبَيْهِ جَنَّةٌ وسعير إذا احتدم
إن رأى الهضْبَةَ اعْتَلى أو رأى الصَّعْبَة اقتحمْ
لا يُبالى ولا يَنِى إن سطا الكَرْبُ واحتكم
يَجْبُرُ العظمَ إن وَهَى يدفعُ البؤسَ إنْ هَجَمْ
يُطْفِئ النارَ فاعْجَبُوا شُعْلَةٌ تُخْمِدُ الضَّرَمْ
يجمع الحزْمَ والسَّدا دَ إلى الخُلْقِ والشِّيَمْ
طاعةُ اللهِ والمليكِ ومصرٍ له قَسَمْ

ونحن نعتقد أن الأستاذ عبد الله بك قد سجل للأجيال القادمة وصف « الكشافة » فى أحسن صورة شعرية عرفت لها فى الشعر الحديث .

والشعر الحديث كثير ، وجيده لا نستطيع الوفاء به . فليذكر المطلع على عجالتنا هذه أننا فى مقام التمثيل لا الاستقصاء .

⁂

انتهى والحمد لله ما أعددناه من محاضرات هذا العام لطلاب السنة الرابعة بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية ، ورجاؤنا إلى الله أن ينفع بها كلّ ناظر فيها ، وأن يمهد لنا بها سبيل رضاه عن خدمتنا للغة قرآنه الكريم .

والحمد لله على توفيقه ، والصلاة والسلام على محمد رسوله وعلى آله الكرام ؟

٢٨ رمضان سنة ١٣٥٣
٤ يناير سنة ١٩٣٥

محمود مصطفى

بيان الخطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٨	١٧	تُرْبَتْها	تُرَبتُها
٢٠	٣	الغراوُ	الغراءَ
٤٢	١٠	وتحصر	وتحضر
٦١	٢٢	فأدُّوا	فأدَّوا
٧٠	٢٠	فاعل احتبس	فاعل استمسك
١١١	١٠	تلك المدنية	تلك المدينة
١٧٤	١٨	من نعده	من بعده
١٩٣	٤	تاريخه إن	تاريخه وإن
١٩٥	٣	والفرح	والفرج
١٩٥	٤	بغير	بغيره
١٩٥	١٢	خمسة	خمس
٢١٦	٢	حميع	جمع
٢٢٩	٥	أَمَّةٍ	أَمَةٍ
٢٣٩	١٠	والترزيل	والتنزيل
٢٦٥	١	فخافة	فخامة
٢٧٥	١١	غيرَ	غيرُ
٢٧٩	٧	رسم	ريم
٢٧٩	١٥	علَّقْتُ	عُلِّقتُ
٢٨٠	١٦	فأعجب	فاعجب
٢٩٢	٢١	غولي	غولى

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	صـــــوابه
٣٠٠	٤	كل عامّ	كل عامٍ
٣١٤	٨	المذهب	المهذب
٣١٥	٩	مَغَرِسا	مَغْرِسا
٣١٦	٢٢	مرتبه	مراتبه
٣٦٠	٢	وأعضاؤهم	وأعضاؤهم
٤٩٦	١٤	أريحتك	أريحيتك

فهـــرس

صحيفة	الموضوع
٣	مقدمتا الكتاب
٤	تاريخ الأندلس قبل الفتح العربي
٥	فتح العرب للأندلس
٨	خطبة طارق بن زياد
١١	امتزاج العناصر بالأندلس
١٤	طبيعة بلاد الأندلس
٢٢	أطوار حكم العرب بالأندلس
	عصر الولاة
	عصر الدولة الأموية
٢٤	ملوك الدولة الأموية ومدد حكمهم
٢٥	عصر ملوك الطوائف
٢٦	دولتا البربر
٢٧	دولة بني الأحمر
٢٨	العلوم والآداب بالأندلس
٣٥	(بالحاشية) ترجمة اللغوى أبى بكر الزبيدى
٣٦	(بالحاشية) تراجم ابن سيده وابن خروف وابن عصفور والشلوبينى .
٣٧	مراتب العلوم عند الأندلسيين
	(بالحاشية) تراجم ابن السيد وابن مالك وأبى حيان .
٤٠	(بالحاشية) ترجمة ابن حيان
٤٢	شأن العربية بالأندلس
	(بالحاشية) ترجمة المنصور ابن أبى عامر
٤٦	لغة التخاطب
٥١	الخطابة
٥٧	الكتابة عند الأندلسيين
٦٣	نماذج من كتابة الأندلسيين
	(١) من كلام ابن عبد ربه فى مقدمة كتاب الأجوبة .
٦٤	(٢) من كلام ابن زيدون فى رسالته الجدية .
٦٨	(٣) من كلام ابن خفاجة يصف متنزها
٦٩	(٤) من كلام الفتح بن خاقان فى كتابه مطمح الأنفس .
٧٠	(٥) من كلام أبى بحر بن صفوان محاورة على لسان المدن .
٧١	(٦) من كلام عبد الرحمن محمد بن طاهر يشكر على مراسلته .
٧٢	(٧) من كلامه أيضاً يصف السيل .
٧٣	(٨) من كلام لسان الدين بن الخطيب يبشر بموت ملك قشتالة .
٧٤	(٩) من أمثلة التورية

صحيفة	الموضوع
٧٥	الشعر عند الأندلسيين
٨١	عناية الأندلسيين بالشعر
٨٤	أغراض الشعر الأندلسي
٨٦	من الوصف قول ابن حمديس
٨٧	من نظم الفنون قول ابن عبد ربه
٨٨	القول في الحكمة
	رثاء الممالك الزائلة
٩٢	معاني الشعر الأندلسي
٩٤	أسلوب الشعر الأندلسي
٩٦	الموشحات
٩٩	الموشحات وتاريخها بالأندلس
١٠٢	أوزان الموشح وأغراضه وأسلوبه
١٠٣	تاريخ الموشحات
١٠٧	الأزجال
١١١	تراجم بعض رجال الأندلس
	ابن هانئ الأندلسي
١١٣	أثر حياته في شاعريته
١١٤	الأغراض في شعر ابن هانئ
١٢٠	أثر الفاطميين في شعره
١٢٣	آراء الناس في شعره
١٢٦	ابن زيدون ـ بيئته وتعلمه
١٢٨	تصرف ابن زيدون
١٣٠	أدب ابن زيدون ـ نثره
١٣٤	رسالتا ابن زيدون ـ الرسالة الجدية

صحيفة	الموضوع
١٣٦	الرسالة الهزلية
١٣٧	شعر ابن زيدون
١٤٥	ابن زيدون بحتري الغرب
١٤٨	ابن حزم الظاهري
١٤٩	نسب ابن حزم
١٥٠	ثراء بيت ابن حزم
١٥١	علم ابن حزم
١٥٢	الحكم على تآليف ابن حزم
١٥٥	فضل ابن حزم
	ثبت كتبه
١٥٨	ابن حزم بعد الوزارة
١٥٩	أدب ابن حزم
١٦٢	كتاب طوق الحمامة ـ فقرمنا في الكتاب
١٦٩	إجمال حال اللغة العربية في بلاد البربر
١٧٩	انقضاء العصر العباسي
١٨٠	(بالحاشية) وصف استيلاء هولاكو على بغداد .
١٨٣	وصف حالة اللغة العربية عامة في المدة من ٦٥٦ ـ ٩٢٣.
١٨٤	شأن العربية في مصر والشام
١٨٦	المدارس
١٨٨	الأزهر الشريف
١٨٩	المؤلفات
١٩١	اللغة وعلومها

صحيفة	الموضوع
١٩١	المعاجم
١٩٦	كتب النحو والصرف
١٩٩	علوم البلاغة
٢٠٣	التاريخ
٢٠٤	المؤلفات فى التاريخ
٢٠٧	بقية العلوم
٢٠٨	الموسوعات
	نهاية الأرب فى فنون الأدب
٢٠٩	مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار
٢١٠	صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
٢١١	مثالان لنشاط العلماء فى التأليف
	(١) ابن تيمية
٢١٢	(٢) السيوطى
٢١٥	الوصف العام للمؤلفات فى هذا العصر
٢١٨	الكتابة والكتاب
	كتابة الرسائل
٢٢٤	خواص الكتابة
	الألقاب
٢٢٦	التورية بمصطلحات العلوم
٢٢٧	الاقتباس
٢٣٠	التحلية بسائر أنواع البديع
٢٣٤	كتابة التأليف
٢٣٥	الخطابة
٢٣٨	نماذج الخطابة فى هذا العصر

صحيفة	الموضوع
٢٤٠	الشعر والشعراء
	شأن الشعر ومنزلة الشاعر
٢٤٤	أغراض الشعر
٢٤٩	لفظ الشعر وأسلوبه
٢٥١	التورية
٢٥٣	الاستخدام
٢٥٥	الاقتباس والتضمين
٢٥٨	أوزان الشعر وقوافيه
٢٦٠	من شعر هذا العصر
٢٦٢	الموازنة بين القصيدتين
	(قصيدة الصفى وقصيدة المتنبى)
٢٦٤	موازنة بين قول أبى نواس وابن نباتة
٢٦٥	البوصيرى
٢٦٧	عصر البوصيرى
٢٦٨	تصرف البوصيرى
٢٦٩	شعر البوصيرى
٢٧٤	مدائحه لرسول الله
	الهمزية
٢٧٥	ذخر المعاد
٢٧٦	البردة
٢٧٩	شعره فى الجدل
٢٨١	الفكاهة فى شعر البوصيرى
	القلقشندى

صحيفة	الموضوع
٢٨٢	أصل القلقشندى
٢٨٣	تعلمه
٢٨٤	قوة حفظه
٢٨٥	عمله بديوان الإنشاء
	كتابته
٢٨٦	مؤلفاته
٢٨٨	حلية الفضل وزينة الكرم
	المفاخرة بين السيف والقلم
٢٩٧	وفاة القلقشندى
٢٩٨	العصر العثمانى
٣٠٣	العلوم فى هذا العصر
٣٠٥	ابن إياس
	طاش كبرى زاده
٣٠٦	المقرى
٣٠٧	حاجى خليفة
	يوسف البديعى
	عبد القادر البغدادى
٣٠٨	شهاب الدين الخفاجى
٣١٠	المحبى
٣١١	السيد المرتضى الزبيدى
	الصبان
٣١٢	الكتابة الإنشائية فى العصر العثمانى
٣١٤	معاتبة صديق — تهنئة بشفاء من مرض

صحيفة	الموضوع
٣١٥	الشعر والشعراء فى العصر العثمانى
٣١٨	أمثلة من شعرهم
٣٢٠	العصر الحاضر
٣٢٤	الصحافة العربية عامة
٣٢٥	الدور الأول
٣٢٧	« الثانى
٣٢٨	« الثالث
٣٣٠	« الرابع
٣٣٢	مثالان للصحافة العربية
	(١) الوقائع المصرية
٣٣٤	(٢) روضة المدارس
٣٣٦	البعوث
٣٣٨	المدارس
٣٤١	دار العلوم
٣٤٤	الجامعة المصرية
٣٤٦	الأزهر الشريف
٣٥١	الترجمة والمترجمون
٣٥٥	المجامع اللغوية
٣٦١	دار الكتب المصرية
٣٦٤	الخطابة من عهد محمد على إلى الآن
٣٧١	خطبة لسعد زغلول باشا
٣٧٣	خطبة أخرى
٣٧٥	الخطب الانتخابية

صحيفة | الموضوع

٣٧٨ الكتابة فى العصر الحاضر
كتابة الدواوين
٣٨٣ نماذج من كتابة الدواوين
٣٨٥ كتابة التأليف
٣٨٨ نماذج من كتابة التأليف
من كتاب حماة الإسلام
٣٨٩ من كتاب المرأة العربية
حقوق المرأة فى الإسلام
قراءة الخرائط (من كتاب الجغرافية التجارية الاقتصادية)
٣٩٠ الكتابة الفنية
٣٩٣ نماذج من الكتابة الفنية
(١) كتاب البؤساء إلى الشيخ محمد عبده يهدى إليه الكتاب
٣٩٤ (٢) رد الأستاذ الإمام
(٣) كتاب جمال الدين الأفغانى إلى صاحب كتاب حديث عيسى ابن هشام
٣٩٥ (٤) من كتاب حديث عيسى بن هشام
(٥) اعتذار للشيخ عبدالعزيز جاويش
٣٩٦ (٦) تهنئة بالعام الجديد

صحيفة | الموضوع

٣٩٧ الشعر فى العصر الحديث
من سنة ١٢٢٠ ﻫ إلى الآن .
٤٠٥ معانى الشعر
٤٠٦ لفظ الشعر
٤٠٩ محاولات التجديد فى الشعر الحديث
٤١٤ حياة البارودى ـ نسبه
٤١٥ مولده
٤١٦ تصرفه وتقلبه فى الأعمال
٤١٨ الملكة اللغوية عند البارودى
٤٢٠ زعامة البارودى للشعر الحديث
٤٢١ تقليد البارودى للسابقين
٤٢٥ آثار البارودى
مختار من الشعر الحديث
(١) قول البارودى فى الغزل على طريقة القدماء
٤٢٦ (٢) من وصفه لحرب الروس
٤٢٧ (٣) من قوله يصف البحر
(٤) من قوله فى هرمى الجيزة
٤٢٨ (٥) من قول المرحوم إسماعيل صبرى باشا يصف ساعة التوديع
٤٢٩ (٦) قوله فى الترحيب بالموت

صحيفة	الموضوع
٤٢٩	(٧) من قول أحمد شوقى بك يصف الربيع
٤٣١	(٨) من قوله فى إصلاح الأزهر
٤٣٢	(٩) من قوله فى وصف النحلة وشرح طبيعتها
٤٣٣	(١٠) من قوله فى توت عنخ أمون
٤٣٧	(١١) من قول حافظ ابراهيم بك يرد على المحتلين دعواهم إصلاح البلاد
٤٣٧	(١٢) من قوله فى شكوى الزمان
٤٣٨	(١٣) من قوله فى حادثة دنشواى
٤٣٩	(١٤) من شعره السياسى فى تحية العام الهجرى
٤٤٠	(١٥) من قول الشيخ محمد عبد المطلب يذكر موقف وداع
	(١٦) من علويته يصف الطيارة
٤٤١	(١٧) من قول الأستاذ على الجارم بك يذكر فضل اللغة العربية
	(١٨) للأستاذ عبد الله عفيفى بك

بحمد الله تمّ طبع « كتاب الأدب العربى وتاريخه » بتصحيحى بعد مراجعة الأستاذ المؤلف ؟

رئيس التصحيح

أحمد سعد على

من علماء الأزهر الشريف

[القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ هـ / ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٨ م].

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى

شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

تقدم

المجازات النبوية

وهو الكتاب الجامع لثلثمائة وستين حديثا نبويا

من أوابده وجوامع كلمه عليه الصلاة والسلام

بشرح الشاعر المفلق والعالم الجليل

الشريف الرضي

ويعلق على الشرح بتتميم اشاراته وتجلية مقاصده

وتحقيق رواياته، وضبط عباراته

محمود مصطفى

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية